الانحرافات الاجتماعية

مشكلات وحلول

عبد العظيم نصر المشيخص

دار الهادي

الانحرافات الاجتماعية

مشكلات وحلول



الانحرافات الاجتماعية

مشكـلات وحلـول

الشيخ عبد العظيم نصر المشيخص



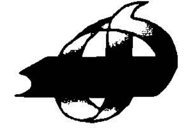
للطباعة والنشر والتوزيع

الطبعة الأولى

١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م



دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع



هاتف: ٥٥٠٤٨٧/٠١ ـ ٨٩٦٣٢٩/٠٣ ـ فاكس: ٥٤١١٩٩ ـ ص.ب: ٢٨٦/٢٥ غبيري ـ بيروت ـ لبنان
E-Mail: daralhadi@daralhadi.com - URL: http: //www. daralhadi.com

الفصل الأول

تعريف الجريمة

مدخل للتعريف

تعد وظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من الوظائف العامة التي نيطت بالإنسان أينما وجد وأينما رحل، بل في كل زمان ومكان، لأنها جزء من صميم حياة البشرية التي تقام بها أسس الدساتير والنظم الوضعية والقوانين، والتي وفقها تحدد حدود كل فرد من ضمن النطاق العام لذلك المجتمع أو الأسرة أو الفرد.

ولأن هذه الوظيفة تعد من أولويات وحاجيات الإنسان والتي رافقت وجوده منذ أن كان، كان لها خصائص وميزات وأساليب معينة تقتضيها تلك الحقب الزمنية التي وجدت فيها مع مرافقة وجود أول إنسان على وجه الأرض، فكانت ميزاتها الفريدة تتلخص في ميزتين مهمتين هما:

١ ـ الحاجة للأمن.

٢ ـ الحاجة للتربية والتعليم.

فقد ولد الإنسان خائفاً كما ولد جاهلاً، جاء في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[1]، فمنذ أن أدرك الإنسان معنى

(١) سورة النحل، الآية: ٧٨.

وجوده على هذه الأرض، ضمن بيئة طبيعية فرضت عليه ولم يكن فيها مختاراً، وضمن مجتمع إنساني يجهل خيره وشره، كما يجهل طباع وتطلعات أفراده، تولد لديه هاجس الخوف والحذر مما يحيط به من طبيعة وبشر لجهله بهما، ولم تتوفر له سبل الاطمئنان لذلك المحيط إلا بعد أن توفرت لديه المعارف والعلوم وآلياتها، فأحدثت لديه الاطمئنان بالمحيط، عندها نقل خبراته للغير مترافقاً زمنياً مع تعرفه على مجتمعه، وسعيه إلى توفير أمنه ضمنه، وإلى نقل خبراته إلى أقرانه وذويه، وبالتالي ارتبط أمن الإنسان بتعلمه على الحياة في مجتمعه، بحيث تدرج من المستوى البدائي إلى المستوى المدني وإلى المستوى التعليمي والتربوي معاً.

بقدر ما توفر للإنسان من معرفة بمحيطه، بقدر ما أدرك أن مصدر أمنه في أصر نفسه على السيطرة على نزعاته، والتحكم بها وفق قانون يعرّفه حقوقه وواجباته إزاء نفسه أولاً، وأسرته ثانياً، ومجتمعه ثالثاً.

وهذا ما لحظه علماء التاريخ البشري الطبيعي (الانتروبولوجيا) إذ قالوا: إن الإنسان البدائي أتقن السيطرة على نفسه قبل إتقانه سيطرته على غيره، ويجدون مثالاً حياً على ذلك في المجتمعات التي لم تحتك بعد بالمدنية الحديثة، حيث يتميز أفرادها بمقدرة التحكم بالنفس أكثر من مقدرة الإنسان المتحضر على ذلك[١].

وتشير الدراسات التي قامت بها لجنة العلماء السابقين الذين بحثوا عن أمن الإنسان منذ أن كان، كمدرسة المفكر الفارابي بقولها: أمن

(١) الأمن الاجتماعي، العوجي: ص ٢٤.

الإنسان فصول منتزعة تشتمل على أصول كثيرة من أقاويل القدماء، فيما ينبغي أن تدبر به المدن وتمر به وتصلح به سيرة أهلها، ويسيرون به نحو السعادة[١].

كما أن الأحاديث الإسلامية تشير إلى هذه الحقيقة، إن تحقق السعادة للإنسان لا تتم إلا بوجود نظام أمني يحيط بكافة جوانب الإنسان من نفسه إلى مجتمعه، جاء في وصية رسول الله ﷺ لعلي عليه السلام: يا علي لا خير في الحياة إلا مع الصحة، ولا في الوطن إلا مع الأمن والسرور[٢].

وكما أن إزالة عوامل الخوف في حياة الإنسان لا يتم إلا بإيجاد عامل الأمن، جاء عن رسول الله ﷺ قوله: لا ينبغي للعاقل أن يقيم على الخوف إذا وجد إلى الأمن سبيلا[٣].

لقد تضافرت جهود العلماء منذ القدم، على إيجاد عوامل الرفاه والحرية والكرامة للإنسان على الأرض عبر منافذ معاقل المدينة الفاضلة، التي رسمتها الأديان السماوية وحياً من الله سبحانه وتعالى، في أن جعل الأهداف النبيلة وسيلة لتحقيق السعادة الأبدية للإنسان، فجعلهم يجتمعون ويتعاونون من أجل الازدهار والتغلب على صعاب الحياة ونوائب الطبيعة التي لا ترحم. قال تعالى:

﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ

(١) الفارابي ـ الأصول المنتزعة: ص٢٣.
(٢) السرائر: ج٣ ص٦٣١ ـ ابن إدريس.
(٣) غرر الحكم: ص٧٥.

أُوتُوهُ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلۡحَقِّ بِإِذۡنِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٍ﴾[١].

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ﴾[٢].

فقدان الأمن ما هو؟

تبين الدراسات العلمية، التي سعى العلماء المتخصصون لتوضيحها عبر مؤتمراتهم العلمية، التي قاموا بها في بلدان إسلامية وغربية، في مناسبات مختلفة وظروف متباينة، أن الانحراف هو نتيجة لفقدان عامل الأمن الاجتماعي، الذي يفقده مجتمع أو أسرة ما في أي زمان أو مكان، بغض النظر عن المحيط أن يكون دينياً أو لا ديني، محيط علمي أو جهلي، في المدينة أو القرية، من الصغار كان أو الكبار.

قالوا: إن مخالفة إحدى العادات التي اعتادت عليها قبيلة ما، أو مجتمع ما تعتبر خرقاً لعاداتهم، ففي كثير من الأحيان يضطر فرد أو أكثر إلى مهاجمة هذا العمل لإشعار الشخص الجاني، بأنه تعدى على نظم القبيلة الاجتماعية، التي وضعت للحفاظ على تنظيم سلوك الفرد من النواحي الاجتماعية المختلفة، والتي بدون هذا التنظيم الاجتماعي لا تستقيم ولا تستمر حياة المجتمع، وذهب العالم الأمريكي (بارنس) إلى القول إن التنظيم الاجتماعي يعتبر بمثابة الأدوات التي بواسطتها تباشر الجماعة أنواع نشاطاتها المختلفة، ويرى بعض علماء الاجتماع: أنه مرت على الإنسان عصور لم تكن هناك قواعد ولا نظم تحكم المجتمع، بل كان سلوكاً غير مقيد، مما سبب تدهور البنية الاجتماعية في ذلك

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١٣.

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٩٢.

الوقت، مما أدى إلى انعدام الأمن الاجتماعي[1]، بينما الفكر الإسلامي يذهب أولاً إلى القول بعدم صحة هذه النظرية، بل الأديان السماوية بمختلف مراتبها وأزمانها نادت بوضع النظم الاجتماعية، والتي اعتبرتها الأساس في تكوين الحياة البشرية وبقائها وتطورها، وبدونها يفقد المجتمع كيانه، ويتفكك ترابطه، لذلك اعتبر الإسلام كل فعل يخالف بنود الشريعة الإسلامية والعادات والأعراف الاجتماعية جريمة يجب إزالتها من جذورها، وطرح الإسلام للإنسانية المعذبة نظاماً يعالج فيه مختلف زوايا الانحرافات الاجتماعية، ويحلل من خلالها بكل دقة دوافع الجريمة في المجتمع الإنساني، ويشرع على ضوء ذلك أحكاماً صارمة لقلع منشأ الانحراف من جذوره النابتة في عمق النفس الإنسانية، ولذلك حدد تعريفاً شافياً للجريمة، ووضع لها نظاماً أطلق عليه الفقه (العقوبات)، سوف نتناولها بحثاً ودراسة في الصفحات القادمة إن شاء الله تعالى.

تعريف الجريمة:

تعرف الجريمة في الشريعة بأنها محظورات شرعية زجر الله عنها بحد أو تعزير، والمحظورات هي: إتيان فعل منهي عنه، أو ترك فعل مأمور به.

وأصل كلمة جريمة هي: من جرم بمعنى كسب وقطع[2]، والجُرْم هو: فعل محرّم حلّ بمال أو نفس، وهو ما يوجب لفعله القصاص أو

---

(١) يذهب إلى هذا الرأي المفكر الغربي قائد مدرسة علم الاجتماع في أوروبا (باكوفن، وزميله مورجن) يعتبران أن المجتمع لم يكن فيه نظم ولا حواجز، وكانت الاتصالات الاجتماعية متاحة بالخصوص بين الرجل والمرأة، وهذه هي النظرية التي يطلق عليها علاقة الإباحية (راجع المصدر السابق: ص٢٠).

(٢) الجريمة، أبو زهرة: ص٢٣.

الدية الشرعية المقررة في الفقه الإسلامي. وعرفه الفقهاء: إنه فعل أو ترك يسبب الإضرار بالغير ويتوجب بفعله عقاب دنيوي[(١)]، ولذلك اعتبر القرآن الكريم هذا الفعل (أي الجرم) هو ما يحمل صاحبه عليه إثماً. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ﴾[(٢)]، أي لا يحملنكم حملاً آثماً شقاقي ومنازعتكم لي على أن ينزل بكم عذاب شديد مثل ما نزل بمن سبقوكم. وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾[(٣)]، أي لا يحملنكم حملاً آثماً بغضكم لقوم على ألا تعدلوا معهم.

من هنا: يصح أن نطلق كلمة جريمة على ارتكاب كل ما هو مخالف للحق والعدل والطريق المستقيم، وهذا ما نوّه به القرآن الكريم بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ﴾[(٤)].

مفهوم الجريمة عند الجنائيين:

استأثر التعريف بالجريمة باهتمام العلماء الجنائيين، لما يترتب عليه من نتائج بالنسبة لتحديده مَنْ مِنَ الناس يعتبر مجرماً، فصار التعريف بالجريمة وفقاً لمفهوم كل علم من العلوم التي تتناول الإنسان ومجتمعه، فنظر علماء النفس إلى الجريمة كنتيجة تعارض سلوك الفرد مع سلوك

---

(١) معجم لغة الفقهاء: ص١٦٧.
(٢) سورة هود، الآية: ٨٩.
(٣) سورة المائدة، الآية: ٨.
(٤) سورة المطففين، الآية: ٢٩.

الجماعة، بحيث يعتبر مجرماً الشخص الذي يقدم على ارتكاب فعل مخالف للمبادئ السلوكية السائدة في مجتمعه، والتي تلتزم الجماعة باحترامها، كما اعتبر علماء الاجتماع: الجريمة هي كل فعل من شأنه أن يصطدم مع الضمير الجماعي الذي يهيمن على ضمائر الأفراد في المجتمع، فيحدث ردة فعل جماعية ضد المجرم. وقد رأى المفكر الغربي (دور كهايم): إن الجريمة هي كل فعل يصدم مبدأ أساسياً من المبادئ التي يتكون منها الضمير الجماعي[١]، كما أن الجريمة في القانون الوضعي الجنائي هي كل فعل مدني يصدر عن الإنسان يستحق عليه العقوبة أو الغرامة المالية.

إذن: كافة القوانين السماوية والوضعية، ترى أن خرق النظام الاجتماعي بأي طريقة كانت، هي عمل انحرافي يجب على القوانين السماوية والأرضية أن تقف منه موقفاً مغايراً، ويعتبر في نظرهم مجرماً يجب معاقبته بحسب نوعية جنايته.

نظرية النسبية في الجريمة:

والجريمة الواحدة في المجتمع الواحد لا تثبت على حال واحدة من حيث عقوبتها، ولا من حيث تدرجها في سلسلة خطورة الأفعال الخارجة على القانون، فهي مرة مخالفة، ومرة أخرى جنحة، ومرة ثالثة جناية، وهكذا فالجريمة لا تظل على حالها دواماً، إلا في حالات بسيطة لها ملابساتها التي يحدد القانون فاعليتها، والمثال على ذلك جريمة الزنى بالمتزوجة، فبعد أن كان التشريع الإسلامي يجعل عقوبة الزنى إذا كان محصناً الرجم، وإذا كان غير محصن الجلد. .وصل الأمر في

(١) النظرية العامة للجريمة: ص ١٩٢.

التشريعات المعاصرة الوضعية إلى اعتبارها جنحة لا أكثر، بل جنحة ذات طابع خاص تحيط بها عوامل التخفيف من كل جانب.

واعتبر القانون الوضعي المعاصر في أغلب البلاد الإسلامية والعربية عقوبة السجن كافية في هذا المورد (الزنى)، كما يعامل الرجل معاملة خاصة سواء في توافر شروط الجريمة أو في وسائل الإثبات[١].

ووصل الحال في التشريع السويسري الحديث الصادر في عام ١٩٣٧م، إلى تخيير الزوج المجني عليه بين عقاب زوجته الزانية بالحبس مدة لا تزيد على سنة، على ألا يتلو ذلك طلاق أو انفصال، وإلا فالعقوبة حينئذ لا تتعدى الغرامة، وهناك في الولايات المتحدة الأمريكية بعض الولايات (كولايتي، نيفادا وتينيسي) لا تجعل من الزنى جريمة على الإطلاق. . كما أن بعض المجتمعات تعتبر نظام التعدد جريمة محرمة لا يجوز ارتكابها[٢].

يتضح مما سبق، أن هناك صعوبة كبرى على الباحثين في علم الجريمة أن يحددوا تلك الصفات الأخلاقية في كل مجتمع من المجتمعات، ومن ثم تلك الجرائم التي يمكن أن تكون في حكم واحد من الأمر بها أو النهي عنها في كل المجتمعات وكل العصور، فما يعد رذيلة أو جريمة في مجتمع ما، قد يعد فضيلة في مجتمع آخر، فالمجتمع هو الذي يحدد الرذائل والفضائل والمثل، وهناك مثل إنجليزي يضرب في هذا المقام كدليل على ما نذهب إليه، وهو: رذائل بيكاديللي - وهو حي تجاري سكني راق وسط مدينة لندن، تنتشر فيه الدعارة - هي فضائل بيرو. . وقد عبرت الدراسات الميدانية التي قام بها العلماء

---

(١) الجريمة والمجتمع، د. سامية الساعاتي: ص١٧.

(٢) المصدر السابق: ص ١٩.

في هذا الميدان، أن ما يكون ذا نفع عند الغربيين يكون في برلين قبيحاً، وأن ما يكون في مصر حسناً يكون في السعودية قبيحاً، وما يكون عند الغربيين حسناً ونزهة وجميلاً، يكون في الدول العربية قبيحاً، ويعد فراغاً وهزلاً.

والجريمة ـ عزيزي القارئ ـ ليست نسبية إلى الثقافات فحسب، بل إنها نسبية أيضاً، بالنسبة للثقافات الفرعية داخل المجتمع الواحد نفسه، ولنضرب مثلاً على ذلك، فبينما أخذ الثأر في مصر يعد فعلاً ذا قيمة كبيرة يجب على الإنسان ارتكابه، نجده في نظر القانون والثقافة الكلية للمجتمع الآخر جريمة لا يتسامح فيها أبداً.

إذن: الجريمة ليست فعلاً يضر بالمجتمع، بل فعلاً يعتقد المجتمع أنه يضر به من حيثيات قاعدة الحسن والقبح.

أسباب الانحرافات الاجتماعية

لم يكن ليحدث هذا الانقلاب الجذري في حياة المجتمعات الموحدة، لو لم تكن دعوة الأنبياء والمرسلين عليهم السلام دعوة ربانية توحيدية، قائمة على أسس الإيمان ومحاربة جذور الفساد الأخلاقي في الحياة البشرية عامة، فإن الدعوة إلى الله كانت مبدأ الإصلاح الجذري والاستقامة على الصراط المستقيم، وكانت المهام الإصلاحية الاجتماعية منطلقاً مهماً في حياتهم، واستتباب الأمن في كافة مرافق الحياة الاجتماعية من الأسس التي أرسى قواعدها الأنبياء والمرسلون عليهم السلام في دعوتهم إلى الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾[1]، يركز القرآن على هذه الكلمة من دعوة الأنبياء والمرسلين عليهم السلام نحو العبودية المطلقة لله، والسير وفق نظمه وشرائعه، التي جاءت لتحرير الإنسان من نير العبودية لغير الله، والشقاء الذي صُبَّ على رأس البشرية من جراء استغلال الإنسان لأخيه الإنسان، والذي نتج عنه الظلم الفاحش، ونتج عنه أيضاً نشر الفساد في الأرض بكافة أشكاله وألوانه المتعددة، ومن الواضح أن من له إلمام بتاريخ الأنبياء والمرسلين عليهم السلام يرَ كم عانوا في محاربة الفساد المستشري في الإنسانية منذ أن وجدت على هذه البسيطة، حيث واجهوا

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٢٥.

صعوبة كبيرة في تحرير الناس من العبودية لغير الله سبحانه وتعالى، وتأكيد الرؤية التوحيدية والإصلاحية في كافة أبعادها الإنسانية والحياتية، وتحملوا من أجلها العناء الطويل في سبيل إقامة حياة يعمها العدل، والحرية، والفضيلة في المجتمع.

الشريعة الإسلامية والشرائع السماوية، التي وضع أصولها ومبادئها العلي القدير، العالم بما كان وسيكون، والمحيط بهذا العالم بجميع أشكاله ومظاهره وتقلباته، تتلاءم مع فطرة الإنسان وتسعى لإيجاد سعادته الدنيوية والأخروية معاً، مع ما وصل إليه الإنسان من تطور وتقدم خلال أربعة عشر قرناً من الزمان، ظلت الشرائع السماوية وبالخصوص الشريعة الإسلامية ثابتة لم تتغير، ولم يطرأ عليها تحريف أو تغيير، بل واكبت حاجيات ومتطلبات الإنسان في كل عصر وزمان، وتمكنت من أن تضع للإنسان ضوابط وحدوداً ودائرة محكمة بمبادئ وقوانين تتلاءم مع فطرته ومتطلبات تغيير زمانه ومكانه، مع الحفاظ على محتوياتها ومبادئها الثابتة التي لايطرأ عليها تغيير ولا تحريف، وهذا ما جعل الإسلام يأخذ حيزاً كبيراً في نفوس الناس طوال أربعة عشر قرناً من الزمان.

أجل لقد مر على الشريعة حتى الآن نحو أربعة عشر قرناً تغيرت خلالها الأوضاع عشرات المرات، وتطور الإنسان في تفكيره وحياته وجميع اتجاهاته تطوراً لم يكن بالحسبان، واستطاع بتفكيره وجهوده أن يغزو طبقات الأرض والفضاء، وتغيرت نصوص القوانين الوضعية وقواعدها خلال هذه الفترة من التاريخ مئات المرات، وانقطعت الصلة تقريباً بين القوانين في مرحلتها الأولى وبينها في المرحلة الأخيرة مرحلة النمو والتطور، التي أصبح القانون يعتمد فيها على العالم الذي يدعو إلى تحقيق العدالة والمساواة والرحمة، . . والقارئ لتلك القوانين التي ترتكز على ذهنية الواضع لها من قبيل القوانين الوضعية، يكتشف بسهولة

واضحة كثرة أخطائها من ناحية التطبيق، وعدم صلاحيتها وممارستها على المجتمع والإنسان والحيوان على حد سواء.

في حين أن الشريعة منذ وجودها كانت ولا تزال مبنية على قواعد ثابتة، ونصوص سامية مرنة صالحة لحكم الإنسانية بأسرها في مختلف شؤونها، وإن في حدود الله وحدها لو نفذت خير زاجر للمجرم وإن اعتاد الإجرام، وللمعتدي وإن اعتاد البغي والعدوان، وللظالم وإن تأصل في نفسه الظلم والانتقام، هذا بالإضافة إلى غير ذلك من أحكام الله التي تهذب النفوس وتوقظ المشاعر إلى الإحساس بالمسؤولية تجاه الله سبحانه وتعالى والمجتمع، وتحررها من الجهالات والشهوات، وتفرض على جميع الناس أن يتعاونوا على البر والتقوى، ويتناهوا عن المنكر والبغي والعدوان، قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[1]، وأكد الرسول ﷺ على هذا المضمون بقوله: «الناس سواسية كأسنان المشط الواحد لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى»[2].

مفهوم السببية في الانحراف:

الواقع أن هناك عوامل شتى سببت فداحة انتشار الجرائم في الوسط البشري، وكل ظاهرة من هذه الظواهر، في أي مجتمع من المجتمعات البشرية تختلف اختلافاً بيناً فيما بينها، لذلك انقسمت المدارس الفكرية والعلمية المتخصصة في دراسة الجريمة في العالم البشري إلى آراء ومدارس مختلفة، كل بحسب المحيط الذي يعيشه المجرم والجريمة.

---

(١) سورة الحجرات، الآية: ١٣.

(٢) ميزان الحكمة: ج ٣، ص ٤٥٦.

فعلم الجريمة في العالم يحتوي على نظريات كثيرة، ليس هناك نظرية واحدة يتفق عليها جميع الباحثين. وقد صنف الخبير بالشؤون العلمية للجريمة في العالم الغربي المفكر المعروف (أدوين سذرلاند) نظريات أو مدارس علم الإجرام حسب تسلسلها التاريخي كما يلي:

١ ـ المدرسة التقليدية: وهي مدرسة ذات صبغة فلسفية، تقوم بالربط بين حركة الاختيار والمنفعة.

٢ ـ مدرسة الخرائط الجغرافية، تفسر الجريمة باعتمادها على أسس ايكلولوجية (أي علم التنبؤ).

٣ ـ المدرسة الاشتراكية وترجع سبب الجريمة إلى المادة.

٤ ـ المدرسة الاجتماعية وتفسر الجريمة بوصفها ظاهرة اجتماعية ناتجة عن الجماعة والمجتمع. وهي تنقسم إلى ثلاث اتجاهات مختلفة وهي:

أ ـ اتجاه ذاتي: ويدرس هذا الاتجاه شخصية المجرم من النواحي المختلفة، النواحي الفيزيائية، والطبيعية البيولوجية، والفيزيولوجية، والنفسية، والطب العقلي، والتحليل النفسي.

ب ـ اتجاهات موضوعية: وتهتم بالظروف الاجتماعية والمادية للظاهرة الإجرامية، وهي ذات عدة اتجاهات جغرافية ايكلولوجية، اقتصادية اجتماعية وثقافية.

ج ـ اتجاه تعدد العوامل: ويربط بين الاتجاه الذاتي والاتجاه الموضوعي في سبب الجريمة. وسوف نستعرض بعض نظريات هذه المدارس لا كلها وهي كما يلي:

ملخص نظرية المدرسة التقليدية:

نشأت المدرسة التقليدية في حوالي منتصف القرن الثامن عشر على يد (سيزار دو بيكاريا ١٧٣٨ ـ ١٧٩٤م) وقد ساهم في تأسيسها عدد من المفكرين الغربيين في ذلك الوقت من إيطاليا، وألمانيا، وفرنسا وتمحورت نظرياتها حول: حرية الاختيار، والمنفعة، والجريمة عمل بشع يُسأل عنه المرتكب، والسلوك الإجرامي سلوك إنساني يقوم على الإنسان بكامل إرادته، بعد مقارنته بين النفع والضرر على ارتكاب الجريمة، وأنه لا عقوبة بلا نص، ونددت بالعقوبة اللاإنسانية مثل التمثيل بالمجرم وتعذيبه بأي صورة كانت، وأن تكون وظيفة العقوبة الزجر والردع والعظة والعبرة[1].

ملخص نظرية المدرسة الجغرافية:

المدرسة الجغرافية هي أول مدرسة تضع نظرية سببية الجريمة مستندة إلى تأثير العوامل المناخية بالأرض والمحيط الذي يعيشه المجرم، ومن أهم مؤسسي هذه النظرية العالم البلجيكي (أدولف كتيليه ١٧٩٦ ـ ١٨٧٤م) وبعض العلماء من فرنسا والنمسا، وإيطاليا، وتقوم هذه النظرية على: أن معدلات الجريمة ودوافعها تعود إلى تغيير المناخ، والمناخ يلعب دوره في تكوين العوامل البيئية والسلوكية في المجرم أو المنحرف.

ومن الدراسات التي تناولت هذه النظرية، دراسة قام بها العالم البلجيكي (كتيليه) ابتداء من عام ١٨٣٥م للإحصاءات الفرنسية عن أعوام ١٨٢٦ ـ ١٨٣٠م وأطلق على هذه الدراسة: (القانون الحراري للمناخ) ومعناه أن نسبة الجرائم تختلف من منطقة إلى أخرى، باختلاف درجة

---

(١) علم الاجتماع الجنائي: ص٧٤.

الحرارة، فجرائم العنف تزداد في المناطق والفصول الحارة، وتنخفض في الفصول الباردة. .

هذا بالإضافة إلى أن معدلات الجريمة تختلف باختلاف الموقع الجغرافي لها، ومن أهم من ذكر هذه النتيجة الباحث الفرنسي (مونتسكيو) من خلال دراساته أن معدل الجرائم يزداد عند المناطق الساحلية، وأن نسبة الإجرام في المناطق الكبيرة أكثر من المناطق الصغيرة، وأن عوامل الغاز المتكون في الجو له أثر على نسبة ارتفاع الجريمة في العالم، إلى غيرها من العوامل المناخية.

ملخص نظرية المدرسة الاجتماعية:

ترتكز نظرية هذه المدرسة على دراسة الحياة الاجتماعية التي ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالمحيط الاجتماعي الذي ارتكبت فيه الجريمة ودوافعها، ودراسة العمليات ذات العلاقة بالتنظيم الاجتماعي ذاته، إذ أن من أهم هذه العوامل الأساسية: التحريك الاجتماعي، والصراع الثقافي، والمنافسة، والتقسيم الطبيعي للمجتمع، والحالة العقائدية، والسياسية، والاقتصادية، وحالة العمل والدخل الفردي، وكثافة السكان.

هذه بعض نظريات المدارس الفكرية العلمية التي درست مسببات وظاهرة الجريمة في مسرح الحياة البشرية، مع أن هذه النظريات ليس كل ما تطرقت إليه صحيح وعلى سبيل القطع، بل تناولها العلماء والفكر الإسلامي بالنقد والتحليل، فبان فشل بعضها، وهذا ما دعا الفكر الإسلامي على ضوء القرآن والسنة المطهرة أن يدرس مسببات الجريمة من نواحٍ عدة، أثبتت البحوث العلمية والدراسات الأكاديمية التي قام بها الخبراء في الغرب صحة ما ذهب إليه الفكر الإسلامي من دراسات معمقة حول مسببات الجريمة.

ملخص نظرية المدرسة النفسية:

تتضمن هذه المدرسة عدة اتجاهات، كل اتجاه منها يعزو الإجرام إلى عامل نفسي رئيسي، يجعله مسؤولاً عن ظاهرة الانحرافات الاجتماعية في المجتمع، ومعنى كون العامل نفسياً، هو أن يكون من فعل النفس التي تختل أو تتأثر بذاتها من ذاتها، وليس باختلاف وظائف بعض أعضاء الجسم، كالمخ أو الغدد الصماء، أو بعاهات يولد بعض الناس بها، أو تكون مكتسبة نتيجة حوادث تترك آثارها فيها، والمعروف أن النفس وإن كانت مفهوماً غامضاً، ذات مظاهر تتبدى في عمليات شعورية يمكن ملاحظتها أو التعرف عليها بوسائل سهلة معينة، وعمليات لا شعورية يمكن الكشف عنها بطرق معقدة محدودة..

أولى هذه النظريات النفسية تعود إلى عامل المحاكاة، فقد ذهب الباحث الفرنسي رائد الاتجاه النفسي الاجتماعي لتفسير الإجرام والانحرافات السلوكية، إلى أن الانحراف هو ظاهرة اجتماعية نفسية، تكون بسبب عامل المحاكاة، وذلك عبر محاكاة المجرمين من عشيرته أو أهله أو أقربائه أو أصدقائه[١]، طبعاً هناك ملاحظات على هذه النظرية لسنا الآن في صدد الحديث عنها، إنما أحببنا أن يكون هناك إلمام بكافة أبعاد من درس نظريات الانحراف الاجتماعي.

النظرية الثانية وهي القائلة إن مسببات الانحرافات عند البشر نتيجة الحرمان العاطفي، والذي يرتكز على ثلاثة أمور هي:

الهو (id) اللاشعوري الذي يحوي الحيوية المتدفقة من نزعات فطرية ورغبات مكبوتة وشهوات محظورة، فمبدؤه اللذة التي لا تعي

(١) المصدر السابق: ص ١٠١.

شيئاً عن الواقع، ولا تتقيد بادئ الرأي بالقوانين العامة، ولا تخضع لقيود الزمان والمكان.

الأنا (ego) الشعوري الذي يغلف (الهو) ويعتدل بتأثير الخبرة التي يكتسبها شعورياً عن طريق الحس، فيصبح واعياً بالواقع ومكوناته، وكبح جماحه وكفه عن التنفيس عن مكبوتاته، كما يمكنه من ضبط حركة الفرد الإرادية وحفظ ذاته.

الأنا الأعلى (super-ego) اللاشعوري إلى درجة بعيدة، الذي يتكون من اكتساب الطفل تدريجياً مُثُلَ الكبار الذين يقومون بتنشئته، كوالديه أو من يقوم مقامهما، ومن يتعهدونه بالتعليم في المدرسة، ومن يقفون منه موقف المربين، فهؤلاء جميعاً يكسبونه القيم والمعتقدات والمثل العليا، وهكذا يصبح الأنا الأعلى منذ بداية تكونه، ضميراً ينمو مع نمو الفرد.

عندما يفقد الأنا مراحل العاطفة، بسبب فقده أحد أبويه أو أحد أصدقائه أو أقربائه، فإنه يخفق في تشكيل نفسيته على نمط البالغين الذين يتعاملون معه ويطبعونه اجتماعياً، كما أنه لا ينجح في تكوين روابط قوية مع شرائح المجتمع المختلفة.

وفي إطار هذه النظرية التي تذهب إليها النظرية النفسية الفرويدية، والتي يعززها بعض الباحثين النفسيين، فإن ظاهرة الانحرافات الاجتماعية في البشر، تكون نتيجة صراع مستمر في نفوس بعض الأشخاص، ويعجزون عن اتخاذ موقف حاسم يكون مرضياً للنظام العام في المجتمع، ويعد (وليم هيلي) العالم الأمريكي، رائد هؤلاء الباحثين الذين يتجهون هذا الاتجاه[١].

---

(١) المصدر السابق: ص ١٠٢.

ملخص نظرية الطاقة الغريزية الزائدة:

تناولت هذه النظرية الجوانب الغريزية التي تكمن في بواطن كل إنسان، بحيث جعلت الإفراط فيها يعد حداً زائداً يُسبب الانحرافات السلوكية لدى البشر. ويذهب إلى هذا الرأي الباحث النفسي الإنجليزي المعروف (سيرل بيرت) في كتابه (مشكلة الإجرام وأسبابها)، معتمداً في ذلك على نظريات (وليم مكدوجل) وليس على نظرية (فرويد)، فيرى أن السلوك الإجرامي ناجم عن المظاهر الطبيعية غير المقيدة للدوافع الغريزية، أي الدوافع الفطرية العامة، وفق التعبير الأكثر شيوعاً منذ وقت ليس ببعيد، ومن وجهة نظره تعد الأشكال المختلفة للجنوح، كالسرقة، والاعتداء بالضرب أو الجرح والجرائم الجنسية، تعبيرات عن الغرائز، أي دوافع فطرية عامة، معينة قوية في طاقتها شديدة فيما تحدثه من انفعالات، إلى درجة زائدة عن المعتاد.

وإضافة إلى هذا الرأي، يمكن القول بأن السلوك الإجرامي، أو بمعنى آخر الخروج على القانون، هو في حقيقته، رد فعل انفعالي من الفرد كنتيجة لدوافع فطرية عامة، ورغبات عنيفة خاصة تحتاج إلى الإشباع، بل إنها تلح عليه إلحاحاً من الضغط الحادث من التوتر ذاته، والخوف من الإخفاق في إشباعه، ومن الآثار المجهولة التي تحدثها عناصر ثلاثة، وهي:

١ ـ الدافع ومدى قوته.

٢ ـ الوسائل الميسرة لإشباعه سواء كانت عادية أو شاذة.

٣ ـ والحالة الانفعالية ومدى شدتها.

وقد نتفق مع هذه النظرية من الجزئية الصغيرة، إذ أن الغرائز ليست مهيمنة على الإنسان الذي يتمكن ويمتلك إرادة في التحكم بضوابطها وتقنينها عبر آليات الحلال والحرام.

نعم هناك بعض الشاذين الذين ليس لهم القدرة على التحكم فيها مثال ذلك:

إن المرأة في حاجياتها وأحاسيسها أقوى من الرجل، وبالتالي ردة الفعل في الانحراف عندها تكون أقوى من الرجل، فالمرأة قد تغفر للرجل أنه قبيح دميم الخلقة أو أنه فقير أو أنه أحمق، ولكنها لا تغفرله أبداً تجاهله وإهماله لحاجياتها الجنسية، وعدم حرصه على إشباع هذه الحاجة لها كما يشبع هو حاجيته منها، إن المرأة لتحقد أشد الحقد، وتحاول الانتقام بكل الوسائل المتاحة، من الرجل الذي يستخدمها مجرد أداة لمتعته وإرواء شهوته، دون أن يبذل هو أي جهد أو محاولة للوصول بها إلى حالة من الرضا، ودرجة من الارتواء الجنسي الذي يشبع نهمها وتعطشها كما شبع هو منه.

ولذلك أثبتت الدراسات التي قام بها بعض الباحثين في هذا الصدد: أن المرأة التي تكون غريزتها أقوى من عقلها وإرادتها، وتمتلك فرصاً في صرف الشهوة، هي امرأة مريضة قد تساهم في انتشار الانحرافات الاجتماعية، فمن أمراضها المستعصية التي تُسبب لها الانحرافات الاجتماعية، مرض يسمى (بالنيمفومانيا)، وهو مرض جنسي في النساء، تشعر المصابة به بالرغبة الملحة القهرية في الجماع الجنسي بإسراف ومبالغة فيه، قد يكون عدة مرات يومياً، بغض النظر عن قدرة الشخص الذي يجامعها، وبغض النظر عن قدرتها على الجماع أم لا.

ويعتقد البعض أن هذه الحالة تظهر في النساء المفرطات في الأنوثة والراغبات في اللذة، ولكن عادة يكون معظم هؤلاء المريضات باردات جنسياً ولا يتمتعن بالجنس، ومن هنا تكون هذه الرغبة المستمرة في محاولة للبحث عن هذه اللذة المفقودة، وأحياناً تكون تعبيراً عن

صدمات وتجارب جنسية خاطئة في الطفولة أو الحياة الزوجية الأولى، التي فشلت فيها المرأة من أول وهلة من الزوج، أو انتقاماً من الرجل أو المجتمع الذي لم يقف معها في بعض حاجياتها، ولذلك نجد أن هناك نسبة كبيرة في المجتمعات العربية والإسلامية سببت هذه الأمراض النسائية انتشار عامل الانحرافات الجنسية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية والأسرية فيها.

ملخص نظرية النظام الغذائي والجريمة:

ولما كان المرض مشكلة إنسانية تصيب الفرد وتؤثر على طبيعة المجتمع الإنتاجية، فإن النظام الاجتماعي في الدولة ملزم بإيجاد نظام صحي متكامل يحافظ فيه على صحة الأفراد، ويعالجهم معالجة تؤدي بهم إلى الشفاء الكامل، ثم إرجاعهم مرة أخرى إلى عجلة الإنتاج والخدمات الاجتماعية.

وإذا لم تثمر العلاجات الصحية التي تلقّاها الفرد في خضم المؤسسات أو الشركات أو القطاعات الصحية التي تعتني بها الدولة، تكون ملزمة ببذل معاش للفرد الذي تضرر بسببها، أو تدفع تعويضاً مالياً يحفظ كرامة العامل العاجز ويسد حاجيات عائلته.

والكثير من الناس يعتقد أن المرض قضية شخصية تهم الفرد المريض وحده فحسب؛ فهو وحده الذي يتألم لمرضه ويعاني من أوجاعه، فيعجز الآخرون عن تخفيف تلك الآلام، ويظهرون تعاطفهم معه ويقدمون له المساعدة المادية والطبية في بعض الأحيان، إلا أن الواقع يفصح بأن المرض مسألة اجتماعية، لها علاقة وطيدة بالانحرافات السلوكية لأنه لا يمكن أن نتصور فصل الصحة والمرض والعلاج عن الصورة الاجتماعية الكلية.

فقد تبين من الدراسات التي قامت بها الجمعيات الإنسانية والاجتماعية في العالم العربي والغربي بأن انتشار الأمراضُ يسبب انتشار الجرائم ويهز الكيان السياسي، ويؤثر على النظام الاجتماعي من خلال تعطيل طاقات الأفراد في العمل والاستثمار والإنتاج، ويساهم المرض في تقويض النظام الاجتماعي كما تساهم الظواهر الطبيعية والمادية في هدم ما بناه الإنسان، فالزلزال المدمر، والجفاف المؤدي إلى المجاعة، والحرب المؤدية إلى الخراب الشامل، وانتشار الفساد والدعارة وانتشار الأنظمة الغذائية الخاطئة وخاصةً المعلبات التي انتشرت في العالم البشري كانتشار النار في الهشيم؛ كلها تساهم في تقويض النظام الصحي في الحياة البشرية. . كما يتعدى تأثير المرض والآلام التي يصاحبها إلى عائلة المريض نفسه ومن يلوذ به من محبيه أيضاً، فمع أن المريض يمر بتجربة مريرة من الألم والقلق والانزعاج خلال فترة مرضه، إلا أن عائلته تعاني أيضاً من حالته الاستثنائية، فقلق العائلة على معيلها، وخوفها من فقدان الموارد المعاشية يساهم في اضطراب الوضع العائلي ويحرف سلوكه ويجعله مرتبطاً بصورة وثيقة بصحة المعيل، وعلى صعيد آخر فإن انتشار الأمراض يساهم في اضطراب النظام الاجتماعي وإضعاف قواه الإنتاجية، خصوصا إذا انتشرت الأمراض المعدية في المجتمع انتشاراً واسعاً كالملاريا، والجدري، والكوليرا، والإيدز فإنها تنزل ضربة ساحقة بالمؤسسات الاقتصادية والإنتاجية للدولة والمجتمع(١).

وتذهب نظرية الفيلسوف الياباني (ميتشيو كوشي) إلى القول بوجود علاقة وطيدة بين الجريمة ونوعية النظام الغذائي، بل إن الانحرافات السلوكية سببها النظام الغذائي الفاسد الذي يعتمده الإنسان في حياته اليومية.

---

(١) كتابنا الإسلام وطرق التغلب على الآلام: ص٢٥٤.

يقول: غالباً ما يربط علماء الاجتماع بين مشكلات، مثل الجريمة وإدمان المخدرات وانحرافات الأحداث، وبين التفكك الذي لحق بالأسرة الحديثة، وبين تزايد عدد الجرائم، والاضطرابات النفسية، والعقلية، غالباً ما تنشأ عن التحول الّذي شهدته العائلة البشرية في القرن العشرين من نمط حياة ريفي، يخطو عن التحول الهائل نحو الصناعة، إلى نمط حياة مديني ومجتمع صناعي، الأمر الذي أسهم، على ما يبدو، في تفكك الأسرة وتفشي المشكلات الاجتماعية، ومع ذلك وبينما كانت هذه التغيرات تحدث على النظام الغذائي، كانت هناك أيضاً تبدلات حيوية أشد تاثيراً نجمت عن التحول الشامل من الأنماط الغذائية التقليدية إلى النظم الغذائية الصناعية الحديثة.

منذ فجر البشرية، أي البدء في تدوين التاريخ البشري، وخلال عدد لا يحصى من الأجيال، درج معظم الناس على اتباع نظام غذائي طبيعي يحقق لهم التوازن مع البيئة، إن أسلافنا، في أنحاء العالم، كانوا من المواظبين على تناول المنتجات الزراعية الخاصة بالإقليم الذي يقطنون فيه، كالحبوب الكاملة والخضر المرحلية الطازجة، والفول ومنتجاته، وفاكهة الموسم، وبعض المنتجات الحيوانية، وفي العادة كانت الكميات التي يتناولونها أقل بكثير من الكميات التي يتناولها البشر في الوقت الحاضر.

استمر ذلك النمط سائداً في العصر القديم حتى حصول التطورات التكنولوجية التي واكبت الثورة الصناعية، وذلك من خلال هدم أنماط التغذية والحياة العائلية التي دامت لقرون عدة.

وبالخصوص بعد الحرب العالمية الأولى، تسارعت خطى العلم والتكنولوجيا، وتبدلت أنماط التغذية تبدلاً ملحوظاً عن ذي قبل، ففي

مجال الكيمياء، حلت المخصبات الزراعية، والمبيدات التي جرى تطويرها في القرن التاسع عشر، محل الزراعة العضوية، كما أدى ابتكار حاضنات الدجاج الضخمة، عقب الحرب، وفي القرن العشرين دخلت الثلاجة المنزلية دائرة الضوء، وأسهم الطعام المجمد المسبق الإعداد في خفض نسبة استهلاك المنتجات الطازجة، كما ازداد نصيب الأطعمة المعلبة والمجففة المنتقاة من السوق، كما تطورت صناعة الفيتامينات بهدف بيع المواد الغذائية المستخرجة من الحبوب إلى المستهلك، ووجدت الألوان الصناعية والمواد الحافظة وغيرها من الأصناف طريقها إلى الأطعمة اليومية.

وعقب الحرب العالمية الثانية، حلت اللحوم والألبان والأجبان والبوظة، وغيرها من منتجات الحليب محل الحبوب الكاملة والخبز والمعكرونة الكاملة والمعجنات، كما تضاعف عدد الماشية في العالم نتيجة التلقيح والتخصيب الصناعيين واستعمال هرمونات النمو.

وفي الخمسينات والستينات، أصبحت الأطعمة السريعة أسلوباً للحياة، لقد غزت المطاعم السريعة كل بلاد العالم تقريباً أمثال: (ماكدونالدز) و(برجر كينج) و(ديري كوين) وغيرها من الغربية والعربية.

وقد ألمحت بعض الباحثات الغربيات إلى تفشي هذا الخطر المحدق بالبشرية، ففي عام ١٩٧٧ وأمام لجنة الانتخاب التابعة لمجلس الشيوخ تحدثت الباحثة حول التغذية والاحتياجات الإنسانية، حيث أشارت الدكتورة (كارلين بروان) مديرة مدرسة الأطفال المعاقين في (بريكلي كاليفورنيا) إلى الآثار الاجتماعية الناجمة عن تغيير النظم الغذائية، وأسلوب الحياة الذي طرأ على المجتمع منذ الحرب العالمية الثانية قائلة:

دعونا نلقِ نظرة على بعض الإحصائيات الصحية والاجتماعية المثيرة للاهتمام، لقد شهدت الفترة نفسها، التي بلغت ٢٥ عاماً، زيادة حقيقية في التعرض للإشعاع من خلال التجارب النووية وأدوات التشخيص وإنتاج الطاقة، لقد أصاب هذا التغيير الجذري أنماطنا الحيوية، وكذلك النفسية، من خلال ما يقدمه التلفاز، الذي دخل ٩٦٪ من البيوت الأمريكية في الفترة نفسها، وبات الأطفال الصغار يجلسون أمامه فترات تبلغ وسطياً ٣ ـ ٤ ساعات كل يوم.

وكذلك ازدادت نسبة الإقدام على الانتحار بين صغار السن على سواها في باقي المراحل العمرية، ونعرف أيضاً أن هناك تدهوراً لا سابقة له، حصل خلال الأعوام الأربعة عشر الأخيرة. . وفي السنوات الثماني الممتدة، بين عامي ١٩٥٨ و١٩٦٦، ازدادت نسبة الأطفال المصابين بمشكلات صحية مزمنة، الذين لم يبلغوا السابعة عشرة، من ١٨،٨٪ إلى ٢٤،٦٪ بينما ازدادت تلك النسبة في الفئة العمرية من ١٧ إلى ٢٤، فبلغت ٤٤،٤٪ إلى ٥٠،٩٪، أي كانت ٣٩٪[١].

كما أن الإحصاءات الرسمية التي تصدرها وزارة الصحة والتغذية الأمريكية، تبين لنا علاقة النظام الغذائي الفاسد بتزايد عدد الجرائم والانحرافات السلوكية، فقد جاء في التقرير السنوي الذي ترفعه الوزارة إلى البيت الأبيض قولها: إن نسبة الاضطرابات العقلية في ازدياد، وكذلك الأموال التي تنفق سنوياً على الصحة العقلية، وتشير الإحصائيات الرسمية إلى أن ١٥٪ من إجمالي نسبة السكان في أميركا، يعانون اضطرابات عقلية دائمة، أي ما يعادل حوالي ٤٠ مليون شخص، وبالرغم من ذلك، فإن الصحة والخدمات الإنسانية الأمريكية قد صرحت

---

(١) الجريمة والانحرافات السلوكية والغذاء، د، ميتشيو كوشي، تعريب د. البدري: ص٣٠.

أن هذه الأرقام متحفظ عليها، حيث تربو النسبة الحقيقية للمصابين باضطرابات عقلية على الـ٢٠٪ من السكان، وفي دراسة أجريت على سكان مدينة نيويورك، تبين أن ٢٥٪ منهم يعانون من اضطرابات، كالإحباط والقلق وغيرهما من المشكلات العقلية والنفسية[١].

كما ويؤدي الخلل في نظامنا الغذائي إلى تفاقم المشكلات الانحرافية السلوكية، لأن النظام الغذائي الذي يعتمده الجسم نوعية معقدة وبالغة الدقة، فمجرد أن يختل نظام التغذية الذي يعتمد على قاعدة (الين) و(اليانج) تنتج الوظائف الداخلية لجسمنا أحماضاً تسهم في عملية اضطراب السلوك، فمجرى الدم، على سبيل المثال، يحتوي على نوعين من الخلايا: كريات الدم الحمراء المضغوطة التي تتبع (اليانج) وكريات الدم البيضاء الممتدة التي تتبع (الين)، وتتكامل وظائف هذه الخلايا بعضها مع بعض، إن مجرى الدم (اليانج) يعمل بأسلوب يتكامل مع السائل اللمفاوي (الين) كما أن الخلايا المتخصصة التي تسهم في استجابة جهاز المناعة في الجسم، تأتي في أزواج متكاملة أيضاً، أما خلايا T في الجهاز الثاني على سبيل المثال، فتكون مضغوطة وبنيتها أكثر تمدداً وتتبع (الين) وتكون خلايا T التي تتبع (اليانج) أكثر عرضة للكسر عند تناول أطعمة ومشروبات والمضادات الحيوية، والكحول، والبوظة، والسكاكر، والمشروبات الغازية، والكيماويات، والمخدرات والأطعمة المجمدة كثيراً، بحيث تضعف هذه الخلايا أو تحطمها، مما يؤدي غالباً إلى إضعاف جهاز المناعة في الجسم.

وتساهم كثرة استهلاك الأطعمة من النوع (الين) في الاضطرابات السلوكية وصعوبة التعلم، فالسكاكر المكررة والصناعية ومشتقات

(١) الجريمة والانحرافات السلوكية والغذاء، د، ميتشيو كوشي، مصدر سابق.

الحليب المصنع، والدقيق الأبيض، والشكولاتة المضاف إليها المواد الحافظة تساهم في عملية الانحرافات السلوكية.

فقد أثبت البحوث العلمية في الغرب والتي أجريت على بعض الأسر التي تعاني من التفكك والانحراف، أن تزايد عدد الاضطرابات العقلية، والنفسية، والسلوكية داخل الأسرة الغربية بسبب فساد النظام الغذائي، حيث ازداد عدد النساء اللواتي يرزقن بأطفال خارج الرباط الزواجي، إذ تزايد عدد مواليد هذا النوع من حوالي ٢٢٤٠٠٠ مولود عام ١٩٦٠ إلى ٦٦٥٠٠٠ بحلول عام ١٩٨٠، طبقاً لإحصائيات المركز القومي للإحصاء الصحي.

وبحسب ما ذكرته جريدة (التايم) فإن حوالى ٦ ملايين زوجة أو شريكة يتعرضن للاعتداء الجسدي من قبل أزواجهن أو أصدقائهن الرجال كل عام، وإن ٢٠٠٠ إلى ٤٠٠٠ يفارقن الحياة متأثرات بجراحهن، وإن أكثر سكان السجون ممن مارسن الانحرافات في سن مبكرة جداً، إذ يصعب تحديد المدى الذي وصل إليه إيذاء الأطفال وإساءة معاملتهم في الغرب، إن انحراف الأحداث والجريمة وإدمان المخدرات والكحول هي من المشكلات الاجتماعية العديدة ذات الصلة المباشرة بالعنف العائلي، وأظهرت الدراسات حول نزلاء السجون أن غالبيتهم تعرضوا لإساءة المعاملة في طفولتهم[١].

(١) راجع كتابنا الإسلام وطرق التغلب على الآلام: ص ١٢.

النظرية الإسلامية لمسببات الجريمة

عاش حكم الله أربعة عشر قرناً من الزمن، سائداً على نصف الكرة الأرضية، وعاشت به الأمة الإسلامية في سعادة من العيش، ومناعة من الأمن، وسؤدد من المقام بين الأمم، ثم عصفت بها رياح سود فانقلبت تلك السعادة إلى ويلات، وتلك المناعة إلى مذلات، وتلك الكرامة إلى عبودية وهوان وذل وخنوع، فباتت الأمة ترزح تحت نيران انتشار ألوان الفساد المختلفة، بداية من الظلم والقهر، ونهاية بتفشي الجرائم المختلفة والمتنوعة فيها، وعلى كافة الصعد الفردية، والأسرية والاجتماعية.

من هنا سعى الفكر الإسلامي عبر آلياته المتعددة، لإيجاد الحلول المناسبة لاجتثاث هذا الكم الهائل من الفساد المستشري في الوسط الاجتماعي، ودراسة مسبباته ووضع الحلول المناسبة له، وربما يعزى نجاح النظرية الإسلامية القرآنية في تحليلها ومعالجتها لظاهرة الانحراف الاجتماعي، إلى أربعة أسباب رئيسية، لم تلتفت إليها النظريات الاجتماعية من المدارس الفكرية السابقة، وهذه الأسباب هي:

١ ـ العدالة الاجتماعية والاقتصادية التي جاء بها الإسلام، وحاول تطبيقها على أفراد المجتمع واحداً بعد الآخر، بدون تمييز أو عنصرية لأحد منهم.

٢ ـ نظام العقوبات الصارمة ضد المنحرفين في المجتمع

الإسلامي، إذ اتخذ من عقوبة القصاص، والدية، والتعزير أساليب في تربية المجتمع، وتحصينه من الانحراف وانتشار المنحرفين في وسطه. وعدم اتخاذها بطرقها الشرعية سبب من الأسباب الرئيسية في انتشار الفساد في الأرض، لذلك صنف الإسلام العقوبات إلى قسمين، هما:

أ ـ الحدود: وهي العقوبات المقدرة في الكتاب والسنة؛ بمعنى أن الشارع لم يسمح للقاضي الشرعي التصرف في أمر تقديرها، كالقصاص في جرائم القتل والقطع والجرح، كما أشار سبحانه وتعالى بقوله: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِي ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[1].

وعقوبات الزنى، واللواط، والسحاق، والقيادة، والقذف، والسرقة، والسكر، والارتداد، وقطع الطريق...

ب ـ التعزيرات: وهي العقوبات التي فرض أمر تقديرها وتحديدها لنظر الحاكم الشرعي، فيعاقب عليها بما يراه مناسباً، وفق حكم الله سبحانه وتعالى، والضوابط الشرعية التي تعتمد على الأدلة، كعقوبة التزوير، والغيبة، والكذب، وإشاعة الفحشاء، ونشر المنكر وغيرها.

٣ ـ العقوبات المادية: وهي الديات، أي المال الواجب دفعه بسبب الجناية على النفس أو ما دونها لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ۚ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾[2].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٧٩.

(٢) سورة النساء، الآية: ٩٢.

وتشمل جانبين وهما:

أ ـ الديات المقدرة على لسان الشارع، كدية النفس، والأعضاء.

ب ـ الديات التي فوض أمر تقديرها إلى الحكومة الشرعية، أو الخبراء الموثوق بهم من قبل الحاكم الشرعي، وهذه الأحكام الشرعية تعتمد على تصنيف الشارع لنوع الجريمة، إذ أن الشارع صنف الجرائم والانحرافات إلى أنواع متعددة، لكل حكمه الشرعي، وسوف نتحدث عنها في الفصول الخاصة بذلك.

٤ ـ وضع نظام المساواة التامة في تطبيق هذه التشريعات بين جميع أفراد المجتمع بمختلف طبقاته وألوانه وميزاته العلمية. فهو يلغي ما يصطلح عليه اليوم بـ(الحصانة الدبلوماسية، أو الدينية، أو الاجتماعية)، فالسارق مع توفر الشروط الشرعية يقُطع حتى لو كان يشغل أعلى وظيفة سياسية في الدولة، وهذا مستفاد من قوله تعالى عندما أطلق الحكم الشرعي في الآية الكريمة القائلة: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[1]، وعدم تخصيصها بفئة معينة من السراق، وكذلك الزاني مع توفر الشروط يقُام عليه الحد الشرعي كائناً من كان رجلاً أم امرأة، يقول تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[2].

٥ ـ المشاركة الجماعية في دفع ثمن الجريمة والانحرافات الأخلاقية التي تُرتكب في الوسط الاجتماعي، كإلزام عائلة المنحرف دفع

(١) سورة المائدة، الآية: ٣٨.
(٢) سورة النور، الآية: ٢.

دية القتيل عن طريق الخطأ، ودفع دية القتيل الذي لا يُعرف قاتله من بيت مال المسلمين، ودعا إلى تكوين لجان اجتماعية تسعى لإقامة مؤسسات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، في سبيل دفع المفاسد الأخلاقية التي يحدثها المنحرف في الوسط الاجتماعي.

كما شجع الإسلام تفادي وقوع الجريمة على مسرح الحياة الاجتماعية بطرق شتى.

فأولاً: جعل ولي الأمر مسؤولاً شرعاً عن دفع الدية إذا ارتكب من يتولاه انحرافاً يستوجب دفع تلك الغرامة.

وثانياً: إن العلاقات الأسرية التي أكد عليها الإسلام تساهم من خلال عوامل التآزر والتعاون على إصلاح الفرد المنحرف، وتشخيص حالات الانحراف فيه، ومن ثم القضاء عليها من جذورها.

وثالثاً: العاقلة، وهم العصبة من قرابة الأب كالإخوة والأعمام وأولادهم، التي تتحمل دية القتيل الخطأ، ودية الجناية على الأطراف ونحوها، ضمن شروط معينة، والمدار في كل ذلك أن الافراد في المجتمع ملزمون أخلاقياً، بإرشاد وإصلاح ذويهم ودَرءِ خطر الانحراف عنهم[١].

بهذه الأساليب وعبر دراستها وتوفر المناخ الملائم لممارستها على الصعيد الاجتماعي، تمكن الإسلام من توضيح المسببات التي تؤدي بالمجتمع الإسلامي لوجود عناصر منحرفة فيه، والمجتمع الإسلامي قد درس الجريمة من كافة أبعادها وتمكن من تشخيص مسبباتها، لأنه أدرك خطورة تواجد العناصر الفاسدة في وسطه، وإن كان الإسلام يرى أن

---

(١) راجع كتاب النظرية الاجتماعية ـ الأعرجي: ص٥٥.

المسببات تكمن في عدم تواجد نظام العدالة والمساواة، وتفشي الظلم الاجتماعي بأنواعه الفردية والأسرية والاجتماعية، وعدم توفر فرص العيش النزيه، وممارسة الأعمال المثمرة، وعدم محاربة بوادر الفساد الأخلاقي منذ البداية، كلها كفيلة بتواجد المنحرفين في الوسط الاجتماعي، وبالتالي يفقد المجتمع الإسلامي أمنه وأمنياته.

مجاميع الفقه ونظرتها للمسببات:

يتضح مما سبقت الإشارة إليه، أن الفقه الإسلامي ومجاميعه الفقهية تنظر إلى أن المسببات التي بسببها تتواجد الجرائم والمجرمون، تعود إلى الأسباب السابقة التي ذكرناها، مع أن مجاميع الفقه وموضوعاتها تبحث عن أحكام الحوادث بنحو القضايا الحقيقية في الغالب، وتعطي لأفعال الإنسان وتصرفاته الأحكام التي تناسبها، سواء في ذلك ما كان منها بشكل اعتداء على حقوق الغير، أو ما كان منها مقصوراً على المخالفات التي لا تمس أحداً من الناس، كترك الواجبات العبادية، وفعل المحرمات.

وفيما يعود إلى التصرفات التي تمس حقوق الغير، فلقد بحثوها بحثاً موضوعياً، ودرسوها دراسة واعية في حدود الأصول والقواعد العامة، ووضعوا لكل تصرف يفترض وقوعه الحكم المناسب له، والعقوبة التي تضمن حق الفرد والجماعة، ويعتبرون أن الجرائم بأنواعها تنتهي إلى أن كل عمل مضر بالغير، لا بد وأن يكون المباشر أو المسبب له مسؤولاً عنه ومعاقباً عليه بإحدى العقوبتين أو بهما معاً، والحق أقول: لو قدر للتشريع الإسلامي أن يطبق على أصوله بأمانة وإخلاص، وأيقن كل إنسان أنه إذا قتل متعمداً سيقتل، وإذا ارتكب جريمة معينة سيحاسب ويعاقب وفق المبادئ الشرعية المقررة في الفقه الإسلامي،

لوجد الناس أنفسهم تجاه هذا القانون الذي لا يحابي ولا يجامل، ولا يميز أحداً على أحد مهما كان لونه ونسبه، لو طبق فإن لم يستأصل الجريمة، فمن المؤكد أنه سيكون خير رادع عن انتشارها وشيوعها، والقرآن الكريم نفسه قد ألمح إلى هذه الناحية بقوله: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[1].

الحق، لو قدر للتشريع الإسلامي أن يطبق على أصوله بأمانة وإخلاص، وأيقن كل إنسان أنه لو ارتكب ما يخالف الشريعة والأعراف الاجتماعية سيعاقب، وأنه لا يحابي أحداً ولا يجامل صغيراً ولا كبيراً، ولا يميز أحداً مهما كان لون ونسبه، فمن المؤكد عقلاً وشرعاً أنه سيكون خير رادع عن انتشار الجريمة وشيوعها في الوسط الاجتماعي.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٧٩، لقد أسهب الأستاذ هاشم معروف الحسني القول عن غاية الإسلام من إقامة الحدود والتعزيرات، عن طريق المسؤولية الجزائية في الإسلام في كتابه (المسؤولية الجزائية في الفقه الجعفري) فراجع.

الفصل الثاني

الجريمة والعوامل الاجتماعية

الجريمة والعوامل الاجتماعية

لعل أبرز مظاهر الظاهرة الإجرامية التي وجدت على الأرض، متمثلة في عملية الصراع الدائر بين طبقات البشر مع بعضها البعض، منذ أن قتل قابيل هابيل عليه السلام، وقاوم إدريس عليه السلام تفشي الظلم والإجحاف بحقوق الإنسانية المعذبة في عصره، وأغرق الله قوم نبيه نوح عليه السلام نتيجة تمردهم وعصيانهم وفسادهم على الأوامر الإلهية، ووقف نبي الله موسى عليه السلام في وجه الطغيان الذي نشره فرعون وزمرته، ووقف عيسى في وجه مستكبري اليهود وما صنعوه من العقائد الفاسدة، وانتشار العنصرية الحمقاء، ومعاناة رسول الله محمد ﷺ في تبليغ الدعوة إلى الله وإصلاح الأمة وإخراجها من الظلمات إلى النور، وجهود الإمام علي وأهل البيت عليهم السلام في وجه المعارضات الباطلة التي اتخذت الدين مطية لتنفيذ مؤامراتها ضد الدين والأمة والمبادئ.. و.. الخ.

كل ذلك كان كافياً في دراسة الظاهرة الإجرامية في تاريخ البشرية، لأن الظاهرة الإجرامية التي تحدث هنا أو هناك ما هي إلا (صراع الحق مع الباطل)، و(صراع الفضيلة مع الرذيلة)، كل ما هنالك تبديل أزيائه وأشخاصه وزمانه، ولكنه لايبدل جوهره وهدفه.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ

يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾[1].

الجريمة عند علماء الإجرام:

ودرس علماء الإجرام الظاهرة الإجرامية في البشر من عدة زوايا مختلفة، باستظهار الأسباب التي تؤدي إليها، مع ذلك فهم يختلفون بعض الشيء في تحديد مدلول السبب في هذا العلم، فالبعض يعتنق فكرة السبب الأوحد، فيفسر الجريمة على أنها ثمرة عامل واحد ينبغي توفره في كافة حالات الإجرام، ومثاله: ما يذهب إليه العالم الغربي (سونتر لين) من أن الجرائم يمكن تفسيرها على نحو ما بأنها نتيجة لنوع من الاختلاط السيئ، فالمجرمون يكتسبون نموذجاً معيناً من السلوك خلال اختلاطهم بغيرهم من المجرمين، وطبقاً لهذه النظرية يصبح سبب الظاهرة الإجرامية بمثابة السبب الأوحد الذي يقود إلى ارتكاب الجرائم في المجتمع.

غير أن النظرية السائدة لدى علماء الاجتماع، وبالخصوص المتخصصين منهم في علم الجريمة، يرون نظرية تعدد الأسباب، ومؤدى هذه الفكرة أنه لا يمكن الاعتراف لعامل معين بأهمية في كافة حالات الإجرام، فالجريمة التي تقع على الأرض في أي مجتمع كان، وفي أي زمان ارتكبت، هي ثمرة تضافر عوامل متنوعة، وتأثير في كافة حالات الإجرام المختلفة، لذلك ذهب كثير من العلماء إلى دراسة النظرية القائلة بـ(تعدد الأسباب)، فقال أغلب علماء الإجرام: نحن نفضل الأخذ في الدراسات الإجرامية بالنظرية القائلة بتعدد الأسباب، إذ أنها

---

(١) سورة الحج، الآية: ٤٠.

تسمح لنا بتحديد الأسباب الحقيقية التي تساهم في خلق ظاهرة الجريمة في الوسط الاجتماعي، والإحاطة بها جميعاً وتحديد الدور الذي يلعبه كل منها في كل حالة على حدة، فيكون اختيار التدابير الواجب اتباعها مع المجرم، بقصد إصلاحه وتأهيله اجتماعياً مبنياً على أسس سليمة[١].

الجريمة أسباب وتقسيمات:

قسم علماء الجريمة العوامل والأسباب المتعددة التي تُسبب انتشار الجريمة في الوسط الاجتماعي إلى عوامل مختلفة، وكل عامل له نظرياته ومؤيدوه وناقدوه أيضاً، وهذا التقسيم يرتكز على عوامل داخلية سببت انتشار الجريمة وتواجدها في الوسط الاجتماعي، وعوامل خارجية ساهمت في إيجادها واستفحالها لدرجة قد يصعب على البعض أن يجد لها علاجاً شافياً. وهي كما يلي:

العوامل الداخلية للجريمة:

١ ـ التكوين العقلي والطبيعي للمجرم:

ترتكز هذه العوامل الداخلية على بعض النظريات التي طرحها علماء الغرب، وهي مدارس قالت بنظرية (التكوين الطبيعي للمجرم)، وسعت بكل وسائلها العلمية الممكنة إلى إثباتها، بعد دراسات مخبرية وميدانية قامت بها هذه المدارس، وملخص القول فيها: إن حملة هذه النظرية يقولون بوجود علاقة وثيقة بين الجريمة وبين التكوين الطبيعي للمجرم، وسماته البيوليوجية، بحيث إن المجرم يتميز بخصائص بيولوجية معينة تؤثر في شخصيته، وتحدد سلوكه الإجرامي، مما جعله يتميز عن سائر الناس بنمط معين، كالشذوذ الجنسي، أو النقص البيولوجي.

---

(١) دروس في علم الإجرام، د. عمر السعيد: ص ٢٨.

وركز العالم الغربي (جال وهور) ثوابت هذه النظرية عبر الدراسات المخبرية والتحليلية التي قام بها على بعض الشاذين، فوجد أن الشكل الخارجي للجمجمة مختلف بعض الشي، والعقل له إمكانيات محدودة في الفهم، بحيث يسخر العقل التفكير نحو ارتكاب الجريمة، بغض النظر عن مكانها أو على من تقع، فإن نتيجة ذلك تكون الخيانة، فغريزة التخريب والقتل تقابلهما جرائم القتل والاغتيال، والغريزة الجنسية تقابلها جرائم الاغتصاب وغيرها من الجرائم.

ويرى المنظر والمفكر الغربي (المبروزو) أن التكوين العقلي، والجسمي للمجرم له دلائل واضحة على شغفه بارتكاب الجرائم، وأرجع ارتكاب بعض الجرائم إلى الفطرة التي نشأ عليها الإنسان، وذهب العلماء في معارضة هذه النظرية إلى أنها تفتقر إلى الأسانيد العلمية التي تؤكد توافر ما يسميه بعلامات الرجعة في الإنسان الأول، لأن معلوماتنا عن الإنسان البدائي قليلة جداً.

وذهب بعض الغربيين إلى القول بنظرية التحليل النفسي، والتي تعتمد على دراسة عوامل الإجرام في النفس، عن طريق تتبع أثر العوامل الداخلية والخارجية المختلفة على النفس، بحيث تشكل عقلية الإنسان لتصبح عقلية أو نفسية مضادة للمجتمع، وهي تنقسم إلى جانبين في الدراسة للنفسية الإنسانية، المدرسة القائلة: بالنظريات التحليلية، والمدرسة القائلة بالنظريات النفسانية.

وكان رائد هذه المدارس (فرويد) الذي يذهب إلى القول بهذه النظرية: إن النفس ذات الشهوة، ويرمز لها بكلمة (id) ومعناها (هو) ويعني بها الميول والدوافع والغرائز الموروثة، وهي مستودع الشهوات الجنسية والرغبة في الموت، وهي منساقة وراء اللذة وإشباع الشهوات، ولا تعترف بمنطق أو عقل أو قيمة.

وأما عن حديثه عن الذات الشعورية أو الحسية أو العقلية ويرمز لها (ego) ومعناها (الأنا) وهو يتألف من مجموعة الملكات العقلية أو الفكرية المستمدة من نزعات النفس بعد تهذيبها وتطويرها لمقتضيات البيئة والحياة الاجتماعية.

وأما عن الذات المثالية أو الضمير ويرمز لها بكلمة (super-ego) وهي تعني: المثل الموروثة من المدنيات السابقة، والمثل المكتسبة من الوالدين.

وملخص ما يتوصل إليه (فرويد) في نظرياته النفسية التحليلية لظاهرة الإجرام في العنصر البشري هي: كل سلوك إنساني هو نتيجة دافع، شعورياً كان الدافع أو لا شعوري، ودوافع الإنسان يحكمها مبدآن هما (مبدأ اللذة، ومبدأ الواقع) وثمة صراع مستمر بين المبدأين(١).

والملاحظ أن فرويد خدم علم النفس التحليلي خدمة كبرى، إذ تمكن من الكشف عن مكنونات النفس البشرية، وبيّن جنبات النفس الشعورية، مع ذلك فعلى أغلب نظرياته العلمية ردود ونقد من العلماء العارفين، لسنا هنا في صدد الحديث عنها، ولكن في معرض النقد على نظريته الإجرامية التي ذهب إليها نأخذ عليه مايلي:

أولاً: إن فرويد حينما جعل السلوك الإجرامي وليد الصراع بين الذات الدنيا (أو اللذة الشهوية) والذات العليا، أو وليد عقدة من العقد التي اعتادها قد وقع في ما وقع فيه الآخرون: عندما ردوا الظاهرة الإجرامية إلى الأمراض العضوية من زاوية أحادية الجانب.

وثانياً: إنه رد السلوك الإجرامي إلى النزعات المخزونة في النفس منذ أيام الطفولة، وجعل محور هذه النزعات الغريزة أو الدافع الجنسي،

---

(١) علم النفس الجنائي، د. محمد فتحي: ص ٧١.

ولا فائدة ترجى من تفسير الظاهرة الإجرامية، لأننا كلنا مجبولون على هذه الأنواع من الغرائز والشهوات والأمراض!!فلماذا العلاج إذن؟؟!

٢ ـ عامل الوراثة:

لقد كرس الباحثون جهودهم العلمية والمخبرية، لمقارنة ودراسة الأدوار الوراثية والبيئية في خلق مناخات ارتكاب الجريمة في المجتمعات، وقد اتبع الباحثون أساليب متعددة في سبيل الوصول إلى إثبات وراثية الإجرام، وأهمها:

أ ـ المقارنة بين المجرم وبين الإنسان البدائي، أي دراسة إمكانية وجه المقارنة بين المجرمين والإنسان البدائي الأول، والحيوانات والوحوش، ومدى وراثية عوامل الإجرام بينهم.

ب ـ فحص أشجار العائلة: ومقارنة جرائم المجرم مع بقايا بأشجار العائلات التي ينتمي إليها غير المجرمين، ولعل من أشهر هذه الدراسات، الدراسة التي قام بها العالم الغربي (اتبروك) في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، وقد اتضح له من خلال هذه الدراسة، أنه من أفراد الأسرة المذكورة الذين يبلغ عددهم ١٢٠٠ شخص، وجد ١٣٠ مجرماً، منهم سبعة أدينوا من أجل ارتكاب القتل، وستون من أجل السرقة، وخمسون من أجل الدعارة..

وهذه النظرية ليست متقنة تماماً، وعليها نقود كثيرة من قبل العلماء، ولعل أبسط رد عليها أن الصفات أو العلامات تبدو في أجيال متعاقبة، ولكنها لا تثبت لنا أن تلك العلامة أو الصفة ذات صفة وراثية.

ج ـ قياس التشابه في الجريمة بين الآباء والأمهات: حاولت بعض المدارس التي درست مسببات الجريمة، أن تعيد ارتكاب الجريمة بالنسبة للمجرم لأسباب التشابه بين المجرم وأبيه أو أمه أو إخوته أو أخواته،

وهذه الدراسة التي قام بها العالم الغربي (جورنج) قال فيها: إن هناك تشابهاً بين المجرم والآباء أو الأمهات.. وهذه النظرية أيضاً لم تسلم من النقد، تعرض لها العلماء في مصادرهم وأبطلوها[١].

نظرة الإسلام إلى عامل الوراثة:

عرّفت المصادر الإسلامية العامل الوراثي بأنه: ميل طبيعي في الفرع لمشابهة أصله في تكوينه الجسماني، وفي وظائف أعضائه، وحددها جماعة من علماء الوراثة فقالوا: إنها مشابهة الفرع لأصله[٢]، ويتفق علماء النفس والتربية مع هذا التعريف، إذ أن الإنسان في بدء حياته وتكوينه، إنما هو خلية صغيرة واحدة تسمى (يجوب)، وهذه الخلية هي أعجب ما في هذا الكون، من أغمض الأسرار وأدقها، وتدل على عظيم قدرة الله تعالى، وهي تنشأ نتيجة عملية إخصاب بين خليتين هما في غاية الدقة: (البويضة، والحيوان المنوي)، وعندما تتحد هاتان الخليتان تنتجان نواة فرد جديد، وفي تلك اللحظة يقضى بأن سيكون ذكراً أو أنثى، طويلاً أو قصيراً، ذكياً أو غبياً، عسلي العينين أو أزرقهما، ففي هذه الخلية تنطبع جميع الصفات والمميزات، ولا يمكن أن تتغير، فالوراثة إذن هي: مجموعة المميزات التي تتركز في البويضة المخصبة، لذلك أكد العلماء على حجم التشابه الذي يتم بين الآباء والأمهات وبين الأبناء؛ حيث يكون عندها مصداقاً للنتيجة التي توصل لها العلماء: مشابهة الفرع للأصل في مظاهره الشكلية، وخواصه الذاتية، وهو أمر حاصل بين جميع الكائنات الحية[٣].

---

(١) دروس في علم الجريمة، مصدر سابق: ص٤٥.
(٢) النظام التربوي في الإسلام، الشيخ القرشي: ص٥٥.
(٣) القرشي، مصدر سابق: ص٥٧.

واكتشف الإسلام ظاهرة الوراثة، قبل أن يكتشفها علماء النفس والوراثة أنفسهم، حيث أشارت كثير من النصوص المروية عن أهل البيت عليهم السلام إلى حقيقتها ومعالم أثرها على الإنسان ونسله. قال تعالى في قصة نبي الله نوح عليه السلام وهو يصف كيف يلعب هذا العامل دوره الفعال، في تكوين جيل مفسد في الأرض، على غرار آبائه وأمهاته: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا * إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾[١].

وقال الرسول الكريم صلى الله عليه وآله: «الشقي شقي في بطن أمه والسعيد سعيد في بطن أمه»[٢].

وكلا الدليلين يدلان على أثر العوامل الوراثية في تكوين شخصية الإنسان، منذ تكوينه جنيناً في بطن أمه، ونشأته على تقاليد أسرته من الآباء والأمهات والفروع التي ترتبط بهما.

واهتم أهل البيت عليهم السلام عبر توجيهاتهم المتكررة لأتباعهم من المسلمين والمؤمنين اهتماماً بالغاً في ذلك، وأولوا هذه الناحية الجهد المتزايد، فقد جاء عن إبراهيم الكرخي أنه عندما أراد أن يتزوج نصحه الإمام الصادق عليه السلام بقوله: انظر أين تضع نطفتك، ومن تشركه في مالك، وتطلعه على دينك وسرك، فإن كنت لا بد فاعلاً فبكراً تنسب إلى الخير، وإلى حسن الخلق... فإن الخال أحد الضجيعين[٣].

والحاصل: ليس هناك من العلماء الإسلاميين الذين درسوا الفقه الإسلامي، واطلعوا على أقوال وتعاليم وسيرة النبي صلى الله عليه وآله وأهل

---

(١) سورة نوح، الآية: ٢٧.
(٢) البحار: ج ٣ ص ٤٣.
(٣) الوسائل: ج ١٤ ص ٢٩.

بيته ﷺ واجتهادات الفقهاء في هذه الزاوية، من يعتقد بأن ظاهرة الإجرام تورث فيما يرثه الإنسان من صفات وعيوب، وإنما نحسب أن الإنسان، يولد وهو يحمل في بعض الأحيان بعض الصفات التي تعرقل عملية أهليته الاجتماعية، وأنه يكتسب أثناء طفولته، صفات تعوق وصوله إلى الكمال..

والوراثة ليست كل القضية، وهي لا تفرض على الإنسان أي شيء إلا بقدر استجابته لها، فالقيادة الحقيقة للإنسان إنما هي بيد إرادته، وهي بالطبع منطقة حرة لا تستطيع أية قوة من القوى إجبارها على سلوك معين.

والإنسان ليس عبداً لسلوك وصفات والديه، ولا يولد مجبوراً على طريقتهما في الحياة، بل إنه قادر على أن ينتهج طريقاً مناقضاً لطريقهما.

وكم رأينا من الآباء الصالحين الذين فسد أبناؤهم وانحرفوا عن خط السماء؟ وكم رأينا من الآباء المنحرفين والمنغمسين في الفساد والجريمة، قد نهج أولادهم طريق الصلاح والخير في الحياة..

ونحن نجد في قصة موسى والخضر المذكورة في القرآن، قصة الأبوين الصالحين اللذين كان انحراف ولدهما محتماً لولا أن عاجله الخضر بضربة قاضية أنقذته وأنقذت والديه من عذاب الجحيم. وأشار القرآن الكريم لهذه الحقيقة بقوله: ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا﴾[1]، وكان الجواب: ﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾[2].

(١) سورة الكهف، الآية: ٧٤.
(٢) سورة الكهف، الآية: ٨٠.

وإذا كانت الأمراض الجسدية ـ وهي أمور لا اختيار للإنسان فيها ـ غير حتمية الانتقال من الآباء إلى الأبناء، كما قرر ذلك الباحث النفسي الدكتور الكسيس كارليل، وهو طبيب نفساني شهير، إذ يقول: تنتقل أمراض معينة كالسرطان، والسل، و. . و. . من الآباء إلى الأبناء، ولكن كاستعداد فقط، وقد تعوق أحوال النمو ظهور هذه الأمراض[١].

إذن: فلا يصح أن يبرر الواحد منا قائلاً: إن أبي كان منحرفاً، أو متخاذلاً، أو كسولاً، وإن عليَّ ان أكون كما كان، وإن ذلك قدر محتوم لا أستطيع الانفكاك منه، ذلك لأن الإنسان حر، ولا يستطيع أي عامل خارجي إجباره على نمط معين في حياته[٢].

لقد عالج الإسلام ـ ديننا الحنيف ـ عبر نافذة التوجيهات الدينية والتربوية والعلمية، القضايا الانحرافية السلوكية في المجتمع الإسلامي، وفق نظريات القرآن الكريم، باعتباره الدستور والمنهج الوحيد الذي تمكن من صقل مواهب الإنسان، وسعى بكل نظرياته الأخلاقية أن يحصنه ضد مستنقعات الرذيلة والانحراف الأخلاقي، الذي استشرى في جسد الأمة الإسلامية، حتى أصبح المعروف منكراً والمنكر معروفاً، وتفككت الأسرة وانحلت قيمها، وأصبح تقليد الغرب والمستعمر ثقافة عالية، ينبغي السير وفقها وعلى غرار منهجها الهابط.

وربما يعزى نجاح النظرية القرآنية، في تحليلها ومعالجتها لظاهرة الانحراف الاجتماعي إلى أسباب رئيسية، لم تلتفت إليها النظريات الاجتماعية المعاصرة، كنظريات (الانتقال الانحرافي) و(القهر

---

(١) الإنسان ذلك المجهول: ص ١٩٦.

(٢) للتعرف على هذا الموضوع وإثباته عن طريق البراهين العلمية راجع كتاب إرادة الإنسان، آية الله السيد محمد رضا الشيرازي.

الاجتماعي) و(الضبط الاجتماعي) و(الإلصاق الاجتماعي). . والنظريات القرآنية تختلف تماماً عما تناولته النظريات المعاصرة في ظاهرة معالجة الانحراف الاجتماعي العام. .

نظريات القرآن في المعالجة الانحرافية:

الصعيد الأول الذي اهتم به الإسلام هو: العدالة الاجتماعية، إذ اعتبرها الأساس في بناء المجتمع الإسلامي السليم من الانحرافات السلوكية القائمة على الأسس الاقتصادية أو السياسية، كالغضب والغصب والسرقة والاعتداءات على حقوق الآخرين، وهذا الذي جعل المدارس الاقتصادية الغربية تنادي بعدم العدالة الاجتماعية، فقد ذهبت المدرسة التوفيقية والمدرسة الماركسية، والمدرسة التلفيقية، ومدرسة (ماكس ويبر) وغيرهم من المدارس الكثيرة في العالم الغربي، لعدم نشر مبادئ العدالة الاجتماعية في الوسط الاجتماعي، بل ينبغي على المجتمعات أن تقوم وتبني دعائمها على أسس الطبقية والعنصرية. .

فالمدرسة التوفيقية بمدارسها الثلاث (إميل دوركهايم)و (هربت سبنسر) و(تالكوت بارسنس) تؤمن بكل قوة بأن انعدام العدالة الاجتماعية الناتج من فوارق أجور العمل والمكافآت الاجتماعية، يساعد بشكل حتمي على ثبات واستقرار النظام الاجتماعي. .

والمدرسة الماركسية تقول: إن انعدام العدالة الاجتماعية ما هو إلا نتيجة حتمية للصراع الطبقي الدائر على الساحة الاقتصادية. .

بينما ترجع النظرية الإسلامية بواعث الجريمة إلى الأسس التي يتربى وينشأ فيها الإنسان، وهي أسرته، لما لها من أهمية كبرى في بلورة عقائد وأفكار ومفاهيم الإنسان، منذ تكوينه الأول، ووجوده على مسرح الحياة البشري، لذلك يولي الدين الإسلامي الأسرة عناية فائقة،

لإدراكه أهمية الدور الذي ينبغي أن تلعبه تلك المؤسسة على الساحة الاجتماعية. قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾(١).

(١) سورة الروم، الآية: ٢١.

الفصل الثالث

الأسرة وبواعث الجريمة

الأسرة وبواعث الجريمة

هناك أماكن مصغرة محيطة بالإنسان، قد تكون البوادر الأولى التي تخلق في الإنسان البواعث على الإجرام، وهذه الأماكن هي الإطارات أو المجتمعات الصغيرة التي يحتك بها الإنسان منذ مولده، ومنها يشرب روح المجتمع ونظامه، ويشكل حياته ويصوغ سلوكه.

والمجتمعات الأولى في حياة الإنسان هي: مجتمعات الأسرة، والمدرسة، والعمل، وسوف نتناولها بشيء من التفصيل، لأنها العمدة في دراسة الظواهر الإجرامية في حياة البشر كافة.

مجتمع الأسرة:

الأسرة في نظر الشارع المقدس لها أهمية كبرى، فالإسلام يشكل النظم التربوية والعلمية والأخلاقية، والقواعد الأساسية التي ترتكز عليها الأسرة في ميادينها التربوية، لأن التربية ضرورة حتمية لتحقيق الإسلام، ورفع رايته خفاقة في كل مكان وزمان، والمؤمن كما هو مسؤول عن إيمانه ومتطلبات حياته المادية والمعنوية، كذلك هو مسؤول عن تربيته للأهل صغاراً وكباراً وفق المعايير الإسلامية الصحيحة، بل ليس فقط أهله، بل كل من يقع تحت نفوذه، ويتساير مع سلوكياته على سبيل الدوام، يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا

ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[١]، فأنا كمسلم مسؤول عن تربيتي لنفسي أولاً، ومن ثم مسؤول عن تربية أسرتي ومن يلوذ بي، ومن ثم يأتي المجتمع الذي يشاطرني العيش، كما أنا مسؤول عن إيمان وتربية أخي وابني وبنتي، لأنها ليست مسؤولية فردية بل هي على المؤمن مسؤولية عامة، بعد تحقيق الفردية التربوية على النفس والأهل والجيران والمجتمع.

بل إن الشارع المقدس يحمل المؤمن مسؤولية التربية ونشر معالمها الصحيحة على جميع الناس في الأرض، فهو صاحب رسالة ودعوة وأمانة من أمته إلى كل إنسان على وجه الأرض، فأينما حل أو ارتحل كان عليه أن يبشر بهذه الرسالة التربوية العلمية الأخلاقية الهادفة، ويدعو الناس إليها، فلا يختلف إنسان عن إنسان، ولا أرض عن أرض، فالدعوة للجميع، فمن آمن فلنفسه ومن كفر فإلى الجحيم. يقول تبارك وتعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[٢]، وهذا يعني بالضرورة أن تكون مصادرنا التربوية التي نعتمد عليها في رعاية الناشئ في جو الأسرة ومن يكونون تحت نفوذنا من أهل وأصدقاء وجيران ومجتمع، مصادر الإسلام التي اعتمد عليها الأوائل من الأئمة عليهم السلام والعلماء رضوان الله عليهم، وهي القرآن والسنة المطهرة، التي تمثلت في سلوكيات النبي وأهل بيته عليهم السلام وصحابته الميامين والعلماء العاملين.

---

(١) سورة التحريم، الآية: ٦.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٤٣.

الأسرة من منظور قرآني:

فالقرآن الكريم قد ترك بلا شك في رسول الله ﷺ وأهل بيته عليهم السلام وصحابته الكرام رضوان الله عليهم، الأثر الأكبر من معالم التربية الإسلامية، التي أمر الله نبيه ﷺ أن يربي بها صحابته الأجلاء، وقد شهدت بذلك عائشة زوج رسول الله ﷺ فقالت في وصفه: (كان خلقه القرآن)، بل إن شهادة الحق تبارك وتعالى قد سبقت كل شهادة، قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾[1]، فها هنا إشارتان تربويتان هما:

١ ـ تثبيت الفؤاد وترسيخ الإيمان.

٢ ـ تعليم الترتيل، في قراءة القرآن الكريم، وفيها نزلت التوصيات التربوية صريحة من الله إلى رسوله الكريم محمد ﷺ، وذلك قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾[2]، وحياة رسول الله ﷺ في سلمه وحربه في حِلّه وترحاله في داره وبين أهله وصحابته والناس جميعاً، كلها تشهد بما شهدت به نساؤه وأصحابه، أنه كان خلقه القرآن الكريم، فكان القرآن له الأثر الكبير في صقل سلوكيات المجتمع الإسلامي الذي عايشه رسول الله ﷺ والأئمة الهداة عليهم السلام والصحابة الميامين، والعلماء.

والسر في ذلك أن للقرآن أسلوباً رائعاً ومزايا فريدة في تربية المرء على الإيمان بوحدانية الله وعالم الآخرة، كما وأنه يفرض الإقناع العقلي المقترن بإثارة العواطف والانفعالات الإنسانية، فهو بذلك يربي العقل

---

(١) سورة الفرقان، الآية: ٣٢.

(٢) سورة القيامة، الآية: ١٦.

والعاطفة جميعاً، متماشياً مع فطرة الإنسان في البساطة وعدم التكلف، وطرق باب العقل مع القلب مباشرة.

بحيث يبدأ القرآن الكريم من المحسوس المشهود المسلم به: كالمطر، والرياح، والنبات، والرعد، والبرق، ثم ينتقل إلى استلزام وجود الله وعظمته وقدرته وسائر صفات الكمال، مع اتخاذ أسلوب الاستفهام أحياناً، إما الربانية: كالخضوع، والشكر، ومحبة الله، والخشوع له، ثم تأتي العبادات والسلوك المثالي تطبيقاً عملياً للأخلاق الربانية العالية.

ولعل أوضح مثال على هذا الأسلوب التربوي يتضح في سورة (الرحمن) حيث يذكرنا الله تعالى بنعمه ودلائل قدرته، بادئاً من الإنسان، وقدرته على التعليم، إلى ما سخر الله له من شمس وقمر ونجوم وأشجار وفاكهة وثمار ونبع، إلى ما خلق من السماء والأرض، وعند كل آية عدة آيات استفهامية تضع القارئ أمام الحس والوجدان وصوت القلب والضمير، فلا يستطيع أن ينكر ما يحس به ويستجيب له عقله وقلبه، وقد تكرر هذا الاستفهام ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾[1]، إحدى وثلاثين مرة في هذه السورة المباركة، وفي كل مرة يثير انفعالاً يختلف بحسب الآية التي تسبقه.

السنة المطهرة مصدر ثانٍ للتربية الإسلامية:

كما تعتمد التربية الأسرية على معالم السنة المطهرة التي هي مصدر ثان من مصادرنا التربوية، بحيث ترتشف التربية الإسلامية منها معالمها ومناهجها وضوابطها الشرعية والأخلاقية والعلمية، لأنها هي

---

(١) سورة الرحمن، الآية: ١٣.

بذاتها في تعريفنا لها: إنها الطريقة والأسلوب والنهج، وعند الأصوليين: هي ما نقل عن رسول الله ﷺ وأهل بيته عليهم السلام من قول وفعل وتقرير، فهو حجة على جميع العباد، فما تركه النبي ﷺ وأهل البيت عليهم السلام من أقوال، وأفعال، وصفات، ونهي، وأمر، وما أحب، وما كره، وغزواته وأحواله وحياته كلها عند المسلمين مصدر تربوي كبير ونهج قويم.

لذلك نجد في شخصية رسول الله ﷺ مربياً عظيماً ذا أسلوب تربوي فذ، يراعي حاجيات الطفولة وطبيعتها، ويأمر بمخاطبة الناس على قدر عقولهم، أي يراعي الفروق الفردية بينهم، كما يراعي مواهبهم واستعداداتهم وطبائعهم، يراعي في المرأة أنوثتها، وفي الرجل رجولته وقوامته، وفي الكهل كهولته... فيجود بالمال لمن يحب المال حتى يتألف قلبه، ويقرب إليه من يحب المكانة لأنه في قومه ذو مكانة، وهو في خلال ذلك كله يدعوهم إلى الله وإلى تطبيق شريعته، لتكميل فطرتهم وتهذيب نفوسهم شيئاً فشيئاً، وتوحيد نوازعهم وقلوبهم، وتوجيه طاقاتهم وحسن استغلالها للخير والسمو، من طاقات العقل، وطاقات الجسم، وطاقات الروح لتعمل معاً ضمن نطاق واحد ونحو هدف واحد أسمى، لذلك أدرك العلماء هذه الحقيقة فألفوا كتباً كثيرة حول هذه الحقيقة التربوية في نهج رسول الإنسانية محمد ﷺ[1].

الأعرابي نموذجاً للتربية القرآنية:

دخل أعرابي على رسول الله ﷺ فقال له: يا رسول علمني وهذبني، فطلب منه الرسول الكريم محمد ﷺ التشهد بالشهادتين من

(١) أصول التربية، النحلاوي: ص ٢٦.

ثم أمر الصحابة أن يعلموه القرآن، فقرأ عليه بعضهم مقطعاً واحداً من سورة فقال يكفي! فخرج وعاد إلى أهله، وبعد سنوات رجع إلى رسول الله ﷺ فقال له النبي العظيم ﷺ: أين كنت؟

قال: كنت عند أهلي وأسرتي أعلمهم القرآن.

فقال له رسول الله ﷺ: لكنها آية واحدة.

قال: إنها تكفيني لتربية نفسي وأهلي.

فقال له رسول الله ﷺ: والآن.

قال: يارسول الله جئتك اليوم لأتعلم وأتخلق وأتربى على القرآن وأخلاقك، فطلب النبي ﷺ من الصحابة تعليمه وتربيته، فأصبح من حواريي رسول الله ﷺ.

إذن: التربية القرآنية وسيلة لتحقيق الإصلاح في الأرض والناس، فعبرها يتمكن الآباء والأمهات من غرس بذور التربية والتعليم في حياة جيلهم المعاصر، فالتصاق الإنسان العاصي بالقرآن والمبادئ يمكنه من فتح آفاقه المغلقة، والتي استحوذ عليها الشيطان والهوى والنفس الأمارة بالسوء، فتمكن منه الشيطان وجعله ينزلق إلى الهاوية، فالرجال والنساء والشباب والشابات صغاراً وكباراً يتمكنون من تغيير نفوسهم وحياتهم، والبدء بفتح صفحة جديدة مع الله جل جلاله والنبي ﷺ وأهل البيت عليهم السلام، وأن يسعوا جاهدين من أجل تطبيق مبادئ التربية القرآنية والأخلاق المحمدية ومعالم العترة الطاهرة عليهم السلام فكونوا من أهل رضوانه إن شاء الله تعالى.

وسلطنا الأضواء في الصفحات السابقة على أهمية الأسرة في القرآن والسنة المطهرة، وعند علماء الاجتماع، وقلنا إن الأسرة تلعب

دوراً خطيراً، ومهماً في خلق المناخات الصالحة أو الفاسدة، وهذان يعتمدان على الأساليب التربوية الصحيحة التي تعتمد بدورها على أسس الدين الحنيف في تربية الإنسان، ويجد القارئ لتاريخ الرسالات السماوية الإلهية أنها كلها رسالات تربوية، تستهدف تربية الإنسان وإعداده للعيش في عالمي الدنيا والآخرة سعيداً منعّماً كما أراد الله سبحانه وتعالى له أن يعيش.

والرسالة الإسلامية بما أنها كبرى الرسالات، وخاتمة الشرائع، لذا كان اهتمامها بالغاً وشديداً بإعداد الإنسان وتربية نفسه وأهله، بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[1]، ففي هذه الآية الكريمة أمر الله سبحانه عباده المؤمنين بتربية أنفسهم وأهليهم، من أبناء وزوجات، وعمات، وخالات... إلخ، لتكوين الفرد الصالح والأسرة الصالحة، تمهيداً لبناء مجتمع إسلامي قويم.

وقد استجاب المؤمنون لهذا النداء، وتأثروا به تأثراً شديداً. فقد روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: لما أنزلت هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ جلس رجل من المؤمنين يبكي، وقال: أنا عجزت عن نفسي وكلفت أهلي.

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله له: حسبك أن تأمرهم بما تأمر به نفسك، وتنهاهم عما تنهى نفسك[2].

---

(١) سورة التحريم، الآية: ٦.

(٢) تفسير الميزان، تفسير سورة التحريم.

وجاء في تفسير هذه الآية عن الصادق عليه السلام: علموا أنفسكم وأهليكم الخيرَ وأدبوهم عليه[١].

وجاء في روايات وأحاديث، وتوجيهات تربوية أخرى، ما يؤكد اهتمام الإسلام وحرص المسلمين على الأسرة وتربية الأبناء والاهتمام بتنشئتهم وإعدادهم وفق متطلبات الدين والتعاليم الإسلامية.

وسوف نتعرف على ذلك المنهج الإسلامي في الصفحات الخاصة بالعلاجات الدينية لظاهرة الإجرام في المجتمعات الإسلامية.

الأسرة وبواعث الجريمة:

في هذا المجتمع المصغر يبدأ تشكيل الإنسان وفق متطلبات ومتغيرات وبروتوكول معين، يرتكز على العقلية النفسية، والعقلية الفكرية، والعقلية الاجتماعية التي تعتمد بدورها على أفراد الأسرة، الأم، والأب، الإخوة، الأخوات، ثم عملية التكيف الأولى، ولا شك أن ما يعرفه الطفل في هذا المجتمع الصغير من العوائق، تعرقل ثمرة الاجتماع، لما لها من أثر خطير على مستقبل حياته، وبالتالي ترتبط بعوامل وبواعث الظاهرة الإجرامية الاجتماعية المرتبطة عندها بعامل التربية الأسرية.

تؤكد الدراسات العلمية الميدانية التي قامت بها اللجان المتخصصة في دراسة علم الجريمة والإجرام في المجتمعات الإسلامية، أن النمو الاجتماعي للطفل داخل أسرته والأساليب التربوية التي يتعامل بها أرباب الأسر مع الأطفال، بالخصوص الصلات ووشائج العلاقات بين الأم والأب من جهة وبين الأبناء بمختلف رتبهم من جهة ثانية، لها علاقة بالجريمة الاجتماعية في الوسط الاجتماعي كمّاً وكيفاً.

---

(١) المصدر السابق.

وإذا تحقق لسبب أو لآخر فقدان العلاقة السليمة بين الأم وطفلها سيؤدي ذلك إلى إصابة الطفل ببواعث انحرافية خطيرة، مما تحدث له اضطرابات طبيعية ونفسية غاية في الخطورة، وقد تؤدي بالطفل إلى مرض الشيزوفرينا على وجه الخصوص، بيد أن ذلك لا يدخله في عداد المجرمين الحقيقيين فحسب، بل في عداد المرضى العقليين أيضاً[١]، هذه المرحلة من عمر الطفل تعد خطيرة وصعبة على الأسرة، فالأم التي لا تكون مستقرة نفسياً وعاطفياً وجنسياً واقتصادياً في أسرتها، لا تكون علاقتها بأفراد أسرتها علاقة حميمة، وبالتالي تولد لأفراد أسرتها العاهات النفسية والاضطرابات العقلية والعاطفية، مما يساهم مساهمة كبرى في تكوين الإنسان مجرماً اجتماعياً في المستقبل، ولذلك حدد أحد علماء التربية والاجتماع عبر دراسة قام بها في مجتمع إسلامي ظاهرة الإجرام، وأكد أن فقدان هذه الصلة بين الأم وأفراد أسرتها عامل قوي في دفع أفراد الأسرة نحو إيجاد البدائل العاطفية، والعلاقات الجنسية، والجرائم الاقتصادية.

يقول الفيلسوف برتراند رسل: إن الأسرة انحلت باستخدام المرأة في الأعمال العامة، وخروجها أغلب أوقاتها وغيابها في عملها، وأظهر الاختبار أن المرأة تتمرد على التقاليد الأخلاقية المألوفة، مما يسبب استفحال الجرائم في العالم البشري، وأن فقدان الحنان، والحب، والتعامل الخشن كانت عوامل وبواعث على الإجرام الاجتماعي[٢].

ونظراً للعلاقات الوثيقة التي تربط أفراد الأسرة بالآباء والأمهات في الفترة التي يستحيل أن يعتمد الأبناء على أنفسهم، وفي خلال فترات

(١) ستيفان وليفاسير، علم النفس الاجتماعي: ص ٣٤.
(٢) مجلة حضارة الإسلام، السورية، العدد الثامن.

لاحقة تستمر عدة سنوات، تلعب الأسرة دوراً هاماً في تحديد نماذج السلوك التي سوف يتبعها الطفل في المستقبل مع المجتمع والأصدقاء والجيران، بل إن الأسرة لما لها من دور مهم في خلق المناخات العلمية والسلوكية والأخلاقية، فهي الوكالة الأولى التي تحدد معالم شخصية الإنسان. وهذا ما جعل الدارسين لعلم الجريمة يتجهون إلى تحديد العلاقة بين ارتكاب الجريمة وبين مختلف الظروف العائلية، وبصفة خاصة تلك التي تتصل بنظام الأسرة وبتربية الأبناء.

الظروف العائلية تسبب ظاهرة الإجرام:

تدل الدراسات الإحصائية المقارنة على أن الأسرة التي ينحدر منها المجرمون الأحداث تتميز غالباً بظرف أو أكثر من الظروف التالية:

١ ـ إجرام بعض أفراد الأسرة:

إن أحد العوامل الأساسية التي تبعث على الجريمة في شخصية الإنسان المجرم، التأثيرات الواضحة التي تخلفها الأسرة في شخصية الطفل، وهذا التأثير يبدو واضحاً لما درس وسمع وقرأ عن الجريمة في الوسط الاجتماعي، فكم وكم رأينا بعض الأفراد الصغار يرتكبون جرائم يندى لها جبين الإنسانية، من القتل، والسرقة، والاغتصاب، والتمرد على المبادئ الشرعية، ومحاربة الأنظمة القانونية، ومخالفة الأعراف الاجتماعية، وبتتبع هذه الحالة نجد أن هذا الفرد نشأ في أسرة ربها مدمن للمخدرات، والمسكرات، وربما لا يتورع عن معصية صغيرة كانت أم كبيرة، في السر أم في العلانية.

وقد استخلص العالم الغربي (بورت) من دراسة أجراها في انجلترا سنة ١٩٤٤م أن نسبة الإجرام في أسر المجرمين الأحداث تزيد على خمسة أمثال نسبته في أسر الأحداث غير المجرمين. . كذلك أوضح أن

٨٦،٧٪ من المجرمين الأحداث الذين أجرى عليهم دراساته قد تمت تربيتهم في عائلات كان بعض أفرادها مجرمين، كما لاحظ في دراسة أجراها على ٥٠٠ مجرم حدث ومقارنتهم بخمسمائة آخرين من الأحداث غير المجرمين أن ٩٠٪ من المجرمين الأحداث تنتشر في أسرهم ظاهرة الإجرام والإدمان على المسكر، بينما نسبة الإجرام والسكر في عائلات الأحداث غير المجرمين لاتتجاوز ٥٤٪[١].

وذكرت مجلة الدراسات الأمنية الصادرة في كلية الأمير نايف في عددها العاشر: بعد دراسة دقيقة على المجرمين الذين ارتكبوا عدة جرائم في سن صغيرة (أحداث)، تبين لنا أن أغلبهم كانوا يعيشون في أسر عادة ما يكون أحد أفرادها أو ربها مدمناً على المخدرات أو السكر أو الجرائم الأخرى.

من هنا يتضح أن الأسر التي يتربى فيها المجرمون هي في الغالب أماكن توجد بها نماذج إجرامية، وأن الاتجاه إلى إصلاح هذه الأسر وانتشالها من بؤرة الإجرام يساعد المجتمع على خلق جيل سوي السلوك، قادر على إصلاح نفسه، ومن ثم مجتمعه نحو حياة أفضل، وهذا مناط مسؤولية على اللجان الإصلاحية من الدول والحكومات، والمؤسسات الخيرية والدينية والعلمية.

٢ ـ تصدع شمل العائلة:

يتعلم الأطفال من أولى دروس الحياة، كما تعتبر حياة الأسرة بالنسبة لهم مدرسة يتعلمون فيها كل شيء، حيث تتراكم في نفوسهم القيم والمواقف والمشاعر والعواطف من خلال سلوكنا وتصرفاتنا؛ ولذا

---

(١) دروس في علم الجريمة، مصدر سابق: ص١٠٩.

فإننا سنكون نماذج وأمثلة يقتدون بها ويقلدونها، حتى لو حاولنا منعهم عن ذلك؛ وفي هذه السن الحرجة فإن الأطفال سيكونون أشبه بأجهزة تسجيل دقيقة تضبط كل أقوالنا ومواقفنا، ولذا فإننا سنكون نماذج سيئة إذا أَسأْنا التصرف قولاً أو عملاً. وإن الحياة الزوجية التي يسودها الاضطراب والنزاع وعدم الاستقرار، ستخلق أطفالاً مضطربين ومهزوزين نفسياً؛ وفي هذه الحالة يتحمل الوالدان مسؤولية ما ينشأ عن ذلك من أضرار في بناء وتكوين شخصية أبنائهم.

لقد أثبتت الدراسات أن أكثر من ٨٠٪ من الاضطرابات العاطفية والنفسية لدى الأطفال، إنما نشأت بسبب بعدهم أو فقدهم لأمهاتهم، سواء أكان موتاً أم طلاقاً بل وحتى سفراً طويلاً.

نعم إن المشكلة الكبرى هي الطلاق، ذلك أنها تحرم الطفل من ذلك النبع الفياض بالحب والحنان. وإنه لنوع من الأنانية أن يسعى كل من الزوجين إلى حل مشكلاتهما عن طريق الطلاق دون أن يحسبا أي حساب للمشاكل المعقدة التي سوف تواجه أطفالهما من جرّاء ذلك.

إن النزاع لا يؤدي إلى تصدع العلاقات الزوجية فحسب، بل تتعدى آثاره إلى إحداث تصدع فكري ونفسي، من إحساس أحد الزوجين بأنه يرد اعتباره أو أنه يحقّق وجوده من خلال إيذاء الآخر، إلا أنه في الواقع يؤذي نفسه أيضاً، ويوجه إليها طعنات نجلاء سوف تظهر آثارها في المستقبل؛ ذلك أنه يقضي على مشاعر الحب وينابيع المودّة في أعماقه والتي هي أساس السعادة في الحياة[١].

وتدل الإحصاءات القضائية على انتشار التصدع العائلي بدرجة

(١) الحياة الزوجية، بعض العلماء: ص ١٤٣.

كبيرة بين المجرمين الأحداث، على أن نسبة المجرمين الأحداث من الإناث الذين يأتون من عائلات متصدعة تفوق نسبة المجرمين الذكور الذين ينتمون إلى مثل هذه العائلات. وأوضحت بعض الدراسات الخاصة أن تصدع العائلة بسبب الطلاق، أو التفريق أو الهجر، أو التمييز بين أحد الأبناء على حساب الآخر، أو إهمال نشر شحنات العطف على الأبناء، أو فقدان التلطف بالقول، أو تلبية الحاجات الضرورية، يكون تأثيره على السلوك الإجرامي للأبناء أقوى من تأثير التصدع الذي يرجع إلى الوفاة أو الطلاق.

٣ ـ التربية السيئة في الأسرة:

يُعد العامل التربوي من أهم العوامل التي تكون سلاحاً ذا حدين، إما نحو الإصلاح فتكون النتيجة كالمقدمة، وإما نحو الفساد، فتكون النتيجة كالمقدمة أيضاً، لأن ما بني على فساد فأمره إلى الفساد. والتربية في نظر الشارع المقدس لها أهمية كبرى، فالإسلام يشكل النظم التربوية والعلمية والأخلاقية والقواعد الأساسية التي ترتكز عليها الأسرة في ميادينها التربوية، لأن التربية ضرورة حتمية لتحقيق الإسلام ورفع رايته خفاقة في كل مكان وزمان، والمؤمن كما هو مسؤول عن إيمانه ومتطلبات حياته المادية والمعنوية، كذلك هو مسؤول عن تربيته للأهل صغاراً وكباراً وفق المعايير الإسلامية الصحيحة، بل ليس فقط أهله، بل كل من يقع تحت نفوذه ويتساير مع سلوكياته على سبيل الدوام. فأنا كمسلم مسؤول عن تربيتي لنفسي أولاً ومن ثم مسؤول عن تربية أسرتي ومن يلوذ بي، ومن ثم يأتي المجتمع الذي يشاطرني العيش، كما أنا مسؤول عن إيمان وتربية أخي وابني وبنتي، لأنها ليست مسؤولية فردية بل هي على المؤمن مسؤولية عامة بعد تحقيق الفردية التربوية على النفس والأهل والجيران والمجتمع.

بل إن الشارع المقدس يحمل المؤمن مسؤولية التربية ونشر معالمها الصحيحة على جميع الناس في الأرض، فهو صاحب رسالة ودعوة وأمانة من أمته إلى كل إنسان على وجه الأرض، فأينما حل أو ارتحل كان عليه أن يبشر بهذه الرسالة التربوية العلمية الأخلاقية الهادفة، ويدعو الناس إليها، فلا يختلف إنسان عن إنسان، ولا أرض عن أرض، فالدعوة للجميع، فمن آمن فلنفسه ومن كفر فإلى الجحيم، وهذا يعني بالضرورة أن تكون مصادرنا التربوية التي نعتمد عليها في رعاية الناشئين في جو الأسرة ومن يكونون تحت نفوذنا من أهل وأصدقاء وجيران ومجتمع، مصادر الإسلام التي اعتمد عليها الأوائل من الأئمة عليهم السلام والعلماء عليهم السلام وهي القرآن والسنة المطهرة التي تمثلت في سلوكيات النبي وأهل بيته عليهم السلام.

ولذلك فإن التربية تُكسب الإنسان ضمن نطاق أسرته المقومات الفردية، والعادات التي يبقى متأثراً بها طوال حياته.

أكد علماء الجريمة أن أهم اختلاف في الأوضاع بين المجرمين الأحداث والأحداث غير المجرمين يرجع إلى نظام الأسرة. وقد أوضح الخبير بالشؤون الدراسية للمجرمين في العالم الغربي والشرقي معاً المفكر (بورت)، أن فساد النظام يوجد في أسر المجرمين الأحداث بنسبة تقرب من سبعة أمثال نسبته في عائلات غير المجرمين، وهو يقدر أن العلاقة بين فساد نظام التربية الأسرية وبين إجرام الأبناء تبلغ في أهميتها أربعة أمثال أهمية العلاقة بين الفقر وارتكاب الجريمة في المجتمع.

كذلك لاحظ أن ضعف إشراف الأم على أبنائها يتوافر في عائلات ٦٤٪ من المجرمين، بينما لا تتجاوز هذه النسبة ١٣٪ في عائلات الأحداث غير المجرمين.

٤ ـ الفساد في نظام الأسرة:

أشرنا في الصفحات السابقة إلى أهمية الأسرة، وكيف أنها تلعب دوراً إيجابياً في خلق المناخات التي تقضي على بواعث الفساد والانحراف الاجتماعي في المجتمع، وهنا نشير إلى النقطة الرابعة من بواعث الانحراف الاجتماعي، وهو فساد النظام التربوي داخل الأسرة، فنقول: هناك عدة صور لأنواع الفساد الأسري الذي يصاحب الأسرة المعاصرة في المجتمع الإسلامي وغيره، وهذا مبين في دراسات قام بها الخبراء والعلماء الذين رصدوا الجريمة والإجرام، من أجل الحد من انتشارها في الوسط الاجتماعي، من هذه الصور:

أ ـ عدم مبالاة الآباء بالنظام في الأسرة، وضعف هذا النظام نتيجة للضعف البدني أو الذهني أو الأدبي للآباء، فكثيراً ما نشاهد هذه الصورة ماثلة أمامنا عندما ندرس حياة بعض المجرمين في المجتمع، إن بعض الأسر في المجتمع، يفقد فيها الآباء دورهم كموجهين ومربين لأبنائهم، وفاقد الذكورة في الأسرة لا يتمكن من صنع الأبطال فيها، إذ عامل التأنيث فيه يجعله أسير الهوى، والإغراءات، فيسقط عندها في الامتحان كرجل أسرة يعُتمد عليه! وفي مجتمعنا المعاصر آلاف مؤلفة من هذه الأصناف.

تؤكد دراسة علمية قام بها المفكر الغربي (بورت) على مجموعة من المجرمين من الأحداث، أن السبب الذي دعاهم إلى سلوك مسلك الانحراف الاجتماعي، هو فقدان سلطوية الأب عليهم بسبب جبروت الأم على الجميع، مما جعل الأم تغض النظر عن تصرفات الأبناء وسلوكياتهم الخاطئة في الأسرة والمجتمع[١].

---

(١) الأسرة والمجرم: ص ١٢٣.

ب ـ غير أن فساد نظام الأسرة يرجع في الغالب إلى عدم مبالاة الآباء أو الأمهات وإهمالهم، ففي كثير من الأسر لا يبذل الآباء جهداً كافياً في سبيل تهذيب أبنائهم، والإشراف عليهم، وبمجرد أن يصبح الأبناء قادرين بدنياً على الاعتماد على أنفسهم، فإنهم يتركونهم وشأنهم دون رقابة أو توجيه، ونتيجة لذلك يجد الأبناء أنفسهم على اتصال بأشخاص خارج المنزل، ويصبح صيرورتهم مجرمين متوقفاً أولاً على نوع النماذج التي يصادفونها في المجتمع الخارجي، وهذا الإهمال من الآباء في تربية أبنائهم يصاحبه في الغالب سلوك إجرامي من جانب الآباء أنفسهم، ومن المحتمل كذلك أن يتحقق هذا الإهمال في الأسرة التي تنتمي إلى أدنى المستويات الاجتماعية في عائلات الطبقة المتوسطة، وتبعاً لذلك فإن احتمال ارتباط الطفل، الذي يهمل آباؤه تربيته، بكثير من نماذج السلوك الإجرامي يكون احتمالاً كبيراً.

ج ـ تؤكد المحاكم الشرعية في أغلب الدول العربية والإسلامية: أن من مظاهر عدم المبالاة، أن كثيراً من الشكاوى التي تعرض على محاكم الأحداث تقدم من الآباء أنفسهم، الذين يقرون فيها بعجزهم عن الإمساك بزمام أبنائهم والهيمنة عليهم، وهذا المسلك من جانب الآباء يفسر على نحو ما بضعف عاطفة الأبوة، وبنقص في الاهتمام بالأبناء، وشعور بالسخط والغضب عليهم، يعبر عنه الآباء بعنف وتهور، فضلاً عن ذلك يبدو أن هذا المسلك يتركز غالباً في الأسر التي تنتمي إلى أدنى الطبقات الاجتماعية والاقتصادية، والتي تفتقر إلى الأسس والمعلومات المتصلة بكيفية تربية الأبناء وتوجيههم، ولا يخفى أن هذا الاتهام العام للطفل من جانب أبويه من شأنه أن يضعف من نفوذهما اللاحق عليه، كما أنه في الوقت ذاته يعرض الطفل للاندماج بغيره من

المجرمين، ثم إن وقوف الطفل متهماً أمام محكمة الأحداث، مخالف للنظرية القانونية التي تقضي ببراءة المتهم حتى يقضى بإدانته[١].

نماذج من التفكك الأسري:

١ ـ التفكك العاطفي:

حسب أقوال الأخصائيين النفسيين وأطباء العقول، فإن هذا التفكك يحدث نتيجة للطغيان والسلطة المطلقة التي تمارسها الأم أو الأب تجاه أفراد الأسرة، مما يترتب على ذلك حدوث صراع ونزاع وقلة احترام، وفي هذه الحالة يكون الطفل في دوامة، من المشادة بين والديه، مما يؤدي به إلى البحث عن مخرج مما هو فيه من ضيق وعدم استقرار، والدراسات الميدانية أو العلمية في العيادات النفسية التي تقوم بها اللجان المتخصصة بدراسة الإجرام في العالم العربي والإسلامي معاً، تؤكد على تزايد الإجرام من الأحداث الذين حرموا من الحنان والعاطفة من الأبوين، إذ تحولت أسرهم إلى حلبات للمصارعة بين الأب والأم، وهذا النوع من الصراع بينهما تكون نتيجته الطبيعية أن تُسكب على الأبناء عوامل الانتقام والغضب والضرب والسب وسوء الأخلاق.

والذي يمتلك إلماماً بقصص الحياة الأسرية في مجتمعنا المعاصر، يرى هذا النوع واضحاً وماثلاً أمامه، لقد اطلعت على بعضها فرأيت أن كثيراً من الأحداث، الذين تحولوا إلى مجرمين محترفين داخل مجتمعنا، سواء كانوا شباناً أو شابات إنما كان ذلك بسبب فقدان عامل العاطفة نتيجة ديمومة الصراع بين الأب والأم، والغريب أننا نرى كثيراً ممن يتشدقون بالدين والمعرفة والوعي والثقافة الانتمائية، يخرجون للمجتمع

---

(١) دروس في علم الإجرام: مصدر سابق: ص ١٢٣.

أصنافاً مختلفة من هؤلاء المجرمين، والسبب أن أسرهم ما عرفت منهم في يوم من الأيام كلمة طيبة!.

إن الأسرة التي تعاني من التفكك العاطفي بين أفرادها لا يشع فيها نور الإيمان، والبيت الذي يُحرم من روح التفاهم والتسامح يساعد على البحث عن كثير من الآلام الروحية والأضرار الاجتماعية، عندئذ يجب أن يبذل الاهتمام الكافي لحماية القلوب المتحجرة، ومعالجة الحرمان الذي أصاب أصحابها بصورة معقولة.. هؤلاء ينشأون على خواطر مرة علقت بأذهانهم من سلوك الوالدين تجاههم منذ الطفولة، وفي الغالب يكونون معرضين للوقوع في شرك اليأس، والتشاؤم، وعدم الانسجام والنفور، والانتحار، والإجرام، والأمراض الروحية والعقد النفسية والعصبية(١).

إن رعاية العواطف أحد الفصول والآليات المهمة في منهجنا التربوي الإسلامي، فهناك مئات الآيات والأحاديث التي تؤكد على رعاية العواطف، يقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾(٢).

وجاء في الحديث عن رسول الله ﷺ: يجب على المسلمين الاجتهاد في التواصل والتعاون على التعاطف، والمواساة لأهل الحاجة، وتعاطف بعضهم على بعض(٣).

وفي حديث آخر عن عبد الله بن يحيى الكاهلي قال، قال لي الصادق جعفر عليه السلام: تواصلوا، وتبارُّوا، وتراحموا، وتعاطفوا(٤).

---

(١) الطفل بين الوراثة والتربية: ج ٢ ص ١٢٥.
(٢) سورة النحل، الآية: ٩٠.
(٣) الوسائل: ج٨ ص ٢٣٤.
(٤) الكافي: ج ٢ ص ١٧٥.

إن الطفل الذي يتلقى مقداراً كافياً من العطف والحنان من أبويه، ويروى من ينبوع الحب، يمتلك روحاً غضة ونشطة، إنه لا يحس بالحرمان في باطنه، ولا يصاب بالعقد النفسية، التي تضطره إلى أن يشبعها عن طريق جنوحه نحو الانحراف والجريمة، بل تنفتح أزاهير الفضائل في قلبه بسهولة، وإذا لم تعتره العراقيل في أثناء طريقه، فإنه ينشأ إنساناً عطوفاً فاضلاً يكن الخير والصلاح للجميع.

من هنا تأكد عندنا في التوصيات الدينية التربوية عن رسول الله ﷺ وأهل بيته عليهم السلام وأصحابه والعلماء (رضي الله عنهم) العطف على الصغير بصورة كبيرة.

١ ـ عن رسول الله ﷺ قال: وقّروا كباركم، وارحموا صغاركم[١].

٢ ـ عن أمير المؤمنين عليه السلام: وارحم من أهلك الصغير ووقّر الكبير[٢].

٣ ـ قال رسول الله ﷺ: أكثروا من قُبلة أولادكم فإن لكم بكل قبلة درجة في الجنة[٣].

كذلك فإن عامل اللين والتدليل في المعاملة قد يؤدي بالطفل إلى الجنوح نحو الجريمة، لأنه يفقد الطفل في السن المتقدمة من عمره كيفية الاعتماد على نفسه، مما يؤهله أن يعتمد على غير والديه، فيصبح غير قادر على التكيّف الاجتماعي، وهذه الحالة لا تُصيب الإنسان في المستقبل بالعجز وعدم التأقلم في الوسط الاجتماعي فحسب، بل تزوده

---

(١) عيون أخبار الرضا: ص ١٦٣.
(٢) كنز العمال، الهندي: ج ٩ ص ٢٣٤.
(٣) الوسائل: ج ٥ ص ١٢٦.

بعقد نفسية كالانعزالية والانطوائية، بسبب عدم وجود من يلبي طلباته وينفذ أوامره، كذلك التعامل الخشن الذي يؤدي بالنفور من ساحة العيش الأسري إلى الفرار خارج المنزل بكل وسيلة، إن كان شاباً فهو يلجأ إلى الجلوس في الطرقات، مما يؤدي به إلى أن يرافق أصدقاء السوء، وإن كانت فتاة تحاول الموافقة على أي رجل لا يتوافق معها لا عاطفياً ولا جنسياً، ولا مادياً أيضاً، ولكن وجدت فيه المخلص الأكبر من تعاسة العيش داخل الأسرة.

في أدبياتنا الفقهية والتربوية، يعد الإفراط في المحبة أسلوباً أهوجَ يكون له الأثر السيئ، ويولد نوعاً من الانحرافات الأخلاقية والاجتماعية، وأكد هذه الحقيقة علم النفس الاجتماعي اليوم.

يقول (مك برايد): الشعور بالدلال والتغنج أمارة أخرى من أمارات عقدة الانحراف، ويجب البحث عن أساسه في أسلوب التربية الخاطئ المتخذ في دور الطفولة، إن الطفل الذي كان يرى نفسه قرة عين والديه، عندما يكبر ويصبح رجلاً كاملاً، يحب أن يكون في جميع نواحي الحياة محبوباً من غير علة ومحترماً لدى الجميع، فعندما يرى أنه لم يُعتن به، يفقد الهدوء والاستقرار، ويختل ما صفا من فكره، فإما أن يلتجئ إلى الانتحار، وإما أن يبغض الآخرين، إن عقدة الحقارة التي تنشأ في الناس بهذه الظاهرة مصيبة عظيمة للمجتمع.. ويستشهد (ألفرد آرلر) العالم النفسي المشهور وزعيم المدرسة النفسية في الغرب بامرأة انتحرت لسبب تافه هو أن جارها كان يُعلي صوت المذياع، ولم يهتم بأوامرها الناهية عن ذلك، وأخيراً أقدمت على الانتحار، واكتشفت التحقيقات بعد ذلك أن المرأة نشأت منذ طفولتها على الغرور والرضى بالنفس، وكان يُحضر إليها في المنزل ما تشاء من دون قيد أو شرط،

ولهذا السبب فإنها لم تطق العيش في دنيا تسمع الجواب السالب على ما تطلبه[١].

لذلك حذرت الشريعة الإسلامية من هذا النوع من التربية الخاطئة. فعن الإمام الصادق عليه السلام قال: شر الآباء من دعاه البر إلى الإفراط، وشر الأبناء من دعاه التقصيرُ إلى العُقوق[٢].

وعن الإمام علي عليه السلام قال: شر الأمور الرضا عن النفس[٣].

٢ ـ التفكك الأسري المادي:

يُقصد بهذا النوع من الأسباب فقدان الناحية المادية بالنسبة للأسرة، وقد يكون السبب الحقيقي لفقدانه، موت المعيل بدرجة أولى الأب، أو الأم في حال فقدان الأب، أو بسبب الطلاق والتفكك العائلي وانهيار شمل الأسرة بغياب الأم عن رعاية الأبناء، أو انعزال الأب عنهم نتيجة لطلاق الأم، أو سجن أحد الوالدين، هذه العوامل تُعد من أهم الأسباب التي درستها نظريات علم الإجرام في الوسط الاجتماعي، وهي أسباب حقيقية وواقعية لكل من تمعن في ظاهرة تزايد عدد الجرائم في المجتمعات.

تبين من خلال الدراسة التي قامت بها بعض الجمعيات الإصلاحية الاجتماعية المشرفة على دراسة عوامل وبواعث الجريمة في المجتمعات البشرية؛ أن غياب الدور الذي يؤديه الوالدان في تربية الطفل، بسبب التفكك العائلي وانهيار الماديات، أو بسبب الانفصال (الطلاق) بين الأبوين، ومعاناة الطفل من نقص في العاطفة بسبب غياب الأم، أو فقد

(١) الطفل بين الوراثة والتربية، مصدر سابق: ج٢ ص ١٨٠.
(٢) الوسائل: ج ٥ ص ٢٣٤.
(٣) غرر الحكم ـ للآمدي: ص ٤٤٦.

سلطوية الأب تُخرج الطفل جانحاً نحو الجريمة. فقد دلت البحوث الميدانية التي أجريت على بعض السجون في العالم الغربي، أن أحد عشر فرداً منهم أقروا أن العلاقة بين أمه وأبيه تسودها الكراهية والبغض، وثمانية آخرون أقروا أنه كثيراً ما تقوم المشاحنات والمشاجرات بينهما لأسباب تافهة أو مادية أحياناً[١].

وتشير الإحصاءات المصرية إلى أن الطلاق أكثر ما يكون انتشاراً بين ذوي الدخل المحدود المنخفض الذين يعانون من تأزمات مادية قاهرة ينتج من ورائها التفكك العائلي (الطلاق)، وبدوره يسبب ضياع الأبناء بسبب ابتعاد الطفل كلية عن والديه، الأمر الذي يكون له الأثر السيئ على معنويات ونفسية الأطفال[٢].

وإذا تمعنّا في بعض البواعث الكبيرة التي يخلفها التفكك الأسري المادي نراها منحصرة في:

أ ـ تعدد الزوجات:

لعل المتمعن في مشروعية هذا الزواج قد لا يعلق عملية الإجرام بهذا العامل، ولكن شئنا أم أبينا، فالتعدد المغلوط الذي يرتكبه الرجل، يكون سبباً طبيعياً لوجود بواعث تخرج المجرم، ونقول التعدد المغلوط، لأن التعدد المشروع الذي سوغته الفطرة والعقل والشرع، والحاجيات النفسية والجنسية لا يكون سبباً لتفشي الجرائم.

أما التعدد المغلوط الذي يبنى على المصالح الدنيوية البحتة، فهو سبب لتواجد الإجرام في الوسط الاجتماعي، ولذلك رأينا أن الرجال

(١) ظاهرة الإجرام، مصدر سابق: ص ١٣٣.
(٢) المصدر السابق: ص ١٣٣.

الذين يقدمون على التعدد من غير مسوّغات شرعية أو حاجيات نفسية أو جنسية، ومن غير قدرة مالية تمكنهم من نشر العدالة بين البيوت التي فتحوها في الوسط الاجتماعي، سببت غياب الأب عن الأسرة الأولى وفقد سلطته التربوية، وبالتالي فلت زمام الأولاد شباباً وفتيات، والنتيجة أن خرجوا لنا جيلاً منحرفاً يبحث عن إرواء ظمئه العاطفي وحنانه الأسري، وحاجياته المادية والمعنوية، وهذا بطبيعة الحال لا يسدّه إلا ارتكاب الجريمة في الوسط الاجتماعي.

وعلى العموم، فإن هذا العامل وإن لم يكن عاملاً حاسماً وأساسياً في الإجرام والجنوح، فهو على الأقل عامل مساعد لوجود بواعث الإجرام الاجتماعي.

ب ـ التحلل من مسؤولية التربية:

التحلل من مسؤولية التربية الأسرية مادياً وروحياً وعلمياً واجتماعياً، يجعل الناشئ يجنح نحو الإجرام، لأن مثل هذا الجو البيتي الكئيب يدفع الأطفال إلى العزوف عن تطبيق القيم الأسرية والالتفاف حول الوالدين، ومن المؤكد أن الأسرة التي تكون تربية الأطفال فيها من ناحية واحدة فقط، كأن يكون من ناحية الأب مع تخلي الأم عن ذلك، أو العكس تكون الأم تحمل أعباء المنزل والتربية وغيرهما، عادة ما يوجد الجانحون فيها بكثرة.

تبين من خلال الدراسات التي قامت بها بعض الباحثات في هذا الصدد، أن مثل هذا التصرف في الأسرة يسبب هروب المعيل منها، بسبب تعطله أو قلة دخله المادي، أو بسبب تسلط الأم على الأسرة والتفرد بشؤونها، ونتيجة لهذه الحالة لا يجد أمامه إلا الهروب من أعبائه العائلية، ويتحلل من مسؤولياته ويفقد الاحترام لنفسه، ولكل القيم

الأخلاقية العامة وللمجتمع، ويسيطر عليه الإحساس بالظلم والقسوة والمهانة والعدوان، ومن ثم يندفع إلى التعبير عن ذلك كله في مسالك غير اجتماعية، فهناك طريق الصحبة السيئة، وطريق المخدرات، وطريق الإثم والغواية والعدوان.

وباختفاء المعيل يتعرض الأطفال للإهمال الشديد بدنياً وخلقياً، مما قد يسرقهم الآخرون إلى طريق التشرد والجنوح إلى الجريمة، وكثيراً ما يتضح من البحث الاجتماعي لأسر الأحداث الجانحين أن أم الحدث لا تعلم شيئاً عن والده منذ سنوات[١].

وبحكم غياب الأب عن منزله كثيراً بسبب مهنته وعمله، تلقى أعباء التربية والرعاية على الأم، في هذه الأثناء تكون مسؤولية الأم مضاعفة أمام الله يوم القيامة عن التفريط في حق الأسرة والشؤون الزوجية، وعندما نرى الجانحين في مجتمعنا الإسلامي يسيرون نحو الجريمة، وندرس الأسباب والبواعث التي تسببت في جنوحهم، نرى أن الأم وراء تلك الأسباب، فبإهمالها وتحللها من الرعاية الكاملة للأسرة في ظل غياب الزوج، تمكنت وسائل الإعلام، والأصدقاء، والمحيط الذي يعيشه الإنسان من تلويثه ووصمه بعار الجريمة.

وتارة أخرى يكون التحلل من المسؤولية الأسرية من قبل الوالدين أنفسهما، فكل واحد منهما منشغل بأعماله ومتطلبات حياته، كأن تكون الأم في عملها، والأب في عمله، فيلقى بأعباء التربية والاهتمام على الشغالة أو المحيط الذي يعيشه الإنسان، وهنا تكمن الخطورة القصوى في عملية التربية الأسرية.

---

(١) المجرمون: ج٢ ص ٢٠٨.

وهذا ما سوف نستعرضه في الصفحات القادمة.

ويندرج تحت التحلل من التربية ومسؤوليتها العامة التصرفات اللاأخلاقية التي يسلكها القائمون على شؤون التربية، منها:

القسوة الزائدة:

من الأسباب الواضحة في ظواهر الجانحين الذين تحولوا إلى مجرمين في مجتمعاتهم، التربية القاسية التي تلقوها في أسرهم، فعندما يكون رب الأسرة سيئ الخلق وقاسياً في التصرف مع أبنائه، الأب الذي يفحش في القول ويضرب أبناءه بلا سبب، فيجازي على أبسط الزلات بأكبر العقوبات، الأب الذي يثأر لأتعابه الخارجية فينتقم من أطفاله الأبرياء، والذي يحل عقدة الفشل التجاري أو الإداري أو الاجتماعي عنده بإيذاء الأسرة فرداً فرداً، هذه الأسرة التي يحكمها مثل هذا الأب، لا تصلح أن تخرج جيلاً صالحاً ونواة مثمرة في المجتمع.

إن العصر الحديث يخطّئ من الناحية العملية والتربوية، طريقة ضرب الأطفال وإيذائهم بغية التأديب، ويكاد يمنع الضرب في جميع الدول الحية، فيحذر الآباء والأمهات في البيت، والمعلمون في المدرسة، عن الضرب بصورة أكيدة، وهذه النظرية أشارت إليها النصوص المروية عن رسول الله ﷺ وأهل بيته عليهم السلام وأفتى الفقهاء بحرمة ذلك العمل في رسائلهم العملية، ووضعوا لها دية شرعية.

قال بعضهم: شكوت إلى أبي الحسن عليه السلام ابناً لي.

فقال: لا تضربه واهجره ولا تطل[1].

---

(١) البحار: ج ٩٩ ص ١٠١، وعدة الداعي: ص٧٩.

ونهى رسول الله ﷺ عن الأدب عند الغضب[١].

وهذه الأحاديث ترشدنا إلى أسلوب أكثر تقنية وحصانة في كيفية التعامل مع الطفل في مراحل العقاب، باستخدام العقوبة العاطفية بدلاً من العقوبة البدنية، لأن هجران الوالد لولده له أثر عميق في روح الطفل.

أشارت بعض الدراسات الاجتماعية التربوية إلى هذه الحقيقة بقولها: إن للعقوبات التي ترجح الوسائل العاطفية والأخلاقية على الوسائل المادية تأثيراً كبيراً، ففي مثل هذه العقوبات، بدلاً من أن يحرم الطفل من الماديات يجب السعي للتأثير في قلبه ونفسه ووجدانه وعزته وغروره، فإن لم ترتبط المحرمات المادية مع مشاعره وعواطفه فإنها تفقد طابع العقوبة. ولعل هذه النظرية مبنية على نظرية الإمام الصادق عليه السلام في طرق تأديب الأبناء بقوله: إن العاقل يتعظ بالأدب، والبهائم لا تتعظ إلا بالضرب[٢].

ولذلك جوزت الشريعة الإسلامية ضرب الأبناء بمقدار بسيط، وحددته بمقدار التأديب ما لم يصل حد الدية، والدية كما قررها الفقهاء هي: إذا لطم وجه أحد باليد أو بشيء آخر فاحمرّ وجهه، فديته مثقال ونصف من الذهب (كل مثقال ١٨ حبة)، وإن اخضرّ لونه فثلاثة مثاقيل، وإن اسودّ لونه فستة مثاقيل، ولئن تغير لون سائر البدن على أثر الضرب، فاحمرّ أو اخضرّ أو اسودّ فديته نصف ما ذكر، فإذا ارتكب الصبي إحدى المعاصي الكبيرة جاز للولي أو المعلم ضربه بمقدار التأديب[٣].

---

(١) البحار، مصدر سابق: ص٩٩ج ٢.
(٢) الطفل بين الوراثة والتربية، مصدر سابق: ص ٣٩.
(٣) الموسوعة الفقهية، الشيرازي (قدس) باب الحدود والتعزيرات.

وسوف تعرف مزيد بيان في الصفحات الخاصة بنظرية الإسلام في العلاج والوقاية من الجريمة.

وقد تنعكس الظروف الاقتصادية التي سوف نشير إليها في الصفحات القادمة، والتي تعانيها الأسرة ويلاقيها أفرادها من حرمان مادي ومعيشة جافة، تظهر في صورة الضيق النفسي الذي ينتاب رب الأسرة، أو الانفجارات الشديدة من التبرم بالحياة، مما يجعل الجو البيتي مشحوناً بالنزاع، واستعمال أسلوب القسوة والشدة والضرب في المعاملة التربوية للأبناء، الأمر الذي كثيراً ما يدفع الصغار إلى الهروب من المنزل، والتعرض لأخطار الطريق والرفقة، أو قد يدفعهم إلى الانتقام ممن حولهم، عن طريق السرقة أو الاعتداء أو التخريب، أو الالتجاء إلى الكذب والغش والخداع، أو المروق عن السلطة الأسرية أو الوطنية، وقد يؤدي هذا الأسلوب ـ القسوة والضرب في التربية ـ إلى ردات فعل سلبية يحملها الأبناء عن الأسرة والوالدين، فيعيش أفرادها في حالة نفسية مزرية يحملونها إلى ما بعد الحياة الزوجية، فقد تبين من الدراسات العلمية النفسية، أن هناك ٧٥٪ من سكان العالم الذين تعرضوا إلى معاملة سيئة من القسوة والضرب داخل الأسرة يحملون بين جنباتهم عامل الانحراف المؤكد، وتقول الدراسات النفسية: إن هناك عدداً من حالات الانحراف كبيرة في المجتمعات الدينية، كان سببها تعامل الوالدين مع الأسرة بالقسوة والضرب.. وبذلك فإن العقاب المسرف في الشدة أسلوب خاطئ في التربية، كما قد يدفع إلى سلوك انتقامي مباشر، كالمروق والعدوان أو غير ذلك، مثل الانحرافات الأخلاقية والاجتماعية المنتشرة في أنحاء العالم العربي والإسلامي والغربي معاً[١].

---

(١) المجرمون، مصدر سابق: ص ٢٠٩.

الفصل الرابع

الطلاق وبواعث الانحراف الاجتماعي

الطلاق من بواعث الجريمة الاجتماعية

يُعد عامل الطلاق من أهم العوامل المسببة لبواعث الانحرافات الاجتماعية في الوسط الاجتماعي العام، تواجه البشرية المعاصرة عملياً مخاطر انحلال بناء الأسرة بشكل لم تشهده الإنسانية في أي عصر من عصورها، كما لم يبلغ الإحساس بخطر هذا الانحلال، وآثاره السلبية في عصور البشرية، الحد الذي بلغه في عصرنا الراهن، عصر التقدم والانفتاح وعالم القرية الواحدة المصغرة.

سعى المقننون، والحقوقيون، وعلماء النفس، وعلماء الإجرام، بما لديهم من وسائل وأدوات لإحكام بناء الحياة الزوجية بشكل كبير، واتخذوا التدابير اللازمة لسد الثغرات، التي يمكن أن يتعرض لها نظام الأسرة من الانحلال والتفسخ وزلزلة العلاقات الأسرية والاجتماعية، غير أنه (قد سبق السيف العذل).

فالإحصاءات تشير إلى تصاعد نسبة الطلاق عاماً بعد آخر، وإن خطر تمزق الكثير من الأسر يخيم على محيط العلاقات العائلية العامة ومحيط المجتمعات.

الطلاق معناه ومشروعيته:

تعريف الطلاق:

في اللغة: قال ابن منظور: طلاق المرأة بينونتها على زوجها،

وامرأة طالق من نسوة طلق، وطالقة من نسوة طوالق. يقال طلقت البلاد: فارقتها وطلقت القوم: تركتهم، يترك الرجل المرأة.

والطلاق مشتق من الإطلاق وهو: الإرسال والترك بعد الإمساك، يقال: طلقت المرأة وطلقت، بضم اللام وفتحها، فهي طالقة وطالق[١].

أما في الشرع: فالطلاق في الأصالة، أي الأصل الكراهة، وجاءت الروايات بذلك:

فعن صفوان بن مهران، عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله تزوجوا وزوجوا، ألا فمن حظ امرئ مسلم إنفاق قيمة أيمه، وما من شيء أحب إلى الله عز وجل من بيت يعمر في الإسلام بالنكاح، وما من شيء أبغض إلى الله عز وجل من بيت يخرب في الإسلام بالفرقة، يعني الطلاق، ثم قال: إن الله عز وجل إنما وكد في الطلاق وكرر القول فيه من بغضه الفرقة[٢].

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله قال تزوجوا ولا تطلقوا، ألا إن الطلاق يهتز منه العرش[٣].

وعن علي عليه السلام قال: إن الطلاق قبيح وأنا أكرهه[٤].

وجاء عن ثوبان يرفعه إلى رسول الله صلى الله عليه وآله قال: أيما امرأة سألت زوجها الطلاق من غير بأس، فحرام عليها رائحة الجنة[٥].

---

(١) لسان العرب: ج ١٠ ص ٢٢٠، وتهذيب الأسماء واللغات، ج ١ ص١٨٨، الموسوعة الفقهية: ج ٦٩ ص٨.
(٢) الوسائل: ج ١٥ ص ٢٦٦.
(٣) المصدر السابق: ج ١٥ ص ٢٦٦.
(٤) المصدر السابق: ج ١٥ ص ٢٢٨.
(٥) المصدر السابق: ج ١٥ ص ٢٢٩.

إلى غيرها من الروايات الشريفة التي أثبتت كراهة الطلاق.

مشروعيته:

مشروعية الطلاق ثابتة بالقرآن والسنة المطهرة والإجماع والعقل.

قال تعالى: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَأۡخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ شَيۡـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَا فِيمَا ٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعۡتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾(١).

وقال تعالى: ﴿وَإِنۡ عَزَمُواْ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمۡسِكُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٖۚ وَلَا تُمۡسِكُوهُنَّ ضِرَارٗا لِّتَعۡتَدُواْۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوٗاۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡحِكۡمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾(٣).

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحۡصُواْ ٱلۡعِدَّةَۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡۖ لَا تُخۡرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخۡرُجۡنَ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥۚ لَا تَدۡرِي لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحۡدِثُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ أَمۡرٗا﴾(٤).

أما السنة: فعن الإمام الصادق عليه السلام قال عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: خمسة لا يستجاب لهم، رجل بيده طلاق امرأته وهي تؤذيه وعنده

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٢٩.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٢٧.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٣١.
(٤) سورة الطلاق، الآية: ١.

ما يعطيها ولم يخلِّ سبيلها، ورجل أبق مملوكه ثلاثاً ولم يبعه، ورجل مرّ بحائط مائل وهو يقبل إليه ولم يسرع المشي حتى سقط عليه، ورجل أقرض رجلاً مالاً فلم يشهد عليه، ورجل جلس في بيته وقال: اللهم ارزقني ولم يطلب[1].

ولعل ذكر الخمسة في الرواية من باب المثال، وإنما المراد كل من وجد السبيل إلى مقصد ولا يسير إليه بالطرق المعتادة، بل أراد الوصول إليه بطريق غيبي، كمن يدعو أن يصبح عالماً ولا يتعلم، أو يدعو لنجاته من جار سوء ولا يبدل داره، إلى غير ذلك من الأمثلة، إنما اللازم الدعاء في كل الأمور[2].

وعن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: ثلاث ترد عليهم دعوتهم، أحدهم رجل يدعو على امرأته وهو لها ظالم، فيقال له: ألم يجعل أمرها بيدك[3].

مسوغات الطلاق الشرعي:

ليس الحديث هنا عن مشروعيته الكاملة التي وضعها الشارع المقدس، من أجل المصالح العامة للعباد، بل عن مشروعيته الجزئية التي ينظر إليها الشارع من خلال المصلحة التي يقتضيها بقاء الأسرة غضة طرية ترتع في مسرح الحياة الاجتماعية. وقد يطرأ على الأسرة هذه، من عوامل الاختلاف، وأسباب النزاع، من تباين أخلاق الزوجين وفكرهما، أو تنافر طبعهما، أو سوء في العشرة لا يحتمل بحيث تستحكم هذه الأمور، وتستعصي على الإصلاح، ولا يجدي معها أي

---

(١) الوسائل، مصدر سابق: ج ١٥ ص ٢٧٠.

(٢) الموسوعة الفقهية: ج ٦٩ ص ١٧.

(٣) الوسائل، مصدر سابق: ج١٥ ص١٧.

محاولة لرأب الصدع، وعندها يصبح الزواج مصدراً للشقاء، ويفقد كل مبرراته وغاياته التي شرع لأجلها، فينقلب إلى مبعث للهموم والأحزان بدلاً من كونه منبعاً للسكن والاطمئنان، ويتحول إلى سبب في ذرية مشردة تائهة، تنخر في جسم الأمة ضعفاً ووهناً، بدلاً من أن يكون سبباً في ذرية صالحة.

وبمعنى آخر يصبح الزواج عبئاً ونقمة، بدلاً من كونه أمناً ونعمة، في هذه الحالة شرع الإسلام الطلاق ليخلص الأسرة من بؤس دائم، وعذاب مستمر، فمن منطلق نظرية الإسلام الواقعية، ومراعاته للفطرة، شرع ما يوطد أركان الأسرة، وفي الوقت نفسه شرع ما يعوض عن كون الأسرة مثابة وسكناً، فأباح الطلاق تحقيقاً للسلام العائلي حين يعز السلام بسبب غيره[١].

ظاهرة الطلاق: المشكلات والعلاج:

الطلاق أو التفكك العائلي ظاهرة عرفها الإنسان منذ القديم، ولما كانت ظروف كل مجتمع تتفاوت بتفاوت العصر والمكان، فإن بعض أسباب الطلاق قديمة، وبعضها الآخر يتصل بحياة المجتمعات العصرية وملابساتها، وكلما تقدمت المجتمعات وتحضرت كلما ارتفعت معدلات الطلاق والتفكك العائلي فيها، وسوف ندرس هذه الحالة (الطلاق أو التفكك العائلي) من خلال الدراسات والأبحاث العلمية والميدانية التي قام بها علماء مكافحة الجرائم في العالم الغربي والإسلامي.

فعلم الاجتماع يحاول منذ أن كان أن يوجد مناخاً هادئاً ووضعاً

---

(١) نظام الأسرة في الإسلام: ج٣ ص٢٠.

مستقراً للأسرة البشرية على الأرض، ويسعى دائماً لوضع ضوابط وسن القوانين التي تتكفل بحفظ وتنظيم شؤونها الحياتية، وما يتصل بها من قريب أو بعيد.

ماهية التفكك الأسري:

اختلفت تسميات هذا المصطلح، فبعضهم يدعوه التفكك الأسري، ويتم بفقد أحد الوالدين أو كليهما، أو الطلاق، أو الهجر، أو غياب رب الأسرة مدة طويلة عن أسرته.

والبعض الآخر يدعوه تصدع الأسرة، ويحدث في حالة وفاة أحد الوالدين أو كليهما أو الطلاق، أو تعدد الزوجات.

وفريق ثالث يطلق على التفكك الأسري تعبير الأسرة المحطمة بسبب كثرة المشاجرات المستمرة أو الوفاة أو سجن أحد الوالدين أو غيابه بصورة مطردة.

وإذا جمعنا هذه التعاريف نخرج بنتيجة واحدة، وهي أن التفكك الأسري عبارة عن تزلزل في العلاقات الأسرية بين الزوجين تارة، وبين الأبناء والآباء والأمهات تارة أخرى، وتكون النتيجة السلبية على الأبناء، لأنه عندها تنهار الوحدة الأسرية، تتحلل أو يتمزق نسيجها الاجتماعي(١)

وبناء على هذا التعريف يمكننا أن نحدد الأنماط الرئيسية للتفكك الأسري على النحو التالي:

١ ـ عدم اكتمال الوحدة الأسرية، وهي تضم فيما تضم تغيب

---

(١) أثر التفكك العائلي، جعفر الياسين: ص٢٤.

الأب عن الأسرة، ومن هنا فإن الواجبات التي يضطلع بها والتي رسمها له المجتمع ليست قائمة، وبالإضافة لذلك فإنه يوجد على الأقل واحد من مصادر اللاشرعية، يتمثل في إخفاق أعضاء الأسرة، التي ينتمي إليها كل من الزوجين في أداء التزامات أدوارهم تجاه الأسرة وفي ممارسة الضبط الاجتماعي عليها.

٢ ـ الانفصال والطلاق والهجر، وهنا يحدث التفكك بسبب قرار أحد طرفي العلاقة الزوجية أو كليهما ترك الآخر، ومن ثم يتوقف أداؤهما للالتزامات المترتبة على دوريهما كزوجين.

٣ ـ الغياب غير المتعمد لأحد الزوجين، فقد تتعرض بعض الأسر للتفكك بسبب وفاة أحد الزوجين، أو الحكم عليه بالسجن، أو الابتعاد عن الأسرة بسبب الحروب، أو حدوث كساد أو بعض مظاهر الكوارث الأخرى.

٤ ـ الكوارث الداخلية التي تؤدي إلى إخفاق غير متعمد في أداء الأدوار، إذ فد تنطوي الكوارث التي تحدث في إطار الأسرة على كثير من الأمراض العقلية أو الجسدية أو اختلال التوازن العاطفي.

وهذه الأسباب السابقة ليست محل نقاش الباحثين عن بواعث ارتكاب الجرائم، بل إن أهم الأسباب التي يناقشها علماء الإجرام هي:

الوفاة + الطلاق = (في أغلب الأحيان) انحرافات. وقد ينظر إلى عامل الطلاق أكثر على أنه من مسببات الإجرام الاجتماعي، كما أثبتت ذلك الدراسات البشرية التي قام بها علماء الإجرام في كل المجتمعات البشرية منذ أن كانت[١].

---

(١) الاجتماع العائلي، الخريجي: ص٢٢٦.

ارتفاع معدلات الطلاق:

تختلف معدلات الطلاق من مجتمع لآخر تبعاً لظروفه الاجتماعية، والسياسية، والاقتصادية، وكذلك تبعاً للقيم والمعايير التي تميز كل مجتمع عن الآخر، كما تختلف معدلات الطلاق من بلد لآخر أيضاً، فمعدلات الطلاق في أمريكا تعد من أكبر النسب التي أحصاها العلماء، كما تبين من الدراسات أن المجتمع المتمدن ترتفع فيه نسبة الطلاق أكثر من المجتمع الريفي[١].

وتشير الإحصاءات: أن معدل الطلاق في أمريكا منذ الحرب العالمية الثانية لا يهبط عن (٤٠٠،٠٠٠) حالة في العام، والسن المتوسط لمليوني امرأة أمريكية مطلقة (٤٥) عاماً، وقد كانت ٦٢٪ من النساء المطلقات ذوات أبناء لا تزيد أعمارهم حين الطلاق عن (١٨) سنة، وبالنتيجة تشكل النساء المذكورات جيلاً خاصاً في حقيقة الأمر[٢].

ومما تجدر الإشارة إليه أن الدراسات الاجتماعية في المملكة أثبتت أن ظاهرة الطلاق منتشرة وواضحة في المجتمع السعودي، فبلغت نسبة الطلاق في بعض مدن المملكة كمدينة جدة ارتفاعاً كبيراً في عام (١٤٠٤هـ) ووصل إلى ٩٠٠ حالة، وهو أكثر بكثير من حالات الزواج، وتبين من بيانات الزواج والطلاق في محاكم المملكة خلال الفترة المذكورة أن نسبة الطلاق أكثر من نسبة الزواج، وبالخصوص الزوجات التي لم يدخل بهن بعد. . . وأوردت شعبة الإحصاء بوزارة العدل عام

---

(١) الأسرة والحياة العائلية، الخولي: ص٢٦٧.

(٢) حقوق المرأة، مطهري: ص٢٨٠.

١٤٠٥هـ أن معدل الطلاق إلى الزواج في عام ١٤٠٢هـ يساوي ٢٦٪ ثم ارتفع المعدل إلى ٣١٪ في عام ١٤٠٤هـ، وظهر من البيانات الإحصائية ارتفاع نسبة الطلاق في تلك الفترة بالمنطقة الشرقية مقارنة بنسبة الطلاق في المناطق الأخرى، وجاءت المنطقة الوسطى في المرتبة الثانية، وتبين من خلال الدراسة أن عامل الجريمة ينتشر انتشاراً كبيراً في وسط المجتمع الذي ترتفع فيه نسبة الطلاق، بالخصوص أن المجتمع ينظر للفتاة المطلقة نظرة سلبية، ويحرمها من ممارسة حياتها الأسرية الثانية في ظل زواج ثانٍ، حيث ينظر إليها أنها امرأة يحالفها الفشل دائماً، أو أنها ناقصة ولا تستحق العيش الأسري، مما يولد عندهن ظروفاً اجتماعية ونفسية سيئة، الأمر الذي قد يدفعها للانحراف والجريمة، أو تُخرِج جيلاً يحمل بين جنباته بواعث الإجرام.

ولأهمية الطلاق في حياة المرأة وعلاقته بسلوكها من ناحية رشدها وانحرافاتها، أجريت عدة دراسات وأبحاث تطبيقية حاولت أن تحدد العوامل المرتبطة به، فمثلاً أجريت دراسة في مدينة جدة عن الطلاق والتغيير الاجتماعي، واستنتجت تلك الدراسة: أن نسبة المطلقات في المدن أكثر من مطلقات الريف أو البادية، وتبين أنه كلما ارتفع دخل الزوج زاد من عدد مرات الزواج، وكان هناك احتمال كبير لحدوث طلاق، وأوضحت الدراسة أن معظم حالات الطلاق تكون في السنة الأولى والثانية من الزواج، ويقل احتمال حدوث الطلاق بعد السنة الخامسة، وثبت من خلال البحث أن في معظم حالات الطلاق لا توجد قرابة بين الزوجين، وأن الطلاق بين أولاد العمومة أكثر من الطلاق بين أولاد الخؤولة، وأضافت الدراسة أن تدخل الأقارب كان تصعيداً للمشكلات ومن ثم حدوث الطلاق، وتبين أن الزوجات العاملات

يشعرن بعدم التبعية نسبياً للرجل مما يجعل التمرد حليفاً يسبب الطلاق، وكشفت الأوراق الرسمية في محكمة الرياض لعامي (١٤٠٤هـ - ١٤٠٥هـ) عن ارتفاع نسبة المطلقات في الفئة العمرية الشابة أقل من (٣٠ سنة)[١].

وتشير الإحصاءات في العالم العربي إلى ارتفاع نسبة الجريمة بسبب عامل الطلاق في الأسرة، مما يجعل الأبناء ضحية ذلك النزاع بقولها: أول هذه العوامل الانحرافية السلوكية في المجتمع بسبب التفكك الأسري (الطلاق)، فقد دلت الإحصاءات في جميع الدول العربية على نسبة تتروح بين ٦٠٪ و٨٠٪ من المجرمين الأحداث تشمل من لا تحضنه فيهم أسرة متماسكة، لنزاع بين الوالدين أو طلاق أو انفصال، مما يشعر الحدث كذلك بأنه محروم من العطف أن تتغيب أمه عن البيت طويلاً، فلا يجد من يعنى به، أو من يصغي إلى الأمور التي يود أن يسردها، أو يستمع إلى تعبيره عن الرغبات التي يبغي إشباعها..

وتبين من البحوث التي أجرتها بعض الخبيرات في فرنسا أن ٩٠٪ من الصبية المجرمين ينتمون إلى أسر مفككة بسبب انفصال أو طلاق، وتبين من مركز دراسات وبحوث السجون في فرنسا أن ٤٠٪ من المجرمين المبتدئين كانت تعوزهم في طفولتهم رعاية الأم، وأن نسبة ٥٠٪ من المجرمين العائدين عانوا كذلك الحرمان من تلك الرعاية[٢].

---

(١) الظاهرة الإجرامية في المجتمع السعودي، د. محمد السيف: ص٢٨٠ وسوف نتناول العلاج لهذه المشكلة في الفصول الخاصة بذلك.

(٢) علم الإجرام د. رمسيس: ص ٢٠٦.

بواعث التفكك الأسري (الطلاق):

بواعث الطلاق الأسري:

نادراً ما نرى أسرة خالية من بواعث الاختلاف، لأنه سنة حياتية، وليس على وجه الأرض أسرة لا يختلف أفرادها، كما أنه ليس هناك أسرة لا تتعرض لأزمات أو مشكلات مختلفة، مادامت هذه الأسرة من ضمن خلايا الحياة الاجتماعية، فهي تتأثر بها سلباً أو إيجاباً.

ومن النادر أن تكون حياة الأسرة والزواج كاملة، طوال دورة حياتها الدنيوية، لأن كثيراً من الأحداث التي تتعرض لها الأسرة يمكن أن تؤدي إلى حدوث أزمات أو أنواع من التفكك، يحتمل أن تتلوها حالات من التوافق وإعادة تنظيم الدورة الحياتية، وتصل العلاقة الزوجية عند بعض الأسر إلى نهاية درامتيكية معتمة، يكاد ينعدم معها التفاهم فيما بينهم، عندئذٍ يصبح الطلاق بين الزوجين رحمة لهما، لأنه صمام الأمان لحل المشكلات العالقة بينهما، وحل التوترات الحتمية التي تقع في الحياة الزوجية، فقد أجهد الباحثون أنفسهم في استخراج واستنتاج حلول لهذه المشكلة فاستعصت على الجميع، وما وجدوا لحد الآن حلولاً غير هذا الحل ـ الطلاق ـ لأنه هو الحل الاكثر شيوعاً ونجاعة لمشكلات الحياة الزوجية.

من الملاحظ أن الأسر التي تتعرض للضغوطات الحياتية، هي أكثر الأسر تعاملاً بالطلاق، كحل جذري للمشكلات الأسرية المتفاقمة، ولعل الجدول التالي يوضح بعض البواعث التى اعتمدتها الدراسات العلمية الميدانية، التي قامت بها اللجان المتخصصة في علم الإجرام والجريمة.

الأسباب والنتائج:

تشير الدراسات العلمية الاجتماعية التي قامت برصد الأسباب والبواعث التي تؤدي بالأسرة إلى (الطلاق أو التفكك) إلى ما يلي:

أولاً: الأسباب التي تعود للزوجين انفسهما:

للأزواج أسبابهم المتماثلة التي تحملهم على الإقدام على الطلاق، مما يؤدي بالنتيجة إلى انهيار كامل وتصدع مستمر، وتفكك دائم لنسيج الأسرة الاجتماعية، وأهم هذه البواعث أو الأسباب فيما يخص الزوجين هي:

١ ـ ضعف الوازع الديني:

ضعف الوازع الديني، وغياب القيم الأخلاقية من حياة الأفراد في الأسرة والمجتمع، وذلك نتيجة سريان تيار الثقافة الغربية، ونظراً لانعدام التوجيه الإسلامي الصحيح.

لقد رفض بعض المتدينين في هذا العصر بعض القيم والضوابط الشرعية التي تردع الإنسان عن ارتكاب الأخطاء في حق الآخرين مهما كانوا، بالخصوص أسرته ومن يلوذ بهم من جيران وأقرباء، وهذا الرفض مكّنهم من السير وفق الحجج الواهية التي يصدرونها بين الفينة والأخرى، من أن بعض تلك القيم والأخلاق غير قابلة للتطبيق، أو أنها غير مهمة بالنسبة إليهم، فأصبحوا يرتكبون أبشع الجرائم والمنكرات..
إن مقياس النجاة من النار في الآخرة هو وجود الوازع الديني، ومقياس انضباط الإنسان في الأسرة والمجتمع مقدار تطبيقه لمبادئ الدين والإسلام، ومقياس تدين الإنسان مقدار حسن تصرفه ولباقته وفن تعامله مع أفراد أسرته صغاراً وكباراً، مما يؤهله هذا الفن السلوكي الأخلاقي أن يعكسه على سائر تصرفاته الاجتماعية.

إن فقدان الوازع الديني من الزوجين، يجعلهما يتساهلان في مسألة الطلاق، لأنهما عند ذلك لا يخشيان من الله، ولا يستحيان من الناس!

ومما لاشك فيه، أن كون أحد الزوجين أقل من الآخر في الالتزام الديني، وأضعف تمسكاً بالإسلام فكراً وممارسة، سيعمل على إحداث الفجوة والجفوة في الحياة الأسرية، وربما اتسع الخرق على الراقع، فآلت تلك الحياة إلى أن تنفصم عراها بالطلاق.

فرفض الزوجة أن تطيع زوجها في الأمور الدينية، أو الأخلاقية أو الأسرية، أو الالتزام بأوامر الله وقيم الدين وأعراف المجتمع، يكره الزوج في زوجته، مما يجعله يقدم على طلاقها.

وكذلك رفض الزوج تقبل النصيحة من الزوجة عندما ترى الزوج يرتكب بعض الأخطاء الدينية والأخلاقية، والتربوية، والعرفية الاجتماعية، وتحاول نهيه مراراً وتكراراً، يصل بها إلى مرحلة اليأس والقنوط، مما يجعلها تطلب الطلاق، كأن يكون مدمناً على المخدرات أو المسكرات أو العادات الجنسية المحرمة من العلاقات وغيرها، مما يفسد عليها وعلى الأسرة حياتهم.

٢ ـ ضعف الشخصية في الزوج أو الزوجة:

تؤطر هذه النقطة تحت تدخل أهل الزوجة أو الزوج في الحياة الأسرية الخاصة بالزوجين، وهذه الحالة من الأمور المستفحلة في حياتنا الاجتماعية الأسرية، مما يزيد الطين بلة في مسألة البواعث على الطلاق، فمن مظاهر ضعف شخصية الزوج مثلاً خضوعه لأمه بدافع حبها، ولكن هذا الخضوع قد يصل إلى حد التأثير على آراء الزوج واتجاهاته وميوله وسلوكه نحو زوجته، فلا يتمكن من أن يوازن بين حق الأم وحق الزوجة بصورة عادلة، ومن ثم يظهر متردداً عاجزاً عن الحسم

واتخاذ القرارات المناسبة في الوقت الملائم، وعن الحكم الصائب على الأمور.

وفي المقابل نجد من الزوجات من هي شديدة التعلق والإعجاب بأهلها أو أمها، فتؤثر رضاهم وطاعتهم على الزوج، ولو بغير حق، وفي كل صغيرة أو كبيرة، ومن ثم فهي تبالغ في زيارتهم ولفترات طويلة في أغلب الأيام، وتسمح بتدخلهم في شؤونها الزوجية، وتهمل واجبات الزوج والبيت، وعندما تثور مشكلة بين الزوجة والزوج، تسارع بإخبارهم بما حدث بينهما من شجار أو خلاف أو تباين في الرأي، ومما يزيد تفاقم المشكلات الأسرية تسابق الآباء والأمهات في الوقوف مع ابنتهم سواء كانت على الحق أو الباطل! ويغرونها بمفارقته، بدلاً من أن يقوموا بدور الإصلاح وإحداث التآلف بين الزوجين، والقارئ للصحف والمراجع للدوائر الرسمية، يرى أن كثيراً من حالات الطلاق وراءها هذا العامل. فقد أجرت بعض الباحثات الإسلاميات في بعض الدول إحصاء تبين من خلاله: أن ٨٥٪ من المطلقات كان وراء طلاقهن هذا السبب[١].

٣ ـ الخيانة الزوجية:

فمما لا ريب فيه أن خيانة الزوجة، أو إحساس الزوج بأن زوجته تخونه، من أكبر معاول تفكك وانهيار الأسرة، ومن الممارسات التي تسبب بواعث الطلاق الأسري، علاقات الزوجين مع أطراف آخرين، كأن تكون للزوجة علاقات خارج نطاق الحياة الزوجية، أو يكون للزوج أيضاً هذه العلاقات، وإن كان من منظور شرعي علاقات الزوج

(١) نظام الأسرة في الإسلام: ج٣ ص٧٤.

المشروعة بالأخريات أخف وطأة منه في الزوجة، باعتبار أن ما أبيح له من الشارع الحنيف أكثر مما أُبيح لها، لكونها ريحانة أحادية الجانب، وحديقة ليس لها إلا بوابة واحدة، وجوهرة لا يملكها إلا من يستحقها وهو زوجها.

لقد قام بعض الباحثين بدراسة عاجلة لمعدلات تزايد الطلاق في العالم الغربي، فوجد أن ظاهرة الخيانة الزوجية، وتهيئة المناخ الملائم لها، وهو الاختلاط بين الجنسين، كان وراء تزايد معدل الطلاق في الغرب. فقد قفزت نسبة الطلاق في أمريكا وفق إحصائية صدرت سنة ١٩٥٠م من ٦٪ عام ١٨٩٠م، إلى ٤٠٪ عام ١٩٤٨م، وفي السويد تعتبر نسبة الطلاق أعلى نسبة في العالم كله، حيث تقع حادثة طلاق واحدة بين ست أو سبع زيجات، طبقاً للإحصائيات التي أعدتها وزارة الشؤون الاجتماعية في السويد، وفي الاتحاد السوفياتي يبلغ معدل حالات الطلاق ٢،٩٥٪ من كل ألف حالة، وفي تشيكوسلوفاكيا ٢،١٨٪، وهكذا سائر الدول الغربية، فالخيانة الزوجية وابنتها (الاختلاط) سبب رئيسي في الطلاق[1].

إن الخيانة الزوجية في الأساس مشكلة عويصة، تبرز عندما لايكون الزواج أو لايعود مُرضياً، فالرجل الذي يُنشىء علاقة جنسية خاطئة محرمة بينه وبين امرأة أخرى، أو المرأة التي تنشىء علاقة من هذا القبيل، لأسباب شخصية خاصة أساسها الخلافات الزوجية المتفاقمة، بالخصوص الحرمان من (الفراش)، قد يهدم الحياة الزوجية المتأرجحة بين المد والجزر، فيلجأ بعض الأزواج إلى الرضوخ إلى الواقع المر، فيقبل بالمرأة الخائنة مراعاة لعواطف الأولاد وحاجتهم لأمهم الخائنة،

---

(١) المصدر السابق: ص٧٥.

وكذلك المرأة قد تقف هذا الموقف أيضاً رحمة وعطفاً بالأسرة، حتى لا يتفلل نسيجها وتتفكك وحدتها وترابطها الاجتماعي.

إن المرأة إجمالاً لا ترضى بسهولة بأن تصبح زوجة خائنة للعهود، كما لمسنا في تقارير الخبير (كنينسي) الذي لا يطمئن الأزواج المدركين، على كل حال، لا يُستبعد أن يكون الارتواء الجنسي عاملاً كبيراً من عوامل الخيانة بالنسبة إلى المرأة أكثر مما يشعر به الرجل، فالزوجة المعتدلة الخائنة لا تبحث عن المتعة الجنسية فحسب، بل تصر على الاستئثار بالرجل واللذة التي تجنيها من مسايرته، فكم من الزوجات سمعن اليوم بأمجاد العاشقات اللواتي سعين إلى الحب! ولكن قليلات هن من عرفن ما تنطوي عليه هذه العلاقات الرعناء من كوارث ماحقة للخير والرزق والسعادة، وقليلات هن من يقفن ويتبصرن واقعه المغلوط ويعرفن خطأه، لأن معظم النساء تستميلهن على الدوام أحلام الحياة الشاعرية، فيصدقن ما يُهمس في آذانهن من ثناء، ويتوهمن بأنهن ملكات الإغراء والإغواء، في نظر عشاقهن المتزلفين خارج نطاق الحياة الزوجية، ويعتبرن رشفات خمرة الهوى وأطاييب الحياة الجنسية من أوجب الواجبات وأقدس المقدسات، قليلات جداً هن اللواتي يتمتعن اليوم بملذات الحب في فيء المتعات الجسدية وحدها، بدون أن تحسب الواحدة منهن أدنى حساب لسواها من المنغصات. كذلك ثمة نساء يقعن في شباك الغرام خارج الحياة الزوجية، باعتقادهن أن الخيانة الزوجية والعلاقة خارجها ألذ وأروى للعاطفة والغريزة الجنسية، وهذا خطأ فادح جداً، إذ بإمكانها أن تبوح لزوجها عن حاجياتها العاطفية، والجنسية أيضاً، وكذلك بالنسبة للرجل أيضاً. وبعض النساء يندفعن وراء المغامرة الغرامية خارج الزواج لمجرد التسلية والترفيه عن النفس، أو وراء المصالح المادية أو تقضية الفراغ.

٤ ـ انعدام الكفاءة بين الزوجين:

تعود هذه النقطة إلى وجود الفوارق بين الزوجين، بالخصوص المستويات الاقتصادية والتعليمية، والثقافية، وهذا من قبيل التكافؤ، فإن شعور الزوجين أو أحدهما بالتفاوت في شيء من هذه المجالات، أو في مستوى إدارة شؤون التربية وغرس مناهج التعليم والتوجيه والعادات والتقاليد، يبعث على الاختلاف ومن ثم يؤدي ـ إذا لم نجد له علاجاً ـ إلى الطلاق.

ثانياً: الأسباب (الفردية) التي ترجع إلى الزوجة:

فقد توجد بعض المبررات التي يجد منها بعض الرجال فرصة ينتهزونها سائغة لإنهاء العلاقة الزوجية، منها:

١ ـ ميل بعض الزوجات إلى التبذير:

ميل بعض الزوجات إلى التبذير والإسراف والمغالاة في الإنفاق وكثرة المطالب، ولاسيما في المجالات التي تتعلق بالإنفاق على نفسها، بدرجة تزيد على مقدرة الرجل المادية، مما يفضي إلى الشعور بالفشل والإحباط، ويجعله يسير في سباق مع الحياة والعمل ليوفر لها حاجياتها المتزايدة، مما يوقعه في الديون، ويشعره بالقهر والعجز أمامها، ومن ثم يرى في الطلاق مخرجاً من مأزقه.

٢ ـ إهمال الزوجة لأمر بيتها الأسري:

إهمال الزوجة لأمر بيتها الأسري، وعدم اهتمامها بشؤونه، وبشؤون نفسها، وانصرافها إلى إضاعة وقتها في الزيارات لأهلها أو صديقاتها لفترات طويلة يومياً، أو إلى قضاء الساعات في المكالمات الهاتفية المطولة التافهة مع الأهل والصديقات، ويجني الزوج نتيجة هذا

الإهمال بؤساً وحرماناً من حقه في البيت والطعام واللباس والتنظيف من الزوجة التي لم تشاطره متاعبه وآماله، وتكون النتيجة أن يدير ظهره لمثل هذه الحالة البائسة فتصل النتيجة إلى الطلاق.

٣ ـ الأمراض المزمنة والخطيرة:

لا يعد هذا العامل في مجتمع بسيط كسابقيه من العوامل والبواعث على الطلاق، لأن في الغالب أن الزوجة تصبر على مرض زوجها، وتسعى لإيجاد الراحة والاستقرار للأسرة، في حال تعطل المعيل عن وظيفته بسبب مرضه، وتقوم بعض الأمهات ـ كما رأينا وسمعنا في المجتمع ـ بدور الاب والأم والخادمة والممرضة في نفس الوقت، وكذلك هناك نماذج من الرجال تمكنوا أن يكونوا في مثل هذا الموقف، وهناك شرائح رجالية لا تتمكن من الصبر على زوجة مصابة بأمراض مزمنة، كأن يكون مرضها في الأعضاء التناسلية مثلاً مما يعيق الرجل عن ممارسة الجنس، أو يعيق الإنجاب، فيبحث الرجل عن حل عن طريق التعدد، أو بسفراته المتواصلة هنا أو هناك، مما يُثير الحساسية عند أغلب النساء فيطلبن الطلاق.

٤ ـ الخلافات من جانب أهل الزوجة:

الخلافات بين أهل الزوجة وأهل الزوج، يعود وبالها على الزوجين بالتفرق رغم الألفة بينهما، هنا رغم ما يبدو من كون العامل مشتركاً بين الزوجين، إلا أن الأزواج يميلون إلى تحميل الزوجات التبعية الكبرى نظراً لضعف موقف المرأة في الأغلب أمام أسرتها، وكون قدرتها على شق عصا طاعتهم دون قدرة الرجل أمام أسرته، ومما يتصل بهذا السبب، عندما يكون الزواج قد تم على أساس زواج كل من الزوجين من شقيقة الآخر أو ابنته فإذا ما تردت العلاقة بين أحد الزوجين وانتهت

إلى الفرقة، كان من شأن الزواج الآخر أن يلقى نفس المصير، ماراً من الزوج لأخته المطلقة.

٥ ـ عمل المرأة خارج المنزل:

لقد كان لعمل المرأة وما تمخض عنه من استقلال مالي، ومن اختلاط برفاقها العمال، إذا كان عملها يُلزم الاختلاط، دور هام في بواعث الشقاق والطلاق العائلي في الأسرة، وقد ترتب على هذا العامل أن تعزف كثير من النساء عن الزواج وتفضيل حالة العزوبية، أو التسرع في طلب الطلاق بحثاً عن سبيل آخر للعيش يحقق طموحاتها واستقلالها الذاتي.

إن من أكثر المشكلات التي تعانيها الأسرة المعاصرة اليوم، مما يشكل حافز الطلاق بين الزوجين، عمل المرأة خارج المنزل، فقد تبين من الإحصاءات التي قامت بها اللجان المتخصصة: أن ٨٠٪ من حالات الطلاق كان سببها عمل المرأة خارج المنزل، مما يؤهلها أن تغيب عن رعاية الزوج والأبناء لفترات طويلة، ومن ثم تعود منهكة لا طاقة لها على إدارة المنزل وشؤونه الخاصة، فينشب الصراع ويحتدم بين الزوجين، فتكون النتيجة الطلاق، كحل يرضيها لأنها تفضل عملها على أسرتها!

وأقرب مثل على ذلك واقع المرأة في المجتمع الصناعي المعاصر، فهو خير دليل على ماتؤكده الإحصاءات العالمية، فهي لا تمهر ولا ترث، ولكنها تحررت وأخذت تعمل خارج المنزل وتأخذ الأجر على العمل، مما حمل الرجل على استغلالها وإلحاق الأذى بها، بسبب مالها الذي تحصل عليه من كسبها، وقد أخذ هذا الضعف أو الاستضعاف، يخف تدريجياً في المجتمع المادي، وانتقلت إلى مرحلة المساواة

بالرجل، وآل الأمر إلى ضعف الرجل أو استضعافه حين أحست المرأة عن طريق ممارستها لحريتها الزائدة بفراغ حياتها الزوجية، وفي العلاقة الجنسية على العموم، وأخذ شعورها بذلك يزداد تبعاً لازدياد نطاق حريتها، ولم يعد الرجل بعد أن ضعف أو اسُتضعف يسد هذا الفراغ في حياة المرأة إلا رجل قوي، فأصبح الرجل في المجتمع الحضاري عبئاً بالنسبة للمرأة، وما الموجة العنيفة من الطلاق ومن ارتكاب الجرائم في المجتمع الصناعي القائم إلا ثمرة الفراغ في حياة المرأة، بعد أن ضعف الرجل بفعل استقلال المرأة اقتصادياً بالكسب، بل وتحملها جزءاً من نفقات البيت في كثير من الأحيان، وانجرّت هذه الحالة على المجتمع العربي والإسلامي في الآونة الأخيرة، مما جعل بعض النساء يستقللن اقتصادياً، الأمر الذي جعلهن يتساهلن في رعاية الأسرة لأنهن في غنى عن الرجل[١].

ثالثاً: الأسباب الخاصة بالزوج:

ترى كثير من النساء أن لديهن مبرراتهن الخاصة في طلب الطلاق، وعدم الاستمرارية مع أزواجهن، والواقع أن هناك مبررات يحق للمرأة أن تطالب بحق الفسخ، إذا تبين عدم جدوى العلاجات الأخلاقية أو الدينية أو الوعظية مع الأزواج، والبعض الآخر قد لا تكون هذه المبررات كافية لأن تطالب بطلاقها من الزوج، وأهم هذه المبرارت ما يلي:

١ ـ ما يقدم عليه بعض الأزواج من معاملة فيها كل معاني الإهانة والتحقير والقسوة، وإساءة المعاملة والضرب، والنقد لتصرفاتها صغرت

(١) راجع كتابنا فقدان الوعي: ص٩٠، المؤلف.

أم كبرت، أمام الآخرين، وجرح مشاعرها بالقول والفعل، ومن المؤكد أنه لا يمكن أن يكون الضرب، وإدخال الأذى على المرأة من هذه الناحية، طريقاً لتثبيت طاعتها الزوجية، فقد أثبتت البحوث العلمية: أن هذا التعامل الخشن، لا يمكن الزوج من السيطرة على قيادها، بل يؤدي بها إلى تحصين رغباتها، وجموحها ناحية الجرائم، والعقوق، وسوف نتحدث عن علاج الدين لهذا العامل في الفصول الخاصة إن شاء الله.

٢ ـ عدم توفير المنزل المستقل للزوجة، وذلك بأن تقيم في مسكن غير لائق بها، أو أن يقيم مع أفراد أسرته من أبوين وإخوة، نظراً لحاجتهم إليه من الناحية المادية أو المعنوية، أو لعجزه عن توفير المسكن المناسب لضيق ذات يده، ومن شأن مساكنة الأهل أن يحدث الاحتكاك والخلاف بينهم وبين الزوجة، فلا ترضى بالمقام على هذا الحال، مما يسير بالحياة الزوجية في طريق الانهيار.

وحقيقة واضحة في مجتمعنا المعاصر، أن الابن عندما يتزوج، يكون ضعيفاً عند طلبات الزوجة بالاستقلال، البعض ـ للأسف الشديد ـ يرضخ لهذا الطلب ويبتعد عن أسرته نهائياً، مع أن بعض الأسر في مجتمعنا تحتاج للابن الأكبر بعد فقد معيلها، ولو أردنا أن نسرد صوراً توضح هذه الحقيقة لطال بنا المقام.

٣ ـ الغيرة الشديدة لدى بعض الأزواج، والتي قد تحملهم على فرض قيود قاسية على حركة الزوجة وتصرفاتها، ومن ثم تنقلب إلى ضرب من الشك والريبة، وتشعر معه الزوجة بالضجر وانسداد الحياة في وجهها، فتنشد الخلاص عن طريق الطلاق.

٤ ـ عدم قيام الزوج بواجبه الشرعي في الإنفاق على الزوجة بالمعروف رغم يساره، وذلك بدافع الشح والبخل، أو نتيجة زواجه

بأخريات، وعدم مراعاته نظام الحقوق والعدالة، فتضيق ذرعاً من مشاعر الحرمان الذي تعانيه، للحيلولة بينها وبين أسباب الحياة الكريمة التي كانت تنتظرها قبل الزواج، أو كانت تعيشها في بيت أهلها.

٥ ـ إدمان الزوج على المخدرات، أو المسكرات، والإسلام بحكم نظرته الصائبة إلى الكون والحياة والإنسان، رسم للأسرة نظاماً إنسانياً عادلاً، كما في باقي شؤون الحياة، ومن مجموع التعاليم الدينية التي وردت في القرآن والسيرة النبوية والتاريخ الإسلامي، يمكن ملاحظة ماذا أراد الإسلام للأسرة من أهداف سامية. وبمجرد انحراف الأسرة عن هذا القانون وذلك النظام تتحول إلى معول دمار في المجتمع.

وهذا ما يعانيه الغرب وحضارته اليوم، إنه الخلل الاجتماعي الذي أدى إلى ضياع المكتسبات العلمية التي حققها في ميادين عديدة، نتيجة غياب القيم الروحية عن هذه المجتمعات، بالخصوص في أجواء الأسرة الواحدة التي تعاني التفكك والانحلال، إن مشاهد الفساد ونماذج العلاقات الاجتماعية في الغرب، والتي نطالعها على صفحات الجرائد، تظهر أن الإدمان على المخدرات والمسكرات هو العنصر الرئيسي في انهيار المجتمع الغربي وأسره، وارتفاع معدلات الطلاق بين أهله.

إن تأثير الكحول على المجتمعات وارتباطها بالحوادث والجرائم أمر واضح لا يحتاج إلى برهان، ولكن الأمر المهم هو تأثير حالة الجرائم على المجتمع، وتحول أفراد هذا المجتمع إلى مجتمع قريب من الغابة، وبالتالي يفقد سمات المجتمع المدني الذي ناضل من أجله قروناً طويلة، ولذا فإننا نلاحظ أن معدل الطلاق من قبل النساء في المجتمعات التي يكون رب الأسرة مدمناً، أكثر بكثير من أي عامل من العوامل. لذلك تعزو كثير من المحاكم الشرعية أغلب أسباب الطلاق إلى شرب

الخمور، والإدمان على المخدرات، فهؤلاء لا سيما المدمنون منهم، تكون حالتهم النفسية والصحية والاجتماعية غير طبيعية، فالزوج المدمن يهمل ذاته ويفقد الكثير من طموحاته واهتماماته، كما يهمل عمله ويقل إنتاجه، والمدمن يعجز عن القيام بدوره في قيادة أسرته بالصورة المطلوبة، وتنعكس مزاجيته المتقلبة جواً أشبه بالجحيم مع زوجته وأولاده، مما يجعلهم يتحاشونه ويبتعدون عنه، وتدب الخلافات والمشاجرات بينه وبين زوجته والتي كثيراً ما تنتهي بالطلاق(١).

٦ ـ إهدار حق المرأة في اختيار الزوج: ففي بعض الأوساط ولاسيما المجتمعات غير الواعية دينياً وثقافياً، يمارسون ضغوطاً ظالمة على المرأة لحملها على الزواج ممن يريدون، وذلك إما لاعتبارات قبلية كما في زواج الأقارب، أو لاعتبارات اجتماعية أو مالية طمعاً في جاه أو مال، مثل هذا الزواج يفتقر غالباً إلى عنصر الرضى، وهو أساس الحياة الزوجية، ولا يلبث شعور الكراهية أن يتعاظم في داخل المرأة، مما يحدو بها إلى البحث عن الخلاص من قيد الزوجية الثقيل، وذلك بالطلاق.

رابعاً: التوترات الجنسية بين الزوجين:

أجمع المحللون المهتمون بقضايا الطلاق: أن هناك تغيراً قد طرأ على أهمية العلاقات الجنسية في الزواج خلال الجيل الماضي، والملاحظ أن كثيراً من المطلقين ذكروا المشكلات الجنسية كعوامل مسببة للطلاق، بينما يميل بعض الباحثين النفسانيين: إلى أن المشكلات الجنسية ليست أسباباً أساسية للطلاق، وإنما هي بالعكس من ذلك نتائج

(١) راجع كتابنا الخمر حرمتها وتأثيرها على الإنسان: ص٨٥، ونظام الأسرة، مصدر سابق: ص ٨٩.

مترتبة على الصراعات والتوترات الزوجية، ويستتبع ذلك أن العلاقات الجنسية غير المتوافقة في الزواج تعتبر سبباً غير أساسي (نسبياً) من الأسباب العديدة المؤدية للطلاق[١].

وأوعز بعض الباحثين، أن الخوف من العجز الجنسي في ميدان الزواج يجعل الزوج كالجندي الجبان، الذي سرعان ما يتدحرج عن عرش رجولته إلى حضيض المهانة في نظر نفسه وامرأته، وعندما تخونه مقدرته الجنسية ولا يستطيع القيام بواجباته الزوجية، تتحول حياة الزوجة إلى شقاء محتوم، فتلجأ بعضهن إلى الخيانة الزوجية لتروي ظمأها الجنسي والعاطفي من رجل آخر، وهذا بطبيعة الحال نوع من الانحرافات الاجتماعية التي تعانيها بعض المجتمعات اليوم، بينما تميل بعض البحوث العلمية والدراسات الميدانية، إلى أن عدم قدرة المرأة على القيام بوظيفتها الجنسية على الوجه الأكمل، يدفع الرجل إلى البحث عن البديل فوراً وبدون تردد، مما يبعث على الطلاق والتفكك الأسري. يقول الباحث الغربي (مكسين ديفنس): إن فشل الحياة الأسرية يعتمد على تراكم من المؤثرات الداخلية والخارجية، ومن أهم المؤثرات الداخلية الفشل في العلاقة الجنسية بين الزوجين، وهو بالتالي يعتمد على مجموعة من الأسباب، مثل الأسباب العضوية أو الوظيفية أو النفسية[٢].

النتائج السلبية للطلاق:

إن الطلاق كما أراد الشارع الحكيم وكما يشهد به الواقع، يعد حلاً لمشكلات، وتخفيفاً لمعاناة يعيشها الأزواج والأسر، ولا أدل على

---

(١) علم الاجتماع العائلي: ص ٢٢٦.

(٢) الجنس والزواج: ص٢٧٤، د. مكسين ديفنس.

ذلك من قول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا﴾[1]، ولعله يكون باباً لفتح حياة أرحب، وأكثر انسجاماً مع مقتضيات العلاقة الزوجية، سواء على الصعيد المادي أو المعنوي. . وهذه الحقيقة ـ أيها الأحباب ـ لا تنفي أن تترتب على إيقاع الطلاق آثار سيئة على الزوجين أو أحدهما أو الأولاد أو المجتمع، ونستطيع استشفاف هذا المفهوم من موقف الشارع الحنيف وكراهته ـ كما مر عليك سابقاً ـ في مسألة الطلاق، وحث الزوجين على الصبر، وتحاشي الوصول إلى الطلاق إلا بعد استنفاد كل السبل الأخرى للإصلاح ورأب الصدع. ومن هذه السلبيات ما يلي:

١ ـ الآثار النفسية:

من الناحية النفسية يعتبر الطلاق تجربة قاسية ومريرة بالنسبة لكل من المرأة والرجل على حد سواء، تشعر كلاً منهما بالفشل والإحباط والحرمان، وما يرافق ذلك من الشعور بالنقص، وانعدام الثقة، وتحس المرأة المطلقة بجرح كبريائها، وخدش أنوثتها، وفقدان نسبي لشعورها بالقدرة على الاحتفاظ ببيت الزواج قائماً، وربما ينتج عن ذلك شعور بالضياع واليأس والقنوط، والسخط على الرجال بمجموعهم، وعلى فكرة الزواج بوجه خاص، ومحاولة الانتقام منهم بكافة الطرق الممكنة، ومن الممكن كذلك أن يعتريها شعور وهمي أو حقيقي بأن فرصتها في الزواج قد ولت ولن تعود ثانية، كما أن الزوجين يشعران بأنهما قد استنفدا بتجربتهما الفاشلة حظيهما من الزواج، والذي بدا لهما أنه قليل، كما يشعر كل منهما بالحزن والألم والاكتئاب، لفقد شخص أحبه،

(١) سورة النساء، الآية: ١٣٠.

وأخلص له وبنى على العلاقة معه آمالاً وطموحات تبين أنها سراب خادع.

كما وتعاني المرأة المطلقة من نظرات النقد واللوم، بل والشك والريبة وهمسات الشماتة، وقد يطاردها أصحاب النفوس المريضة، والنفوس الضعيفة بالقيل والقال، وتخضع لفضول الفضوليين والانتهازيين، وغير ذلك من الاتجاهات العامة لدى المطلقة.

٢ ـ الآثار الاجتماعية:

الطلاق يترك أثراً سلبياً ينعكس على العلاقة بين الأسرتين، حيث تنفصم العلاقات العائلية، وصلة المصاهرة والقربى، وتحل محلها الخصومة بين الطرفين، ويحتدم الخلاف إلى درجة قد تصل إلى المشاجرة والعنف، ومن ثم يمكن القول بأن الطلاق يمس بنية المجتمع، والتماسك الاجتماعي والأسري فيه.

ومن آثاره الاجتماعية أيضاً، تفشي بواعث الجريمة في المجتمع، لأن الأبناء الذين لم يحصلوا على الرعاية الأبوية اللازمة، أو الذين حرموا من عاطفة الأمومة الدافئة، تهب بهم رياح الشر إلى قوارع الطريق. لقد أثبتت الدراسات التي قام بها مجموعة من الباحثين في الخليج العربي، بأن أغلب الجانحين نحو الجريمة والإجرام، هم من الأحداث الذين يأتون من أسر مطلقة[١].

إذن: الطلاق وعامل التفكك الأسري المتمثل فيه يُسبب بواعث الجريمة الاجتماعية في الوسط الاجتماعي، مما يجعل المجتمعات تسير نحو الهاوية المحتومة بسبب الجريمة والإجرام، ويلعب فيها عامل

---

(١) جريدة المسلمون: العدد ١٨٧ص ٣.

الطلاق دوراً كبيراً في انهيار بنية المجتمع. يقول تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾[١].

وقال في آية أخرى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾[٢].

والطلاق الذي لا يرتكز على أُسس شرعية ولا تكون له مسوغات شرعية؛ يكون قنبلة موقوتة بحق الأسرة والمجتمع، ويكون له أثر كبير في تدمير المجتمع الإسلامي.

الحلول العملية للطلاق:

معظم الناس يعيشون في الحياة بلا هدف، ولا يعملون من أجل الهدف، الذي خلقوا من أجله، لأنهم أساساً لا يبالون ولا يفكرون في هذا الموضوع أصلاً، وكثير من الناس ـ للأسف الشديد ـ يعيشون في الحياة بلا هدف جاد، وإن كان لهم هدف فهدفهم محدود ومؤطر بأنواع محددة كالطعام والشراب والهوى والمجون أحياناً.

والسر في ذلك هو أن الإنسان يولد في مجتمع يسير وفق منهج معين، فيقلد نفس المسيرة دون تفكير أو دراسة، ولأنه ينشأ في هذا الوضع القائم، فإنه في البداية لا يتصور طريقة أخرى في الحياة غير تلك الطريقة، وكأن ذلك قدر مفروض لا يستطيع مخالفته.

إن الكثير من الناس يقلدون مسلك آبائهم ومجتمعاتهم، بدون مناقشة وتفكير بالثوابت التي نشأوا عليها دون دراسة وتمحيص وتعقل،

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٧.

(٢) سورة الرعد، الآية: ٢٥.

والبعض الآخر يحاول أن يعرف الهدف الذي من أجله خلق الإنسان في هذا الوجود، لكنه يصطدم في كثير من الأحيان بعقبة تجاوز التقاليد والأعراف الباطلة.

ولا شك أن سلوك الإنسان، يختلف فيما لو عرف هدف وجوده، فكما أن معرفة الهدف من صنع الآلة، تحدد نوع الانتفاع بها، كذلك الإنسان إذا عرف الهدف من وجوده يعرف كيف يجب أن يستخدم حياته وعمره، وكيف يجب أن يتعايش مع الآخرين.

وهذه المعرفة، هي أبرز الفوارق بين المؤمن وغير المؤمن، فالأول يعرف بالضبط الهدف الذي من أجله جاء إلى الدنيا، ولذلك فهو يسعى باتجاه ذلك الهدف، رغم كل العوامل التي تحاول الانحراف به في طريق أخرى، بينما يسير الكافر في طريق مختلفة متناقضة، لا يعرف بدايتها ولا نهايتها أيضاً.

لقد وضع الشارع الحنيف مبادئ الطلاق، وأوجد له الحلول المناسبة التي تقي مجتمعاتنا المعاصرة من الوقوع في شراكه، فاعتبر أن تفشي الطلاق في المجتمع ينم عن حالة مرضية، وخلل يستوطن كيان الأسرة وبنيان المجتمع، واستئصال هذا الداء ووصف الدواء الناجع له يتوقف على تشخيص أسبابه بصورة سليمة.

أولاً: في العوامل التي تخص الزوجين:

إن من الأسباب التي تجعل أحد الزوجين يرغب في إنهاء علاقته بالآخر، إقامته على المعاصي، وإصراره عليها دون رادع من دين، أو وازع من إيمان أو خلق، والعلاج والحلول الدينية تكمن في أن يتقي العاصي ربه ويتوجه إليه بالتوبة النصوح، وأن يلمس الزوج الآخر منه الصدق في تغيير حاله من الإساءة إلى الإحسان، فتصفو القلوب،

ويتمتن حبل المودة وعرى المحبة الزوجية بين الزوجين، ويغيب شبح الخلاف والطلاق، وتقي الأسرة نفسها من براثن التفكك والانحلال والجريمة.

إن اتقاء الزوجين من خطر الطلاق لا يتم إلا عبر نافذة الإيمان والالتزام به، والسير وفق مبادئه وأنظمته وأخلاقياته، والمؤمن لا يرضى الدنية في دينه، ولا يتنازل عن إيمانه ولو كلفه حياته، لأنه لا معنى للحياة بدون إيمان. قال تعالى: ﴿لِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ * إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَـٰيَـٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[١].

وقال رسول الله ﷺ: المؤمن أشد من الجبل، لأن الجبل يستقل منه والمؤمن لا يستقل من دينه شيء[٢]، ومفهوم الحديث أن المؤمن لا يتمكن منه الشيطان ولا الهوى ولا الغرائز، والطلاق في أغلب حالاته نابع من هذه الأمور، وقليل منه يكون علاجاً شافياً لمشكلات الزوجين والأسرة.

فالالتقاء على قاعدة الإيمان كفيل ـ أيها الأحباب ـ بتذليل كل عقبة، وامتصاص شعور الكراهية التي لا يستقيم بحال أن تسود علاقة المؤمن بالمؤمنين، فكيف بالزوجين المؤمنين.

ثانياً: مسؤولية الإنسان تجاه أسرته:

المؤمن مسؤول عن إيمانه، أكثر من أن يكون مسؤولاً عن حياته المادية، ذلك أن الإيمان أعز وأغلى من حياة الإنسان، ولذلك فإن المؤمن لن يذوق حلاوة الإيمان، حتى يكون الله ورسوله أحب إليه من

---

(١) سورة الشعراء، الآيتان: ٥٠ و٥١.

(٢) الوسائل: ج ٨ ص ٢٣٤، باب الإيمان.

الدنيا وما فيها، فهو في سبيل المحافظة على دينه يضحي بماله وأولاده وروحه التي بين جنبيه.

ولكونه مسؤولاً عن إيمانه، فهو مسؤول أيضاً عن محاربة العوامل التي تحاول أن تزيحه عن طريق الإيمان، وتخرجه إلى عالم الخراب والرذيلة والفساد، ومن ضمن تلك العوامل، حالات الطلاق غير المرضي، والذي لا يكون حلاً جذرياً لمشكلات الأسرة، والذي يكون نابعاً من الغرائز والملذات، والمشكلات الهامشية التي يعيشها الزوجان في حياتهما الأسرية، كما نشاهد اليوم في مسيرة مجتمعنا المعاصر، إذ أصبح الطلاق أسهل الحلول لمشكلات الزوجين الهامشية والتي تكون غالباً مادية بحتة.

إن مجاهدة النفس ـ أيها الأحباب ـ ومحاربتها وتهذيبها على مبادئ الدين والتعاليم الإسلامية، طريق لمحاربة صراع الطلاق الخاطئ، إن الإنسان في الدنيا يعيش في صراع نفسي مستمر بين الخير والشر، فنفسه الأمارة بالسوء تجره من جانب، بينما تجره النفس اللوّامة من جانب آخر، وأغلب حالات الطلاق تقع تحت وطأة صراع النفس الأمارة بالسوء.

يقول تعالى: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾[1].

وإذا كان الأنبياء والأئمة عليهم السلام والصالحون(رضي الله عنهم) يخافون على إيمانهم وحياتهم من شرور أنفسهم، أفلا نكون خائفين نحن البشر العاديين؟

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٥٣.

وأما تدخل الأهل في خصوصيات الزوجين، فأمر يرفضه مقتضى الإيمان، بل إن واجب الإصلاح وإقامة المعروف، يوجب عليهم أن يبادروا ولدى شعورهم بظهور اليسير من سحب الخلاف للعمل على تنقية جو الأسرة منها، ليكون صافياً وليعود مفعماً بالود والرحمة، وهذا لا يكون إلا إذا امتلك الناس الوازع الديني، الذي يمنعهم من اقتراف الجرائم والأخطاء بحق بعضهم البعض، وبهذه الروح المفعمة بالإيمان يتمكن الإنسان أن يجتنب جميع المشكلات التي تعرض للحياة الزوجية، فأغلب مشكلاتنا نابعة من قلة إيماننا بمبادئ الله وتعاليم رسوله ﷺ وأهل بيته عليهم السلام لأن الدين تربية قبل أن يكون تعليماً.

النشوز والعنف الأسري

من المحاسن التي اتصف بها الدين الإسلامي، أنه يعالج عامل المرض الذي يسبب شقاء كثير من الناس على وجه الأرض، وبما يفرضه على الملتزمين به من تعاليم صحية، كالتعاليم الوقائية عن المكروبات والجراثيم الموجودة في محيط الإنسان، إذاً يسعى ديننا الحنيف لوضع ضوابط وقائية، تحذر من السقوط في مستنقعات الرذائل، التي تجلب للإنسان دمار حياته الصحية والجسدية والنفسية، ولعل ديننا الحنيف عندما وقف تلك المواقف المشرفة؛ من محاربة الجرائم بكافة أنواعها وأشكالها ومكانها وزمانها، كان كفيلاً بعدم انتشارها ذلك الانتشار المريع كما هو حاصل في العالم الغربي اليوم.

إن الدين عالج الأمراض التي تصيب الإنسان بمختلف الطرائق المتعددة التي عجز العالم المتمدن من أن يصل إليها، فقد وفر عبر ثقافته الصحية لوازم تعليم الطب بمختلف تخصصاته، والصيدلة ووجوب تأسيس المستشفيات وتوفير الأدوية للناس، ثم ألزم على سبيل الواجب الكفائي تعلم كل فرد ما يلزمه من إرشادات طبية وما إلى ذلك، ولم يبق بعد هذا كله إلا ما لا يمكن عليه من أقسام المرض لا وقاية ولا علاجاً. . . وفي عقيدة المؤمن بالله أنه هو المدبر لهذا الكون، وأنه عادل لا يصيب أحداً إلا ما يستحقه من الجزاء؛ وبناء على هذه العقيدة والمستدل عليها في مقامها، فإن المسلم الحقيقي سيبقى بعيداً عن أنواع

الأمراض الأخلاقية، والكوارث الطبيعية بقدر كبير، ما يؤكده الحديث القائل: «لا يصيب الناس شيء إلا من أنفسهم» وما تؤكده الآية الكريمة القائلة: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[١].

والواقع الذي ينبغي أن يفهمه الإنسان المسلم أنه لا بد له من البلاء والافتتان في هذه الحياة الدنيوية، إذا كان المؤمن لا يصيبه البلاء الذي أشرنا إليه في السطور السابقة على أساس أنه يعيش في بوتقة الدين، ولذلك يجنبه الله البلاء والأمراض التي يسكبها على العصاة من عباده، فليس للمؤمن محيص من البلاء الذي يُمتحن به على سبيل الثبات والإيمان والصدق.

قال تعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾[٢].

وقال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوفْ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمَوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ﴾[٣].

فالناس يبتلون: في الخسارة التجارية، وفي مرض الأحباب، وفي موت الأعزاء، وفي سوء الخلق من الزوج أو الزوجة، في خيانة الأصحاب وفي موت الفجأة، وفي خسارة الولد، أو إصابة بمرض عضال كالشلل والغيبوبة وما يصعب الشفاء منه. . و قد يُبتلى بمرض يفتك به، أو ينزل به ما لم يكن يتوقع، وقد يخسر عضواً من أعضاء

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٥٧.
(٢) سورة العنكبوت، الآيتان: ٢ ـ ٣.
(٣) سورة البقرة، الآية: ١٥٥.

جسده، أو يفقد صحته وعافيته ونشاطه، أو تصيبه شوكة في قدمه، ومن أراد الشواهد الماثلة أمامه، والبراهين الناطقة حوله فليذهب:

إلى المستشفيات ويرى مرضاها.

أو إلى المقابر ويرى موتاها.

أو إلى العيادات ويرى زوارها.

أو إلى الأحياء الفقيرة ويرى قاطنيها.

أو إلى العائلات المستورة ويرى ساكنيها.

أو إلى البيوت المتعففة ويرى أهلها.

أو إلى مجالس العلماء ويرى مشكلات العامة فيها... إلخ.

هذه هي الموعظة من حولنا أيها الأحباب[١].

من هنا أُعطي المؤمن حالة من الطمأنينة تمكنه من مواجهة الصدمات العنيفة المفاجئة في حياته، والصدمة التي تسبب الأمراض الفتاكة التي تعصف بالإنسان، كما دلت الإحصاءات العالمية بنصف سكان العالم[٢].

النشوز والصدمة:

يراد بها: بأنها هزة عاطفية ناتجة عن حادثة مؤلمة تؤدي أحياناً إلى اضطراب عصبي؛ ومدلولها في الواقع المعاش يعني أنها حادثة مأساوية مؤثرة فيه ومسببة للإحباط.

---

(١) للمزيد راجع: كيف تواجه البلاء، سامي خضرة: ص ٩.
(٢) المجلة النفسية: العدد ١٨ العام ١٤١٦هـ.

وهنا نحاول أن نسلط الضوء على بعض مسببات الآلام للإنسان وهي:

فقد الأحبة غربة:

هذه الحالة التي تعد من أهم الحالات التي تسبب الآلام للإنسان في حياته، بالخصوص إذا كانت علاقة الإنسان بالذي فقده علاقة وطيدة للغاية كعلاقة الروح بالجسد، وهذا التعبير ينطبق على علاقة الآباء بأبنائهم وبعض الزوجات بأزواجهن، والأصحاب بأحبابهم، وهذه الخسارة التي يُبتلى بها الإنسان متأصلة في حياته الدنيوية، فلا حقيقة في الحياة سوى الموت، وكل منا سيعاني من فقدان قريب في يوم من الأيام شئنا أم أبينا، سواء أكان ذلك بالانفصال أم بالموت، وبطبيعة الحال يؤثر هذا العامل على الإنسان جسدياً وعاطفياً، وقد يكون له ذيول وأضرار على صحة الإنسان الجسدية والعاطفية.

يؤكد هذه الحقيقة بعض الاختصاصيين في علم الاجتماع والنفس بقوله: إن هذه الحالة التي تمر على الإنسان تضاعف من عواطفنا المؤلمة المتضاربة، وقد تؤدي إلى تغيير نظرتنا لأنفسنا، ونظرة الآخرين لنا، كما يؤدي إلى تغيير رئيسي في كثير من جوانب حياتنا، كمكانتنا الاجتماعية وعلاقاتنا مع عوائلنا وأصدقائنا وجيراننا، إضافة إلى صعوبات مالية.. وقد تبقى ردود الفعل هذه عند البعض عدة سنوات، في الوقت الذي قد يشعر آخرون بعدم قدرتهم على الحزن فيكبتون عواطفهم، لتظهر لاحقاً على شكل ردود أفعال حزن متأخرة، وآخرون قد يتمكنون من إعادة بناء حياتهم أسرع مما يتوقعون أو يتوقعه الناس.. ويظهر الحزن على فراق الحياة على شكل أعراض جسدية وعاطفية وسلوكية، فالتفجع، والإنكار، والغضب، والحزن، واليأس، والذنب، والخجل،

والكوابيس، والخمول، والانعزال، والتعب وقلة التركيز، والخفقان والغثيان والإسهال، والصداع والآلام والأوجاع وعدم الرغبة الجنسية، كلها أعراض طبيعية تصيب الإنسان في هذه الحالة(١).

العنف الأسري والاعتداء الجنسي:

مما لاشك فيه أن الشريعة الإسلامية أولت الأسرة عناية فائقة، لا يدرك أهميتها إلا من عاش في بوتقة الدين الإسلامي، وتعرف على ضوابطه وأحكامه وسار على منهج نبيه ﷺ وأهل بيته الأطهار عليهم السلام، إذ وقفت الشريعة الإسلامية موقفاً مشرفاً بخصوص الحريات التي تؤطر بها الأسرة، لأنها قضية أولية من قضايا التعامل بين الفرد والآخرين، وبين الفرد مع نفسه، والإكراه والقسر يعتبران من أهم العوامل التي أدت بالأشخاص في الأسرة والمجتمع إلى التمرد على القيم والأعراف والضوابط الشرعية، من هنا رفض الإسلام نظام الحرية الفردية التي لا تؤطر ضمن نطاق الشريعة واحترام حقوق الغير، كما رفض القهر والقسر والاعتداء على حقوق الآخرين بأي طريق كان، فالحرية في نظامنا الإسلامي، هي الحرية التي تعطي الإنسان قدرة عظيمة على معالجة غرائزه الحيوانية، والارتفاع بكيانه الذاتي إلى أعلى مستويات العفة والسمو، وفي نظام الحرية والحقوق يلزمه بمسؤولياته الشخصية والاجتماعية تجاه الآخرين، فإذا كان ذلك الإنسان يعيش ضمن نطاق النظام الإسلامي، فعليه أن يهذب حريته تجاه مؤسسات ذلك النظام، ومثالنا على ذلك: احترام المؤسسات الاجتماعية ومؤسسة العائلة، بما فيها من ولاية الزوج على الزوجة والأبوين على الأولاد، والمؤسسة التعليمية بما فيها من إدارة ومدرسين وتلامذة، والمؤسسة القضائية بما

(١) فن التعامل مع الصدمات، ماكماهون: ص ١٠٦.

فيها من قضاة وشهود، والمؤسسة السياسية بما فيها من ولاة وإداريين ووكلاء ومتخصصين، ومؤسسة معالجة الانحرافات بما فيها من أقسام القصاص والدية والتعزير، ومؤسسة توزيع الحقوق والعدالة الاجتماعية بما فيها المؤسسة المالية، والمؤسسة الطبية بما فيها حقوق الأطباء والمرضى والصيادلة، إلى غيرها من المؤسسات التي اعتنى بها نظامنا الإسلامي، وأي خلل يحدث فيها يتسبب الفرد في انهيار الأسرة والمجتمع[١].

لذلك وضع نظامنا الإسلامي ضوابط العقوبة، ومحاربتها من جذورها، فالفقه الإسلامي عندما جاء بنظام العقوبات، جاء به للحفاظ على حياة كل فرد في المجتمع الإسلامي، بما فيه مؤسسة العائلة التي اعتنت، بها غاية الاعتناء حيث جاءت تطبيقاته تتناغم مع فظاعة الجريمة، ففي الجنايات المتعمدة المتعلقة بالنفس الإنسانية يتعين القصاص، وفي جرائم الملكية ـ باستثناء الغصب ـ يتعين القطع، وفي الجرائم الخلقية يتعين الجلد أو الرجم أو الحرق، وفي المحاربة يتعين القتل... والمسؤولية الجنائية في الإسلام مرتبطة بشكل مباشر بالحالة العقلية للفرد، فالفرد الذي يمتلك القدرة العقلية على اختيار الأفعال، يتحمل المسؤولية بصورة كاملة عندما يرتكب جناية أو مخالفة يستحق على ضوئها عقوبة معينة، ولم يستثن من ذلك إلا المجنون أو المضطرب عقلياً، أو المكره، فإن الشريعة الإسلامية لا تعاقبهم بالمقدار الذي تعاقب فيه الأفراد الذين يمتلكون قدرة عقلية كاملة وقت ارتكاب الجناية[٢].

---

(١) راجع فقه الحريات، الشيرازي.

(٢) للمزيد راجع البحوث الفقهية في باب القصاص والدية عند الفقهاء.

من هذا المنطلق: تعد الاغتصابات والاعتداءات الجنسية أو الجسدية أو التربوية التي يتعرض لها الإنسان، من المحرمات التي نهى عنها الشارع الحكيم وأمر بإنزال العقوبة الشديدة على الجناة، وهذه الجرائم الأخلاقية بطبيعة الحال تعد من أهم الأسباب التي تجلب للإنسان المُعتدى عليه، صدمة عاطفية تهز كيانه الإنساني في المجتمع البشري، مما تحوله إلى مخلوق غريب يعيش في بوتقة الآلام، والكرب، والغضب، وروح الانتقام، ويزداد الاعتقاد أن الاغتصاب والاعتداء الجنسي لا يقتصران على الإناث فقط، بل تؤكد المراكز المتخصصة بهذه الأزمات، والتي تتعامل مع ضحايا من ذكور وإناث على السواء، علماً أن حوادث الاغتصاب والاعتداء على النساء تفوق تلك التي تقع على الرجال، وتدل الإحصائيات: أن ثلثي المُغتصبات تم الاعتداء عليهن من معارفهن، وبمنظور آخر، وحسب آخر دراسات في الولايات المتحدة، فإن ما نسبته ثلث النساء وخمس الرجال، تعرضوا للاعتداء جنسياً في أثناء طفولتهم، كما أن إحصائيات المجمع الطبي الأمريكي تدل على أن أكثر من ٣٠٪ من المتزوجات و٣٠٪ من الحوامل تعرضن للضرب من أزواجهن، كما صدرت تقارير تفيد أن جرائم الاغتصاب تقع بمعدل جريمة كل ست دقائق!

وغالباً ما يكون المعتدي معروفاً وليس غريباً عن الضحية، وقُرن مصطلح (اغتصاب بموعد) بحوادث الاعتداء الجنسي، عندما تخرج الضحية بصحبة المعتدى لموعد بينهما، ويفيد المجمع الطبي المشرف على العلاج، بأن أغلب المعتدى عليهم من النساء والرجال يعيشون حالات نفسية مرضية مزرية تحتاج إلى سنوات علاجية طويلة الأمد.

أما العنف الأسري، فتفيد الدراسات الاجتماعية التي قامت بها لجنة العلاجات النفسية في العالم العربي والغربي من منظمة حقوق

الإنسان، أنه تتعرض النساء يومياً لعنف جسدي أو عقلي، رغم عدم معرفة مدى انتشار هذا العنف، لأن مراكز وملاجئ النساء تجد صعوبة في سد الحاجات المتزايدة لمن يأتين ينشدن المساعدة، إن العنف ضد النساء يسبب الموت والإعاقة، والآلام المزمنة. ففي بريطانيا تتعرض امرأة من كل عشر للضرب من شريكها سنوياً، وامرأة من مائة يقتلها شريكها سنوياً، وقد يكون العنف ضد المرأة في الأسرة جزءاً من حياة النسوة في كل فئات المجتمعات، بغض النظر عن الحضارة أو المستوى الاجتماعي أو العرقي أو العيش في الأرياف أو المدن(١).

هناك من تتمكن من اجتياز هذه المرحلة بالصبر والتطلع إلى فرج قريب، وهناك من لا تتمكن فتقدم على الطلاق، أو القتل في بعض الأحيان! ولعل هذا الذي جعل العيادات النفسية في بلدان العالم الغربي والعربي والإسلامي تكتظ بالمراجعين، فمن راجع الأرشفة التي تقوم بها اللجان الاجتماعية لكل بلد يرى ذلك ماثلاً أمامه، وناهيك عن أرشيفنا الاجتماعي الذي حفظ لنا آلافاً مؤلفة من القصص الواقعية، وهي تحمل بين طياتها مآسي وآلام النساء، وبعض الرجال.

الفِقه ونظرته للنشوز:

النشوز لغةً: العصيان، مأخوذ من النشز، وهو ما ارتفع من الأرض.

والنشوز: كراهية كل واحد من الزوجين لصاحبه، ونشزت المرأة، استصعبت على بعلها، ونشز بعلها عليها، إذا ضربها وجفاها.

واستعمل العرف العام للمجتمعات الإسلامية النشوز على أنه

---

(١) فن التعامل مع الصدمات، مصدر سابق: ص ١٣٢.

خلاف واختلاف بين الزوجين له طابع النفور والإيذاء المعنوي والعاطفي والجسدي.

فقد جاء في القاموس وصحاح اللغة:

نشزت المرأة نشوزاً: استعصت على زوجها وأبغضته ونشز عليها: إذا ضربها وجفاها، فإن ظاهر كلامهم إطلاق النشوز على كل استعصاء وعصيان وخروج عن الطاعة، وعلى جفاء وكل ما يصدق عليه عرفاً أنه إساءة الصحبة.

النشوز في اصطلاح الفقهاء:

النشوز في الشرع هو معصية الله تعالى فيما جعله على أحد الزوجين من الحقوق اللازمة بالنسبة إلى الآخر، وذلك بالامتناع عن أداء حقه إليه، مع التزام الآخر بأداء ما عليه من الحقوق تجاه الناشز، وذلك لأن الناشز منهما قد خرج عن الاستقامة على مقتضى الشريعة. وقد أسس الفقه الإسلامي تعريف النشوز على أسس اللغة، وهو عصيان أحد الزوجين على الآخر، وهذا المصطلح الذي عبرت عنه الآيات الكريمة بـ(الشقاق). قال تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾[١].

ذلك باعتبار كل واحد منهما مشاقاً للآخر ومنشقاً عليه، لعل لأول وهلة يفهم من الآية الكريمة القائلة: ﴿وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾[٢].

(١) سورة النساء، الآية: ٣٥.
(٢) سورة النساء، الآية: ٣٤.

وتفسير بعض الفقهاء لها أن المراد بالطاعة الطاعة المطلقة للزوج من قبل المرأة، والعكس أيضاً، وارتكازهم على هذا القول يقيد عقد الزوجية في ما بين الزوجين في مسألة (الطاعة المطلقة)، بينما نرى جملة كبيرة من الفقهاء القدماء والمتأخرين، قالوا: بانحصار حقوق الزوج في أمرين هما:

١ ـ **حق الاستمتاع**: والذي يشمل كافة الحقوق في الممارسة الجنسية التي حددت بـ(التمكين)، أي تمكنه من نفسها تمكيناً كاملاً ومطلقاً ليستمتع بها على النحو الذي يريده، فلا يجوز لها أن تمنعه نفسها في هذا الشأن إلا إذا كان ثمة مانع شرعي من الاستمتاع بها، والمانع الشرعي على قسمين هما: قسم يتصل بتكاليف المرأة من الواجبات والمحرمات الشرعية، وقسم يتصل بالقدرة الجسدية.

أما القسم الأول فهو في حالتين:

إحداها: الحيض والنفاس، فيحرم عليه خصوص الوطء، ويحل له ما عدا ذلك من الاستمتاعات، ويحرم عليها تمكينه من الوطء، ويجب عليها تمكينه مما عدا الوطء.

ثانيها: الواجبات العبادية، الصوم الواجب، فريضة أو قضاءً مضيقاً وصيام الثلاثة أيام في الحج لمن وجبت عليه، وحالة الإحرام بالعمرة والحج على التفصيل المذكور في كتب الفقه.

أما القسم الثاني: فهو كل حالة تجعل المرأة غير مؤهلة لممارسة العملية الجنسية، بأن يكون في ممارستها ضرر أو حرج عليها، فإن أدلة نفي الضرر والحرج حاكمة على أدلة حق الاستمتاع. ويدخل تحت هذا العنوان أيضاً (التمكين) من حيث الزمان والمكان، إذ يجب عليها أن

تستجيب لرغبة زوجها في أي زمان يشاء، وفي أي مكان يشاء، مع مراعاة الموانع الشرعية، وليس لها أن تمتنع عليه بحال من الأحوال.

ويدخل أيضاً عوامل الإغراء والنفور، والظاهر من عبارات الفقهاء، أن التمكين من الاستمتاع حق للزوج يتضمن توفير الأجواء المناسبة لممارسة العلاقة الجنسية على نحو يوفر أقصى قدر من اللذة فيها للرجل والمرأة معاً.

فقد قال المحقق الحلي في الشرائع، والفقيه النجفي في الجواهر، باب النكاح من قسم النشوز: فكذا يجب على الزوجة التمكين من الاستمتاع، مع عدم المانع عقلاً أو شرعاً، ولو كانت على ظهر قتب، وأن تتجنب ما ينفر منه الزوج من الأوساخ والقذارات وغير ذلك[١].

وهذا ما عبرت عنه الروايات عن أهل البيت عليهم السلام، وكانت عمدة الاستدلال عند الفقهاء. فقد جاء عن عمرو بن جبير الحزرمي عن الصادق عليه السلام: وعليها أن تطيب بأطيب طيبها، وتلبس أحسن ثيابها، وتزين بأحسن زينتها، وتعرض نفسها عليه غدوة وعشية.

وجاء في الرواية الثانية عن الحسن بن الفضل الطبرسي قال: لا يحل لامرأة أن تنام حتى تعرض نفسها على زوجها: تخلع ثيابها وتدخل معه في لحافه، فتلزق جلدها بجلده، فإذا فعلت ذلك فقد عرضت عليه نفسها[٢].

وما يستفاد من الروايات الأخرى المروية في هذا الصدد عن رسول الله صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام كراهة ترك المرأة الحلي والخضاب

(١) الشرائع: ج ١ ص٤٥٦.
(٢) الوسائل: ج ٢٠ ص ١٧٦ مقدمات النكاح باب ١٩.

وإن كانت لا تطيق ذلك أو بلغت المائة من عمرها، أو كان زوجها أعمى:

رواية محمد بن مسلم عن الباقر عليه السلام: لاينبغي للمرأة أن تعطل نفسها أن تعلق على عنقها قلادة، ولا ينبغي أن تدع يدها من الخضاب ولو أن تمسحها بالحناء، وإن كانت مسنة (أي طاعنة في السن)[١].

وسئل رسول الله صلى الله عليه وآله: ما زينة المرأة لزوجها الأعمى؟

قال: الطيب، والخضاب، فإنه من طيب النسمة[٢].

٢ ـ **وحق المساكنة**: وهو أنها يجب عليها أن تسكن حيث يسكنها الزوج، وأن يكون المسكن بحسب حاله وإمكاناته، وأن تساكنه فيه بحيث تحصل من لبثها في البيت مع زوجها حتى يصدق عليها المعية. ولها حال العقد الاشتراط باختيار السكن في المكان التي تعينه، فإذا قبل بالشرط تعين عليه الالتزام به، كما هو الحال فيما لو اشترطت غير ذلك من الخصوصيات في شأن المسكن أو غيره من الشروط الصحيحة.

والحالة الثانية من هذه النقطة، تفريع الفقهاء لها وهي: خروج الزوجة من بيت الزوج لغير حق واجب ولغير محرم، كخروجها لأمر مستحب مثل: زيارة النبي صلى الله عليه وآله وأهل البيت عليهم السلام أو صلة الرحم أو لأمر مباح كالتنزه، أو الشراء من السوق، أو زيارة الأصدقاء، أو ما إلى ذلك.

ومورد البحث الفقهي عند الفقهاء في هذه المسألة هو: هل يجب عليها استئذان زوجها في الخروج من المنزل أم لا؟

---

(١) الوسائل: ج ٢٠ ص ١٧٦ مقدمات النكاح باب ١٩.

(٢) المصدر السابق.

وهل للزوج منعها من ذلك أو ليس له منعها منه؟

تارة ينظر إلى المسألة من حيث الاستمتاع وتضييع حق الزوج بخروجها منه، ففي هذه الصورة لايجوز إطلاقاً خروجها إلا إذا ضمنت عدم تفويت حقه الاستمتاعي.

وتارة أخرى: من أن خروجها يتنافى مع كرامته وكونها لباساً له، وعدم كونها في معرضية الفساد والريبة، أو تذهب إلى زيارة بيت عدوه أو تخرج في زمان ومكان فيه خطر على السلامة، أو تكون الغاية من خروجها محرمة، فلا يجوز لها الخروج إلا بإذنه، فخرجت المسألة ـ النشوز ـ عن كونها من العموميات المطلقة للطاعة.

وأما الأخبار المروية في بحوث الفقهاء والتي يستدل بها البعض من غير تروٍ وتحقيق في متنها أو سندها أو بعد دلالتها عن المطلب، كرواية عبد الله بن سنان عن الصادق عليه السلام: أن رجلاً من الانصار على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله خرج في بعض حوائجه، فعهد إلى امرأته ألا تخرج من بيتها حتى يقدم.

قال: وإن أباها مرض، فبعثت إلى النبي صلى الله عليه وآله تستأذنه في أن تعوده.

فقال لها: اجلسي في بيتك وأطيعي زوجك، قال: فثقل عليها ذلك فمات أبوها فبعثت إليه، إن أبي قد مات فتأمرني أن أصلي عليه؟

فقال لها: اجلسي في بيتك وأطيعي زوجك، قال: فدفن الرجل، فبعث إليها رسول الله صلى الله عليه وآله: إن الله غفر لأبيك بطاعتك لزوجك[1].

---

(١) جواهر الكلام: ج ٣١ ص ١٨٤، النجفي.

ويمكن القول حينها تعليقاً على هذه الرواية أو ما يكون على نسقها: لعلها تحكي قضية في واقعة لها خصوصيتها وظرفها وزمانها المعين بها، ولعل النبي كان مطلعاً على بعض خصوصيات هذه الأسرة، أو تلك المرأة بوضعيتها الأخلاقية أو الاجتماعية، اقتضت منه أن لا يأذن لها.

وحصيلة النظرة الفقهية في حكم (النشوز):

يحصل من جميع ما تقدم: إن حقوق الزوج الثابتة له على زوجته أمران هما:

١ ـ حق الاستمتاع بالزوجة بأوسع معاني الاستمتاع في الحدود الشرعية المشروعة، من العملية الجنسية الكاملة إلى أبسط المداعبات، بل حتى التمتع والأنس بحضور الزوجة والنظر إليها، والزينة والتجمل أيضاً، ويجب أن يراعي الزوج حالة المرأة النفسية والجسدية.

٢ ـ حق المساكنة في الحدود التي بينتها الأحكام الشرعية السابقة، وهو عدم خروجها من المنزل إذا كان خروجها يستوجب هتكاً لحرمته ومنزلته وأخلاقه ومكانته العلمية أو الاجتماعية، أو كان في خروجها تفويت لحقه المشروع من الاستمتاع بها، أو في خروجها مخالفة للشريعة أو الأعراف والتقاليدأو العادات[١].

النشوز والخدمة المنزلية من منظور فقهي:

يتوهم كثير من الناس أن المرأة ملزمة على سبيل الواجب بمقتضى عقد الزوجية، بممارسة الخدمة المنزلية بكافة صورها، مما حدا ببعض المثقفين اتهام المرأة بعدم الطاعة إذا خالفت هذا الأمر، وذهب بعض

---

(١) مسائل حرجة في فقه المرأة: ص ١٨، شمس الدين

المتدينين إلى إلزامها على سبيل الواجب، والمقايضة بخدمته في خارج المنزل وتعبه وتحصيل قوته وقوت عياله، بخدمتها داخل المنزل من طبخ وكنس وتربية أولاد وغير ذلك.

ووجه البيان الفقهي الشرعي لدى فقهاء المذاهب الإسلامية، أن المرأة الزوجة ليس عليها شيء من حقوق خدمة زوجها وأولادها أو جملة بيتها، فضلاً عن خدمة الضيوف والزوار، بل لا يجب عليها في بعض الحالات خدمة نفسها، وإنما على الزوج إخدام بعض الزوجة في جميع الحالات، وهذه المسألة موقع اتفاق المذاهب الإسلامية[١].

وقد دلت الروايات على عدم استحقاق المرأة الخدمة المنزلية. فقد جاء في الرواية عن رسول الله ﷺ قوله: إن المرأة ريحانة وليست بقهرمانة[٢]. والرواية هنا صريحة وكافية الدلالة على عدم مشروعية وإلزام المرأة بالخدمة المنزلية، ولفظ المرأة هنا هو خصوص الزوجة، وليس مطلق الناس كما هو معروف وبديهي أن هناك نساء جواري وخدم ومملوكات وحرائر مُستأجرات، فالحكم ليس شاملاً لهن في معرض الكليات الفقهية التي نطق بها السياق العام في الرواية المروية عن رسول الله فتأمل.

وكما أن رواية الرضاع وعدم إلزام المرأة بإرضاع الطفل معمول بها في سياق الاستدلال على عدم الالزام. سئل أبو عبد الله الصادق عليه السلام عن الرضاع، فقال: لا تجبر الحرة على إرضاع الولد، وتجبر أم الولد[٣] إجبار الأمة على الرضاع باعتبارها امرأة من جهة ملكية عينها

---

(١) راجع جواهر الكلام: ج ٣١ ص٢٠٥، وفتح الباري: ج ١١ ص٤٣٤، والمسالك: ج ١ ص ٤٥٦.

(٢) الوسائل: ج٢٠ ص ١٦٨.

(٣) المصدر السابق: ج٢١ ص٤٥٢.

وملكية منفعتها تحت الرجل، دون إجبار المرأة الحرة (الزوجة) على ذلك من جهة عدم ملكيتها، إلا ما دل عليه الدليل وهو الاستمتاع والمساكنة فقط أي (التمكين).

حصيلة القول:

مما تقدم يتبين لنا ما يلي:

١ ـ إن الفقه الجعفري لا يوجب على الزوجة الامتثال للخدمة المنزلية لزوجها ولا أولادها، بل أوجبوا على الزوج لزوجته نفقة الخادمة إن كانت الزوجة من أهل الإخدام لشرف أو حاجة، والمرجع في هذا للعرف، وهذا هو الرأي المشهور بين فقهاء الإمامية[١].

أما المذاهب الإسلامية الأخرى، فقد ذهب جمهور الفقهاء إلى أنه يجب على الزوج ـ في الجملة ـ إخدام زوجته التي لا يليق بها خدمة نفسها، بأن كانت تخدم في بيت أبيها، أو كانت من ذوي القدر، لكون هذا من حقها في المعاشرة بالمعروف المأمور بها في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗاۖ وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ لِتَذۡهَبُواْ بِبَعۡضِ مَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾[٢].

ولأن هذا من كفايتها ومما يحتاج إليه الدوام، كما اتفقوا على أن الإخدام يجب على الزوج للزوجة المريضة والمصابة بعاهة لاتستطيع معها خدمة نفسها، وإن كانت ممن لا يخدم مثلها، لأن مثل هذه لا تستغني عن الخدمة[٣].

---

(١) جواهر الكلام: ج٣١ ص٣٣٦.

(٢) سورة النساء، الآية: ١٩.

(٣) حاشية الدسوقي: ج٢ ص ٥١٠، وموسوعة الفقه عن وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالكويت: ج ١٩ ص ٣٩.

٢ ـ إن غاية ما يترتب على الزوجة من حقوق للزوج بمقتضى عقد الزوجية هو ما مرّ علينا (الاستمتاع، والمساكنة فقط)، وهذا يلزمنا بعدم طاعتها لأوامره ونواهيه التي تكون خارجة عن قاعدة (التمكين)، ولا تجب عليها الخدمة المنزلية وما يتعلّق بها، بل يجب عليه أن يخدمها ويقوم بشؤونها المنزلية وحاجياتها الخاصة من مأكل وملبس ومسكن وغيرها.

كما لا يحق له أن يتسلط على شيء من مالها، فلها أن تتصرف في مالها كما تشاء إذا لم تكن سفيهة، وإلا جرت عليها أحكام السفه لا لكونها زوجة بل لكونها مكلفة.

الزوجة والخدمة المنزلية طمعاً في الثواب:

يميل الفقهاء بعد التحقيق في سند ومتن الروايات التي يستشف منها ملزومية المرأة بالخدمة المنزلية أنها مراسيل، وتُحمل تلك الروايات على الاستحباب، الذي يُكسب المرأة من وراء ذلك جزيل الأجر والثواب.

ولا ريب أن رجحان استحباب خدمة المرأة لمنزلها وزوجها، لا يحتاج إلى تعبد خاص بالروايات، لاندراجه في عمومات ومطلقات إعانة المؤمن وقضاء حاجته، وإدخال السرور عليه.

جاء في الرواية أن رسول الله ﷺ قال: أيما امرأة خدمت زوجها سبعة أيام أغلق الله عنها سبعة أبواب النار، وفتح لها ثمانية أبواب الجنة تدخل من أيها شاءت[١].

وقال عليه السلام: ما من امرأة تسقي زوجها من ماء إلا كان خيراً لها

(١) الوسائل: ج٢٠ ص ١٧٦.

من عبادة سنة، صيام نهارها وقيام ليلها، وبنى الله لها بكل شربة تسقي زوجها مدينة في الجنة، وغفر لها ستين خطيئة[١].

وجاء عنه ﷺ: أيما امرأة رفعت من بيت زوجها شيئاً من موضع إلى موضع تريد به صلاحاً نظر الله إليها، ومن نظر الله إليه لم يعذبه[٢].

تقسيم العمل بين الزهراء وعلي عليهما السلام:

أما ما ورد على لسان التاريخ والروايات أن الزهراء والإمام علياً عليهما السلام قد تقاسما الأعمال المنزلية، فهذه الرواية تحمل على عدة وجوه وهي:

١ ـ أنه لو كانت الخدمة واجبة لما ذهبا إلى رسول الله ﷺ يسألانه، لأنهما عالمان بهذه المسائل البديهية!.

٢ ـ أن مواجهتهما عند النبي ﷺ في شأن الخدمة المنزلية لم يكن تقاضياً، ولكنه كان للمشورة أقرب. وقال ابن بطال، إن بعض الشيوخ قال: لا نعلم في شيء من الآثار أن النبي ﷺ قضى على فاطمة بالخدمة الباطنة، وإنما جرى الأمر بينهما على ما تعارفوه من حسن العشرة وجميل الأخلاق[٣].

نعم يبقى، أن هذه المسألة التي سببت في كثير من الأحيان التفكك الأسري (الطلاق)، لأن المرأة لم تصنع طعاماً ولا شراباً لزوجها الذي صرف جل وقته في أعماله، قضية بحاجة إلى تفهم ووعي من قبل الناشطين الإسلاميين والواعين من الأمة ومثقفيها، وترشيدهم على هدي

---

(١) الوسائل: ج٢٠ ص ١٧٦.
(٢) المصدر السابق.
(٣) فتح الباري في شرح صحيح البخاري: ج١١ ص٤٣٤.

الإسلام وشرع الله وحلال محمد ﷺ وإزاحة المفهوم الارتكازي الذي تركز وترسخ في ذهن الناس بملزومية المرأة بالخدمة المنزلية، بل عليها أن تكون متسامحة ولينة وصاحبة خلقٍ عالٍ، وتكون متفضلة على الزوج بهذه الخدمة، وأن تتطلع إلى رضا الله أولاً قبل رضى الزوج في هذه الزاوية، إن المرأة التي تباشر خدمة منزلها وتدبير شأنه ومراقبة أبنائها وبناتها مراقبة فعلية، تقوم بوظيفتها خير قيام، وتؤدي للمجتمع خير خدمة، وإن للمسلمات المؤمنات أسوة حسنة في السيدة فاطمة عليها السلام وسائر نساء الإسلام فإنهن قدوات للعالم بأسره.

آداب النشوز الشرعية:

سعت الشريعة الإسلامية بمبادئها الفقهية والأخلاقية إلى تقوية عُرى العلاقات ووشائجها الحميمة بين الزوجين، لأنها رابطة مقدسة ولبنة أساسية في إيجاد العناصر الطيبة في المجتمع الإسلامي، فشرعت طرقاً ثلاثة يسلكها كل من الزوجين في حال نشوب خلاف بينهما، أو وجود بوادر الشقاق في العلاقة، تحدثت عنها الآية الكريمة بقولها: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًاۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾[١].

أولى هذه المراحل هي:

١ ـ الوعظ ﴿فَعِظُوهُنَّ﴾:

الوعظ: وهو أول الحلول في طريق عودة الزوجة إلى مهدها

(١) سورة النساء، الآية: ٣٤.

الزوجي، والمراد من الوعظ في الآية الكريمة هو: الجلوس مع الزوجة على مائدة مستديرة، ليتدارس الزوجان الأسباب التي أدت إلى نفور الزوجة وعدم إطاعتها، والتي لا يؤمن معها من توسع رقعة الخلاف، وفي هذه الحالة ربما تبدي الزوجة وجهة نظرها لتقول كلمتها، فتشرح الأسباب التي دعتها إلى اتخاذ مثل هذا الموقف الصارم، ولربما كانت وجهة نظر معقولة فإذا بالزوج هو المقصر، وحينئذ فلا بد من تلافي الأمر لتنقشع السحب القاتمة من سماء البيت، أو لعلها تلتفت إلى الخطأ الذي ارتكبته، فتصحح خطأها لتعود المياه إلى مجاريها الطبيعية، وتقبر الفتنة وهي وليدة في مهدها، وإن هذه المحاورة النفسية بين الزوجين لها أثرها العميق في حل كثير من المشكلات التي في مسيرة هذين الزوجين، لماذا يفر الناشز من الزوجين من مقابلة زوجه؟! فتتعقد بذلك الأمور وتزيد رقعة الخلاف بينهما، إننا على أتم الاستعداد للجلوس مع الأصدقاء ساعات بل أياماً متعددة، ونناقش القضايا والأمور الجادة والهامشية، وندخل في صراعات متكررة وغير متناهية، مع ذلك نمتلك من القدرة واللباقة واللياقة والأخلاق العالية ما يمكن من العودة لمناقشة تلك الأمور ومع تلك الفئة بنفسها دون ملل أو كلل، وليس لنا قدرة ولياقة على الجلوس مع زوجاتنا في خلوة مصارحة ومناقشة بعض المشكلات التي تعتري العلاقة الزوجية أو الأسرية؟

مع أن نوعية الوعظ متروكة إلى الزوج، فله أن يسلك أحسن الطرق التي يراها ملائمة لحالته مع زوجته، فليس في الوجود أحد أقدر على تشخيص الموقف أكثر منه ومنها، وما يترتب على النشوز من آثار قد تجر عليهما الويلات والتشرد والتفكك إلى الأبد.

وأن يعظها بالمواعظ والإرشادات الدينية والعلمية والتربوية والأخلاقية، ويضرب لها مثلاً من السيرة العطرة لنساء الإسلام، كيف

تعاملن مع أزواجهن وأسرهن بالاحترام ومبالغة التأدب والمشورة والطاعة، ويخوفها عقاب الله في عصيانه، فإن الله قد أوجب حق الزوج عليها وطاعته، وحرم عليها معصيته لِما له عليها من الفضل والإفضال، وقد ورد النهي الشديد والزجر البالغ في حديث رسول الله ﷺ للمرأة التي لا تطيع زوجها بقوله: إذا باتت المرأة هاجرةً فراش زوجها لعنتها الملائكةُ حتى ترجع(١).

ويذكر الإمام القرطبي في تفسير هذه الآية الشريفة ما نصه: ذكروهن ما أوجب الله عليهن من حسن الصحبة، وجميل المعاشرة للزوج، والاعتراف بالدرجة التي له عليها، والوعظ يختلف باختلاف حال المرأة، فمنهن من يؤثر في نفسها التخويف من الله عز وجل وعقابه على النشوز، ومنهن من يؤثر في نفسها التهديد والتحذير من سوء العاقبة في الدنيا كشماتة الأعداء، والمنع من بعض الرغائب التي تتحكم في شخصية الزوجة الناشز، والرجل العاقل لا يخفى عليه الوعظ الذي يؤثر في قلب امرأته(٢).

٢ ـ الهجران ﴿وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ﴾:

بعد أن يغلق باب الوعظ والإرشاد والحوار الهادئ ويصل إلى محاورة عقيمة تزيدة الطين بلة، يعلمنا القرآن الكريم صيغة وطريقاً آخر لحل هذه المشكلة، وأول ما يواجه الرجل زوجته هي المقابلة بالمثل، وإظهار الانفعال والانزعاج من تصرفاتها، ليرسم على سلوكياته وتصرفاته معها عدم الاهتمام بها وبكيانها الأنثوي، وهو معها في أدق المواضع حساسية وهو (المضاجعة) أو (الجِماع) أي الممارسة الجنسية معها، وهو أسلوب التأديب النفسي، وذلك بمقاطعتها أي بإدارة ظهره إليها

(١) الجامع الصغير برقم ٤٠٨.
(٢) تفسير القرطبي: ج٥ ص١٥٧.

عندما ينامان في مكان واحد، أو بالإيحاء لها بطريقة وبأخرى بعدم الرغبة فيها أو بعدم المبالاة بها، ولعل هذا الأسلوب السلبي من أقوى الأساليب المؤثرة في شخصية المرأة، لأن اهتمام الزوج بها يعتبر عاملاً مهماً من عوامل إحساسها بأهميتها وبقوة شخصيتها، فيما يقرره المحللون النفسيون في هذا المجال[(١)].

٣ ـ الضرب ﴿وَاضْرِبُوهُنَّ﴾:

لعل علاج هذه المسألة تكون آخر العلاجات التي تحدثت عنها الآيات الكريمة في مسألة (النشوز الزوجي) من جهة المرأة، وتنبيه الآية على هذا العلاج (الضرب) كحل تأديبي، يضمن للزوج فرض سيطرته على نسيج الأسرة الزوجية وحفظه من التفلل، وهو ضرب الزوجة، والتجنب عن أن يكون مبرحاً أو على المواضع الحساسة من بدنها.

وذهب الفقهاء الذين أجازوا ذلك (الضرب كعلاج ثالث في الآية) إلى القول: على أنه يقيد بأن لا يكون (الضرب) بقصد الإيذاء والتشفي وما شاكل ذلك من الحالات التي تجعل من الزوج ثوراً هائجاً لا مربياً وواعظاً. ويخرجه عن الحدود المعقولة، التي يمارسها الإنسان بطريقة انفعالية على أساس المزاج الحاد والعقدة النفسية، والحاجة إلى التنفيس عن الغيظ، بل هو الضرب التأديبي الهادىء الذي يوحي لها بالمهانة، وقد وردت الأحاديث التي تتحدث عنه بأنه الضرب غير المبرح الذي لا يدمي لحماً ولا يهشم عظماً، مما يوحي بأنه يمثل أسلوباً نفسياً أكثر مما يمثل من أسلوب مادي، وقد يأخذ البعض على الإسلام هذا الأسلوب الذي يتنافى مع احترام كرامة المرأة، والنظرة إليها كإنسان[(٢)].

---

(١) من وحي القرآن: ج٧ ص١٧١.
(٢) من وحي القرآن: ج٧ ص١٧٠.

ولكنه ـ الضرب ـ المبرح قد يسلب من الزوجة كل أمل في إمكانية البقاء مع رجل نزعت من قلبه الرحمة، وحينئذٍ فإن عدلت الزوجة عن رأيها وعادت إلى زوجها تمنحه العطف والحنان، فالآية توقفه عند هذا الحد: ﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾.

نشوز الزوجين خلاف بينهما:

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾[١].

مدار البحث في هذه الآية الكريمة حول: (الشقاق) ومعناه: المنازعة بين الرجل وزوجه، وقيل: الشقاق: المجادلة والمخالفة والتعادي، وأصله من الشق، وهو الجانب، فكأن كل واحد من الزوجين يأخذ شقاً غير شق صاحبه أي ناحية غير ناحية صاحبه[٢].

وهذه الحالة من الشقاق بين الزوجين وهي حالة الشقاق المشترك بينهما، وذلك فيما إذا لم تكن المشكلة من طرفٍ واحد، بل كان كل منهما ضالعاً في ذلك.. فكيف يمكننا حل هذه المشكلة؟

لقد أرشدنا القرآن الكريم لحل المشكلة بقوله: ﴿فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ إن القرآن الكريم يطرح أسلوب ما يطلق عليه في عرفنا الاجتماعي والأسري بـ(المجلس العائلي)، وذلك عبر اختياره بشخص أو أكثر من أهل الزوج مطلع على ظروفه النفسية، والاجتماعية، والعائلية، والدينية، واختيار شخص أو أكثر من أهل الزوجة، بنفس المواصفات، ثم يجتمعان في جلسة تحكيم عائلية، ليدرسا المشكلة من

---

(١) سورة النساء، الآية: ٣٥.

(٢) القرطبي: مصدر سابق.

جميع جوانبها السلبية والإيجابية، ويتداولا في إمكانيات الحل، بتحديد بعض التنازلات من هذا الطرف أو ذاك، ومحاولة التوفيق بينهما للوصول إلى النتيجة المرجوة في العودة بالبيت الزوجي إلى حالة السلام العادل ورأب الصدع، وهذا ما أثارته الفقرة التالية من قوله تعالى ﴿إِن يُرِيدَآ إِصْلَـٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾ وذلك للإيحاء بأن إرادة الاصلاح إذا انطلقت من موقع الإخلاص، فإن الله يرعاها بتوفيقه، لأن توفيق الله يتحرك في كل المواقف التي تتحرك فيها النفوس الخيرة للوصول إلى نتائج الخير في الفكر والعمل.

وأشارت آية أخرى إلى نشوز الزوج كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ ۗ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ ۚ وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾[(١)]، وقد أثارها الفقهاء، في متونهم الفقهية وهي أي الآية تعبر عن نشوز الزوج على زوجته وتمرده على أداء حقوقها الزوجية الشرعية، وقد أثيرت هذه المسألة في أبحاث الفقه، واختلف الرأي في موقف الزوجة، هل تكتفي برفع أمرها إلى الحاكم الشرعي ليجبره على أداء حقوقها الشرعية، أو يجوز لها أن تتصرف بأساليبها الخاصة فتمنعه بعض حقوقه عليها على أساس المعاملة بالمثل؟ أو يفصل بين الحالات، ذهب كثيرون إلى أن المسألة مربوطة بقرار الحاكم الشرعي المُطلع على حقيقة الخلاف[(٢)].

كما أن المرأة في هذه الحالة مدعوة إلى الصبر والحكمة والتصرف بدقة، إن تحسست من زوجها نفوراً أو إعراضاً حفاظاً على روابط

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٢٨.

(٢) من وحي القرآن: مصدر سابق.

الأسرة ووشائج علاقاتها، فتستطيع بسياستها وحنكتها وحسها الأنثوي، أن تتبين سبب الإعراض والجفاء، وتحاول إزالة هذه الأسباب وإصلاح الحال، والتعرف على مواطن الداء والعلة لعلاجها، وليس كل ما يعرض عنه الزوج يُعد نشوزاً، لأن هناك كثيراً من الأشغال والمشكلات والملاحظات تشغل الرجال بخصوص المرأة! فإن كانت ثمة أمور بسيطة، يجب عليها أن تصبر ولا تخرب بيتها بيدها، وإن كان أمراً كبيراً، تمكنت عبر نافذة الحوار الهادىء، الذي تلفه الرومنسية والحس الأنثوي في خلوة ثنائية، أن تتعرف على المشكلة وتشخص الداء، وتعالج الموضوع بروية وحكمة، والمرأة الواعية في هذا الجانب قادرة على ذلك. لأن ﴿وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ واللفظ عام مطلق يقتضي أن الصلح الحقيقي الذي تسكن إليه النفوس، ويزول به الخلاف خيرٌ على الإطلاق، ويدخل في هذا المعنى جميع ما يؤدي بالزوجين إلى الصلح عليه، بالخصوص الشؤون الأسرية والعلاقات الجنسية، لأنه خير من الفُرقة بينهما[١].

---

(١) بناء الأسرة، العك: ص ٣١٤.

أسباب الخلافات الزوجية (النشوز)

عاش حكم الله أربعة عشر قرناً من الزمن سائداً على نصف الكرة الأرضية، وعاشت به الأمة الإسلامية في سعادة من العيش، ومناعة من الأمن، وسؤدد من المقام بين الأمم، ثم عصفت بها رياح سود، فانقلبت تلك السعادة إلى ويلات، وتلك المناعة إلى مذلات، وتلك الكرامة إلى عبودية وهوان، وإذ نذوق نحن اليوم مأساة هذه الرياح، فمن واجبنا أن نفكر بالأمر بمزيد من الجدية والموضوعية، ثم نرى السبب في هذه الانتكاسة التي ردتنا عن الدين، وما كان لنا فيه من سعادة ومناعة وسؤدد.

والحقيقة أن ما يصيب الأسرة المسلمة اليوم من عوامل التفكك والطلاق المتزايد، إنما هو نتيجة طبيعية لما صنعه المسلم من بعد عن مناهج الإسلام الحقيقية، وتحقق فينا مصداق الآية الكريمة: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ﴾[1].

و تحمل النصوص المروية عن رسول الله ﷺ وأهل بيته عليهم السلام، أن العلاقات الأسرية بما فيها العلاقات الزوجية رابطة مقدسة، لا يجوز بأي حال من الأحوال التساهل في رعايتها وتوفير متطلباتها الحياتية، بل إن الإنسان يكون عندها مسؤولاً عنها كما هو مسؤول عن دينه وماله

---

(١) سورة طه، الآية: ١٢٤.

وحياته، وحقيقة الخلافات الأسرية التي تُسبب تزلزل العلاقات بين الزوجين تكمن وراءها عدة أسباب مختلفة، من قبيل:

١ ـ العوامل العقيدية.

٢ ـ العوامل الأخلاقية السلوكية.

٣ ـ العوامل الاقتصادية.

٤ ـ العوامل التربوية.

٥ ـ العوامل العلمية.

وهناك كثير من العوامل الأخرى، لكن دراستنا تقتصر على أهم العوامل المؤدية للخلاف الزوجي والتفكك العائلي وهي ما يلي:

الأسباب الباعثة على الخلاف:

١ ـ العوامل الايديولوجية:

لعل بحوث الباحثين المتخصصين في الشؤون الأسرية، يرجحون أن بواعث الخلاف بين الزوجين تعود إلى عدم التقارب العقائدي بينهما، وهو من أهم العوامل التي تُسبب الخلافات الزوجية، والسبب في هذا واضح، فالتعايش بين نظريتين متباينتين غير ممكن، كعدم اجتماع الأضداد، فمن المفروض على المسلم أن يسير حياته ويؤدي أعماله حسب المنهج الإسلامي، ومن جهة أخرى فالطرف الآخر كذلك يريد تطبيق عقيدته في الحياة فيما يتعلق بالعلاقة بينهما، ولا مرد فإن هذا الاختلاف في منهج التطبيق يؤدي إلى التضارب بين الرأيين والمشاحنات.

وقد رأينا في تطبيق هذا المنهج عند بعض المتزوجين من أهل ملة

أو عقيدة غير عقيدة الإسلام، أن يعلن أحدهما كثيراً من التنازلات حتى تستمر العلاقة بينهما.

وليست هذه النظرية على العقائد الخارجية عن الإسلام فحسب، بل قد تشمل المسلمين أنفسهم، فإذا ما تزوج شاب ملتزم بامرأة غير ملتزمة، هنا أيضاً يحدث التصادم بين المبدأين والمنهجين والرغبتين، فكثيراً ما شاهدنا في حياتنا الإسلامية أن الزوجة تريد أن تتحجب، والرجل لا يريد! أو العكس أيضاً، تلك الزوجة لا تريد أن ترتكب المحرمات، وذلك الزوج يصر على ارتكاب المحرمات، الزوجة تصلي والزوج لا يعرف للصلاة طريقاً، الزوج تقي عفيف والزوجة لا تعرف للعفة طريقاً، وعلى هذا فقس كثيراً من الأمور الحياتية في مجتمعات الإسلام!

لقد عالج الدين هذا التضارب بعدة طرق. ففي الأثر أن رجلاً جاء إلى الحسن بن علي عليه السلام يستشيره في تزويج ابنته فقال: زوجها من رجل تقي فإنه إن أحبها أكرمها وإن أبغضها لم يظلمها[1].

ولقد كانت آسيا بنت مزاحم امرأة فرعون مثالاً للنساء ولكل المؤمنين في مدى تمسك المرأة بعقيدتها وهي زوجة لأكبر طاغية في زمانه، والقرآن يذكر لنا هذا النموذج ليكون قدوة لنا، حتى لا يكون الزواج على حساب العقيدة والتنازل عن المبدأ: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾[2].

(١) مكارم الأخلاق: ص ٢٠٤.
(٢) سورة التحريم، الآية: ١١.

إذن: الخلاف العقائدي أو الديني بين الزوجين يلعب دوراً كبيراً في إيجاد عوامل التفكك والطلاق.

٢ ـ العوامل الأخلاقية السلوكية:

من الجدير بالذكر أن الأخلاق لها قدرة فائقة في التأثير، سواء كانت حسنة أم سيئة؛ إن نشاطك وحيويتك سوف يؤثران على زوجتك دون أن تشعر بذلك، وسرعان ما تبدو ملامح النشاط والحيوية في وجهها، وينعكس على تصرفها، وبالعكس؛ ذلك أن النفس الإنسانية تبدو في بعض الأحيان وكأنها مرآة تنعكس فيها المؤثرات الخارجية بسرعة. فإذا بدت زوجتك عنيفة حادة الطبع عصبية المزاج، فإن ابتسامتك وطلاقة وجهك ستفعل فعلها، وستدفع بها إلى التراجع والشعور بقدر من الحياء. إن أفضل ما يقوم به الزوج تجاه زوجته هو ليس التشكّي، بل السعي إلى الاقتراب من زوجته، وفهم ما يدور في خلدها وما يعتمل في قلبها، ولا شك أن إدراك ذلك سيساهم في حل المشكلة أو التخفيف من حدتها على الأقل.

وذهب علماء التربية والنفس إلى القول: إن أسمى مقومات الحياة الزوجية، إنما تتجسد في رعاية الزوجين للأدب والخلق الكريم، وذلك الاحترام العميق، والعلاقات الصحيحة في علاقة الزوجين بعضهما ببعض؛ ذلك لأن الخيانة والحسد وبذاءة اللسان والأنانية والكذب، هي وقود النزاعات والخلافات في الحياة الزوجية، إن جمال الحياة الزوجية يكمن في تلك الابتسامات المضيئة، والمعاشرة الحلوة، والحديث اللطيف الهادئ، والحب العميق. فالمرأة لا تنسى أبداً كلمات الحب التي يتمتم بها زوجها، كما أن الرجل يشعر بالدفء وبالقوة أيضاً عندما

يجد زوجته تقف إلى جواره وجانبه؛ فالحياة المشتركة هي رحلة يقوم بها الرجل والمرأة معاً، يداً بيد.

ولا بد من مراعاة ضبط النفس، لأن الحياة المشتركة تفرض على المرأة احترام مشاعر زوجها، وتوجب على الرجل مداراة زوجته وعدم إهانتها أو توجيه كلمة تجرح قلبها، فقد تفعل الكلمة القاسية ما لا يفعله خنجر مسموم من الألم والمرارة. إن ضبط النفس والحديث الهادئ الذي يفيض حباً ومودة لا بدّ وأن يزرع في قلب الآخر شعوراً بالمحبة والصفاء، ولذا فإن على المرأة مراعاة الحالة النفسية لزوجها، ومن ثم التعامل معه في ضوء ذلك. وعلى الرجل رصد نفسية زوجته، ومن ثم العمل على إدخال الفرحة إلى قلبها. فكلمة حب دافئة، وابتسامة مختصرة قد تساوي في نظر المرأة ملء الدنيا ذهباً؛ كما أن الرجل يشعر بالسعادة عندما يرى زوجته تفيض حيوية ونشاطاً، وبهذا يتعانق قلباهما وتتشابك روحاهما، وبالتالي تتفجر ينابيع السعادة[1].

ولعلنا عندما ندقق في أسباب الخلافات في الأسرة، نرى حب الذات وتحقير الغير وممارسة السلوكيات اللاأخلاقية من أهم العوامل والأسباب التي تُسبب التفكك الأسري وتؤدي إلى الطلاق.

فالزوج مثلاً يتعامل مع زوجته وكأنها خلقت لخدمته والترفيه عنه، فهي والخادمة في البيت سواء، ولا يتعامل معها كإنسانة تساويه في المشاعر والأحاسيس، بل يرى نفسه أفضل منها وله المنة عليها! وقد تكون المرأة في هذا الموقف أيضاً، فتحتقره وتهينه، وتسخر من شخصيته، وتتعالى عليه وترى نفسها أنها أفضل منه مالاً أو جمالاً أو علماً ونسباً..

(١) الأسرة والزواج: ج١ ص١٢٣، مجموعة من العلماء.

ويزداد الوضع سوءاً إذا كان هناك تباين علمي أو مالي أو عرفي أو عرقي بجانب الجهل، فلا تُرى هذه الأفضلية نعمة من الله، ولا يعني أنهما كل منهما أفضل من الآخر، ويسعيان لترميم نواقصهما وإصلاحها.

فلذلك نرى كم اهتم الإسلام بتوجيهنا نحو المعرفة ونبذ الأخلاق والتصرفات الذميمة.

عن رسول الله ﷺ قال: ألا وإن الله ورسوله بريئان من المختلعات بغير حق، ألا وإن الله عز وجل ورسوله بريئان ممن أضر بامرأة حتى تختلع منه[١].

ويقول الإمام علي عليه السلام: لا يكن أهلك أشقى الخلق بك[٢].

وقال الصادق عليه السلام: ملعونة ملعونة امرأة تؤذي زوجها وتغمّه، وسعيدة سعيدة امرأة تكرم زوجها ولا تؤذيه، وتطيعه في جميع الأحوال[٣].

وقال رسول الله ﷺ: لا تؤدي المرأة حق الله حتى تؤدي حق زوجها[٤].

نظرة الإسلام للزوجين:

عندما نقف عند الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة والسيرة العطرة للأنبياء والمرسلين والأئمة عليهم السلام والسلف الصالح من الصحابة والعلماء العاملين (رضوان الله عليهم)، نرى أنه لافرق بين الرجل والمرأة قط، فهما متساويان في قاموس الرسالة.

---

(١) البحار: ج ٧٣ ص ٣٦٦.
(٢) المصدر السابق: ج ٧٤ص٢٢٩.
(٣) المصدر السابق: ج ١٠٠ ص ٢٥٢.
(٤) مكارم الأخلاق: ص٢٥١.

قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[١].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾[٢].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[٣].

وجاء في الرواية عنه ﷺ: أنكحت زيد بن حارثة بنت جحش، وأنكحت المقداد ضباعة بنت الزبير بن عبدالمطلب، ليعلموا أن أشرف الشرف الإسلام[٤].

وفي قصة جويبر اليمامي خير شاهد على ما نقول، قال أبو جعفر الباقر عليه السلام: إن رجلاً من أهل اليمامة يقال له جويبر، أتى رسول الله ﷺ منتجعاً للإسلام، فأسلم وحسن إسلامه، وكان رجلاً قصيراً دميماً محتاجاً عارياً، وإن رسول الله ﷺ نظر إليه ذات مرة برحمة ورأفة فقال له: يا جويبر لو تزوجت امرأة فعففت بها فرجك، وأعانتك على دنياك وآخرتك.

فقال له جويبر: يا رسول الله ﷺ بأبي وأمي، من يرغب فيّ؟ فوالله ما من حسب ولا نسب ولا مال ولا جمال، فأية امرأة ترغب فيّ؟

فقال له رسول الله ﷺ: يا جويبر إن الله قد وضع بالإسلام من كان في الجاهلية شريفاً، وشرّف بالإسلام من كان في الجاهلية وضيعاً،

---

(١) سورة النحل، الآية: ٩٧.
(٢) سورة النساء، الآية: ١٢٤.
(٣) سورة الحجرات الآية: ١٣.
(٤) مكارم الأخلاق: ص٢٠٧.

وأعزّ بالإسلام من كان في الجاهلية ذليلاً، وأذهب بالإسلام ما كان من نخوة الجاهلية وتفاخرها بعشائرها وباسق أنسابها، فالناس اليوم كلهم أبيضهم وأسودهم وقرشيهم وعربيهم وعجميهم سواء لا يتفاضلون إلا بالتقوى، ولا أعلم لأحد من المسلمين عليك اليوم فضلاً إلا بالتقوى.

ثم قال له: انطلق إلى زياد بن لبيد فإنه أشرف بني بياضة حسباً فيهم، فقل له: إني رسول رسول الله ﷺ إليك، وهو يقول لك زوّج جويبراً ابنتك الذلفاء.

وفيه أنه زوجه إياها بعدما راجع النبي ﷺ فقال له: يا زياد، جويبر مؤمن، والمؤمن كفؤ المؤمنة، والمسلم كفؤ المسلمة، فزوجه يا زياد ولا ترغب عنه[1].

وأما في مسألة السيطرة والتسلط الذي ينتهجه بعض المتزمتين، متمسكين بقوله تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡۚ﴾[2] فتخول إليه الآية الكريمة على حد فهمه كامل الحرية في التسلط والتأمر، بل وتراه يأمر ويزجر وكأنه على رأس كتيبة عسكرية، وقد يستعمل الضرب، وينسى كلمات الإمام علي عليه السلام: «المرأة ريحانة وليست بقهرمانة».

ونسي أن مسألة القوامة لا تخول له مطلق التسلط على رقبة المرأة المسكينة، بل له ما قرر الشارع الحنيف في حدوده وضوابطه المقررة بحسب ملزومية العقد الشرعي فقط.

وفي حالة اكتشافنا أن الرجل لا يصلح أخلاقياً وإيمانياً وتربوياً

---

(١) الموسوعة الفقهية: ج ٧١ باب الزوج، الشيرازي.
(٢) سورة النساء، الآية: ٣٤.

للقوامة، فيطلب منه على سبيل الإلزام رفع يده عن القوامة بأمر الحاكم الشرعي ومنحها المرأة، كأن يكون رب الأسرة منحرفاً أو مدمناً على المخدرات، أو مرتكباً للجرائم والمخزيات، الأمور المرفوضة أخلاقياً، وقد يسبب تفكك الأسرة وانهيار سورها، وكذلك فالزوجة التي تسعى وتتحدث في المجالس أن زوجها أصبح كالخاتم في أصبعها تديره كيفما تشاء، وهي لا تعلم أن التسلط سيكون نتيجته وبالاً عليها، وأن هذا الزوج الذي فقد شخصيته سوف يثور عليها يوماً ما، وتكون ثورته عارمة حتى وإن سكت بادئ الأمر، ولقد قال رسول الله ﷺ عن هذه المرأة: إن شر نسائكم الذليلة في أهلها، العزيزة مع بعلها[١].

٣ ـ اللامبالاة في العلاقات:

ليس هناك أحد لا يريد من الناس أن يحبّوه ويحترموه ويجلّوه، فإذا كان كذلك، فابدأ أنت أيها الإنسان خطوة ألف ميل نحو محبة الآخرين، بالخصوص من يلوذ بك من أهل وأصدقاء وجيران و. . و. . إلخ.

ألم يأمرنا القرآن الكريم بهذه القاعدة الأخلاقية الجميلة بقوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾[٢].

وقال تعالى: ﴿وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾[٣].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا﴾[٤].

---

(١) الموسوعة الفقهية ص٧١، باب الزوج، الشيرازي، ومكارم الأخلاق: ص ٢٠٢.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٨٣.
(٣) سورة النساء، الآية: ٨.
(٤) سورة الأحزاب، الآية: ٧٠.

ثم أليس بالكلام يُعرف المؤمن والكافر والصديق والعدو والمنافق والمخلص؟

ألم يقل رسول الله ﷺ: الجمال في اللسان؟[١]

ثمة مسألة مهمة ينبغي أن يلتفت إليها الناس رجالاً ونساء، وهي أن إزالة الصدأ عن الروح لايتم إلا بالقول الحسن والمعاملة الأخلاقية الطيبة، وإن ذلاقة اللسان وعذوبته لا تعتبر فقط المعيار على مدى تعلق وانجذاب الرجل لزوجته، بل هي جزء من كيان الإنسان فضلاً عما يترتب عليه من ثواب.

وعن الإمام زين العابدين عليه السلام قال: القول الحسن يثري المال، وينمي الرزق، ويُنسيء في الأجل، ويحبب الأهل، ويدخل الجنة[٢].

وقال الصادق عليه السلام: وقولوا للناس حسناً، واحفظوا ألسنتكم، وكفوها عن الفضول وقبح القول[٣].

ولذلك تترك الكلمة الطيبة في نفوس الزوجين أثراً كبيراً، فعندما يقول الزوج لزوجته (أحبك) تترك أثرها في النفس وتلعب دوراً كبيراً في توطيد وشائج المحبة والمودة، وكذلك الرجل الذي يتغنى عندما تهمس الزوجة في أذنه الكلمات الرومانسية، فإنها تؤثر أثراً بالغاً في سلوكيات الأسرة.

ويتفرع على قاعدة (قولوا للناس حُسناً) ترك اللامبالاة في العلاقات الزوجية، بالخصوص الوقوف بجانب بعضهما في الأزمات، لأن الدنيا

---

(١) ميزان الحكمة: ج ٨ ص٤٩٢.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق.

غير دائمة لأحد، إن عجلتها لا تدور وفق رغباته، فالحياة إجمالاً إقبال وإدبار، حيث يمكن أن يبتلى الإنسان بمرضٍ عضال، ويمكن أن يبتلى بالبطالة فيلازم بيته، ومن الممكن أيضاً أن يفقد ما لديه من ثروات ليصير بين ليلة وضحاها فقيراً مدقعاً، ومئات من مثل هذه الحوادث التي يحتمل أن يصاب بها كل شخص على سطح البسيطة.

إن الرجل والمرأة اللذين أمضيا على عقد الزواج، ينبغي لهما أن يكونا عوناً لبعضهما البعض، وأن يواسي أحدهما الآخر في الواقعة التي تتطلب ذلك، لكي يبقى ذلك العقد حاملاً لعوامل ديمومته على مدى الدهر.

إن عدم تفشي قواعد الاحترام بين الزوجين، وعدم الوقوف بجانب بعضهما هو من مراحل التفكك الأسري التي نشهدها في مجتمعاتنا الإسلامية المعاصرة.

قال (فلان) في المحكمة والذي جاء من أجل تطليق زوجته: كنت بحاجة إلى أن تحترمني وتوقرني على الأقل أمام الأولاد وأهلها، ولكنها فقدت عوامل الاحترام، فكانت تناديني بصوت عالٍ، وتنهرني إذا ما نسيت شيئاً من حاجيات المنزل، وإذا خرجنا كانت تتصرف معي كأني أحد الخدم بين يديها، وعندما كنت مريضا جداً، تطلب الأمر أن تجرى لي عملية جراحية، فطلبت منها أن تقرضني ما عندها من نقود كي يقوم الطبيب بإجراء العملية، ولكنها أصرت على الرفض، بل وتركت الدار وذهبت إلى حيث ذهبت، مما حدا بي لإجراء العملية ببيع بعض ممتلكاتنا في البيت، وبعد أن منَّ الله تعالى علي بالشفاء صممت أن لا أبقي عليها في بيتي، لأنها فضلت المال علي، وإن من تفعل ذلك لا يمكن أن تسمى زوجة.

سوء الظن معول التفكك الأسري:

من أكبر المعاول فتكاً بالأسرة وباعثاً على الطلاق تفشي مرض (سوء الظن) بين الزوجين، مما يؤدي إلى ضياع الاستقرار العائلي، فتنشب عند ذلك الخلافات الزوجية، فيحاول الزوج أن يتتبع عثرات زوجته، ويراقبها في كل خطوة تخطوها أو في كل تصرف تتصرفه مع الآخرين، وكذلك الزوجة تحاول أن تفسر كل حركة بالشك والخيانة، وتحاسب وتقرر الزوج عن كل شي، فتبدأ عندها المناقشات والحوارات الساخنة التي تكون نتيجتها في الغالب إلى (الطلاق).

فالمرأة التي تشك في زوجها دائماً وتظن به الظنون، وتتحدث عن خلافاتها معه في الوسط الاجتماعي في محافل النساء، وعند أهلها وأخواتها وصديقاتها، ولا ينسلخ من ذاكرتها صور الحوارات والمناقشات الساخنة في الأسرة، ترى ذلك من باب الفضفضة عن النفس عند الآخرين، وبالخصوص تجد راحة نفسية إذا ساندها البعض في ما تدعيه أو تقوله أو ترويه! مما يزيد الطين بلة، فيأخذها نحو التمسك بمواقفها أكثر وأكثر.

شاهد واقعي على ذلك:

قالت امرأة في محكمة حماية الأسرة في إيران: لا تعجبوا من تصميمي على الانفصال عن زوجي، بالرغم من حبي له وتعلقي به، لأنني لم أتخذ هذا القرار إلا بعد أن أيقنت بأنه يخونني، لقد رأيته قبل أيام عديدة يذهب إلى الحلاق بصحبة امرأة أنيقة، ومن المؤكد أنها كانت عشيقته، ومن المتوالدت في شهر (مايو).

إنني أقرأ كل أسبوع إحدى المجلات التي تعنى بالتنجيم، وقد قرأت لمرات عديدة بأن برج زوجي يتناغم مع المتوالدت في شهر

(مايو)، وأن ولادتي تقع في شهر (فبراير) فكيف يتأتى له أن ينسجم معي! ناهيك عن شعوري بأن حبه تغيّر تجاهي، إذ لم يعد كالسابق، ولقد رأيته يمسح دموعه بكل هدوء[١].

ولعل السبب لدى القارئ العزيز أصبح واضحاً، وهو أن كتب التنجيم والأبراج التي تتابعها النساء في هذه الأيام عبر الكتب والفضائيات والمنتديات عبر الإنترنت، تؤدي حتماً إلى أن المرأة تُسيء بزوجها الظنون، مما يزلزل العلاقات الزوجية والتي يكون نتيجتها الطلاق.

نموذج آخر:

قال أحدهم في المحكمة: كان ذلك قبل شهر واحد، حينما كنت راجعاً بسيارتي إلى المنزل من دعوة صديق لي، وأثناء رجوعي أوصلت زميلاً لي ترافقه زوجته كانا هما الآخران مدعوين إلى المنزل نفسه.

وفي الصباح طلبت إلي زوجتي أن أوصلها إلى بيت أبيها قبل الذهاب إلى عملي فاستجبت لها، واستقلت السيارة معي، وأثناء الطريق ألقت بنظرها إلى الحوض الخلفي للسيارة لترى دبوساً نسائياً من الدبابيس التي تستخدمها النساء جميعاً، عندها قالت: لمن هذا الدبوس؟ فتعجبت لسؤالها: وبدأ القلق يدب في رأسي، فنسيت أن أستعرض لها حكاية إيصالي لزميلي وزوجته بالأمس إلى منزلهما، وبعد أن أوصلتها إلى منزل أبيها ذهبت إلى محل عملي.

وفي المساء وحين طرقت باب منزل أبيها، خرج لي أحدهم ليخبرني بأنها ستبقى هنا، وهي غير مستعدة للرجوع ثانية إلى المنزل،

---

(١) صحيفة اطلاعات: العدد ٢٥ سنة ١٩٧١م.

فسألت عن السبب فجاءني الجواب بأنها تقول: من الأفضل لك أن تعيش مع تلك المرأة التي كان دبوسها في سيارتك.

وفعلاً تم الطلاق بعد أيام بسبب سوء الظن الذي لا يبتني على أدلة عقلية ولا شرعية.

كما أن هذا المرض (سوء الظن) قد يبتلى به الرجل، فتكون الطامة أكبر وأشد، مسكينة تلك الأسرة التي يتفشى بين أفرادها مرض سوء الظن، حيث لا يستطيع الواحد منهم استمراء الماء براحة، لأن الواحد فيهم يشعر بمراقبة الجميع له، كالشرطي الذي أنيطت به مهمة مراقبة أحد المجرمين.

إن المرأة التي يراقبها زوجها في حجرتها الخاصة، وفي مطبخها، وفي ذهابها إلى السوق، في عذاب دائم لأنها تشعر بسلب إرادتها منها، ولهذا السبب تكون تلك الأسرة في وضع خطير قد يجر إلى الانفصال والطلاق، بل حتى إلى القتل أحياناً كما أثبتت الدراسات الاجتماعية والميدانية[١].

وهذه الموضوعات سوء الظن واتهام الآخرين بهذه التهم الرخيصة ـ أيها السادة الأعزاء ـ يحتاج إلى دليل وبرهان، وما دام لا يستطيع كل منهما أن يثبت ذلك على الآخر، بالأدلة الدامغة، فلا يحق لأحد اتهام الآخر بدون دليل شرعي ولا وجداني، فهل يجوز لنا اتهام شخص بريء بسبب احتمال لا يستند إلى دليل؟

أما سمعنا قوله تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ

---

(١) الأميني نظام الحياة الزوجية: ص٢٤١.

إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾[١].

وقال رسول الله ﷺ: البهتان على البريء، أثقل من الجبال الراسيات[٢].

٤ ـ العوامل الاقتصادية:

يعتقد الخبراء في الشؤون الأسرية، أن عامل الاقتصاد يلعب دوراً كبيراً في الاستقرار أو عدمه في الحياة الأسرية، لأنه يحدث أحياناً أن تتحول العلاقة بين الزوجين من علاقة روحية معنوية إلى حياة مادية بحتة، ويبدأ كل منهما بمحاسبة الآخر في المصاريف المالية، وكأنهما يعيشان في بنك أو مؤسسة أو شركة.

ومما يؤسف له حقاً، أن هذا السبيل الذي تنهجه بعض الأسر مع بعضها البعض لا يمت إلى الإسلام بصلة، فالإسلام يرى أن العمل ينبغي أن يكون من أجل الله وحده، وكل شيء ارتبط بالله يكتسب منه القدسية، بنفس درجة القرب والارتباط، لذلك يمكن قياس الأعمال التي يقوم بها بعض الأزواج، من صلافة في التعامل في ما بينهم هل هي من الدين والإسلام؟

إن الحياة الزوجية لا تقوم على وشائج الحاجيات المادية البحتة، بل على الجوانب المعنوية والنفسية والأخلاقية، وقد أشار القرآن الكريم لذلك بقوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[٣].

---

(١) سورة الحجرات، الآية: ١٢.

(٢) البحار: ج ٧٥ ص ١٩٤.

(٣) سورة الروم، الآية: ٢١.

جعل بينهما (مودة ورحمة = استقرار دائم) أي قائمة على قيم ربانية لا وفق قيم شخصية أو مادية، لأن كل قيمة لا تنبع من قدسية التقوى، تسقط عن الاعتبار، إن التضحية بالماديات والنفس لا قيمة لها، إذا كانت من أجل قيم ورغبات دنيوية أو زائفة نابعة من الهوى والنفس، كما لا قيمة للقتال في سبيل الله من أجل الرئاسة أو الزعامة الدنيوية.

إن ما يحدث اليوم في سجل تاريخ الأسرة التي يحدث فيها (تزلزل في الاقتصاديات) أن تكثر فيها المهاترات والمجادلات، فخذ على سبيل المثال:

إذا ما حدث سوء تفاهم من قبل الزوجة، يرى الزوج حل ذلك في أن يغدق عليها المال والهدايا الكثيرة، مع أننا لو تمعنّا جيداً لاكتشفنا أنه ليس هذا هو الحل؟

لأن رب الأسرة عندها يُفسد الأمر ويزيده تعقيداً أكثر من إصلاحه، لأنه قدم ماله قبل إثبات شخصيته، وحنكته وقدرته على إدارة وحل المشكلة.

وليس بالرجل العاقل من يتوقع أن حل المشكلات الأسرية يمكن أن يتم عن طريق المال فقط.

صحيح أن الرجل مكلف شرعاً وقانوناً بالإنفاق على زوجته وأسرته، وهذا يشمل كسوتها، وطعامها، وسكنها، ودواءها إن كانت مريضة، فإن امتنع عن تأدية بعض ذلك، كان مسؤولاً أمام الشرع والقانون.

إن الزوجة والأولاد لا يدركون في بعض الأحيان ضيق يد الرجل، فتراهم يطالبونه بشراء كثير من الأمور التي تثقل ظهره ومادياته، وهذا عين الخطأ، لأنه بعيد عن (فن التعامل مع الأمور الحياتية).

أما الرجل العاقل المدبر، والذي يرتب أوضاعه المادية وما يتناسب مع دخله واحتياجاته، فيحاول دائماً شراء الأهم ثم المهم، فيضع الحوائج الضرورية على قائمة الأهم، ثم يتدرج رويداً رويداً في ترتيب لائحة الشراء وفق ما تمليه عليه الضرورة.

إن العاقل هو الذي يحاول مد رجله على قدر غطائه (مد رجلك على قد لحافك) فإذا ما تمادى الرجل في الشراء بدون حساب، اضطر إلى الاقتراض من هذا وذاك، ليصل في قليل من الأيام إلى وضع لا يحسد عليه، وهناك أناس يحاولون أن يشتروا ما يحتاجون وما لا يحتاجون.

جاء في المثل المعروف: من اشترى ما لا يحتاجه باع ما يحتاجه!.

ولقد عدّ الله سبحانه وتعالى التقدير في المعيشة من علائم الإيمان فقال: ﴿وَالَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾[١].

وقال الصادق عليه السلام: ضمنت لمن اقتصد أن لا يفتقر[٢].

وعن عبد الله بن أبان قال: سألت أبا الحسن الأول عن النفقة على العيال؟

فقال: ما بين المكروهين الإسراف والإقتار[٣].

بيّنا فيما تقدم أن حل مشكلات المعاش أو الاقتصاديات التي تعصف بالأسرة اليوم، يكمن في حُسن تدبير الرجل والمرأة للأمور

---

(١) سورة الفرقان، الآية: ٦٧.

(٢) الوسائل: ج١٥ ص٢٥٨.

(٣) المصدر السابق: ج ١٥ ص٢٦١.

الاقتصادية، إذا ما أراد الرجل توكيل أحد أفراد الأسرة للقيام بهذا العمل، وجب عليه أن يحاسبه بين الفينة والأخرى، كي لا ترتبك أمور الأسرة اقتصادياً.

وتجدر الإشارة إلى أن التخطيط للوضع الاقتصادي المنزلي عمل جيد، ولكن لا ينبغي أن يرافقه التشديد والتعصب والإقتار، فالرجل الذي يكون وضعه المالي جيداً وجب عليه أن يوسع على عياله، لأن المال وجد من أجل تأمين الحاجيات الضرورية لا من أجل جمعه واكتنازه، ولذلك تظهر هذه النعمة عليه في سكنه، وملبسه، وطعامه.

جاء في الحديث الشريف عنه ﷺ: ليس منا من وُسع عليه من الله ثم قتر على عياله[١].

وقال الرضا عليه السلام: ينبغي للمؤمن أن يوسع على عياله لئلا يتمنوا موته[٢].

---

(١) مستدرك الوسائل: ج ٢ ص ٦٤٣.
(٢) المصدر السابق. للمزيد من المعرفة راجع كتاب نظام الحياة الزوجية الأميني.

الفصل الخامس

الانحراف والعوامل الاقتصادية (البطالة)

الانحراف والعوامل الاقتصادية (البطالة)

تعد المسألة الاقتصادية على قائمة العوامل الرئيسية التي تُسبب الانحرافات الاجتماعية في الوسط البشري، لكونها عصباً يرتكز عليه الاجتماع في كافة موارده المعيشية، فمنذ أن غربت شمس الحضارة الإسلامية عن دنيا الناس، والإنسان يضرب في صحارى التيه وفيافي الضياع، بحثاً عن حضارة توفر له مستلزمات السعادة الأبدية، وتتكفل له بمصادر رزقه وعيشه الرغيد، ولكنه أخطأ الطريق متجهاً مرة صوب غرب أوروبا ليتلقى دروس الرأسمالية الظالمة، ومرة ثانية صوب شرق أوروبا ليستدين التجربة الاشتراكية الخاسرة.

في ظل هذا التيه ضاعت أمنياته وأمانيه، وتاه في صحراء الفقر المدقع، ومما ـ يؤسف له ـ أنه منذ ذلك الوقت وإلى هذا اليوم، لا يزال يتسم الاقتصاد العربي بالتخلف في الإنتاج، والتبعية العالمية، والضعف الشامل هيكلاً وتنويعاً، وعلى الرغم من أن بعض الدول العربية قد حققت خلال السنوات القليلة الماضية بعض التقدم في مجالات التصنيع وفي فروع صناعة محدودة، إلا أن الصناعة العربية لا تزال تتسم بعوامل التخلف الشديد وذلك بالقياس إلى الدول المتقدمة صناعياً، وينعكس ذلك في انخفاض نسبة مساهمة قطاع الصناعات التحويلية في الناتج القومي الإجمالي لكل الأقطار العربية دون استثناء، بل إن الإنتاج العربي لا يستطيع أن يلبي متطلبات السوق العربية نفسها.

ويضيف التقرير: إن نسبة الدخل الصناعي إلى الدخل القومي لا يتجاوز في الغالب ١٠٪ إلى ٢٠٪ وفي بعض الأقطار من ٢٪ إلى ٣٪ بينما يصل الدخل في بعض الدول إلى ٤٠ ٪.

والصناعة في بلدنا تقتصر على الصناعات الاستهلاكية، وتقتصر أغلبها على فروع الصناعات الغذائية والإنشائية، وأما الصناعات الأساسية الكبيرة فهي صناعات استخراجية كبيرة يتم إنتاجها كمواد خام.

لماذا لا تزال الصناعة في بلادنا بهذه الدرجة من التخلف؟ لماذا لا يزال الفلاح في بلادنا يستخدم المحراث والمعول ونفس الأدوات التقليدية القديمة؟ ثم يكدح طول النهار ليحصل على قوت لا يكاد يسدّ جوعه؟

لماذا الملايين من شبابنا عاطلون عن العمل في بلادنا العربية؟ وصناعتنا الوطنية تخسر باستمرار، ونظل نستجدي الدول الأجنبية سلاحاً ومالاً وحتى خبزنا اليومي؟ ونحن أغنى بلاد العالم مالاً وأمناً وزراعة ومعنوية.

ألا ننظر إلى تاريخ بعض الدول كيف تحولت إلى أكبر دول العالم تقدماً وثروة، ألا ننظر كيف استطاعت اليابان أن تبلغ خلال نصف قرن إلى مصاف الدول الكبرى، والصين خلال ربع قرن فقط، بينما لا نزال ـ نحن ـ نعاني من أبسط المشكلات، كمشكلات السكن ومشكلات المواصلات، ومشكلات الدواء والغذاء؟

وإذا طالب الجائع بالخبز، والمريض بالدواء، والضائع بالسكن، قالت له أجهزة الإعلام العربية في دولنا الإسلامية: المشكلة عالمية، ولا نستطيع أن نفعل شيئاً. هل إن ما نعانيه من مشاكل التخلف، تعانيه الدول المتقدمة أيضاً؟ هل هناك في أوروبا وأمريكا مشكلة شعبية عامة تدعى مشكلة الفقر والجوع والنوم على الأرصفة نتيجة انعدام السكن؟

المشكلة إذن، ليست في الحقيقة عالمية، كما أن الدول الإسلامية لا يجوز أن تظل في عداد الدول النامية، ذلك لأنها تملك من الطاقات البشرية والثروات الطبيعية ما يمكنها من تحقيق التقدم المطلوب، فالدخل النفطي للبلاد العربية وحدها بلغ في عام ١٩٨٥ (١٠٠) ألف مليون دولار، وأن (٦٠٪) من احتياطي نفط العالم يوجد في البلاد العربية، أي أكثر من مائة ألف مليون طن من النفط الخام.

المشكلة إذن، هي ليست في إنتاج لا نملك منه شيئاً، وإنما المشكلة أننا لا نستقل أولاً، ولا نملك نحن الشعوب العربية تشجيعاً للصناعات الوطنية في بلادنا[١].

ويعتقد الباحثون منذ القديم، منذ فجر الفلسفة الحديثة أن مشكلات الانحرافات الاجتماعية وانتشار الجرائم، يعود إلى عامل الاقتصاد (الفقر)، ويربطون بينه وبين الانحراف بشكل كبير، فهم يعتبرون: أن الجوع والعري ونقص الموارد وعدم إشباع الحاجات الضرورية والكمالية هي العوامل الرئيسية التي تؤدي إلى السلوك المضاد للمجتمع.

بينما يذهب فريق من المتخصصين إلى أنه بعد تخمير عدة دراسات علمية وميدانية، تبين أن من الخطأ أن نحكم على طبقة الفقراء، أو الأماكن التي يوجد بها الفقر، على أنها من المسببات للانحرافات الاجتماعية، ويدل على ذلك ما نلحظه بجلاء من توافر صفات الشجاعة والشهامة والكرم والأثرة والأمانة والمثالية الأدبية لدى آلاف الآباء والأمهات الفقراء، الذين يفضلون الكفاح على السرقة، ويؤثرون الفقر

(١) راجع كتابنا فقدان الوعي طريق الدمار، المؤلف: ص٤١.

على الكسب غير المشروع، ويستهجنون طريق الانحرافات والجريمة، ويبثون هذه المثل في أبنائهم وبناتهم.

إن الحاصل فعلاً أن الفقر يكون أحياناً حافزاً للنبوغ والامتياز، وإن توافر المال في يد الحدث قد يكون مدعاة لفساده، والمشاهد فعلاً أن الانحراف يجد له مرتعاً بين أبناء الطبقة الوسطى وما يعلوها، ولا يقتصر مجاله على الطبقات الدنيا، وقد ثبت من فحص الحالة الاجتماعية لمجموعات الطلاب الذين ارتكبوا أخطر الجرائم، وأخلوا بالأمن إخلالاً خطيراً في كثير من البلاد، أنهم ينحدرون من الطبقات الغنية أو ما فوق الوسطى، ولذلك نحتاج في هذه العجالة أن نعرف الفقر قبل الشروع في إثبات العامل الاقتصادي وعوامل الانحرافات الاجتماعية في البشر.

معنى الفقر:

في اللغة الفقر: رديئة، ورجل فقير من المال قد فقر، فهو فقير، والجمع فقراء، والأنثى: فقيرة من نسوة فقائر.

والمسكين هو الذي لا شي له، والفقير أحسن حالاً من المسكين[1].

الفقر في الفقه:

يستعرض الفقهاء تعريف الفقير في مباحث الزكاة ومستحقيها من ثمانية الأصناف المستحقة شرعاً.

قال جماعة منهم: إن لفظ فقير، ولفظ مسكين إذا اجتمعا عبّر كل منهما عن معنى، وإذا افترقا عبرا عن معنى واحد، وقالوا: إن الفرق عند الاجتماع هو أن الفقير لا يسأل، والمسكين يسأل.

---

(١) ابن منظور، لسان العرب: ج ٥ ص ٦٠.

والفقير الذي نريد تعريفه في اصطلاح الفقهاء هو: الذي لا يملك مؤنة السنة له ولعياله، والغني الشرعي من يملكها بالفعل أو القوة، أي يكون له عمل يكفيه ويسد حاجته يوماً فيوماً[١].

الفقر في الدراسات الاجتماعية:

تعتبر الدراسات الاجتماعية الإنسان فقيراً، إذا كان ما زال في حاجة إلى العناصر المعيشية الأساسية اللازمة لوجوده المادي وسلامة بقائه، ويمكن لتحديد معنى الفقر أن نحدد المستوى الأدنى بخط وهمي، يسميه البعض بـ(خط الفقر) أثبته علماء الاجتماع في هذا المجال لتحديد معالم الإنسان الفقير، وتحديد الدرجات المتفاوتة للفقر.

وقد ذهب العالم الغربي (بوث) المتخصص في علم الاجتماع، إلى تعريف الفقر بأنه: وصف أولئك الذين قد تكفيهم إمكانياتهم لمجرد العيش، ولكنها لا تكاد تكفيهم لحياة كريمة خالية من الاعتماد على الآخرين، لأنه ليس الإنسان مجموعة من الأعضاء التي تؤدي وظائف بيولوجية، بل إن ثمة احتياجات هامة لا صلة لها بمجرد ضمان الوجود المادي من ملابس وطعام، ومسكن، وترفيه وغيرها الكثير[٢].

ويميل للمكان الذي يعيش فيه أو مرحلة السن التي يتجاوزها أو الحالة العلمية للشخص الواحد بالنسبة للمكان الذي يعيش فيه، فقد يستطيع أن يعيش الإنسان في منطقة فقيرة نائية بدخل محدود فلا يكون فقيراً، ولكنه إذا انتقل إلى منطقة غنية فعندها يكون بالنسبة لهم ولتلك المنطقة فقيراً، لأن دخله المحدود لا يكون عندها كافياً لتلبية حاجياته..

---

(١) فقه الإمام الصادق: ج ٢ ص٨٦، آية الله مغنية.
(٢) انحرافات الأحداث: ص ١٤٣.

لذلك نجد أن الفقر بالنسبة لكل إنسان أمر نسبي، يرتبط بمدى تجدد رغباته ومدى استجابته ورضوخه لها.

لذلك نرى أنه كُلما تقدم المجتمع وتمدن وتحضر؛ كُلما ارتفعت معدلات الجريمة فيه، لأن أغلب أفراد المجتمعات من ذوي الدخل المحدود، فهو لا يكفيهم لتأمين حاجياتهم وفق معايير التقدم والتحضر الذي يشهده مجتمعهم.

والحدث المجرم الذي نشأ في بيئة فقيرة هو حدث سيئ الحظ، تدخر له الأيام كثيراً من العناء، ولا شك أن ما يقاسيه من شظف العيش إنما ينعكس صداه على كافة مظاهر وجوده وسائر مقومات حياته، لأن الفقر يعني الثالوث المدمر بالنسبة للفقراء، وهذا يعني أن كثيراً من المشكلات سوف تواجهه، مثالها (السكن الرديء، وسوء التغذية، وسوء العلاج والجوع، والعري، وتفكك الروابط العائلية، والقلق، واليأس، والانزعاج، والغيظ، والغضب) وكل هذا يؤثر على أحوال الإنسان الجسمية، والعقلية، والتربوية، والنفسية، والثقافية، كما أن له أثراً مدمراً على الحياة الاجتماعية العامة.

الآثار المدمرة للفقر:

أثبتت الدراسات الصحية: أن المستوى الصحي للحدث الفقير أقل كثيراً من المعدل الضروري، وقد أدى ذلك إلى نتيجة حتمية هي: ارتفاع نسبة الوفيات بين الاطفال في الأسر الفقيرة عنه في الأسر المتوسطة أو ما فوقها، وقد بلغت هذه النسبة إلى ٥٠٪ من نسبة السكان في أغلب دول العالم.

وقد قام بعض الباحثين الغربيين بالربط بين الفقر وبين الأمراض الشديدة، فأثبت في دراسة أن ثمة علاقة وثيقة بين الفقر وبين الأنيميا،

والسل، والإيدز، والكساح، والضعف العام، وقد لوحظ في هذا الصدد أن حرص الأسرة الفقيرة على الحصول على سكن ملائم، يكون في العادة على حساب المستوى الغذائي لأفراد الأسرة.

أما من ناحية ثانية، وعلى صعيد تأثيرات الفقر على الناحية التربوية، كثيراً ما يؤدي الفقر إلى سوء معاملة الأطفال، فقد تمتد فترات البطالة والتعطل عن العمل إلى شهور أو سنوات طويلة، يوجه فيها الوالدان كل طاقتهما للبحث عن العمل ولتدبير القوت للصغار، فلا يبقى لهما بعد ذلك من هذه الطاقة ما يصرفانه في الإشراف على تربية الأولاد، كما أن نضوب الموارد يجعل من رب الأسرة في العادة شخصاً حاد الطبع عصبي المزاج، فهو إن وجد سبيلاً لتوجيه الأولاد وقل أن يجد، فإنه يعمد إلى تلك القسوة والإسراف في العقاب.

وأما من الناحية الثقافية فإن الفقر يقف حجر عثرة دون فوز الحدث بقسط من التعليم، ذلك أن الوالد لا يكاد يرى في أبنائه قدرة على الكسب، حتى ينتزعهم من المدرسة ويدفع بهم إلى العمل، أملاً في أن يعينه ذلك على مواجهة أعباء الحياة، وهو إذا استطاع تركهم في المدرسة فإنه لا يمنحهم الإشراف اللازم لتوجيههم في الدراسة، وقد أجريت أبحاث في مدينة لندن أسفرت عن أن الأطفال الذين ينحدرون من بيئات متواضعة قد حصلوا على أقل من نصف الجوائز المدرسية، التي حصل عليها أبناء الأحياء الأكثر رغداً، وتبين أن ذلك مرجعه إلى فقدان جو هادىء، بل إن المنزل تسوده الضوضاء عادة بسبب ازدحامه، كما تقل فيه وسائل الإضاءة الكافية، وينعدم فيه الكثير من أوجه الراحة اللازمة لتهيئة الطفل للاستذكار، فضلاً على ذلك فقد تبين من هذا البحث أن كثيراً من الأطفال يجمعون بين الدراسة والعمل.

أما من الناحية النفسية فإن الفقر، معناه: الحرمان، ومعنى هذا أن الجو في الأسرة الفقيرة يشوبه شيء من حدة المزاج، والغضب، والخمول، والكسل. . و. . وإلخ، مما يسبب انتشار الأمراض النفسية والعقد الكثيرة. . وقد أثبتت البحوث في العيادات النفسية أن نسبة كبيرة من الأمراض النفسية التي تراجع العيادات هي من الفقراء، لأن صدى تصرفات الأبوين على سلوكهم يؤدي بهم في كثير من الأحيان إلى الانحرافات. .

الفقر وعلاقته بالانحرافات:

لا تستطيع الدراسات التي قام بها الخبراء في علم الإجرام، أن تفصل بين الإجرام وتزلزل الحالة الاقتصادية للفرد أو المجتمع، بل تؤكد أنها تعود إلى أسس اقتصادية ينتج عنها عدم توفر مستلزمات الحياة الضرورية، أو عدم إمكانية إشباع الحاجيات الإنسانية.

وقد لوحظ وفقاً للدراسات الإحصائية التي أجريت في إنجلترا، أن ثمة علاقة وثيقة بين عدد الأحداث المنحرفين وبين أوقات الأزمات الاقتصادية، كما لوحظ ارتفاع منسوب الانحرافات بين الأحداث الذين يقطنون المدن الكبرى عنها بين أولئك المقيمين في المدن الصغرى أو الأرياف، وذلك رغم ما هو حاصل في جميع دول العالم، من ارتفاع مستوى المعيشة في الأولى عنه في الأخيرة، والسبب الرئيسي في ذلك أن رباط الأسرة لديه الفرصة لكي يقارن بين المستوى المتدني الذي يعيشه وبين المستوى لدى أبناء الطبقة الأكثر رفاهية، وهو يلاحظ على مدى الأيام أن الحدث الذي يمكّن من إشباع رغباته من الطعام الجيد والملابس الغالية، ويمنح إمكانية الترفيه عن نفسه بالذهاب إلى الأماكن الجميلة والأسواق والمنتزهات. . و. . وحينما يصل من المقارنة إلى أن

هذه هي الطريقة المثلى للحياة، فإن أفكاره تتحول إما إلى الرثاء لنفسه، أو إلى الحقد والغيرة من الآخرين، مما يقود البعض إلى طريق الانحرافات المختلفة، وإليك دليلاً على ذلك، الدراسات الميدانية التي قام بها الخبراء، والعلماء.

دراسات تؤكد تلك الحقيقة:

من السابقين في هذا الميدان الباحث الإيطالي (فورنا ساري) الذي أثبت في أبحاثه أن أكثر الطبقات فقراً في إيطاليا والذين يمثلون حوالى ٦٠٪ من سكانها، يساهمون في تكوين ٨٥٪ من المجرمين.

ويذهب الباحث الألماني في علم الإجرام (يري برس): أن الفقر يولد الجريمة، بدليل أن النظام الحالي للمجتمع قد أدى إلى ارتفاع منسوب الجرائم، وهذا النظام بطبيعته يجعل الطبقة الفقيرة هي الغالبة.

ويرى الدكتور (سيريل بيرت) أن الطبقة الغنية لا تمثل أكثر من ٨٪ من سكان العاصمة البريطانية، وأن ٣٧٪ منهم قد انحدروا من الطبقتين التاليتين اللتين تمثلان الفقراء المتوسطين، رغم أن هاتين الطبقتين تمثلان ٢٢٪ فقط من سكان المدينة..

وترى الباحثة الغربية (مس ماري كارتير) في كتابها (الأحداث المنحرفون) أن المنحرفين ينقسمون إلى خمس مجموعات هي:

الأحداث المذنبون الذين يتميزون بالجسارة والجرأة، وهم أولئك الذين لفظهم المجتمع، ولم يعودوا يقيمون وزناً للقانون أو الإنسانية، ويرجع انحرافهم في الغالب إلى الطفولة المضطربة.

الأحداث الخطرون، وهم الذين تربوا في أحضان الجريمة، ودفعهم إليها آباؤهم أو المجرمون المحترفون، كأصحاب مدارس النشل وعصابات إفساد الأخلاق.

الأحداث الذين لم تكن لديهم ميول إجرامية، ولكن الإهمال الآثم الذي بدا من والديهم، والحاجة إلى الشعور الديني والتأثير الأدبي داخل المنزل يقودهم بالتدريج إلى الانحراف.

وترى مس كارتير، أن هذه الفئات الثلاثة من المنحرفين لا تنقاد إلى الجريمة بسبب الفقر والعوز، وأنهم إذا كانوا فقراء فإن للجريمة أحياناً علاقة بهذا الفقر.

الأحداث الذين قادهم الفقر والعوز فعلاً إلى الانحراف، ولم تكف قوانين مساعدة الفقراء في إشباع حاجياتهم الاقتصادية، بسبب قصور المساعدة أو إهمال السلطات لمشاكلهم.

الأحداث الذين يعيشون هم وذووهم في فقر مدقع، ومع ذلك فإن لهم موارد مشروعة للمعيشة ولو أنها موارد تافهة.

وانتهت الباحثة من عرض هذه المجموعات وعلقت عليها بأنه يبدو بوجه عام أن الفقر والعوز من أهم الأسباب الرئيسية لجرائم الأحداث.

وقد لاحظ بعض الباحثين عام ١٩٥٨م أن الإحصاءات تشير إلى وجود علاقة بين الفقر وبين الجريمة تصل إلى ٤٥٪ وذلك بسبب عدم الرعاية الذي يلازم الحياة الفقيرة عادة، فالفقر قد يجعل الحدث قابلاً للانحراف، ثم يتضافر بعد ذلك مع غيره من العوامل على إسقاط الحدث فعلاً في هوة الانحرافات[١].

الفقر والجريمة، الأسباب والدوافع:

مما لا شك فيه، أن للفقر ـ باعتباره الحالة التي لا يكفي فيها دخل الأسرة لإشباع حاجاتها الأساسية المتغيرة للمحافظة على بنائها

(١) المصدر السابق: ص ١٥٠.

المادي والنفسي والاجتماعي ـ آثاراً سلبية خطيرة على الجوانب الصحية والثقافية، من حيث نوع الثقافة السائدة في حياة الأسرة، ومدى توفر فرص التعليم. . . إلخ والفقر قبل كل شيء هو الذي يحرم الأسرة من المشاركة الاجتماعية في جميع المجالات الحياتية ـ سياسية، اقتصادية أو اجتماعية.

إن تأثير الفقر ليس منفصلاً عن بقية العوامل النفسية والاجتماعية، إذ أنه يؤثر ويتأثر بمستوى الطموح لدى الأسرة، وبالوضع الطبقي والثقافة السائدة في المجتمع، (الجمعية الكويتية لتقدم الطفولة العربية: ١٩٨٦ ـ ١٩٨٧)، كما يؤثر تأثيراً ملحوظاً في عملية الاتزان النفسي وفي علاقة الفرد بالأسرة والبيئة المحيطة.

لقد أثبتت مجموعة من الدراسات أن الفقر أحد الأسباب الرئيسة لجميع أنواع الانحرافات الاجتماعية، كانحراف الأحداث، والاتجاه نحو السرقة والإجرام، والانحرافات الجنسية بمختلف أشكالها وأنواعها، وإدمان الخمور والمخدرات، وما إلى ذلك من أنماط الانحرافات. وأن الفقر يؤثر بصورة ظاهرية على الفرد، مما يجعل بعض المجتمعات لا تكترث لحالة هذا الفرد، إلا أنه في حقيقته يحمل بالغ الأثر على المجتمع والبيئة المحيطة به.

المسكن والانحراف الاجتماعي:

يعتبر علماء الاجتماع المسكن السيئ سبباً من أسباب الانحراف الاجتماعي، إلا أن الغالبية العظمى يعتبرونه من أهم أسباب السلوك المنحرف. لقد تبين من خلال الدراسة والملاحظة أن المساكن الرديئة عامل هام وفعّال في كل مظاهر الانحرافات الاجتماعية، وبالأخص انحراف الأحداث.

وقد بيّنت هذه الدراسات العلاقة بين المسكن والجنوح في التالي:

١ ـ تزداد نسبة الانحرافات في المناطق المختلطة التي تنقصها المرافق المادية، وحيث يكثر التجمع السكاني وترتفع درجة التزاحم، إلى جانب انتشار حلقات المقامرة والحانات وبيوت الدعارة... وما إلى ذلك.

٢ ـ نتيجة للازدحام الشديد في الأسرة يشترك صغار الأولاد والبنات في نفس المكان مع الكبار، وأحياناً مع غير أعضاء الأسرة، وكذلك قد يشترك المراهقون من الجنسين في نفس الغرفة، مما يحرك غرائز الجنسين فيدفعهم ـ تبعاً للوازع النفسي والديني ـ إما للكبت وبالتالي اعتلال الشخصية، أو للانخراط في خط الانحرافات الجنسية وغيرها.

٣ ـ المسكن الضيق أو المشترك يدفع بالطفل إلى الهروب من المنزل كلما سنحت الفرصة، والتجمع في الشارع كنتيجة لما يشعر به من توترات وضغوط، مما يدفعه للالتقاء مع غيره من الأحداث وتكوين العصابات، ومزاولة أنماط السلوك المنحرف بشتى أشكالها، بغية تحقيق الهروب النفسي من الواقع المؤلم الذي يعيشه هذا الطفل.

ميزانية الأسرة:

تتمثل ميزانية الأسرة في أبسط صورها في قيام الأسرة بتقدير الدخل الذي تحصل عليه، ومحاولة توزيعه بين أوجه الإنفاق أو بين السلع والخدمات التي يتضمنها الاستهلاك، بصورة تحقق أقصى منفعة ممكنة وبأقل نفقة ممكنة.

ولكن الأسرة كثيراً ما تقع في مشكلات مادية لا ترجع إلى عدم كفاية الدخل أو عدم تناسبه مع مطالب الأسرة، بل إلى أن الأسرة تعمد

إلى زيادة نفقاتها فوق حدود مواردها، وتتحدى قلة الدخل النسبي بأساليب سلبية، كالاقتراض مثلاً بدلاً من الإنفاق في حدود الدخل، أو العمل على زيادة إنتاجها واستغلال الطاقات المعطلة فيها ـ ويستثنى من ذلك الفئات العاجزة عن تدبير الحد الأدنى الضروري للمعيشة.

وعندما تفشل الأسرة في تحقيق الاستقرار الاقتصادي، يؤدي بها الموقف إلى نوع من الصراع، يقوم بين أعضائها من جانب وبين البيئة الخارجية من جانب آخر. وهذا الصراع يولد أربعة أنواع من التصرفات هي على التوالي:

١ ـ **العدوان**: وهو في جوهره يعبر عن حاجة الأسرة إلى القيام بفعل معين في ظروف غير ملائمة. ويستهدف هذا السلوك مقاومة هذه الظروف وتجنبها أو محاولة قهرها والتغلب عليها. ومن مظاهر وجود الاتجاهات العدوانية في الأسرة، ازدياد الشجار والخلافات بين أفرادها أو النقد المتطرف لرب الأسرة، أو ازدياد الاحتكاك بين الأسرة وجيرانها، أو ترديد الشكوى المستمرة. . . إلخ.

٢ ـ **النكوص**: وهو اللجوء إلى حل المشكلات بطرق سلبية تزيد من إغراق الأسرة في المشاكل الطويلة الأمد. ومن أهم مظاهر هذا السلوك الاعتماد على الاقتراض، والإسراف في المطالب دون تقدير لموارد الدخل، أو الاعتماد على الأقارب والجيران، والشعور بالغيرة الشديدة والحسد للأسر التي تتمتع ببعض المزايا الاقتصادية. . . إلخ.

٣ ـ **الجمود**: وهو استمرار الأسرة في اتباع نوع معين من التصرفات وأسلوب المعيشة، وعدم القدرة على إيجاد حلول إيجابية للمشكلة. وفي الوقت نفسه عدم التخلي عن العادات والتقاليد التي تدعو إلى الإسراف والاهتمام ببعض المظاهر الاجتماعية لتقليد الآخرين.

٤ ـ **القنوط**: وهو الإحساس الذي يراود أفراد الأسرة بعد مرور فترة من الزمن على المشكلات الاقتصادية دون حل أو تحسين. ويتحول هذا الإحساس تدريجياً إلى حالة من الكراهية تنصب على الأسرة ذاتها، وتزعزع ثقة الأسرة بنفسها، فتنتهي إلى الانطواء أو في بعض الأحيان إلى التفكك الأسري.

الأزمات الاقتصادية والأسرة:

من بين الدراسات التي أجريت في هذا المجال دراسة الدكتورة سامية الخشاب، التي تناولت أثر تدهور الدخل بصورة فادحة، خلال فترات الكساد أو في حالة البطالة، على العلاقات الأسرية. وقد تبين أن قدرة الأسرة على القيام بالتوافق الضروري، دون حدوث أضرار للعلاقات الشخصية المتبادلة، يتوقف على درجة ارتباط أعضاء الأسرة بمستوى معين للمعيشة. فإذا تأثرت بعض المستويات المادية التي تعتبرها الأسرة ذات أهمية في حياتها، كانت النتيجة تدهور العلاقات الأسرية، وتفكك الروابط التي تربط أعضاء الأسرة ببعضهم البعض[١].

الحلول العملية للقضاء على ظاهرة الفقر:

لقد وضع الله سبحانه وتعالى ثروة هذا الوجود تحت تصرف البشر، وحملهم على الانتفاع بخيراتها، فهم خلفاء ربهم في ثروة هذا الوجود.

وقد أشار الشهيد الصدر (قدس سره) في كتابه اقتصادنا إلى هذه الحقيقة بقوله: إن الإسلام عندما ترك ثروة هذا الوجود بين يدي خلقه، أشار إليهم أنها لربهم، وهو المالك الحقيقي للمال، وحين استخلف

(١) نادر الملاحي، التربية الإسلامية: ص ٣٤.

الناس لم يترك الناس يسيرون كيفما اتفق في مسألة التصرف بالمال، وإنما حدد شروطاً ووضع أطراً لكيفية التصرف والانتفاع والاستثمار والاستهلاك، ومن خلال تلك الحدود والشروط أصبح للتملك في حياة المسلم وجهان:

١ ـ التملك ذو الطابع الخاص:

حيث أباح الإسلام للإنسان الفرد حق التملك الخاص، وقد وصفه بأنه يمتلك غريزة فطرية جُبل عليها، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة بقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلۡخَيۡرِ لَشَدِيدٌ﴾[١].

وقال تعالى: ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلۡمَالَ حُبّٗا جَمّٗا﴾[٢].

وعلى ذلك فإن التملك الخاص حين فرضه الإسلام فرض له حدوداً وضوابط شرعية، ولم يتركه مشرعاً دون قيد أو شرط، فحدد المنابع من خلال منع الكثير من مصادر التمويل واعتبارها أمراً محظوراً على الإطلاق، كالكسب عن طريق بيع الخمر، والمتاجرة بالميتة والدم والخنزير وآلات الطرب، والكسب عن طريق الغناء وآلات القمار، وبيع السلاح للعدو، والغش والربا والاحتكار والقمار والسحر وغيرها[٣].

ومع أنه سمح بنموه عبر القنوات المشروعة، إلا أنه فرض الحقوق الواجبة والمستحبة في التملك الخاص، عن طريق قانون: الإرث والزكوات والأخماس والنذورات، والضرائب التصاعدية، كضريبة الجهاد التي ترى الدولة الإسلامية ضرورة فرضها في حالات خاصة، هذا عدا المبرات المستحبة والصدقات التي يندب الشرع الإلهي إليها.

---

(١) سورة العاديات، الآية: ٨.

(٢) سورة الفجر، الآية: ٢٠.

(٣) راجع المكاسب المحرمة، الأنصاري (قدس).

٢ ـ التملك ذو الطابع العام:

ويقصد به التملك الذي يكون من حق الدولة الإسلامية، وبالتالي يكون من حق الأمة الإسلامية، مثاله: الأرض الخراجية، وهي الأرض التي فتحت عنوة، وكانت عامرة بشرياً أثناء الفتح، فقد جاء في النص المروي عن الإمام موسى بن جعفر الصادق عليه السلام قال: إن الأرض التي أخذت عنوة، موقوفة متروكة بيد من يعمرها ويحييها ويقوم عليها على قدر طاقتهم من الخراج.

أما الأرض الميتة أثناء الفتح، فهي لمنصب السلطة التشريعة، أي بيد الحاكم الشرعي، وكذلك حكم الأرض العامرة طبيعياً أثناء الفتح، ويلحق بهذا أيضاً، المعادن التي تحتوي عليها الأرض، كالملح والنفط والغاز والكبريت، وأحجار الرحى والياقوت، والمعادن القريبة من سطح الأرض كالذهب والفضة، والضرائب المالية كالزكوات وغيرها.

وأما الثروة التي يحق لنا التصرف بها وهي الملكية الخاصة، كالكسب عن طريق التجارة والتعليم والخياطة والإجارة أو التي تكون حقاً خاصاً، كالمال الذي نصيبه من عملنا في ملكية عامة بعد سماح منصب السلطة الشرعية، كمن يحيي أرضاً مواتاً أو يعمل مزارعاً في أرض خراجية أو نحو ذلك، وهذه يتعلق بها الحق الشرعي غالباً.

ويساهم هذا الجانب في رفع معاناة الفقر في الأمة الإسلامية، لأن الفقر بعد أن نتأمل في أسبابه الرئيسية ينشأ من عاملين هما:

١ ـ العامل الموضوعي:

ونقصد به العامل الخارجي، أو مجموعة العوامل الخارجية النابعة من واقع الإنسان، ونجملها في:

ـ قلة الموارد الطبيعية: كقلة الإنتاج الزراعي بسبب سوء الأحوال الجوية وصحراوية الأرض وضعف التربة أو قلة المعادن بها.

ـ إهمال السلطة الحاكمة لمشاريع الإنتاج الزراعي، والصناعي.

ـ تفشي الأمراض والأوبئة في البلاد.

ـ الحروب والنكبات وما ينجم عنها من تدمير للمشاريع الزراعية والصناعية وغيرها.

ـ تكدس الثروة لدى فئة محدودة من الناس بسبب سوء التوزيع.

٢ ـ العامل الذاتي:

ونقصد به ما يكون الأفراد أنفسهم مسؤولين عنه، وأهم مظاهره ما يلي:

ـ طغيان روح الكسل والتواكل وغياب روح الطموح لدى الأفراد، وتخليهم عن الانتفاع بالثروة في بلادهم وتحولهم إلى جيش من العاطلين.

ـ إتلاف المال من قبل الأفراد بممارسة المنكرات، كالخمر والقمار والملاهي والإسرف وغيرها.

ـ ضخامة الأسرة وعدم قدرة ولي الأمر فيها على سد نفقاتها.

ـ ضعف القدرة الجسمية عند بعض الأفراد على ممارسة العمل[١].

طرق الوقاية من الفقر:

تمكن الإسلام من مكافحة الفقر عبر وسائل متعددة، بحيث رسمت للإنسان المسلم الخطة التي ينأى بالتزامها عن الفقر وسلبياته، وحددت المسار الطبيعي لخلق المجتمع الغني المتكافل في الأرض. ومن أهم هذه السبل هي:

---

(١) التربية الإسلامية: ج ٩ ص١٣٠.

١ ـ الحث على العمل:

حثت النصوص المروية عن رسول الله ﷺ وأهل بيته عليهم السلام على العمل، لأنه طريق للقضاء على شبح الفقر، وجعلت ممارسته ساحة من سوح الجهاد، ونهت أن يلقي الإنسان كَلَّه على الآخرين ويمارس عملية الاستجداء المبطن.

قال رسول الله ﷺ: العبادة سبعون جزءاً أفضلها طلب الحلال.

وقال ﷺ: ملعون من ألقى كلّه على الناس.

وقال الصادق عليه السلام: لا خير فيمن لا يحب جمع المال من حلال يكف به وجهه ويقضي به دينه ويصل به رحمه..

٢ ـ تحريم إتلاف المال بأي طريق كان:

ونُهي عن التصرف في المال إلا في الوسائل المباحة شرعاً وعقلاً، وكل ما عدا ذلك تصرف غير شرعي يحرم التصرف فيه بأي شكل من هذه الأشكال، كأن يحاول استثماره بطريق القمار، أو الشعوذة، أو السحر، أو الربا وغيرها، ومنع من الإسراف بأي شكل من أشكال الإسراف والتبذير.

كما أنه منع من كنز الأموال وحجبها عن النمو والنفع العام والمساهمة في النشاط الاقتصادي. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾[١].

(١) سورة التوبة، الآية: ٣٤.

كما أن الإسلام والشارع الحنيف ألزما الإنسان المسلم بفتح المشاريع الاقتصادية، لفتح مجالات أرحب لإنتاج خيرات الله، واستيعاب الطاقات البشرية في مضمار البناء الاقتصادي، وقد أشار الإمام علي عليه السلام لهذا الموضوع واعتبره من الأسس التي تقوم عليها الدولة الإسلامية، ويضمن من خلالها المجتمع الإسلامي مكافحة شبح الفقر، فقد قال لواليه مالك الأشتر حينما بعثه إلى مصر: وليكن نظرك في عمارة الأرض أبلغ من نظرك في استجلاب الخراج، لأن ذلك لا يدرك إلا بالعمارة، ومن طلب الخراج بغير عمارة خرب البلاد وأهلك العباد..[1]

٣ ـ الكفالة الاجتماعية:

لقد فرض الإسلام على المسلمين جميعاً كفالة بعضهم بعضاً وفقاً لظروف كل فرد منهم وإمكاناته، وهذه بعض النصوص الإسلامية بهذا الصدد:

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ما آمن بي من بات شبعاناً وجاره جائع إلى جنبه وهو يعلم به.

وعن أبي سعيد الخدري أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: من كان معه فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له، ومن كان له فضل زاد فليعد به على من لا زاد له.

وعن الباقر عليه السلام: من حق المؤمن على أخيه المؤمن أن يشبع جوعته ويواري عورته ويفرج كربته ويقضي دينه، وإذا مات خلفه في أهله وولده..

---

(١) نهج البلاغة كتاب علي عليه السلام إلى عامله في مصر مالك الأشتر.

وقال المعلى بن خنيس إن الصادق عليه السلام قال: من حق المسلم على المسلم سبعة خصال.. ذكر منها: لا تشبع ويجوع ولا تروى ويظمأ ولا تلبس ويعرى، وأن تعينه بنفسك ومالك ولسانك ويدك ورجلك..[١]

٤ ـ الصدقات والزكوات:

ومن ناحية أخرى حث الإسلام أتباعه على سبيل الاستحباب والترغيب في الثواب على بذل العون لإخوانهم المحتاجين بعد أداء فريضة الكفالة في الضروريات، ومما لاشك فيه أن هذه الأعمال تلعب دوراً مهماً في رفع العوز عن المحتاجين، ولو في الأمور الضرورية.

وقد أشاد الله سبحانه وتعالى بالمتصدقين، وجعل صدقاتهم كفارة لذنوبهم بقوله: ﴿إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾[٢].

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[٣].

وعن الرضا عليه السلام، عن أبيه موسى بن جعفر عليه السلام قال: كان الصادق عليه السلام في طريق ومعه قوم معهم أموال، وذكر لهم أن بارقة[٤] في الطريق يقطعون على الناس، فارتعدت فرائصهم[٥]، فقال لهم الصادق عليه السلام ما لكم؟

---

(١) الخصال باب السبعة.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٧١.

(٣) سورة الحشر، الآية: ٩.

(٤) البارقة: السيوف، و المراد منها قطاع الطريق و اللصوص. لسان العرب: ج ٢ ص٣٧٦.

(٥) الفريصة: اللحمة بين الجنب و الكتف، أو بين الثدي و الكتف وهي لا تزال ترعد عند الفزع.

قالوا: معنا أموالنا نخاف عليها أن تؤخذ منا فتأخذها منا، لعلهم يندفعون عنها إذا رأوا أنها لك؟!.

فقال: وما يدريكم؟ لعلهم لا يقصدون غيري، ولعلكم تعرضوني بها للتلف، فقالوا: فكيف نصنع ندفنها؟

قال: ذلك أضيع لها فلعل طارياً يطري عليها فيأخذها ولعلكم لا تهتدون إليها بعد.

فقالوا: كيف نصنع دلنا؟

قال: أودعوها من يحفظها ويدفع عنها ويربيها ويجعل الواحد منها أعظم من الدنيا وما فيها ثم يردها ويوفرها عليكم أحوج ما تكونون إليها.

قالوا: ومن ذاك؟

قال: ذاك رب العالمين، قالوا: وكيف نودعه؟

قال: تتصدقون بها على ضعفاء المسلمين.

قالوا: وأنى لنا الضعفاء.. بحضرتنا هذه؟

قال: فاعزموا على أن تتصدقوا بثلثها ليدفع الله عن باقيها من تخافون.

قالوا: قد عزمنا، قال: فأنتم في أمان الله فامضوا، فمضوا فظهرت لهم البارقة فخافوا.

فقال الصادق عليه السلام: كيف تخافون وأنتم في أمان الله عز وجل؟

فتقدم البارقة وترجلوا وقبّلوا يد الصادق عليه السلام وقالوا: رأينا البارحة في منامنا رسول الله صلى الله عليه وآله يأمرنا بعرض أنفسنا عليك، فنحن بين يديك ونصحبك وهؤلاء لندفع عنهم الأعداء واللصوص.

فقال الصادق عليه السلام: لا حاجة بنا إليكم، فإن الذي دفعكم عنا يدفعهم، فمضوا سالمين وتصدقوا بالثلث، وبورك لهم في تجارتهم فربحوا بالدرهم عشرة، فقالوا: ما أعظم بركة الصادق عليه السلام.

فقال: قد تعرفتم البركة في معاملة الله عز وجل، فدوموا عليها[١].

٥ ـ كفالة الدولة للفقراء:

من مهام الدولة الإسلامية ممارسة التكافل الاجتماعي، للتمكن من علاج عوامل تفشي الفقر وإلغائه من الوجود البشري، وإزالته من المحيط الاجتماعي، إذ تقوم الدولة على قضاء حاجيات الفرد المحتاج للمستلزمات الضرورية وغيرها، وقد أشار الإمام علي عليه السلام لهذا في عهده لمالك الأشتر بقوله: ثم الله في الطبقة السفلى من الذين لا حيلة لهم من المساكين والمحتاجين وأهل البؤسى والزمنى، فإنِ في هذه الطبقة قانعاً ومعتراً، واحفظ لله ما استحفظك من حقه فيهم، واجعل لهم قسماً من بيت مالك، وقسماً من غلات صوافي الإسلام في كل بلد، فإن للأقصى منهم مثل الذي للأدنى، وكل قد استرعيت حقه، فلا يشغلنك عنهم بطر، فإنك لا تعذر بتضييعك التافه لإحكامك الكثير المهم، فلا تشخص همك عنهم ولا تصعّر خدك لهم، وتفقد أمور من لايصل إليك منهم ممن تقتحمه العيون وتحقره الرجال، ففرغ لأولئك ثقتك من أهل الخشية والتواضع، فليرفع إليك أمورهم، ثم اعمل فيهم بالإعذار إلى الله يوم تلقاه فإن هؤلاء من الرعية أحوج إلى الإنصاف من

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام: ص ٧ ج ١.

غيرهم، وكُلٌّ فأعذر إلى الله في تأدية حقه إليه، وتعهد أهل اليتم وذوي الرقة في السن، ممن لا حيلة له[1].

وجاء في الحديث عن موسى بن جعفر الكاظم عليه السلام في مسؤولية الحاكم إزاء الرعية الفقراء: . إنه وارث من لا وارث له ويعول من لا حيلة له[2].

---

(١) نهج البلاغة ص ٤٣٨.

(٢) الموسوعة الفقهية: ج ١٠٩ ص ٣٤٥، والتربية الإسلامية مصدر سابق.

العمل والبطالة والانحراف

تعريف البطالة:

البطالة في اللغة: بطل الشيء يبطل بُطلاً وبُطولاً وبُطلاناً، أي ذهب ضياعاً وخُسراً، فهو باطل.

والتبطل: فعل البطالة، وهو اتباع اللهو والجهالة، وبطل الأجير ـ بالفتح ـ يَبطل بطالة وبِطالة أي تعطل فهو بطال، والبطال: الذي لا يجد عملاً[١].

وفي الذمه، البطالة هي: التعطل عن العمل.

وورد عن الغزالي قوله: إن الأنشطة الاقتصادية والصناعات تحتاج إلى تعليم ومكابدة في الصبا، وإذا غفل بعض الناس عن القيام بذلك في بداية عمرهم أو منعهم من ذلك مانع، فالنتيجة أن يصبحوا عاجزين عن العمل، فيأكلون من عمل غيرهم فيكونون عالة على الغير، إذن هم عاطلون، وهناك علاقة وطيدة بين العطالة والانحرافات..[٢]

نظرة المدارس الاقتصادية والاجتماعية للبطالة:

يذهب أنصار المدرسة الاقتصادية إلى أن هناك علاقة وطيدة بين

---

(١) لسان العرب، ابن منظور (١١/٥٦).

(٢) إحياء علوم الدين الغزالي: ج ٣ ص٢٢٨.

البطالة وانتشار الجريمة الاجتماعية، واستندوا في ذلك إلى بعض الإحصائيات الميدانية التي قام بها بعض الباحثين في علم الاجتماع والجريمة؛ كما أنهم توصلوا إلى أنه كُلما زادت الأزمات الاقتصادية في الوسط الاجتماعي كُلما ارتفعت نسبة الجرائم في المجتمع.

وبعد الدراسة المتمعنة التي تستند إلى الدراسات الميدانية، توصل علماء الجريمة إلى أن السلوك الإجرامي مرجعه إلى عامل البطالة وتفشيها في الوسط الاجتماعي، وهذه النظرية بسطها العالم الهولندي (وليم بونجر) (١٨٧٦م ـ ١٩٤٠م)، وقد شرح وليم بونجر ذلك في أوائل القرن العشرين، وحاول أن يثبت بأن النظام الرأسمالي بما يصاحبه من منافسات حرة وصراع طبقي هو المسؤول عن الجرائم المالية، بل عن الجرائم الأخرى أيضاً، بما يثيره من جو خلقي مبناه الأثرة الأنانية، وأن السلوك الإجرامي هو نتيجة للظروف الاقتصادية السيئة الناتجة عن النظام الرأسمالي الفاسد، الذي يثير الطبقات الفقيرة ويدفعها إلى الإجرام، نتيجة للحرمان الذي تتعرض له، والتعسف من الطبقة المتسلطة، والحقد والكراهية الذي تحسه الطبقات الدنيا نحو الطبقات المنعمة المسيطرة في ظل ذلك النظام.

بينما ترفض بعض الدراسات العلمية الميدانية التي قام بها بعض الباحثين الإسلامين في هذا الصدد، أن يكون الفقر سبباً للجنوح نحو الجريمة.

تبين من نتائج البحوث المحلية التي أجريت في ميدان الأحداث الجانحين، أن غالبيتهم من أسر على جانب كبير من الانخفاض في المستوى الاقتصادي، وتؤيد ذلك التقارير السنوية لمكتب الخدمات الاجتماعية لمحكمة الأحداث في العالم العربي، التي تؤكد بأن حوالى

نصف أسر الأحداث تعيش تحت مستوى خط الفقر، وأن معظم الباقي من الأسر من الفقراء، وإن كانوا فوق خط الفقر، وأن حوالى ٧٪ فقط من الحالات هي التي تتمتع بمستوى دخل مناسب.

وتعترض بعض اللجان العلمية التربوية والدينية على ربط الفقر بالإجرام، ويدللون على رأيهم بأن الفقر مفهوم نسبي، وأنه ليس كل فقير لا بد وأن يكون منحرفاً، وأنه إذا أظهرت الاحصاءات زيادة نسبة الفقراء بين المجرمين، فقد بدأت تظهر جرائم أخرى بين الطبقات الغنية وهي جرائم الخاصة[١].

وكيف كان، فلا أحد ينفي تأثير عامل الفقر على الانحرافات البشرية، فالفقر آفة الدين والدنيا معاً، وإذا دخل الفقر داراً قال له الكفر خذني معك.

وجاء عن علي عليه السلام: الفقر الموتُ الأكبر، والقبرُ خيرٌ من الفقر[٢].

وقال أيضاً: إن الفقر مذهلةٌ للنفس مدهشةٌ للعقل وجالبٌ للهموم[٣].

وجاء عن الصادق عليه السلام قوله: أربعةُ أشياء القليلُ منها كثير: النار، والعداوة، والفقر، والمرض[٤].

وكما هو معروف لدى الواعين، أن الفقر هو احتياج الإنسان، أو عدم تملكه لموارد تكفيه وتكفي عياله، وبعبارة أدق: إن الفقر عدم

(١) المجرمون: ص ١٩٤.
(٢) نهج البلاغة: ص١٩٢.
(٣) غرر الحكم: ص١٠٢.
(٤) الحياة: ج ٤ ص ٢٨٧ الحكيم.

المقتنيات التي تحتاج إليها حياة الإنسان، ونقص وقلة الإمكانيات التي يتوقف عليها تفتح القابلية الإنسانية وظهور المواهب إلى حيز الوجود.

وإن التعابير الحديثية عن هذا الموضوع تدورُ في الأغلب حول هذا المعنى، كقول الإمام علي عليه السلام: الفقر الموت الأكبر، أو الفقر الموتُ الأحمر، أو القبر خير من الفقر، فالموت نفي الحياة وإبطال القوى الجسمية والروحية، وكذلك المعنى الآخر، القبرُ خيرٌ من الفقر، مع أن القبر يدفن فيه الجسد الإنساني، ولكن الفقر يدفن في حفره جميع ما للإنسان من قوة وقابلية وموهبة.

ومما تجدر الإشارة إليه، أن الفقر من الخصال التفريطية التي تظهر في الطبقات البائسة والفقيرة، وهي في الأغلب صفات تُناسب طبيعة الفقر التفريطي المضر، وواقعه المدمر للشخصية الإنسانية والأسرية والاجتماعية معاً، كذلك الحال بالنسبة إلى حالات النقص والجهل والأمية، وانهيار الجسم والقوى الروحية والإحساس بشيء من الحقارة، وفقدان التربية والتعليم، والعجز الاجتماعي والانحلال العقيدي، والأخلاقي، والسلبيات التي تنبع من عدم الوعي السياسي والاقتصادي، كل ذلك صفاتٌ سيئة وحالات ساحقة يُسببها الفقر، وينميها في المحرومين والبؤساء، وهذا أمر ضار ساحق يحرم المجتمع من كثير من أفراده وقابلياتهم وكفاءاتهم.

والفقر هو مانعٌ رئيسي عن التكيف والتآلف الاجتماعي، وهو الذي يردع الغني والشريف عن الاقتراب من الفقير، ويمنع الفقير عن المعايشة الاجتماعية والحضور الواضح في المجتمع، فالطبقات الموسرة والأرستقراطية لا تواصل المحرومين ولا تخالطهم، ولا تُفسح لهم أي مجال اجتماعي أو سياسي أو حزبي بالطبع، فهم يعيشون في المجتمع

ولا يعيشون، إذ العيون تقتحمهم والرجال تحقرهم، وبالتالي كما أشار إلى هذه الحقيقة الإمام علي عليه السلام بقوله: الفقرُ يخرس الفطن عن حجته، فمن الطبيعي أن يكون الفقير عاجزاً عن الإدلاء بالحجة والتدليل على الحق، والمحاماة عن النفس والعائلة، بل الفقر يحول بين الفقير وبين الاطلاع على ما هناك من القوانين والحقوق الفردية والعائلية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية، حتى يتمسك بها لإحقاق حقه وإقامة حياته.

ومن هنا يتضح أن الفقر معين على البطالة، والبطالة استضعاف اقتصادي، يخلق الأرضية المناسبة لتكاثر فيروسات الانحراف في الإنسان، وبالتالي يفسد المجتمع بفساده، وهو السبب الأصلي للإحساس بمركب الحقارة وانهيار الشخصية الإنسانية[١].

وينعكس ذلك على تصرفات الآباء والأمهات إزاء الأولاد العاطلين عن العمل، وهو أثر من شأنه أن يحدد المعالم التي يمتاز بها سلوك الحدث، ويتوقف عليه مدى إمكانيته على الحدث اجتياز هذه المرحلة الشاقة والصمود أمامها، وقوة مقاومته للآثار الناجمة عن فشله في العثور على عمل، فتجعله البطالة متهوراً ومذبذباً لا يعي ما يعمله أو يتصرفه في حياته، مما يجعله جانحاً نحو الجريمة والإفساد في الأرض.

ومن الأمور التي تؤثر أثراً سلبياً على حياة العاطل عن العمل والمصاب بعامل البطالة، ثرثرة الأم بقولها: بأننا لا زلنا نطعمه وهو في هذه السن، وغيره من الأولاد تمكن من أن يجد له عملاً، وغيره من الأولاد تمكنوا من النجاح في حياتهم العلمية والعملية، وغير ذلك..

(١) للمزيد راجع كتاب الحياة: ج ٤ ص٣٠٨.

بينما يقوم الأب في كل ساعة بتهديده وتوعده بالطرد، إذا لم يجد له عملاً يسد به رمقه، ويرفع عنه أعباء المصاريف المتزايدة، وتحت تأثير الفزع من أن ينفذ الوالد وعيده، يهرول الفتى إلى الحصول على المال من أي طريق، حتى لو كان ذلك من طريق النصب والسرقة أو ارتكاب الجرائم المختلفة، حتى يوهم الأسرة بأنه من ذوي الأعمال، وتمكن من النجاح كغيره من الناس!!.

وتبين الدراسات العلمية الاجتماعية التي قام بها جملة من الباحثين في هذا الصدد أنه: لا تختلف حالة الفتاة كثيراً عن مثل حالة هذا الفتى، ولكن حالتها في الواقع تكون أكثر تعقيداً، سيما وتقاليد الأسرة تطالبها بالسعي للرزق، للمعاونة في نفقات المنزل وإعانة صغار الأسرة، فهي تتستر وراء الظلام للحصول على كسبها غير المشروع، وهي حينما تعييها الحيل والوسائل للحصول على كسبها المشروع تنحدر رويداً رويداً إلى طريق الرذيلة، وهي دائماً تجد لنفسها عذراً بأنها تسعى لإطعام أمها أو إخوتها في حال غياب العائل، وهي تبدأ بسلوك هذا الطريق في خوف وحذر، وقد تبدأ في ارتياده وقد رسمت لنفسها حدوداً تعتزم ألا تتجاوزها، ولكنها سرعان ما يجرفها التيار فتستمر في طريق الهوى، حينما تجد فيه كسباً سهلاً يعوضها عن متاعب البحث عن عمل.. ولذلك تسلك أغلب الفتيات في العالم طريق الدعارة المختلفة، وبيع الهوى بشتى الأوصاف والأصناف بهذه الذريعة تارة، وتارة لأسباب تدهور الوضع الاقتصادي، لأن هذا الطريق طريق الكسب المريح والسريع، ويشجعها على ذلك أيضاً الاستعداد الفطري الغريزي، وعوامل البيئة، والمخالطة والتقاليد والمحاكاة، والفشل في الحياة الزوجية والأسرية، وانعدام السلطة العائلية والقصور في الرقابة، تتحد كلها مع العامل الاقتصادي الناجم عن البطالة في خلق الفتاة الداعرة.

كما تشير الدراسات العلمية إلى أن من عوامل الانحرافات، عدم تناسب العمل أو الوظيفة مع الإنسان، كأن لا تكون الوظيفة متفقة مع ميوله ورغباته، أو لا تكون متناسبة مع قدراته الجسمية أو الذهنية أو مستواه العقلي والثقافي، أو تكون الوظيفة عامل تحول بالنسبة للطالب الذي لم يؤهل نفسه وجسمه لتأدية هذه الأدوار العملية الميدانية.

يذهب الباحث (هيلي) إلى أن عدم الرضى عن العمل، وعدم تناسبه مع الشخص عقلاً وثقافة وعلماً و.. و.. من العوامل الهامة في انحرافات سلوك الحدث العامل، ولاحظ هذا الباحث ارتفاع درجة (الحساسية) لدى الفتيان الذين يمتهنون أعمالاً أو حرفاً مثيرة أو شاقة، وأن هذه الحساسية تقودهم إلى حدة المزاج وسرعة الاصطدام والفشل في معاملة الآخرين، وبالتالي تقودهم إلى الانحراف..

وقد لاحظ الباحث (بيرت) أن عدداً من الأحداث الذين عرضوا عليه في المعهد القومي لعلم النفس المهني ليسوا في الواقع منحرفين، وإنما هم في حاجة إلى توجيه مهني سليم، وأن عدم إحساس العامل الحدث بالرضى والسعادة في الحرفة أو المهنة التي يشغلها، كثيراً ما تقوده بطريق مباشر إلى نوع معين من الجرائم، أظهرها السرقة والإفراط في الشراب والسلوك الجنسي الشاذ[١].

وقد أظهرت الإحصاءات الرسمية في العالم خطر تزايد البطالة، مما يعني تزايد نسب الجرائم المختلفة في العالم البشري.

ـ ففي ألمانيا الغربية شملت البطالة عام ١٩٨٧م نسبة ٣.٣٪ من مجموع اليد العاملة، وإذ بها ترتفع عام ١٩٨٨م إلى ٨،٤٪ فهناك مليون ونصف المليون عاطل عن العمل.

---

(١) الانحرافات والاحداث: ص١٩٧.

- وفي الدانمارك، ارتفعت من نسبة ١،٥٥٪ عام ١٩٨٧ إلى نسبة ٥،٧٧٪ عام ١٩٨٨م.

- وفي فرنسا، ارتفعت من نسبة ٠،٩٩،٥٥٪ في المائة عام ١٩٨٧م إلى نسبة ٤،٧٪ عام ١٩٨٨م.

- وفي هولندا، ارتفعت من نسبة ٨،٥٥٪ عام ١٩٨٧م إلى نسبة ٦،٧٧٪ عام ١٩٨٨م.

- وفي إيطاليا، ارتفعت من نسبة ٧.٧٪ عام ١٩٨٧م، إلى نسبة ٨٪ عام ١٩٨٨م.

- وفي بريطانيا، ارتفعت من نسبة ٧.٣٪ عام ١٩٨٧م إلى نسبة ١١٪ عام ١٩٨٨م.

- وفي بلجيكا، ارتفعت من نسبة ٨،٩٪ عام ١٩٨٧م إلى نسبة ١٢.٢× عام ١٩٨٨م.

- وفي اليابان، في عام ١٩٨٧/ ١٩٨٨م استمرت البطالة بنسبة ٢٪.

- وفي أمريكا، ارتفعت من نسبة ٤،٧٪ إلى ٨٪ وما زالت الأزمة مستمرة، والعاطلون يتكاثرون[١].

(١) للمزيد من المعرفة عن هذه الأرقام مراجعة كتاب (البطالة) د. زيد الرماني: ص١٩١ المجروم.

الفصل السادس

العمالة الوافدة من أفدح المشكلات الاجتماعية

العمالة الوافدة من أفدح المشكلات الاجتماعية

العمالة الوافدة:

قال تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾[١].

قضت حكمة الله سبحانه وتعالى في خلقه أن يسخر بعضنا بعضاً لتبادل المنافع وقضاء الحاجات، لأن الناس يتفاوتون بين قوي الجسم صحيح البدن، يستطيع القيام بكل متطلبات حياته بنفسه، وبين ضعيف ومريض معاق، ومن أدركته الشيخوخة يحتاج لمن يعينه على قضاء حاجياته ومستلزماته الضرورية اليومية.

كذلك جعل الله الناس متفاوتين في الرزق والدخل المادي، فهناك الغني والفقير، وهناك الطبقات الاجتماعية والمستويات الاقتصادية المتباينة، فنشأت حاجيات الناس المتبادلة بين الأغنياء والفقراء بحكم أن الإنسان مدني وتعاوني بطبعه.

جاء عن علي عليه السلام في تفسير الآية الشريفة في معنى قوله (سخرياً) ـ بضم السين ـ: إن الآية قصدت الإجارة، والإجارة أحد

---

(١) سورة الزخرف، الآية: ٣٢.

معايش الخلق، وجعل ذلك قواماً لعيشهم، وهي الرجل يستأجر في صنعة أعماله وتصرفاته وأملاكه، ولو كان الرجل منا يضطر إلى أن يكون بناء لنفسه، أو نجاراً أو صانعاً في شيء من جميع أنواع الصنائع لنفسه ويتولى جميع ما يحتاج إليه من إصلاح الثياب، وما يحتاج إليه من الملك فمن دونه، ما استقامت أحوال العالم تلك، ولا اتسعوا له، ولعجزوا عنه، ولكنه أنفذ تدبيره بمخالفته بين هممهم، حتى يقوم بعضهم البعض في حوائج بعضهم، ويستغني بعضهم ببعض في أمور المعاش التي بها إصلاح أحوالهم[١].

إذن: إن وجود العمالة في أي مجتمع كان، هي ظاهرة طبيعية في الوسط الاجتماعي لأي مجتمع كان، بالخصوص إذا كانت هناك بعض الدول غنية والبعض الآخر فقيرة، مما يجعل الفقير محتاجاً لعطف الدول الغنية، أو برحل إليها لكي يجد فيها فرصة متاحة للعمل بإحدى قطاعاتها الحكومية أو الأهلية، فأصبحت اليد العاملة فى الدول الفقيرة تبحث عن فرص عمل فى الدول التي تمتلك ثراءً كبيراً، مما جعل الشعوب الفقيرة من الدول الآسيوية والهندية وبعض الدول العربية تبحث عن فرص عمل في الدول الغنية؛ والمشكلة التي عانت منها الدول الغنية بعد فتح الأبواب أمام الوافدين إليها، أنها اصطدمت بطبائع، وعادات، وتقاليد، ومعتقدات، وسلوكيات تختلف تماماً عن تقاليدها وعاداتها ومعتقداتها أيضاً، مما سبب فداحة المشكلة الاجتماعية، وبعث على تواجد عدد كبير من الجرائم الأخلاقية، والاقتصادية، والاجتماعية، والتربوية.

---

(١) الوسائل: ج ١٩ ص١٠٢.

وقد أثبتت الدراسات التي أجراها بعض الباحثين الاجتماعيين في المملكة عن خطر تزايد عدد العمالة الأجنبية فيها، أن لهم آثاراً اجتماعية سلبية، حيث كشفت إحدى الدراسات، الميدانية في مدينة الرياض عن العمالة غيرالسعودية وآثارها الاجتماعية أن (٨٥٪) من المواطنين أدركوا وشعروا بأن للعمالة الأجنبية تأثيراً سلبياً وخطيراً على المجتمع، وذكر (٧١٪) من عينة الدراسة أن الخطر أمني، بينما يعتقد (٢٣٪) منهم أن الخطر ديني، وتبين من إحصاء قامت به بعض الجهات الأمنية في المملكة أن (٨٢.١٪) من المواطنين يرون أن وجود العمالة الأجنبية في المملكة يساهم في نشر الجريمة والسلوكيات الإجرامية، وأكدت بعض الدراسات أن معدل الجريمة في المملكة بدأ يزداد من عام (١٩٧٧م) بسبب فتح فرص استقدام الأيدي العاملة الأجنبية بشكل كبير، وحصرت الدراسة الخطر من العمالة الأجنبية الوافدة للبلاد في عدة أمور أهمها:

١ ـ الخطر السياسي، إذ أن تزايد هذا العدد الهائل من العمالة يتطلب من بلدانهم أن تطالب ببعض الحقوق المدنية.

٢ ـ الخطر الثقافي، وهو يتمثل في الأنماط السلوكية والفكرية التي ينشرها فكر الوافدين للبلاد، عبر الطقوس والعادات والأفكار الأخرى.

٣ ـ الخطر الاجتماعي، ويتمثل بإيجاد الأعمال التي يكون فيها الأجر قليلاً مما يسبب كساداً للعمالة المحلية، بالإضافة إلى الجرائم المبطنة التي يرتكبها هؤلاء.

٤ ـ الخطر الاقتصادي، ويتمثل في أن العمالة الأجنبية أصبحت عبئاً ثقيلاً على المجتمع، ويمكن الاستغناء عنها، وأقرب مثال حرب الخليج فقد تمكنت أعداد كبيرة من المغادرة إلى أوطانهم، مما ساعد

الشباب السعودي على تطوير مهاراته وتفجير طاقاته، وانخراطه في الحرف والمهن التي خلفتها اليد العاملة في البلاد[١].

الخادمات نموذج سيئ:

الخدم ظاهرة اجتماعية موغلة في القدم في المجتمعات البشرية، إذ ليس من المعقول أن يقوم ذوو المكانة والسلطة والثراء بخدمة أنفسهم في تدبير الأمور الحياتية، من مأكل، وملبس، ونظافة البيت، وحراسة الأماكن والأنفس والممتلكات، وغيرها من الأعمال التي تتطلبها تلك الشخصية الوجاهتية الاجتماعية أو الدينية أو السياسية، كما أن هناك عوائل في المجتمع لا تستغني عن هذه الظاهرة، فهي بالنسبة إليهم حلت أزمات أسرية، كأن يكون هناك كبار في السن لا يمتلك ذووهم وقتاً كافياً لرعايتهم، أو أماً تخرج للعمل وهي المعيل الوحيد لأسرتها، أو تعداد أفراد الأسرة بكثرة والأم مُقعدة في الفراش، وغيرها من الحاجيات التي تعد ضرورة حتمية شئنا أم أبينا.

الزهراء (عليها السلام) تطلب خادمة:

روي أن الزهراء عليها السلام بنت رسول الله صلى الله عليه وآله كانت تطحن بنفسها بالجاروشة، حتى دميت أناملها، فشكت ذلك إلى علي عليه السلام فقال لها: قولي لأبيك يبتاع لك خادمة تعينك على أشغالك، فأتت رسول الله فقالت: يارسول الله صلى الله عليه وآله: إني مفتقرة إلى خادمة تعينني في أشغالي، وتحمل بعض أثقالي.

فقال لها: ألا أعلمك ما هو خير لك من ذلك، ومن كل خادم وخادمة، وأعز من السموات السبع والأرضين السبع.

---

(١) الظاهرة الإجرامية، مصدر سابق: ص١٨٢.

فقالت: بلى يا رسول الله، قال ﷺ: تقولين عقيب كل فريضة أربعاً وثلاثين تكبيرة، وثلاثاً وثلاثين تحميدة، وثلاثاً وثلاثين تسبيحة[١].

وكان للنبي ﷺ خدم يخدمونه تشرفاً وتطوعاً في تدبير شؤونه العامة صغاراً وكباراً، وكان الصحابة والعلماء أيضاً يمتلكون خادمات، وليس ذلك من الأمور المحرمة أصلاً.

ومن ناحية اقتصادية، ليس من المعقول أن نحاول القضاء على هذه الظاهرة مادام هناك فقير محتاجاً للمال، وليس أمامه من فرص العمل إلا ما يقدمه إليه الغني، وهذا ما تحتاجه الدول الغنية لجلب كثير من الخدم إلى بلادها من أجل المرافق العامة، مثل المنشآت والحدائق، والمستشفيات، والفنادق، ودور الإيواء، والمصالح العامة التي تختص بالحكومة وغيرها.

وهذه الظاهرة ـ ظاهرة الخدم ـ ظاهرة عامة يترتب عليها مشكلات ذات طبيعة نسبية، تتعلق بظروف كل مجتمع من المجتمعات التي تتواجد فيها، وتحتمها ظروف اقتصادية أو دينية أو تربوية بحكم تواجدهم في داخل الأسرة، مجتمعنا المعاصر احتاج إلى الخادمة بعد أن توسعت أروقة المنازل، وتطورت تطوراً ملحوظاً على صعيد الاقتصاديات وتدبير الشؤون المنزلية، وتباهي المرأة في مجتمعنا بوجود خادمة في منزلها!

والواقع الذي ينبغي أن نكون فيه صرحاء مع أنفسنا جميعاً، أن ظاهرة الخدم في مجتمعنا المعاصر، الذي يتأطر بنظم ومبادئ وقيم وسلوكيات خاصة، تختلف عن سائر المجتمعات التي تكون متحررة

---

(١) نزهة الجليس: ج ١ ص ٥٧٤

نوعاً ما، أفرزت مشكلات اجتماعية وأسرية وأخلاقية كثيرة، ولا يكاد في هذا الوقت بيت يخلو من عاملة منزلية، بل إن هناك أكثر من خادمة في عدد غير قليل من الأسر، وأصبحت الخادمة شيئاً لا بد منه، واتسع نطاق ظاهرة الخدم، فلم يعد مقصوراً على العائلات الغنية وحدها، بل تعدى ذلك إلى العائلات المتوسطة والعادية، وامتدت الظاهرة لتشمل المدن الكبيرة والصغيرة، بل وكثيراً من القرى على السواء.

لقد أجريت العديد من الدراسات والاستبيانات حول هذه الظاهرة الخطيرة، لمعرفة حجم انتشار ظاهرة الخدم في المجتمع المعاصر، وقد أجرى أحد الباحثين استبياناً في بعض مدارس مدينة الرياض، وأجريت الدراسة على ستمائة وخمسين أسرة، وتوصلت الدراسة إلى النتائج التالية:

عدد الأسر التي يوجد لها خادمة من بين الأسر التي شملتها الاستبيانة ٤٨٥ أسرة، بنسبة ٧٧٪ تقريباً.

وكشفت الدراسة عن أن ٧٪ من الخادمات مسيحيات، و٥٪ بوذيات.

عدد الأسر التي يوجد لديها سائق خصوصي ١٨٥ أسرة، بنسبة ٢٩٪ تقريباً.

وبالنسبة للسائقين تبين أن ١٧٪ منهم نصارى، و٤٪ بوذيون، وأن عدد النساء السعوديات اللاتي يركبن مع السائقين ٩٠٪ أسرة تقريباً.

إن حوادث الجرائم المختلفة التي ترتكبها الخادمات في الأسرة السعودية تقدر بـ٩٥٪ بالمئة ٥٪ خرجوا من دون جريمة[1].

---

(١) حكايتي مع شغالتي: ص٢٥ بثينه العراقي.

ظاهرة الخدم بين السلب والإيجاب:

الظاهرة الاجتماعية في الفكر الإسلامي تعتمد على ركائز متعددة، ومن أهم تلك الركائز ركيزة الأخلاق، فالحرية في الإسلام هي الحرية التي تعطي الإنسان قدرة عظيمة على معالجة غرائزه الحيوانية، والارتفاع بكيانه الذاتي إلى أعلى مستويات العفة والسمو، ومتى فقدت الظاهرة الاجتماعية هذه المعايير الأخلاقية أصبحت مساوئها أكثر من حسناتها، وظاهرة الخدم ترتبط ارتباطاً مباشراً بحياة الإنسان الاجتماعية الأسرية، ففيها السلب والإيجاب، والدراسات الاجتماعية التي قامت بها البحوث العلمية من مدارس الجريمة والإجرام، أثبتت سلبيات تواجد الخدم في نطاقنا الاجتماعي والأسري، ونحن نقر بأن هناك إيجابيات متعلقة بها، وإلا فما مبرر وجودها في وسطنا الاجتماعي؟

ولقد أكدت الدراسات أن هناك بعض الإيجابيات منها:

١ ـ التخفيف من أعباء ومعاناة أرباب الأسر ومساعدتهم على التفرغ للأعمال المهمة، ورعاية الأبناء في غياب الأم العاملة أو الطالبة، وقضاء لوازم الأسرة من الأسواق، ورعاية كبار السن والمرضى وذوي العاهات وتقديم خدمات نوعية وخاصة لهم.

٢ ـ تأثر الخدم من غير المسلمين في كثير من الأحيان بقيم وأخلاق الدين الإسلامي، وعادات المجتمع أو الأسرة التي تعيش فيه الخادمة أو الخادم.

٣ ـ نقل بعض الخدمات الخبروية في مجالات التصنيع، والتمريض وغيرهما.

٤ ـ القيام ببعض الخدمات التي لا يرضى المواطنون القيام بها مثل الحراسة، والتنظيف، والزراعة، والغسيل، والصرف الصحي، وبعض محطات البنزين، والمحلات التجارية والورش المهنية.

هذه بعض الإيجابيات التي أثبتتها بعض الاستبيانات في المملكة.

أما السلبيات فهي كثيرة جداً، منها:

١ ـ تأثير الخدم تأثيراً سيئاً وضاراً على لغة وعادات وسلوك الأبناء الصغار، الذين هم في سن التقليد والتعليم، فقد وجد أطفال يقلدون الخادمات في طريقة الحديث، والمعاملة، والطقوس العبادية أيضاً.

٢ ـ التستر على الأخطاء والسلوكيات المعيبة للأطفال، مما يحولها لعادات سلوكية راسخة ما لم ينتبه لها الآباء والأمهات.

٣ ـ وجود الخادمة يجعل الزوجة اتكالية كسولة، ويؤدي إلى تخليها عن واجباتها الأصلية، ونسيانها لمهامها.

٤ ـ إن الاعتماد على الخادمة جعل البنات ينشأن بدون خبرة في أعمال البيت، وبالتالي يفقدن القدرة على الاستقلال بشؤون المنزل مهما كان صغيراً في الحياة الزوجية المستقبلية.

٥ ـ تقييد حرية الرجال، الذين يخافون ربهم، داخل البيت، وكذلك الدعاة الذين يحاولون إصلاح ما فسد من الأمور الحياتية.

٦ ـ قيام العلاقات الغير شرعية بين الخدم وأفراد الأسرة، وبين رب الأسرة والخادمة.

٧ ـ نقل العدوى بكثرة، بسبب الأمراض السارية نتيجة المخالطة والاستعمالات المشتركة لبعض المرافق والأدوات بالإضافة للعلاقات غير المشروعة.

٨ ـ ظهور جرائم السرقة والاغتصابات والقتل، كما أفادت كثير من الإحصاءات في تسبب بعض الخدم بقتل مخدومها أو بعض أفراد الأسرة.

٩ ـ إفشاء أسرار البيوت، وانتهاك حرماتها عندما تتبادل الأسر الزيارات العائلية، ويضطلع الخدم بهذا الدور عند اختلاطهم ببعض.

١٠ ـ معاناة الكفيل عندما يهرب الخدم أو يسيئون إلى النظام الاجتماعي أو الأمني للبلاد، أو نشر الخلاعة أو تهريب المخدرات أو الخمر[١].

فداحة المشكلة أين؟

تكمن فداحة مشكلة الخادمات في المجتمع عند نقطة التربية التي يتلقاها الإنسان في إطار العائلة وخارجها، والإنسان ـ عزيزي القارئ ـ حصيلة مجموعة من عوامل وراثية وبيئوية، والفترة الحساسة من عمره تكمن في الحقبة الأولى من تربيته، وهي التي تمتد من الطفولة إلى المراهقة، وهنا تكمن خطورة وجود الخادمة أو الخادم في الأسرة المسلمة، التي تؤطر لضوابط شرعية وقوانين وأعراف اجتماعية، وبطبيعة الحال ينعكس وجودهم بين الأسرة سلباً لا إيجاباً في أغلب الأحيان.

تقول إحداهن: من المؤكد أن الخادمة تأتي إلينا محملة بمبادئ وقيم بعيدة تماماً عن مبادئنا، وقيمنا المستمدة من ديننا الحنيف، لذلك تحاول أن تطبق هذه المبادئ على أطفالنا ظناً منها بأنها على صواب، ولأن المرأة العاملة، أحياناً ربة البيت، تقضي معظم وقتها خارج البيت، يصبح الوقت ملكاً للخادمة، فتزرع وجدان الطفل بما تحمله هي، ولذلك فقد أزف الوقت لأن نعيد النظر في استقدام الخادمات، فقد انتشر في مجتمعنا ـ وللأسف الشديد ـ الاعتماد عليهم في كل صغيرة وكبيرة، وهو أمر أصبح يهدد استقرار الأسرة وتربية النشء[٢].

---

(١) الخدم ضرورة أم ترف، مصدر سابق: ص ٣٨.

(٢) جريدة الرياض: عدد ٩١٦٣ بتاريخ ٧/ ٢/ ١٤١٤هـ.

وتصرح الدكتورة فريدة آل مشرف أستاذة التربية الإسلامية بجامعة الملك سعود بهذه الحقيقة بقولها: نعم وأقولها بكل صراحة: الخادمة تشارك في تربية الأبناء، فهي تقضي وقتاً طويلاً معهم وتلبي طلباتهم، بل وأراها تحنو عليهم، وتحتضنهم وتقبلهم أحياناً، وتصحبهم معها للنزهة، وتلعب معهم، وتقضي معظم النهار معهم، في حال تكون الأم في عملها، فماذا بقي للأم والأب بعد عودتهما من العمل وهما في غاية التعب والإنهاك؟ هل سيكون لديهما مزاج لتحمل بكاء وصراخ الأطفال ورعايتهم؟

لقد أوضحت البحوث التي أجريت في منطقة الخليج العربي، أن للخادمة تأثيراً سلبياً على الطفل والأسرة في المجالات التالية:

١ ـ القيم الدينية والثقافية.

٢ ـ النمو اللغوي والاجتماعي.

٣ ـ الأنماط السلوكية.

٤ ـ الروابط والعلاقات الزوجية والأسرية.

والحقيقة أنه لا يكفي أن نتحدث عن دور الخادمة السلبي، فنحن الذين صنعنا هذا الدور؛ ويلزم البحث عن بعض الاقتراحات التي ستساعد على تقليل أثر الخادمة على الأطفال والأسرة في الخليج العربي[١].

ويدلي الدكتور سامي الرافع أستاذ الخدمة الاجتماعية برأيه في قضية الخادمات وتأثيرهن في الأسرة والمجتمع، فيقول: إن وجود

---

(١) جريدة الرياض: عدد ٩١٦٣ بتاريخ ٧/ ٢/ ١٤١٤هـ.

الخادمة في المنزل بحد ذاته له أثر سلبي كبير، وحل هذه المشكلة يعتمد على القائمين على شؤون التربية الأسرية، فكلما تنازلت الأسرة متمثلة في الوالدين عن بعض أدوارها الاجتماعية والتربوية، تفاقمت المشكلة أكثر[١].

مشكلات الخدم قصص واقعية:

١ ـ إحدى الخادمات تأتي من بلادها وهي محملة باعتقاد غريب يقول: ضعي البول أو البراز في الماء الذي تقدمينه للأسرة التي تعملين معها، أو في ثلاجتهم الباردة، بعدها تصبحين الحبيبة المقربة لكل أفراد الأسرة، خصوصاً (قائدها)، وقد نشرت جريدة البلاد في عددها ١٠٧٠٠ بتاريخ ٨/ ٥/ ١٤١٤هـ هذا الخبر تحت عنوان (من غرائب الخادمات)، ونشرت إلى جوار الخبر صورة خطية لاعتراف الخادمة بهذه الواقعة الخطيرة[٢].

٢ ـ ونشرت جريدة المدينة في عددها ١١٣٠٨ بتاريخ ٥/ ١٠/ ١٤١٤هـ خبراً تحت عنوان «آخر ابتكارات الشغالات: تعذيب الأطفال بالمكنسة الكهربائية»! وعندما كان طارق يبكي أو يطلب شيئاً من الشغالة، كانت تحاول الخلاص من طلباته وصراخه بأي شكل حتى تستريح، فكانت تلجأ إلى وضع شفاطة المكنسة الكهربائية في أماكن حساسة من جسده، وتشغل دورة الشفط إلى أن ينهار الطفل تماماً من شدة الألم. وأثبت الفحص الطبي أن الطفل مصاب بتهتك في عروق الخصيتين، نتج من عملية الشفط.

---

(١) جريدة الرياض: عدد ٩١٦٣ بتاريخ ٧/ ٢/ ١٤١٤هـ.

(٢) جريدة البلاد في عددها ١٠٧٠٠ بتاريخ ٨/ ٥/ ١٤١٤هـ.

٣ ـ مشكلتي رهيبة. . تقع فيها، للأسف الشديد، كل امرأة تترك مسؤولية بيتها وأطفالها للخادمة. . وتفضل العمل على مسؤوليتها الأولى في الأسرة. فأنا أم لطفلين من الذكور والحمد لله، بعد رحيل الخادمة عرفت من ابني الأكبر، أنها كانت تضع الكاتشاب الأحمر على السكين وتقول لطفلي إنها قتلت أباها وأمها، وأن هذا هو دمهما، وأنهما إذا لم يسمعا الكلام وينفذا أوامرها حتماً ستفعل بهما ما فعلته بوالديها. . . وخوفاً منها كان ابني الأكبر، خمس سنوات ونصف، يكتم كل هذا. وهناك أشياء خطيرة أيضاً، لا يفهمها طفلي، كانت ترتكبها. وأنا أعترف بخطئي، فرغم أن خادمتى كانت وديعة وكانت مثالاً يحتذى به في كل شيء، إلا أن اكتشافي ما فعلته بابني، فهو الآن يخاف كل شيء ويرفض الأكل، ومضطرب في النوم ويتبول لا إرادياً. كل ذلك يشعرني بالندم، ويجعلني لا أفكر مطلقاً في استقدام أي خادمة للمنزل.

٤ ـ أن تهرب خادمة من كفيلها، أو أن تسرق أو تتمارض عن العمل، فهذه أمور قد تحدث. أما أن تقدم على تسميم عائلة بكاملها، فهذا ما يصعب «ابتلاعه» مهما كانت الأسباب والدوافع. فقد قامت خادمة إندونيسية بوضع دماء دورتها الشهرية في الأطعمة والمشروبات التي تقدمها لأفراد العائلة، إضافة لقيامها مراراً وتكراراً بالتبول في الطعام. وقد ألقت الشرطة القبض على الخادمة إثر بلاغ من كفيلها، بعد أن تمكن أحد أفراد العائلة من ضبطها متلبسة بالجرم المشهود، عقب مراقبة دقيقة. وبمواجهتها سجلت اعترافاً بجريمتها، بدعوى سوء المعاملة التي تتعرض لها. كما سجل اعترافها شرعاً بالمحاكمة المستعجلة بقيامها بوضع كمية من دماء الحيض في الوجبات والمرطبات التي تقدمها لأفراد العائلة.

وعن الأسباب التي دفعتها لهذا التصرف المقزز، أجابت بأنها تريد أفراد العائلة أن يراجعوا المستشفيات، وينشغلوا عنها بمرضهم حتى ترتاح من سوء معاملتهم، مؤكدة أن إحدى زميلاتها من الخادمات، تتصرف مع عائلة كفيلها بهذا الأسلوب الكيدي.

وكانت عائلة كفيلها قد تعرضت لآلام وطفح جلدي مراراً وتكراراً، مما جعل أفراد العائلة يترددون على المستشفى لإجراء تحاليل وفحوصات. وقد تبين من خلالها أنهم يتناولون أطعمة مسمومة. وفي قسم الشرطة اعترفت بجريمتها، وعزت تصرفها لعدم منحها إجازة أسبوعية، وعدم السماح لها بالخروج مع أحد أبناء جلدتها، ممن لا يمتون لها بصلة. وعقب التصديق على اعترافاتها، تم إيداعها السجن انتظاراً للحكم الشرعي الذي يتوقع أن تتراوح عقوبته بين شهر إلى ستة أشهر مع الجلد كعقوبة تعزيرية.

٥ ـ وتقول أ. ن. موظفة في عيادة للأطفال: خادمتي وضعت مادة الكلوروكس في رضاعة ابني البالغ من العمر عاماً لأنني ضربتها.

٦ ـ ويقول أحمد ناصر: في الصباح أذهب وزوجتي للعمل، ونترك طفلنا البالغ من العمر عامين مع الخادمة. وفي أحد الأيام خرجت من عملي في مهمة، وعند مسجد قريب من الحي الذي أسكن فيه قررت أداء الصلاة في المسجد، وبعد انتهاء الصلاة في المسجد خرجت من باب المسجد وكانت المفاجأة، وجدت خادمتي تتسول بابني وهو في حالة يرثى لها، فقد كان الحر شديداً. أخذت الولد منها وذهبت به إلى المستشفى للعلاج.. وعندما علمت زوجتي بذلك رفضت الذهاب إلى عملها، وتفرغت لتربية طفلنا، وذهبت الخادمة بغير رجعة.

٧ ـ وتؤكد (ح. ع) موظفة، أن الذين يسيئون معاملة الخادمات يولِّدن لديهن الحقد فينتقمن بأبشع أنواع الانتقام، مثل إحراق البيوت أو قتل الأطفال وغيرها[1].

(١) جريدة المدينة في عددها ١١٣٠٨ بتاريخ ٥/ ١٠/ ١٤١٤ هـ.

الفصل السابع

وسائل الإعلام والانحرافات

وسائل الإعلام والانحرافات

هناك عوامل انحراف خارجة عن خارطة الإنسان الذاتية، وخارجة عن أسرته وبيئته وحالته الاجتماعية أو الاقتصادية، إنما هي عوامل مؤثرة في السلوك والعقل والثقافة، وتنطوي تحت عنوان (العوامل التوجيهية المؤثرة) وهي:

١ ـ وسائل الإعلام المقروءة والمسموعة.

٢ ـ دور السينما والإذاعة والتلفزيون.

٣ ـ الكتب، والصحف، والمجلات.

٤ ـ نقص وسائل التوجيه والترويح.

وهذه العوامل بطبيعة الحال تعد من كبريات العوامل المؤثرة في حياة الإنسان صغيراً كان أو كبيراً، عالماً كان أو جاهلاً، رجلاً كان أو امرأة، وقبل أن ندرسها دراسة مبسطة لا بد من المرور السريع على تاريخ الإعلام ووسائله المقروءة والمسموعة.

ما هو الإعلام؟

لم يتفق المفكرون على تعريف دقيق موحّد لمفهوم الإعلام، إلا أن هناك شبه اتفاق على أساسيات العمل الإعلامي وتأثيراته ومصادره، لذلك تعددت تعاريفه وغاياته، ومن هذه التعاريف ما يلي:

١ ـ يرى البعض أن الإعلام هو تزويد الناس بالأخبار الصحيحة والمعلومات السليمة والحقائق الثابتة، التي تساعدهم على تكوين رأي صائب في واقعة من الوقائع، أو مشكلة من المشكلات، بحيث يعبر هذا الرأي تعبيراً موضوعياً عن عقلية الجماهير واتجاهاتهم وميولهم.

٢ ـ ويرى البعض الآخر، أن الإعلام هو التعبير الموضوعي لعقلية الجماهير ولروحها وميولها واتجاهاتها في نفس الوقت[١].

وكيف كان، فالإعلام ينبغي أن يرتكز على ركائز حقيقية وهادفة في نفس الوقت، فقد أجمع رجال الإعلام الإسلاميون، على أن الأسس التي يبتني عليها الإعلام الصحيح هي:

١ ـ الحقائق التي تدعمها الأرقام والإحصاءات.

٢ ـ التجرد من الذاتية والتحلي بالموضوعية في عرض الحقائق.

٣ ـ الصدق والأمانة في البيانات من مصادرها الأصلية.

٤ ـ التعبير الصادق عن الجمهور الذي يتوجه إليه الإعلام.

بغير هذه الأسس يصبح الإعلام منحرفاً عن خط الصواب، وهذا الانحراف متمثل اليوم في صورة الإعلام الغربي، الموجه نحو إفساد العالم بأسره خصوصاً الشعوب العربية والإسلامية.

وفي هذه الصفحات القليلة سوف نتناول أهم وسائل الإعلام المنحرف، وأهدافه، ومقاصده، وتأثيراته الفردية، والأسرية، والاجتماعية، والصحية، والعلمية، والسياسية، والأمنيّة، والثقافية.

---

(١) الإعلام من منظور اجتماعي: ص ٧ د. محمد فهمي.

الإعلام والانحرافات:

ومن أخطر الأسلحة الفتاكة التي تستخدمها الحملات المعادية للدين، والأخلاق والإنسانية، والمرأة، ولنشر هرطقاتهم وخرافاتهم، وسخافاتهم، وعاداتهم السيئة المخالفة للفطرة والدين والأخلاق، بما تسميه المرأة المسلمة اليوم تقدماً وحضارة، هو الإعلام المضلل.

ومن أمضى الأسلحة الفتاكة التي تستخدمها الجاهلية الحديثة ضد الشعوب المستضعفة عامة، والشعوب الإسلامية بوجه خاص، هو الإعلام المضلل، ويكمن خطر هذا السلاح في أنه خفي وغير ظاهر، ففي الوقت الذي ترى فيه الطائرات والدبابات والأسلحة الفتاكة الأخرى، ذات أبعاد وأحجام معينة وظاهرة، ويمكن تحديها بالصمود والوقوف أمامها والاستشهاد تحت نيرانها إن استوجب الموقف، ترى بأن سلاح الإعلام يستخدم ضد الإنسان من حيث لا يحتسب ومن حيث لا يدري، فهو يسلب منه إرادته وبصيرته ومعرفته بالحياة، وهو ذات السلاح الذي يقدمه علماء السوء للسلاطين مقابل دراهم معدودة.

إن بمقدور الإنسان المستضعف قهر أكبر طاغوت وإذلال أكبر جبار، حينما يقتني سلاح العلم والثقافة التحصينية، ويحتفظ بهما دون أن يسمح لأدعياء الدين وأدعياء العلم وأدعياء الثقافات المسمومة أن يسرقوه منه من حيث لا يعلم، فالعلم سلاح إن توفر بيد المستضعفين المحرومين والبؤساء خاصة وجماهير الشعب عامة، فسوف لن تسرق أموالهم وثرواتهم، ولن يتعدى على حرماتهم وحرياتهم، بينما إذا ما انفرد الطغاة وأذنابهم بهذا السلاح (كما هو عليه الآن مع الأسف) فسوف لن يكفيهم سحق كرامة أفراد الشعب وسلب حرياتهم، بل إنهم سيفسدون في الأرض، ويجدون السعي في نفي أي إنسان من على سطح الأرض، كما هم فاعلون اليوم في أرجاء مختلفة من العالم.

يقول تعالى في كتابه الكريم وهو يصف الطاغوت ويحدد ملامحه ويبين أبعاده:

﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾[١]، والطاغوت هنا ليس طاغوت المال والجاه والقوة، إنما طاغوت الجهل الملبس بالعلم، وطاغوت التجهيل والتضليل والتزوير وزخرفة القول، والدليل على ذلك هو السياق القرآني حيث يقول: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾[٢].

فالمراد هنا من الطاغوت هو ما ينبغي على المؤمن اجتنابه كالطاغوت الأيديولوجي والطاغوت العلمي ـ إن صح التعبير ـ وأن يتفحص في نفسه متسائلاً، ممن يتلقى علومه؟ هل هو في طريق الهدى أم الضلال؟ وبهذا فمن آمن بالله وحده لا شريك له، وآمن بالأنبياء وورثتهم، وآمن بالكتاب.

وقد وضع اليهود خطة للاستيلاء على مقدرات العالم، عن طريق ضرب الإسلام والمسيحية والأديان الأخرى، ووسيلة ذلك هو استخدام المال والنساء والاغتيالات لتنفيذ هذه الغاية، وقد بدأت اليهودية بالغرب ثم بالشرق، فأحكمت قبضتها على وسائل الإعلام، ويتصور اليهود أن وسائل الإعلام من طباعة ونشر وصحافة ومسرح وسينما، ووسائل التربية من مدارس وجامعات ودور علم، والقوانين والمضاربات، يجب أن تبقى ورقة رابحة بيدهم إلى أن يشاء الله.

وإن النظرة التاريخية لصناعة السينما في العالم، تبين أنها نشأت

---

(١) سورة الزمر، الآية: ١٧.

(٢) سورة الزمر، الآية: ١٨.

وترعرعت وراجت على أيدي اليهود وغلاة الصهيونية في العالم، أولئك الذين استطاعوا أن يخضعوا الشباب لمخططاتهم التدميرية، فنشأت حركات فوضوية، وامتلأت أرصفة الطرقات بالشباب البوهيمي الرافض لكل شيء، المرتد إلى الحياة البهيمية، همه الأساس هو التجرد من كل أخلاقيات المجتمع الفاضل، وكان لليهود المرتبطين بالشبكة الصهيونية العالمية، الدور الخطير في عملية التغلغل الهادئ، والسيطرة على المؤسسات والمراكز الإعلامية الحساسة في العديد من الدول الأوروبية والأمريكية، بحيث كانت ترمي هذه الخطة إلى إيصال وجهات نظر القادة الصهاينة إلى الشعب اليهودي.

ونظرة فاحصة إلى أكبر المراكز الإذاعية والتلفزيونية في تلك المناطق، والتي لها الأثر البالغ في الساحة الإعلامية، إضافة إلى الموقع الحساس الذي تسيطر عليه في حركة الأنباء العالمية، يمكن أن تقودنا إلى التعرف على طبيعة النشأة الأولى لهذه المراكز، فعلى الصعيد الأوروبي، كان لليهود الصهاينة يد السبق على أهم وكالات الأنباء الأوروبية وهي:

أ ـ وكالة رويتر:

وقد تأسست هذه الوكالة في عام ١٨٥١م على يد رجل يهودي (بول جوليوس رويتر). وبالرغم من تعرض هذه الوكالة في بداية تأسيسها إلى ضغوطات من قبل كبريات الصحف والمجلات البريطانية، حيث كانت تقاطع هذه الوكالة لفترة طويلة، غير أن رويتر استطاع أن يكسبهم عبر التسهيلات الخدماتية، وأبرز مثال هو تسليمهم الأخبار وإيصالها لهم لمدة ١٥ يوماً مجاناً، ثم استطاع بعدها أن يكبلهم ويربطهم ضمن الخدمات الخبرية للوكالة.

وهكذا تسعى هذه الوكالة لأن تصبح سلاحاً خطيراً يهدد السياسات الحاكمة، حتى قيل عنها إنها أخطر من الأسطول أو الجيش، وبالرغم من ارتباطها الحالي برئاسة الوزراء البريطانية، إلا إن مواقفها تجاه القضايا اليهودية الصهيونية واضحة بجلاء، وهذا ما يتضح من المقالات والتحاليل السياسية للشرق الأوسط، وها هي اليوم تسهم في حركة التدفق الإعلامي من خلال اشتراك أكثر من ٨٥٠٠ صحيفة، والمئات من المحطات الإذاعية والتلفزيونية.

ب ـ وكالة الأنباء الفرنسية:

والتي كانت تحمل اسم (هافاس) نسبة إلى المواطن الفرنسي اليهودي (البرتغالي الأصل) والذي قام بتأسيس مكتب المراسلات عام (١٨٣٢م)، ومن ثم تطورت حتى أصبحت وكالة هافاس في عام (١٨٣٥م) وبعد تحرير فرنسا صدر قرار بتحويلها عام (١٩٤٤م) إلى وكالة الأنباء الفرنسية، وحتى بعد تملك السلطات الفرنسية لهذه الوكالة، فإنها بقيت على مواقفها المؤيدة للمخطط الصهيوني في الشرق الأوسط.

أما بالنسبة إلى محطات تلفزيونية أخرى، فنجد أن صورة التغلغل والسيطرة الصهيونية في داخل محطات الإذاعة والتلفزة الأمريكية تأخذ رقعة واسعه من هذه المحطات، لهذا نرى أن الشبكات الإذاعية والتلفزيونية الكبرى في أمريكا، تقع تحت إشراف بل وإدارة رجال يهود مرتبطين بفلك الصهيونية.

فمحطة (ABC) الأمريكية كان يشرف على إدارتها رجل يدعى (ليونادر جولد نسيون) وهو يهودي، ومحطة (CBC) يتولى إدارتها (ويليام بالي) وهو أيضاً يهودي أمريكي، لا يقل عصبية عن السابق بشأن خدمة المصالح الصهيونية.

وإلى هذا اليوم فإن الفضائيات العالمية والعربية التي تسعى لبث الإفساد في العالم البشري والعربي والإسلامي على حد سواء، ما هي إلا وسائل تخريبية تهدم المروءة وتفسد الأخلاق، وتعين على نشر المفاسد والرذائل والانحرافات[١].

لم يعد خافياً على أحد أن وسائل الإعلام أصبحت الأداة التوجيهية الرئيسية في كافة المجتمعات المتحضرة، ولذلك فإن جميع الأبحاث التي تناولت مشكلة الانحرافات، قد عنيت أشد العناية ببحث الدور الذي تلعبه وسائل الإعلام في دفع الإنسان نحو الانحرافات، أو منع مظاهر السلوك المضاد للمجتمع.

جولة في الإعلام العربي والإسلامي:

لو وقفنا على حقيقة الإعلام العربي والإسلامي لوقفنا على خريطة حية لحاضرنا الإعلامي، متفرعة بكل أبعادها ووسائلها الإعلامية المقروءة، والمسموعة، والمرئية، حيث تزدحم بالأرقام والأسماء والعناوين الكبيرة التي تتوهج بالزهور والوعود والإغراءات.

في الإعلام المقروء تتداول الصحافة العربية المعروفة أكثر من ١٢٥ يومية، سياسية أو جامعية أو متخصصة، باللغات العربية والفرنسية والإنكليزية، يوازيها زهاء ١٢٧ دورية أسبوعية وغير أسبوعية باللغات الثلاثة أيضاً، بالإضافة إلى ما يزيد على ٢٠ وكالة إعلام بين رسمية وخاصة.

وبحسب الإحصاءات التي نشرتها منظمة الإعلام العالمي، عن الإعلام العربي للثقافة والعلوم، فإن نصيب كل ألف عربي ٣٨ نسخة أو

(١) راجع كتابنا أعداء الأمة الإسلامية ودعاتها: ص ٥٤.

صحيفة موزعة على مستويات عالمية عامة قدرت بـ١١٠، ٣٣٤ قارىء في البلدان المتقدمة.

في ميدان المسموع بلغ عدد أجهزة البث العام الإذاعي زهاء ٧٠٠ جهاز في حين يتعدى نصيب كل ١٠٠٠ عربي من اقتناء أجهزة الراديو ٢٥٢ جهازاً في موازاة مستوى عالمي قدره ٣٧٠ لكل ألف شخص، وهذه النسبة متفاوتة حسب مستوى البلد مادياً.

أما في نطاق الإعلام المرئي فقد تخطى عدد محطات الإرسال التلفزيوني العام ٦٢١ محطة حسب الإحصاءات لعام ٢٠٠٠م، في حين ٩٥ جهاز التقاط يملكها ألف مواطن عربي.

واستناداً إلى الإحصاءات التي قامت بها المنظمة العالمية للإعلام، تبين أن نسبة الإعلام العربي كالتالي:

ـ في الكويت ٥ صحف يومية بالعربية، وصحيفتان بالإنكليزية، و١٠ أسبوعيات بالعربية، ووكالة أنباء، ومؤسسة تلفزيونية أرضية عربية وأخرى بالإنكليزية، ما عدا الفضائية، وإذاعة ذات ثلاث برامج بالعربية والإنكليزية والقرآن الكريم، وتضاعفت وسائل الإعلام الفضائية الكويتية حتى وصلت إلى خمس فضائيات.

ـ في العراق: ست يوميات و١٠ دوريات ووكالة أنباء، وتلفزيون في شبكتين وطنيتين، ومحطتا إذاعة وطنيتان، وفضائية واحدة باللغة العربية.

ـ في الأردن: ٥ يوميات ودوريات، و٣ وكالات أنباء، ومؤسسة تلفزيونية ذات شبكتين، وفضائية واحدة باللغة العربية وإذاعة واحدة.

ـ في لبنان: ١١ يومية و١٠ دوريات و٣ وكالات أنباء وست

مؤسسات تلفزيونية، مقابل ٣ ـ ٤ مؤسسات إذاعية كبرى وأخرى على الـ (FM) وست قنوات فضائية بعضها خاصة.

ـ في ليبيا: صحيفتان يوميتان، أسبوعية واحدة ووكالة أنباء واحدة وإذاعة رسمية واحدة، وتلفزيون رسمي واحد، وفضائية واحدة.

ـ في المغرب: ٨ يوميات و٥ دوريات ووكالة أنباء وتلفزيون رسمي وفضائية واحدة، وإذاعتان.

ـ في موريتانيا: يومية واحدة ووكالة أنباء ومؤسسة تلفزيون واحد وفضائية واحدة وإذاعة رسمية واحدة.

ـ في سلطنة عُمان: ٣ يوميات و٦ دوريات ووكالة أنباء وشبكتان تلفزيونيتان وإذاعة واحدة وفضائية واحدة.

ـ في قطر: ٤ يوميات و٥ دوريات ووكالة أنباء وشبكتان تلفزيونيتان وإذاعة ذات برنامجين، و٤ فضائيات إعلامية.

ـ في السودان: ١٧ يومية و١٠ دوريات ووكالة أنباء وتلفزيون واحد وفضائية واحدة وإذاعة واحدة.

ـ في سوريا: ٨ يوميات ووكالة أنباء وتلفزيون واحد على شبكتين وفضائية واحدة وإذاعتان.

ـ في تونس: ٨ يوميات و٩ دوريات ووكالة أنباء وتلفزيون واحد على شبكتي برامج وفضائية واحدة و٤ إذاعات.

ـ وفي الإمارات العربية: ١٢ يومية ووكالة أنباء وشبكتان تلفزيونيتان على ثلاث شبكات (ما عدا الفضائيات الكثيرة) وست محطات إذاعة.

ـ في مصر: ١٧ يومية و٢٢ دورية ووكالة أنباء وتلفزيون على ثلاث شبكات (ما عدا الفضائيات الكثيرة التي تصل إلى (٥٠) فضائية وست محطات إذاعة.

ـ السعودية: ١١ يومية و٥ دوريات ووكالة أنباء وعدة مؤسسات تلفزيونية وإذاعية، وبعض الفضائيات[١].

وفي خريطة الإعلام المرئي، صعد العربي إلى الفضاء من خلال منظومة (انتلسات) و(عربسات) و(نيلسات)، مع أن العالم العربي والإسلامي بعد الخرق الفضائي الذي حدث له، عن طريق خارطة الإعلام الغربي من نافذة الفضائيات الكثيرة والتي تصل إلى (٤٠٠) قناة فضائية غربية، حتى جعل الساحة الإسلامية مستباحة العرض والثقافة، لم يعد يثق العربي بالخطاب الإعلامي المعلب الذي تقدمه له المؤسسات الإعلامية الرسمية، فهو دائماً يشتكي النقص، والتشويه، وطابعه العام مشوه ذاتي ومصلحي وموجه ومحشو بالإنشاء والبلادة، لذلك يستقي الأخبار من الشبكات الإذاعية والتلفزيونية الأكثر موضوعية والأكثر حركية وحيوية، بل وإباحية أيضاً، مما سهل عملية الغزو الثقافي والعلمي والأخلاقي لجيلنا المعاصر، فأصبحت تلك وسائل إفسادية أكثر مما هي وسائل إصلاحية وتوجيهية، وإليك شاهد على ذلك؟

(١) الإعلام العربي، د. جان كرم: ص ١٥.

الصحافة والانحرافات

يرى الباحثون أن نشر الأخبار المتعلقة بالجرائم ليس محلاً للاعتراض في ذاته، وإنما ينصب الاعتراض حول طريقة عرض الجريمة، وما تلجأ إليه الصحافة من تسليط الأضواء على أنبائها، ومن ذلك العرض المثير للجرائم في الصفحات الأولى وبعناوين بارزة، وتوضيحها بالصور والرسوم والخوض في أدق تفصيلاتها، مما يسبغ على النشر صفة الفضائح، وهو أمر خارج بطبيعته عن رسالة الصحافة، ويعيبون على مخبري الصحف أنهم يجعلون رائدهم السبق الصحفي وتشويق القارئ، دون أن يهتموا بالآثار الخطيرة التي تنجم عن ذلك، بالنظر إلى اختلاف نفسيات القراء وقدراتهم الثقافية، ومعاييرهم التربوية وأوضاعهم في المجتمع وحكمهم على الأمور، فبعض القراء يستغرقون في قصة الجريمة ويعيشون في وقائعها، وقد يكون لهم من الغوائل النفسية أو الظروف المماثلة ما يزين لهم المرور بنفس التجربة.

ثمة أمور مهمة تشير لها الدراسات الاجتماعية عن تأثير نشر الأخبار المتعلقة بالجرائم الاجتماعية أو السياسية أو الاخلاقية العامة أو الخاصة، ويكاد يكون أمراً مجمعاً عليه، حتى أن جواز الأمر بعدم النشر حرصاً على المصلحة العامة، أمر مقرر في كافة التشريعات الجنائية المتطورة، وقد يترك تقرير ذلك للمحكمة أو الجهات الخاصة في التحقيق، وقرر التشريع المصري في مادته القانونية ١٩٣ من قانون

العقوبات، معاقبة الجهات التي تقوم بنشر أي تحقيق أو خبر لا يراعي النظام العام أو الآداب أو ظهور الحقيقة، أو نشر أخبار بشأن التحقيقات أو المرافعات في دعاوى الطلاق أو التفريق أو الزنى، ولكن لم يصدر قانون خاص يمنع النشر في قضايا انحرافات الأحداث على وجه الخصوص.

ويلاحظ أنه من المبادىء المستقرة في رعاية الأحداث المنحرفين، منع نشر أسمائهم أو صورهم أو أسرار حياتهم العائلية، ومن المسلم به أن لهذا النشر أثراً مدمراً بالنسبة للأحداث الذين يقتربون من المتهمين الأحداث في السن والظروف الاجتماعية[١].

(١) انحراف الأحداث، مصدر سابق: ص٢١٦.

أثر التلفاز والسينما في الانحرافات

تؤكد أغلب الدراسات التي قام بها عدد كبير من الباحثين، أن نسبة ارتفاع معدلات الجريمة في الجيل الصاعد، تعود إلى العرض المثير لأفلام الرعب والجريمة والاغتصابات والانحرافات، عبر وسائل التلفاز والسينما التي انتشرت انتشاراً مرعباً في الوسط الاجتماعي.

بل هي نظرة الإنسان السطحي المجرد من البحث العلمي، وكثيراً ما يستجيب القاضي إلى هذا الاعتقاد، حينما يرى أن طريقة اندفاع الحدث المجرم في تيار الجريمة تشبه العرض السينمائي لحياة رجل خارج على القانون، وقد يعترف المجرم نفسه، بأنه كان متأثراً بالأفلام السينمائية والشاشات الفضائية في تصميمه للجريمة وإقدامه على تنفيذها، أو أنه تأثر في ذلك بتمثيلية إذاعية قدمت عرضاً لهذا التصميم وبياناً بكيفية التنفيذ، وربما تعزو أغلب الدراسات التي قامت بها لجان الدراسات الاجتماعية للمجرمين في العالم العربي، والتي تبين من خلالها أن نسبة ٨٥٪ من الجرائم تعود نسبة تفاعلها وارتفاعها إلى عامل وسائل الإعلام المرئية، بالخصوص الفضائيات المعاصرة وما تلعبه من تفسخ في الأخلاق وهدم للعادات والتقاليد والأعراف[١].

وأغلب الدراسات العلمية الاجتماعية التي قامت بها المدارس

---

(١) الفضائيات، الشيرازي: ص ٥٤.

المتخصصة، التي تدرس أسباب الجريمة في الوطن العربي والغربي، تؤكد هذه الحقيقة، أن السينما، والتلفاز، والفضائيات، والإنترنت الذي دخل على الخط، والتي تعرض عبر شاشاتها ووسائلها الاتصالية أفلام الجريمة، وقصص الخروج على القانون، وقصص الحب الزائف والرعب، وإشاعة الفحشاء والمنكر، ونشر أسرار الآخرين بغير بينة شرعية و. .و. .إلخ.

تؤثر إلى مدى كبير على الأحداث والبالغين على السواء، ولكن ما نؤكده في هذه الدراسة هو، أن الأفلام السينمائية، والفضائيات التلفزيونية، وصفحات الإنترنت الفاضحة التي تهتم بالجرائم ونشرها، لا تهدف أبداً إلى تزيين الجريمة، أو إلى بث الاعتقاد بأن طريقها سهل ميسور، بل إن هذه الأفلام تنتهي غالبيتها بتصوير المصير التعيس الذي تنتهي إليه حياة المجرمين.

وتفيد بأن أفلام الجريمة والدعارة تعطي الحدث المراهق أو البالغ شعوراً خفياً بأن ثمة طريقة أخرى للحياة خلاف طريقة الكسب المشروع، وأن حياة الجريمة مملوءة بمظاهر الشجاعة والجسارة والذكاء، كما أن هذه الأفلام قد تعطي الأحداث صورة صحيحة عن الطريقة المثلى لحمل السلاح، وكيفية الهروب من رجال القانون والعدالة، كما تعلمهم أن الجريمة قد تؤدي بصورة ما إلى إشباع كثير من الرغبات التي يحلم بها الشباب المراهق، كركوب السيارات والطائرات، والنزول في الفنادق الفخمة ومصادقة النساء، والاستمتاع بكافة الجوانب البراقة في الحياة، والتشجيع على تكوين علاقات غرامية محرمة وغيرها.

وأما الفتيات المراهقات، وبعض النساء فإنهن يجدن في قصص

الحب غير المشروع نوعاً من الإثارة والمتعة، وهن يتخيلن أن الملابس الجميلة تخلق المرأة الجميلة، وأن الفتاة إذا تساهلت في فهم معايير الفضيلة، فإنها تستطيع أن تقضي أسعد الأوقات، وكثيراً ما تضمنت التقارير الاجتماعية عن الفتيات المنحرفات إقراراً منهن بأن السينما، أو شاشات التلفاز (الفضائيات) هي التي زينت لهن طريق الانحرافات المحرمة، وشجعتهن على ممارسة العادات البطالة أو العلاقات الغرامية المحرمة.

ذكرت الباحثة الغربية (السيدة كاميل كيلي Kamille kelly) قاضية محكمة الأحداث في ولاية تنسي، تقريراً أوضحت فيه أنه قد عرضت عليها في خلال فترة توليها قضاء الأحداث ما يتراوح بين ٤٥،٠٠٠ و ٥٠،٠٠٠ حالة من حالات الانحرافات، ولم يثبت لديها أن للسينما أثراً في الانحرافات الاجتماعية والسلوكية العامة إلا في ست حالات منها.

كما تشكلت هيئة أمريكية تسمى (اللجنة القومية لدراسة القيم الاجتماعية في الصور المتحركة)، أجرت هذه اللجنة عدة دراسات تهدف إلى بيان أثر السينما في انحرافات الشباب المراهقين المنحرفين في المؤسسات والإصلاحيات، ودار البحث حول الأمور الثلاثة الآتية:

١ ـ دور السينما في حياة الأحداث المنحرفين من الجنسين.

٢ ـ أثر العرض السينمائي الذي يقدم في المؤسسات الإصلاحية نفسها على نزلاء هذه المؤسسات.

٣ ـ بلغ عدد الأحداث المنحرفين موضوع الدراسة ٣٦٨ ولداً تبين أن ١٠٪ منهم فقط كان للسينما أثر مباشر في انحرافاتهم.

و٤٩٪ منهم اعترفوا بأن السينما والتلفاز علمتهم طرق السرقة.

و ٢٨٪ منهم اعترفوا أن التلفاز والسينما والإنترنت علمتهم طرق الفرار من القانون والتضليل.

و٢١٪ ذكروا أن السينما والتلفاز، والإنترنت شجعتهم على طريق السلوك المنحرف والمغامرة.

و ٢٥٪ من مجوع البنات قررن أن علاقاتهن الجنسية الأولى كانت نتيجة مباشرة للمناظر العاطفية التي شاهدنها في السينما والتلفاز.

و ٤١٪ ذكرن أنهن امتنعن عن الذهاب إلى المدرسة لرغبتهن في تقليد الحياة على الشاشة.

و ٥٥٪ منهن اعترفن أن الشاشة علمتهن كيفية العلاقات الغرامية، وممارسة الجنس المثلي.

و١٥٪ اعترفن أن الشاشة كانت وراء طلاقهن بسبب عدم ممارسة العلاقات الزوجية على طريقة الأفلام[١].

دراسات معمقة تثبت ذلك:

وعندما نقف عند الدراسات العلمية الاجتماعية التي قام بها نخبة من رجالات العلم الاجتماعي في الوطن العربي، يتأكد لدينا أن الشاشة الفضائية كانت وراء الانحرافات الاجتماعية والسلوكية في الشباب والشابات في الوطن العربي، فلا يمكن بأية حال إنكار الأثر الواضح للسينما والتلفاز، والإنترنت في تصوير المعاني السامية وإبراز الصفات النبيلة، وفي تفتح القلوب على العلاقات الإنسانية الفاضلة، كالحب والخير والشجاعة والنبل، وإذا كان قد ثبت من التحقيقات أن صبياً أو مجموعة من الصبية قد غادروا السينما أو الفضائيات ليقلدوا ما شاهدوه في الحياة الواقعية، فإن ملايين من الناس قد شاهدوا نفس الرواية دون

---

(١) مقالة في مجلة نيويورك تايمز العدد ٤ سنة ١٩٩٨م وكتابنا الوعي: ص٧٦.

أن يظهر عليهم أي ميل للانحرافات، ويستخلص من ذلك أن الشاب أو الفتاة لايمكن أن يستجيب إلى الآثار السيئة التي تنتج عن مشاهدة قصة سينمائية، إلا إذا كان لديهما الاستعداد الشخصي للانحرافات، وهذا الاستعداد قد ينشأ عن توافر بعض العوامل الفردية للحدث، كالضعف الصحي والاضطراب العاطفي والحساسية المفرطة، فإذا كان الحدث متصفاً بهذه الصفات كلها أو بعضها، فإنه قد يتأثر حتى لو شاهد فكاهة أو عرضاً خاصاً بالأطفال.

وهنا تلعب الرعاية الصحية والتوجيه السليم دوراً رئيسياً في منع الانحرافات، فإذا كان تردد الحدث على دور السينما ومشاهدة التلفاز وتصفح الإنترنت، قد تمَّ تحت إشراف دقيق من الوالدين وبمصاحبتهما، بحيث يمكن أن يبرزا له النواحي التوجيهية في العرض والمشاهدة، أو يختارا له نوع الروايات الملائمة، فإن كثيراً من الآثار السيئة المتوقعة يمكن تلافيها، كما أن الدولة يجب أن تقوم بنصيبها في هذا الميدان، وهو ما أخذت به فعلاً كثير من التشريعات المعاصرة، وفرض الرقابة العقلانية المدروسة على الفضائيات وصفحات الإنترنت وغيرهما.

لذلك حرمت كثير من التشريعات في أوروبا على الأطفال في سن معينة مشاهدة أي عرض سينمائي، إلا ما كان مخصصاً للأطفال، وعدم عرض الأفلام الخليعة التي لا تليق بالأخلاق في أوقات مبكرة من الليل أو النهار، وعدم السماح للأطفال بالدخول في العروض السينمائية أو محلات البيع للعرض الجنسي أو غيرهما، وهذه التشريعات لها صفة الإلزام، ومن يخالف هذا تفرض عليه المحاسبة القانونية والغرامة المالية[١].

---

(١) المصدر السابق: ص ٢٢٢.

التليفزيون والانحرافات:

لقد ظهر التلفزيون بصورة تجريبية في أوروبا سنة ١٩٣٠م، وما لبث أن انتشر في الولايات المتحدة الأمريكية، حيث بلغ عدد الأجهزة سنة ١٩٤٧م مئة وجهازين فقط، وأصبح عدد المحطات التليفزيونية ٢٤ محطة.

وفي سنة ١٩٥٧م بلغ عدد البلدان التي أنشأت محطات للتلفزيون خمسين بلداً، وارتفع هذا العدد إلى تسعين بلداً سنة ١٩٦٤م، وارتفع عدد المشاهدين من ١٣ مليوناً سنة ١٩٥٨م إلى ٢٥ مليوناً سنة ١٩٦٤م.

وتدل الإحصاءات التي وضعتها منظمة اليونسكو عن ١٩٧٦ ـ ١٩٧٩ أن عدد محطات الإرسال التلفزيوني في العالم يبلغ / ٢٨٤١٢/ محطة، وأن عدد أجهزة الالتقاط بلغ ٤٥٣،٩٠٢،٥٠٠ موزعة على أنحاء العالم[١] الغربي والعربي والإسلامي معاً، وربما يزيد هذا العدد في الأيام القادمة أضعافاً مضاعفة.

ومما يؤسف له حقاً، أننا نرى دول العالم الغربي المتقدم كيف ترعى بعناية مفهوم الإعلام، الذي صاغته انتلجنسيا الغرب مع طوباويي الإعلام في العالم الثالث، وكرست العناوين العريضة له مقررات الأونيسكو وتوصياتها المتلاحقة، حتى جعلتها تعيش حالة مزرية من الممنوعات الدائمة في العرض والمشاهدة والمقروءات، مع أن كثيراً من دول العالم الثالث تمكنت من فرض هيمنتها الخاصة بعيداً عن توصيات الأونسكو العالمي للإعلام، بفرض رقابتها التي كانت في بعض الأحيان مقبولة أخلاقياً، بينما نرى العالم الغربي بما فيه فنلندا، والدانمارك،

(١) الأمن الاجتماعي: ص ٥١٦ د. العوجي.

واليونان، وإيرلاندا، وأوستراليا، والنمسا، وآيسلاندا، واليابان، والمكسيك، وبريطانيا، والولايات المتحدة، وفرنسا، لا وزارة إعلام فيها ولا رقابة رسمية، إنها ترعى شؤون الإعلام في أشكال ليبرالية تتناسب مع تراثها وتطلعاتها.

فهذه أمريكا يتغلغل الإعلام بوسائله المختلفة في أعماق شعبها، فلا عجب إذا اعتبرته الحكومة السلطة الرابعة الحقيقية، وتعاملت معه على أنه كذلك، ولا عجب أيضاً إذا لاحظ المراقب خلال حملة الرئيس بوش الانتخابية الرئاسية، قفزة رقمية هائلة لمؤيدي الرئيس بوش بعد نقل وقائع المؤتمر الحزبي عبر وسائل الإعلام، ولا عجب إذا قالت أوساط الرئيس الفاشل في الانتخابات، أن وسائل الإعلام كانت وراء نجاح الرئيس كلينتون.

وتقر اللجان الإعلامية في أمريكا، أنه لا وزارة إعلام في الحكومة الأمريكية ولا وزير إعلام، هناك ناطقون رسميون باسم البيت الأبيض أو باسم وزارة الخارجية أو وزارة الدفاع.

وينقسم التلفزيون في أمريكا إلى نوعين هما:

التلفزيون العام، وهو الذي يمول مباشرة بواسطة العطاءات العامة أو التبرعات الخاصة، وأهدافها غير تجارية وتستخدم الحكومة فيه ٢٠٪ من إرسالها.

والتلفزيون التجاري الخاص الذي يؤمن تمويله بواسطة الإيرادات الإعلامية، وتشير الإحصاءات التي أجريت عام ١٩٨٧م إلى أن هناك ٢٩٢ محطة تلفزيونية غير تجارية، تمتلكها جمعيات محلية وجامعات وتجمعات دينية، كما دلت إحصاءات حديثة إلى أن أكثر من ٣/٤ إلى ٣٠٠ إجازة باستثمار محطات تلفزيون التي أعطتها اللجنة الفدرالية للمواصلات، كانت في مطلع ١٩٩٢م قد باشرت البث التجريبي.

أما في بريطانيا العظمى فهناك أعراف وتقاليد عريقة في احترام الإنسان والفكر والتعبير، تعاون الشعب الذي يرعاها وليس الدستور أو الملك والقوانين الحكومية الخاصة، ولذلك أيضاً لا وجود لوزارة إعلام ولا لمكتب رقابة على المنشورات، إنما كل هذا لا يعني أن الأمور متروكة على غاربها، فالقوانين العامة التي ترعى الشؤون العامة يمكن تطبيقها في الميادين الإعلامية، ومع ذلك فقد انتشرت الصحف والإذاعات في كل مدينة تقريباً.

فشبكات التلفزيون تلتقطها ٢٧ مليون عائلة، ويمنع نظام حقوق الإنسان فيها التعرض للأشخاص أو التحريض على الانحرافات والجريمة.

وتصدر في بريطانيا ١٠٨ صحيفة يومية من أقدمها التايمز (تأسست عام ١٧٨٥م) والدايلي تلغراف (١٨٥٥م).

وهناك مجموعات من المجلات الضخمة الأسبوعية والشهرية من أقدمها الأوبزيرفر (١٧٩١م) والساندي تايمز (١٨٢٢م).

كما أن هناك ثلاث وكالات أنباء تاريخية منها رويتر (١٨٥١م).

و٤ شبكات تلفزيونية منها بي، بي، سي.

أما في فرنسا فإنه لا وجود لنص شرعي أو تعاقدي يحدد حقوق وواجبات الإعلاميين تحديداً خاصاً مميزاً، ويلعب الإعلان العام لحقوق الإنسان في هيمنته على الإعلام الفرنسي دوراً بارزاً ومهماً في نفس الوقت، فهو يمنع التحريض على الانحرافات والجريمة، وممنوع التعرض الجارح لرئيس الدولة ورؤساء الدول والبعثات الدبلوماسية، ممنوع نشر مجريات المحاكمات، ممنوع نشر أسماء الأحداث المتورطين في قضايا الجنح والجرائم وغيرها.

والواقع أن الدولة الفرنسية التي ترعى العلاقة العامة بين ٨٢ صحيفة يومية توزع ١٢ مليون نسخة، وبين قرائها، وبين عشرات المجلات السياسية المتخصصة ووكالتي أنبائها (وكالة الصحافة الفرنسية) و(الوكالة المركزية للصحافة) وبين شبكات تلفزيون عامة، وشبكات تلفزيون خاصة، تحاول هذه الدولة أن توفق بين بنى إعلامية متطورة ومتحررة على غرار التجربة الأمريكية، وبين لزوم الحذر، فتترك لبعض القوانين التقدمية حرية الحركة، وليدها الأمنية حق التصرف في بعض المواقع والمواضيع، إلى غيرها من الحريات التي تشهدها هذه الدولة المتقدمة[١].

والقارئ لمعدلات الإنفاق على شراء وبيع الفضائيات التي تتلاعب بالعقول أحياناً، يقف منبهراً ومتعجباً في ظل العالم الغربي والشرقي اللذينِ يشهدان عاصفة كبرى من المجاعة العالمية.

ففي الولايات المتحدة: التلفزيون التجاري ينفق ما معدله (١٣.٩٦ مليون دولار).

وفي كندا شبكة إعلامية واحدة فقط وهي سي.بي.سي. تنفق ما يعادل ١٦،٧ مليون دولار.

وفي بريطانيا محطة: بي.بي.سي.تنفق (٣.٢٩ مليون دولار).

وفي اليابان تلفزيون nhk ينفق (٢،٩٠ مليون دولار).

ويشير الإحصاء السكاني الذي قامت به بعض اللجان الاجتماعية في أمريكا عام ١٩٧٠م، إلى أن التلفزيون متوفر في بيوت أمريكا أكثر من الحمامات أو التليفونات، إذ تملك نسبة قدرها ٩٥،٥٪ من

(١) للمعرفة عن أهم إنجازات العالم الغربي في الإعلام راجع كتاب الإعلام العربي، د. جان جبران.

الوحدات السكنية البالغ عددها ٦٧،٧ مليون وحدة جهاز للتلفزيون، فضلاً عن أن حوالي ٣٠٪ من هذه الوحدات يملك جهازين أو أكثر[١].

أمريكا تُحاكم التلفزيون:

تحت هذا العنوان تحدثت الصحف الأمريكية (١٤١٧هـ) بعد أن اجتاحت الولايات المتحدة الأمريكية موجة من الغضب الشعبي على التلفزيون، والأبحاث والدراسات والتقارير تتوالى من كل مراكز الأبحاث والجامعات، عن الحصاد المر لما يبثه التلفزيون، وتأثيراته على الأطفال والكبار على حد سواء، تحول هذا الغضب إلى حركة اجتماعية متنامية بدأت تدعو إلى إغلاق التلفزيون.

فقد أجرى مايكل مورجان المحاضر بمدرسة أنينبرج للإعلام بولاية بنسلفانيا، بحثاً عن آثار التلفزيون في التحصيل الدراسي للتلاميذ، فوجد أن هناك دلائل علمية دامغة على أن الأطفال الذين يقضون وقتاً أطول في مشاهدة التلفزيون يحصلون على درجات أقل.

وأعدّ مورجان الذي شارك في بحث آخر استغرق عشر سنوات، تقريراً عن التلفزيون وسلوك الأطفال، ونشره المعهد القومي للصحة العقلية، يقول التقرير: من أكثر المهارات التي تتأثر سلبياً عند الأطفال من جراء مشاهدة التلفزيون مهارة القراءة.

وفي نفس الصدد قامت جمعية للعلوم النفسية الأمريكية، بدراسة عن ظاهرة العنف عند الأحداث فأكدت ما يلي:

تبين أن الطفل الذي يشاهد التلفزيون ٧٢ ساعة في الأسبوع سيشاهد ٨٠٠٠ مجرم و١٠٠،٠٠٠ عمل من أعمال العنف من سن الثالثة حتى العاشرة، وطبقاً لما كشفت عنه الإحصاءات، فإن المواطن

---

(١) مجلة عالم المعرفة العدد ٢٤٣. المتلاعبون بالعقول: ص١١٦.

الأمريكي ببلوغه سن الثامنة عشرة يكون قد شاهد ٢٠٠،٠٠٠ عمل من أعمال العنف منها ٤٠،٠٠٠ قاتل، كما أعلن المعهد القومي للصحة العقلية أن هناك ما يزيد على ٧٠٠ دراسة وتقرير علمي أجريت في ١٩ دولة، توضح إجمالاً أضرار التلفزيون الناجمة عن أفلام العنف، وتجمع هذه الدراسات على أن الذين يفرطون في مشاهدة أفلام العنف يصبحون أكثر عنفاً وغضباً، وأسهل استثارة مما قد يدفعهم إلى السلوك الإجرامي.

وفي دراسة أخرى أجريت عام ١٩٩٠م في جامعة ولاية بنسلفانيا، قامت عالمة النفس أليثا هوستين، بعرض أفلام كرتون تتضمن مشاهد عنف أمام مجموعة من الأطفال في سن الرابعة، وأفلاماً عادية على مجموعة أخرى مشابهة، وبرصد سلوك المجموعتين، اتضح أن المجموعة التي شاهدت أفلام العنف، كانت تضرب الأشياء وتلقيها أرضاً بعد مشاهدة هذه الأفلام.

وفي استطلاع لرأي الآباء والأمهات أجرته مجلة (US News) في شهر آب/ أغسطس من هذا العام، قال ٧٣٪ منهم: إنهم قلقون بشأن العنف في الأفلام الكارتونية، بينما عبر ٨٤٪ منهم عن قلقهم من العنف في البرامج الأخرى، وفي إحدى المدن النائية أفادوا أن السلوك العدواني لدى أطفال المدينة نشأ بعد دخول البث التلفزيوني إليها. يقول نكولاس فان رايك رئيس المجلس القومي للأطفال والتلفزيون في الولايات المتحدة: قد يكون التلفزيون عدواً للأطفال، وقد يكون هدية رائعة لهم، إن المشاهدة العشوائية تلتهم أجزاء كبيرة من عمر الأطفال، وتحرمهم من ساعات مهمة يحتاجونها في التعليم، واللعب، والنوم، ويدعو المجلس الذي يرأسه رايك إلى عدم إضاعة الوقت في مشاهدة التلفزيون، فليس هناك وقت فراغ بل كل وقتنا وقت ذروة. . .

وتضيف المحققة الأمريكية في الشؤون الاجتماعية (كاثرين مونتجمري): إن وجود مزيد من القنوات الفضائية التلفزيونية لا يعني مزيداً من الخيارات، وكلما ازداد التلفزيون في ضلاله، اتجه مزيد من الآباء والأمهات إلى التخلي عنه، وهؤلاء الذين لديهم الاستعداد لاتخاذ هذه الخطوات يجدون عزاءهم في التغيير الإيجابي، الذي سيطرأ على حياتهم بعد التخلص من التلفزيون[١].

وهناك دراسة أخرى تعزز نتائج هذه البحوث، قام بها (جيمس ستاير رئيس جمعية الأطفال)، الذي علق على هذه النتائج بقوله: إن الأمر يمثل قضية كبرى، فالأطفال يتعرضون لوسائل الإعلام المرئية والمسموعة والمكتوبة، بطريقة لم يعتادوها من قبل، ويشبون وهم يواجهون مزيداً من العواقب الوخيمة لما يشاهدونه أو يسمعونه من العنف، والجنس، إنهم يحتاجون إلى تربية عميقة وقيم متينة[٢].

التأثيرات السلبية على المشاهدين:

قالوا قديماً: «الناس على دين ملوكهم» واليوم «الناس على دين فضائياتهم»! أي إن أجهزة هذا الشر أصبحت عبئاً كبيراً على نظامنا المعرفي وروافدنا الثقافية، وأخلاقنا الإسلامية، إذ أصبحت الفضائيات جهازاً لا يدع المشاهد يفلت من جاذبيته، حتى يتمكن منه ومن ثم يصرعه على الطريقة التي يريدها!

لأن هذا الجهاز يبعث فيه رغبة جامحة في متابعة الصور، وملاحقة الحركات، بل ويخلق فيه حسرة بسبب سرعة انتقال الصور وتغيرها قبل

---

(١) مجلة الأسرة العدد ٤٠ عام ١٤١٧هـ و١٤٠٢هـ.

(٢) المصدر السابق.

أن تتملاها العين وتشبع منها النفس، تماماً كما يقدم للظمآن في لهيب الصيف زجاجة من الماء صغيرة الحجم لا تروي غلته، فما أن يأتي على آخر نقطة منها حتى تثور في نفسه رغبة جامحة لثانية وثالثة.

إن هذا المشهد هو ما يحدث للمشاهد أمام عدسة الفضائيات وتصفح صفحات الإنترنت؛ حتى فاقت هذه الجاذبية كل حد، فباتت إدماناً استسلمت له طوائف كثيرة من الناس من شتى طبقات وشرائح المجتمعات، ودخلت الفضائيات وصفحات الإنترنت إلى البيت، والغرف الخاصة، والمصانع، والمتاجر، ومحلات البيع، ورافق المسافرين في مراكبهم ومنتزهاتهم، حتى أصبح الرفيق الدائم الذي لايمل! ليساعدهم على ازدراد الطعام والتهام أكبر كمية منه، حتى أطلقوا في أمريكا على طريقة الأكل هذه (غذاء على التلفزيون)، التي تشير إلى أن الناس غدوا يتناولون وجبات طعامهم أثناء مشاهدة التلفزيون، إذ يستسلم شعورهم وإحساساتهم للبرامج فلا يدرون كم أكلوا وشربوا، كالذي يحدث للأبقار الحلوب عندما يعمد المربون إلى إسماعها نوعاً من الموسيقى تجذبها، وتمتلك سمعها، فلا تمسك لبناً في ضروعها.

لقد أجرى بعض الباحثين دراسة على هذه الحقيقة (تأثير التلفزيون على المشاهد) فقال: لقد وضح صديقي (جاك إيدسون) المشكلة وقال: يا له من أمر غريب فعندما أشاهد التلفزيون أصاب بالضجر، ولكنني أستمر في المشاهدة، ويعقب جيري ماندر على هذا بقوله: هذه الملاحظة قابلتها بالعديد من الملاحظات المشابهة خلال رسائل وصلتني، وحتى الأطفال وصفوا تجربتهم التلفزيونية بنفس العبارات، إن نوعية الوسائط التنويمية الإدمانية تذهب إلى أبعد مدى، لإبقاء المشاهد المصاب بالملل مستمراً قبالة الشاشة، فالتلفزيون هو الإثارة الوحيدة في حياة أكثر الناس اليوم، وهو المؤثر الذي يلعب دوراً خطيراً في حياة

الكثيرين من الناس.. وهكذا يقوم المنتجون للتليفزيون باختلاق الوهم لدى المتفرج، كإشعاره بأن شيئاً غير اعتيادي يجري يسترعي الانتباه ويثير الفضول، وبالتالي يتمكنون من جعل المشاهد دوماً في أيديهم.

كما أن التلفزيون اليوم يشبه إلى حد كبير الأسلوب المتبع في التنويم المغناطيسي، الذي ينتهي بانتزاع أفكار أخرى قد تكون مغايرة تماماً لسابقتها، وهذا ما تعمد إليه الجهات التي تتقن صناعة غسيل المخ[١].

وسوف أحاول في السطور القادمة أن أبيّن بعض التأثيرات الخطيرة التي يحدثها التلفزيون على الإنسان كفرد، والإنسان كأسرة، والإنسان كمجتمع. وهي ما يلي:

١ ـ التأثير العقيدي:

من أخطر التأثيرات التي تعكسها الفضائيات على المجتمعات العربية والإسلامية زعزعة العقيدة الإسلامية، وتحطيم الروافد الثقافية والبنية الاجتماعية، وتذويب الأخلاق الإسلامية التي نشأ عليها الإنسان المسلم.

وكانت هذه خطة قديمة دأبت على ممارستها الصهيونية العالمية ضد الشعوب العربية والإسلامية، وحمل سلاح التنفيذ الإعلام الغربي بكافة وسائله المتاحة.

جاء في تقرير منظمة اليونسكو العالمية: إن إدخال وسائل إعلام جديدة وخاصة التلفزيون في المجتمعات التقليدية، أدى إلى زعزعة عادات ترجع إلى مئات السنين وممارسات حضارية كرسها الزمن[٢].

---

(١) جيري ماندر، أربع مناقشات لإلغاء التلفزيون: ص ٢٤٠.

(٢) للمزيد من المعرفة حول هذا الموضوع راجع كتابنا أعداء الأمة ودعاتها بين المنهجية والتطبيق: ص٥٥.

ويتمثل هذا الهدف التأثيري في عقيدة الشباب المسلم من خلال خلخلة عقيدتهم، في بث المنهج التشكيكي في كل ما يصدر عن مبادئ العقيدة الإسلامية من قوانين ونظم وأخلاق وروافد، حتى تتمكن من بث سهام الاضطرابات والحيرة في عقولهم، كما تتمكن من إضعاف روح محاربة الأعداء المتمثلين في الكفر والصهيونية والماسونية العالمية، ومحاربة البدع والمنكرات والخرافات التي بلي بها العالم الغربي في أغلب زواياه الاجتماعية والدينية والأخلاقية، وتقليدهم في كل صغيرة وكبيرة، حتى عُدَّ في هذه الأيام من التقدم والتحضر والتمدن، وحالة الانبهار الغريبة التي تسربت إلى عقول الكثيرين من أبناء الإسلام بالديمقراطية وحرية الغرب، وبعض الدول المنفتحة، وهم لن يقفوا عند هذا الحد حتى نتبع ملتهم ونكون نسخة ثانية منهم.

وقد أشار القرآن الكريم لهذه الحقيقة بقوله: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾[(١)].

٢ ـ التأثير الثقافي:

تتميز ثقافتنا الإسلامية الرسالية بخصائص تفتقر إليها كل الثقافات العالمية، لأنها ترتكز على قواعد ثابتة، وقواعد متحركة وفق تطور الزمان والمكان، منها:

أنها تقوم على عامل الدين الذي يعتبر من أسس التسليم المطلق لله سبحانه وتعالى، والإقرار له بالوحدانية، والتسليم لشريعته الغراء، سواء كانت نازلة على إبراهيم أو موسى أو عيسى أو محمد عليهم السلام قال تعالى:

(١) سورة البقرة، الآية: ١٢٠.

﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾[1].

كما أن ثقافتنا الإسلامية تعتمد على مرتكزات الجماهيرية، أو التعامل مع الناس، ويعني ذلك رفض فكرة النخبة التي تتضمن فكرة الديكتاتورية، إنما العمل الثقافي والاجتماعي والتربوي والديني والاجتماعي والسياسي وفق نظرية (الحل والعقد).

كما ترتكز على الأصالة، فثقافتنا الإسلامية الرسالية تعتقد بضرورة التمركز والتمحور حول القرآن الكريم، واستنباط أحكامه بعيداً عن التفسيرات الضعيفة، وبعيداً عن الرواسب التي ألحقها البعض به، وكما أننا نتمركز على الرجوع إلى السنة المطهرة التي هي عدل القرآن الكريم من الأقوال والأفعال، كما يصطلح عليه علماء الأصول بـ(التقرير).

كما أن من أهم المرتكزات لثقافتنا الإسلامية العصرنة، فالحضارة عندنا ليست (كلها) جاهلية، بل هناك مكاسب من الحضارة يجب الاستفادة منها، ومن جملة هذه المكاسب التقنية الحديثة، والبرمجة العلمية المنطورة وغيرها، كما نعتقد أن الحضارة مكاسب لا بد من الاستفادة فيها مما نصطلح عليه في علم الأصول بـ(حجية العلم)، وهي شمولية المعرفة حتى تشمل سائر المجالات.

كما ينبغي أن يسير المجتمع الإسلامي بشتى طبقاته على نظام القيادة الإسلامية الشرعية، وهي ما يصطلح عليه بـ(قيادة الفقيه الجامع) أو ولاية الفقيه الجزئية، وهي تعتمد على قاعدتين هما:

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٨٤.

ـ قوله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾(١).

ـ والأعلمية التي يتميز بها الفقيه الجامع.

كما أن ثقافتنا الإسلامية تتمركز على الشمولية في العمل والإصلاح والتغيير، فالرؤى عندنا في قاعدة التغيير، نظام التغيير الجذري الذي يبدأ بتغيير الإنسان نفسه ومن ثم موقعه، ومن ثم العالم بأسره، وهي تشمل جميع الموارد الثقافية والاجتماعية والسياسية، والتربوية وغيرها.

ومن المرتكزات الأساسية **الأممية**، لأن ثقافتنا الإسلامية تؤمن بأن الأمة الإسلامية جسد واحد، وكتلة واحدة لا تتجزأ، فقد سعت مبادئنا الثقافية طوال القرون الإسلامية الماضية، إلى تحطيم كافة الحواجز والعشائريات والإقليميات، قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ﴾(٢).

﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ﴾(٣).

إيماناً منّا بأنّ ثقافتنا الإسلامية من موقع التحدي العالمي ضد الوحدة الإسلامية سعت لتوطيد العلاقات ووشائج المحبة والأخوة بين المسلمين.

هذه الروافد المعرفية التي يبتني عليها النظام الثقافي في عالمنا الإسلامي، سعى الإعلام الغربي وبعض الإعلام العربي لتحطيمها، عبر نوافذ الفضائيات المأجورة لصالح الصهيونية والماسونية العالمية.

فالناشئ بسذاجته يظن أن الإعلام بوسائله المختلفة ما هو إلا

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٥٩.
(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٩٢.
(٣) سورة المؤمنون، الآية: ٥٢.

عملية ترفيه ليس إلا، أو مصدر أخبار يفتقر لتوثيق في أغلب الأحيان، إن تعرض الإنسان إلى هذه الأنواع من الوسائل الإعلامية (اللاهادفة)، تجعله ينشأ على قيمها وأخلاقياتها في أغلب الأحيان، فمشاهدة الإنسان لتمثيلية تلفزيونية ساخرة، تعرض مواقف مضحكة لشخص متعدد الزوجات، وهو يقوم بعدم تطبيق بنود الفقه على أسرته، أو ذلك المسلسل الذي جعل من الداعرة أن تكون من أفضل نساء عصرها، أو تلك التمثيلية التي شوهت الحجاب الإسلامي وجعلت من التحرر طريقاً للتقدم والتمدن، وللخلاص من القيود والأعراف، أو ذلك الفيلم الذي شجع على ممارسة طريق الحب والتعرف على أساليبه العفنة أو. . أو. . إلخ، كل ذلك يجعل من المشاهد وهو يتفرج على ما يعتقد أنه تسلية بريئة تتحول عنده في (اللاشعور) لتشكل من هذه المسلسلات أو الأفلام وغيرها موقفاً سلبياً رافضاً لتلك المبادئ، حتى لو أمر بها الدين والشريعة الإسلامية، ونادت بها الأعراف الاجتماعية.

إن التنشئة الاجتماعية على مثل هذه البرامج تجعل من الإنسان عبداً للتلفزيون، فتنعكس على تصرفاته وعلاقاته الأسرية والاجتماعية شاء أم أبى، فالرجل لا تعجبه الطريقة التي تلبس بها زوجته، ولا بشعرها الأسود، ولا حيائها من الرجال، يريدها أن تتلون مثل ما تتلون عارضات الأزياء، والممثلات الرخيصات، ويريدها أن تكون جريئة مثل تلك المرأة التي شاهدها على القناة الفضائية الغربية أو العربية.

أما المرأة فهي لها النصيب الكبير في ذلك، باعتبارها من أكثر الناس مشاهدة للفضائيات وتأثراً بها! فهي تريد أن تكون كل أولئك الممثلات، والعارضات، والمغنيات، والراقصات، وتسعى لتكون صدى لكل موضة أو سلوك، وهي تريد من رب أسرتها أن يكون مثل ذلك الممثل الذي يتغنج لعشيقته، وذلك الممثل الذي سجد لمحبوبته، وذلك

البطل الذي ضحى من أجلها ورفع حظها، حتى لو كانت خريجة سجون وبارات وحوانيت الخمر!!.

وأما الأطفال فهم الضحية الكبرى، يسمعون في البيت شيئاً، ويرون في الوسائل الإعلامية شيئاً آخر مختلفاً تماماً، ويتعلمون في المدارس والجامعات شيئاً ويرون في الإعلام شيئاً آخر، ويتلقون من الوعظ والتوجيه في المساجد والمعاقل الدينية شيئاً، وبانخراطهم مع الآخرين ومشاهدة الفضائيات شيئاً آخر، هذه المرحلة من الفصال العلمي والثقافي والتربوي، الذي يعيشه الناشئ بين التربية الصحيحة وبين التربية الإلكترونية، تنتج عنه الأمراض النفسية والأخلاقية الكثيرة، التي أصيب بها العالم الغربي اليوم، فهو يعيش تأزماً وقلقاً لا مثيل له في عالمنا البشري[١].

٣ ـ التأثير السياسي:

لقد تمكن الاستعمار الغربي من غزو العالم العربي عبر وسائله الإعلامية الكثيرة، وهذا الغزو انعكس على وضعية الأمة وشعوبها سياسياً، إذ سبب لها الانهيار السريع والوقوع في أحضانه، مما دعاها أن تعقد معه من شدة ضراوته ما عبر عنه بـ(المهادنة والمساومة) وذلك لحفظ مصالح الحكام ومكاسبهم وامتيازاتهم، والابتعاد عن كل ما تتطلبه المواجهة من الحزم والجلد والصبر، والتخلي عن حياة الترف والراحة، ولقد انتخب الحكام المسلمون في بداية الصدام مع الغرب، وقبل الحرب العالمية الأولى، طريق المهادنة والمساومة، ومنح المستعمر بعض الامتيازات الاقتصادية والسياسية، حتى يتمكنوا من ممارسة القمع

(١) كيف تؤثر وسائل الإعلام؟ د. الحصيف: ص٣٦.

والاضطهاد لأمتنا الإسلامية، ولذلك قبل العرب بكل أطروحات العالم الغربي، أي بكل محاسنه ومساوئه مع كثرة الثانية على الأولى.

يقول الخبير بشؤون الشرق الأوسط سياسياً الدكتور (غي دورندان): إن الدعاية السياسية لا تهدف أحياناً إلى توليد تصرفات لدى المجموعة السكانية، بل إلى جعل العالم المستعمر يصل إلى حالة من الفتور والتدهور والأمراض، ويضرب على ذلك مثلاً فيقول: إذا قامت حكومة معينة بسحق أقلية ما، ستنظم هذه الحكومة حملة دعائية موجهة إلى مجموعة السكان، لكي تعتبر المجموعة نفسها أن لهذه المجزرة ما يبررها[١].

لقد انتهى الاستعمار من الأمة عسكرياً، واقتصادياً، فبدأ باستعمارها سياسياً عبر نوافذ الإعلام، أي بـ(الاستعمار الإلكتروني) والبث التلفزيوني، ولقد ساهم هذا عبر مسلسلاته وأفلامه وأخباره، في تحقيق أهداف القوى الاستعمارية، فقد صرح وزير خارجية كندا عام ١٩٧٦م بأن برامج التليفزيون الأمريكي تدفع كندا نحو الكارثة[٢].

وأثبتت بعض الدراسات أن هناك بعض الأطفال الكنديين لا يعرفون أنهم كنديون، لتأثرهم بالبرامج الأمريكية التي تبث إلى كندا مباشرة.

وفي فرنسا عندما شعر الرئيس الفرنسي (شارل ديغول) بخطورة تأثير الأفلام الأمريكية، قام بعدة إجراءات منها:

١ ـ إلغاء الاعتماد على الدولار كعملة احتياطية.

---

(١) الدعاية السياسية: ص ١٠٧، د. دورندان.
(٢) البث المباشر: ص ٦٠، د. ناصر العمر.

٢ ـ الانسحاب من الحلف الأطلسي.

٣ ـ إعادة النظر في العلاقات الثقافية والسياسية مع أمريكا.

وقد أعلن صراحة أن تلك الإجراءات حماية لفرنسا من الاستعمار الثقافي والسياسي الأمريكي[١].

وعندما نلقي نظرة فاحصة لهذا الخطر، وما عمله في العالم العربي والإسلامي، نلقي نظرة فاحصة على وضع عالمنا المعاصر، وانبهاره بالإعلام الغربي بكافة ثقافاته وقراراته السياسية، التي تبث عبر نوافذ الإعلام بكل وسائلها.

خرج الاستعمار الفرنسي من شوارع تونس عام ١٩٥٦م ولكنه رجع ليشاركهم السكن في البيوت، وعلى الفرش الخاصة، رجع عبر الإعلام التلفزيوني ليقضي على الدين واللغة والأخلاق، كان يقيم بينهم بالكره، ولكنه رجع ليستقبلوه بالحب والترحاب، كانوا ينظرون إليه بنقمة، واليوم عبر التلفزيون ينظرون إليه بتلذذ، وأصبح هذا الخطر يهدد الكل، الصغار والكبار، والنساء والرجال، والشباب والفتيات، وإن كان الخطر الأكبر يهدد الجيل الجديد كله[٢].

٤ ـ الأثر الأمني:

مما لاشك فيه أن الإعلام المرئي له آثار أمنية وخيمة على المجتمعات البشرية بصفة عامة والمجتمعات العربية والإسلامية بصفة خاصة، لأن الأفلام، والمسلسلات، والأخبار، التي يعرضها الإعلام الغربي لعالمنا، تُسبب الانحلال الأخلاقي وتفسخه على الطريقة

(١) المصدر السابق: ص ٦٠.

(٢) المصدر السابق.

الأمريكية أو الفرنسية أو البريطانية، وبالتالي يتفسخ المجتمع وتنحل قيمه المادية والمعنوية، فالاضطرابات أمراض مزمنة مصاحبة لشعوب العالم والدول العربية والإسلامية، وهذا ما أكده تقرير منظمة اليونسكو العالمية بقوله: إن إدخال وسائل إعلام جديدة وخاصة التلفزيون في المجتمعات التقليدية، أدى إلى زعزعة عادات ترجع إلى مئات السنين وممارسات خاطئة، وغالباً ما يصاحب فوائد الاتصالات الحديثة سلبية يمكن أن تشيع الاضطرابات بدرجة كبيرة في النظم القائمة[١].

وقال الطبيب النفسي (ستيفن بابا) الأستاذ بجامعة كولومبيا: إذا كان السجن هو جامعة الجريمة، فإن التلفزيون هو المدرسة الإعدادية للانحرافات.

وتوضح دراسات العالم الفرنسي (جان خيرو) أن أسباب سوء التكيف بين المنحرفين ترجع إلى مشاهدة أفلام العنف، وتدل الإحصائيات الأخيرة التي أجريت في أسبانيا أن ٣٩٪ من الأحداث المنحرفين قد اقتبسوا أفكار العنف والجريمة، من مشاهدة الأفلام والمسلسلات والبرامج العدوانية[٢].

وفي دراسة قامت بها اللجان المتخصصة في علم الاجتماع في الوطن العربي، أكدت لنا: أن ٤١٪ ممن أجري عليهم الاستبيان يرون أن التلفزيون يؤدي إلى انتشار الجريمة، و٤٧٪ يرون أنه يؤدي إلى النصب والاحتيال وتفسخ الأخلاق وضياع القيم[٣].

واستخلصت الدراسات العلمية الميدانية التي قامت بها مجموعة

---

(١) أصول متعددة: ص ٣٣٨.
(٢) المصدر السابق.
(٣) المصدر السابق.

من الباحثين الأكاديميين، حول ظاهرة العنف في الوطن العرب، أن علاقة الجريمة بالإعلام التلفزيوني، بخاصة الأطفال، يرجع بشكل أساسي إلى تعرض ذلك الجمهور إلى وسائل إعلامية تتضمن كثيراً من العنف اللفظي والجسدي، وهذه الدراسات في مجموعها خرجت بنتائج عن العنف في وسائل الإعلام، خلاصتها:

أن الأطفال يتعلمون العنف من خلال ملاحظة أشخاص يقومون به في وسائل الإعلام التلفزيوني، من قصص أو مسلسلات أو برامج مصورة.

إن الجمهور الذي يتعرض لوسائل الإعلام غالباً ما يقلد العنف الواقعي وليس العنف الخيالي، فالعنف الذي يمكن أن يقع في حياة الناس اليومية، كالمشاجرات واستخدام الأسلحة مثل الآلات الحادة والمسدسات، إضافة إلى المطاردات التي أثبتت الدراسات أن النسبة الكبرى من المشاهدين تتعلم منها وتميل إلى تقليدها، أما العنف الذي تعرضه قصص الخيال العلمي أو الأدبي وحرب النجوم، وغيرها من أنواع العنف، الذي هو من صنع خيال الإنسان، ولم يشاهد مثله في الواقع، فإن نسبة من يعمد إلى تقليده من المشاهدين قليلة جداً.

إن الفرد يتعلم العنف من وسائل الإعلام، لكنه لا يعمد إلى محاكاتها وتقليدها إلا في حالات الإحباط النفسي، وحينما تستثار عواطفه ومشاعر السخط والغضب لديه، أي أن الإنسان لايعمد إلى تطبيق السلوك العدواني الذي لاحظه في وسائل الإعلام تلقائياً وبشكل مباشر، إن الذي يحدث أن الإنسان في حالة الهيجان العاطفي، كالغضب أو التوترات النفسية التي تحدث له لأي سبب من الأسباب، يسترجع ما لاحظه واستوعبه في ذاكرته من مشاهد العنف، التي عرضتها وسائل الإعلام في الأفلام أو المسلسلات وغيرهما.

إن تكرار التعرض لمشاهد العنف في وسائل الإعلام، يؤدي إلى تبلد أحاسيس الناس تجاه العنف والسلوك العدواني، وعدم المبالاة وانعدام الإحساس تجاه السلوك العنفي الذي تعرضه وسائل الإعلام، يجعل الناس أكثر ميلاً إلى التسامح مع العنف بكل أنواعه، وبخاصة ذلك الذي يحدث في الواقع المعاش[١].

٥ ـ الأثر الأخلاقي:

تُعد الأخلاق من الدساتير التي بعث بها الأنبياء والمرسلون عليهم السلام للعالمين على الإطلاق، وهي الصورة التشريعية للحقائق العلمية، والنظم السلوكية التي كشفها الوحي لأنبيائه عليهم السلام طوال فترة تبليغهم رسالته الإلهية، وكان منها العدل والإحسان اللذان أمرنا الله بهما، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[٢].

صورتان يأمن بهما العقل، الصدق والأمانة اللذان دعانا الدين الإسلامي إليهما منبعثان عن عقل الإنسان، ولا تكتمل تلك الصور السماوية إلا بتأطرها بإطار الأخلاق العالية التي دعانا إليها في سورة الأعراف، في تلك الآية الجامعة في الأخلاق بقوله سبحانه وتعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾[٣].

لقد حوت هذه الآية الكريمة كل الخطوط العريضة للدستور الأخلاقي في الإسلام، الذي دأب أعداؤه يكيلون له التهم، من أجل تحطيمه وزعزعته من نفوس أبنائه عبر وسائلهم المختلفة، سيما وسائل

---

(١) المصدر السابق: ص٧٢.
(٢) سورة النحل، الآية: ٩٠.
(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٩٩.

الإعلام عبر نافذة الفضائيات، فأصبح شيئاً فشيئاً فصل الدين عن واقع المسلم، واستبداله بنظم وأخلاق فضائية منحرفة، لا تمت للعقل ولا للضمير والأخلاق بصلة.

إن مسافة شاسعة تفصل بين الأخلاق الإسلامية ونظمها وعلومها وبين واقع المسلم المعاصر، فالمسلم الحقيقي هو الذي يكيف نفسه وواقعه حسب مفاهيم الدين والنظم الأخلاقية الإسلامية، ويحاول بقدر الإمكان أن يلتزم بما جاء في دستور القرآن والسنة المطهرة، بينما نرى المسلم المعاصر (مُسلم الفضائيات) ليس له من ذلك نصيب أصلاً، فقد تمكنت الفضائيات من تكييف مفاهيمها وأخلاقياتها ونظمها في عقليته، وتحكمت في سلوكياته، فانعكس ذلك على واقع أسرته ومجتمعه الإسلامي[١].

يقول البحتري:

ولست معمراً بنيان قوم إذا أخلاقهم كانت خرابا

قال شوقي:

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هموا ذهبت أخلاقهم ذهبوا

وعندما نقف عند أبرز المساوئ التي خلفتها الفضائيات على مجتمعنا أخلاقياً نراها منحصرة في ما يلي:

بعض الأضرار الاجتماعية:

أ ـ شيوع الرذيلة:

وسهولة ارتكابها، حتى أصبحت أمراً عادياً في بعض المجتمعات

---

(١) للمزيد راجع كتابنا المرأة مشكلات وحلول: ص ١٨٠.

الإسلامية، ونرى ذلك واضحاً في تمرد الجيل الصاعد شباباً وشابات على التقاليد والأعراف، والفقهيات والأخلاقيات الأسرية والاجتماعية.

مما يساعد على تنبيه الأطفال على عامل الجرأة على ممارسة الرذائل الأخلاقية، التي كانت في يوم من الأيام يستحي مجتمعنا من مجرد الحديث عنها، فضلاً عن ارتكابها أمام الآخرين، اليوم هذه الممارسات التي كانت في دائرة محرمة عند كثير من الشباب في مجتمعاتنا، هي اليوم من المباحات التي لا يخجل كثير من الشباب والشابات من ممارستها أمام الآخرين، فخذ على سبيل المثال: ظاهرة متابعة أعراض الناس في الطرقات والأسواق والتلفونات وصفحات الحوار على الإنترنت وغيرها، وقد أشار المحقق الاجتماعي (تشارلز.ر. رايت) الخبير في الشؤون الاجتماعية في الغرب بقوله: أجهزة معينة تشجع المسلك الشيطاني للأطفال الذين يقلدون أفعال الشخصيات الروائية، ويذكر عادة لتعزيز هذا الاتهام، حادث الطفل الذي شنق نفسه وسط كتبه الفكاهية بنفس الطريقة التي وردت في الرواية، مقلداً سلوك الشخصية، كذلك تذكر حادثة أخرى وهي أن طفلاً أصيب أو قتل وهو يحاول أن يطير في الفضاء كما يفعل السوبرمان في التلفاز[(١)].

وقد جذب أحد البرامج التلفزيونية فتاة في الخامسة عشرة من عمرها فتعلمت منه، إذ رأت قاتلاً يقص فرامل السيارة، فقلدته مع سيارة أبويها لتقتلهما، واكتشف الأبوان الأمر مصادفة، لأن الفتاة أخطأت فقطعت سلكاً آخر أضاء إشارة إنذار حمراء، ولم يعرفا الفاعل، فجربت الفتاة خطة أخرى إذ ألقت صفيحة من البنزين على السيارة في المرآب (الجراج) فانفجرت، انتبه الأبوان في آخر لحظة، فأسرعا يفتشان المرآب

(١) المنظور الاجتماعي، ترجمة محمد فتحي: ص ١٣٩.

والبيت خوفاً على ابنتهما، وكادا يختنقان لكثافة الدخان، واكتشفا أن الفاعل ابنتهما، وعندما سئلت الفتاة عن السبب قالت: أبواي يضغطان علي كثيراً للمذاكرة، وأخي أخفق وهما يريدان مني تعويض إخفاقه.. ونظرت إلى التلفزيون فتعلمت الجريمة منه[١].

ب ـ تفجير الغرائز:

والبحث عن سبل غير مشروعة لتصريفها، وذلك لما تسببه مشاهدة الأفلام الخليعة، والتي تشجع على الإباحية، والزنى، واللواط والمساحقة، والعلاقات الغرامية المحرمة وغيرها.

أوردت صحيفة القاهرة خبراً عن رجل انتقل من تجارة المخدرات (الحشيش والكوكايين) إلى تجارة التخدير بالأفلام الجنسية، سعياً وراء المكسب المادي، والخبر كما يلي:

قالت الصحيفة: بعد تكثيف حملات الشرطة على تجارة المخدرات ترك (س) التجارة بها، وقام بفتح نادي فيديو لعرض الأفلام الجنسية على التلاميذ، مقابل جنيه لمشاهدة الفيلم في الحفلة التى تضم ٤٠ تلميذاً، وأقام ثلاث حفلات يومياً يكسب من خلالها يومياً ما لا يقل عن ٢٠٠ جنيه[٢].

وبعد دراسة معمقة عن خطر التلفاز على المشاهدين أخلاقياً، تبين للباحث الغربي جيري ماندر مايلي: حين يتهم التلفزيون بأنه يدفع الأطفال إلى محاكاة الرذيلة التي تبدو على شاشته، ويعلمهم الإباحية فيه، فيقول: هل تنبهت يوماً أنك قمت بتقبيل شخص ما، كما رأيت

(١) الإنسان حيوان التلفزيون: ص٣٢٠، د. محسن محمد.
(٢) صحيفة الأهرام ١٧/ ١١/ ١٩٨٤.

القبلة الأولى مرة على شاشة السينما أو التلفزيون؟ وإن ولدي يعبران عن هذا بـ(القبلة التلفزيونية) ويريان أنهما محظوظان، لأنهما استطاعا ملاحظة وجود قُبل تلفزيونية وأنواع أخرى، ومعظمنا لم يقم بهذا التمييز حين جلوسنا في الغرفة المظلمة، أو في مسارح كما يفعل الأطفال، إن قبلة الوسط الفني أصبحت صورتنا للتقبيل، لأننا لم نر كل ذلك للتقبيل الحقيقي، وبعد ذلك نجد أنفسنا نقوم بذلك النوع من القبل[١].

وليس من شك أن مشاهدي التلفزيون يجمعون على حقيقة التشجيع الذي يمنحه التلفزيون للمشاهد بالإباحية، التي تكمن وراء كثير من صور الدعاية للمنتجات التي تتزاحم على الشاشة الصغيرة وتحشى بها الأدمغة، فهذا العطر الباريسي المثير لشهوة الرجال، تتضمخ به تلك المرأة التي تسير في الشارع على غير مرأى من الرجال، فإذا ما تخطتهم وبعدت عنهم نمّ عنها عطرها، فنبه إليها نظراتهم الجامحة التي تتبعها خطوة خطوة وحركة حركة.

وتلك الملابس العارية التي تعرضها بعض وسائل الإعلام على الرجال وتلاحظها النساء وتتبعها لحظة بلحظة وتثير فيهن روح الغرام والتغني للعشاق والفحولة، وتلك المشاهد المثيرة للشهوة التي تعرضها كثير من الفضائيات العالمية والعربية والإسلامية!

أليس في ذلك إيحاء هادفاً وتشجيعاً واضحاً على الرذيلة واكتساب المحرمات؟

أليس في ذلك مفسدة واضحة المعالم على سلوكيات الجيل الصاعد نساء ورجالاً؟

---

(١) جيري ماندر مصدر سابق.

أليست هذه الأعمال على مسمع ومرأى من الآباء والأمهات، مع ذلك يتساهلون في عملية التقنين الإعلامي في أسرهم؟

أليس ارتفاع انتشار الرذائل في الوسط الاجتماعي لمجتمعاتنا بسبب الفضائيات المتعددة التي تتلقاها الأسرة عبر الأقمار المتعددة؟

أليس أول من تسابق لتركيبها الفقراء، والمعوزون، والبسطاء من أهل المجتمعات الإسلامية، وبعض الطبقات المتمولة والمثقفة والمتدينة!؟

أليس أصبحت الفضائيات اليوم في الوسط الاجتماعي لمجتمعاتنا الإسلامية أمراً عادياً حتى على مشاهدة الإباحية المعلنة فيها؟

يشير إلى هذه الحقيقة المفكر الغربي (ب. فوجدولاس) بقوله: إن المعلومة المرئية التي يتلقاها المشاهد من خلال السينما أو التلفزيون أو الفيديو تثير في المشاهد المتعلم المثقف، والمشاهد الأقل تعليماً وثقافة ردود فعل، إذ أنها تحرك المستويات السفلية للنفس على حساب المستويات الأكثر عقلانية، وأكثر من كل هذا وذاك، فإن هذه المعلومات المصورة تتميز بقدرتها على الإبهار، وعلى إضعاف مقاومة الإنسان تجاه فكرته عن العالم الذي حوله، ولا عجب في ذلك لأن تحريك الدوافع الدونية في النفس والجسد، أسهل من تحريك الدوافع السامية وأسرع، كما تبينه الدراسات العلمية الميدانية، ولأن المدخل إلى كل شر قد يكون من بوابة الجنس، أو ما شاكله من الدوافع السفلية في تركيب الكائن البشري[١].

---

(١) مجلة الثقافات، ص ٢٤٠ العدد الثاني عام ١٩٨٣م الطبعة العربية.

ج ـ الإثارة الجنسية:

وليس هناك عاقل لا يعي أو يشعر بالآثار الوخيمة التي تخلفها الفضائيات الإباحية وغيرها، من الإثارة الجنسية القاتلة التي تصيب مشاهديها فتعرض الشخص لمشاهد فيها إثارة جنسية تؤدي به إلى أن يكون أكثر عدوانية في سلوكه تجاه الآخرين، الذين قد يختلفون معه في وجهات النظر، وحالة الغضب هذه قد تكون لأكثر من سبب، فقد تكون بسبب اليأس أو الإحباط أو الفشل، أو ربما الاستفزاز من قبل أشخاص آخرين، وإذا ما تعرض الإنسان قاصداً أو بدون قصد، لما يمكن أن يثيره جنسياً وهو في تلك الحالة، فإن لجوءه إلى التصرفات العنيفة في حسم خلافاته مع الآخرين أمرٌ واردٌ جداً.

وقد تقود المشاهد المثيرة جنسياً إلى السلوك العدواني، لأن الإثارة بحد ذاتها حالة هياج عاطفي، ونوع من السلوك الغاضب، الذي يؤدي بدوره إلى ردود فعل عدوانية، فالشخص المثار جنسياً يسعى إلى الانتقام لذاته بسلوك يؤدي إلى تهدئة التهيج العاطفي، كالاعتداء على القُصّر، أو تخريب الممتلكات أو إيذاء الآخرين.

وقد تشجع المشاهد المثيرة في الشخص والتي تتضمن إيحاءات جنسية تشجع على الاغتصاب، وذلك من خلال إحساس الفرد أن فعله أمر عادي ينطوي على المتعة، وليس جريمة يمكن أن يعاقب عليها، كما أنه بدافع هذا الإحساس يمكن أن يعتقد أنه يستطيع أن يقدم على الاغتصاب ثم ينجو من العقاب بسهولة، مما يجعل المشاهد متسامحاً تجاه الرذيلة والفساد.

ويقول الدكتور بلومر: إن الأفلام التجارية التي تنتشر في العالم تثير الرغبة الجنسية في معظم موضوعاتها، كما أن المراهقات من

الفتيات يتعلمن الآداب الجنسية الضارة من الأفلام، وقد ثبت للباحثين أن فنون التقبيل والحب والمغازلة والإثارة الجنسية والتدخين يتعلمها الشباب والشابات من خلال السينما والتلفزيون (الفضائيات).

وتبين من خلال دراسة أجرتها هيئات أوروبية متخصصة أن متوسط مدة الإرسال التجاري اليومي ٩ ساعات يتوزع كما يلي:

من ٧٥٪ إلى ٨٠٪ مواد وبرامج تسلية.

من ٥٪ إلى ١٠٪ برامج ثقافية ووثائقية.

٥٪ تخصص للمعلومات.

من٢٪ إلى ١٠٪ برامج موجهة للشباب ورياضة.

و٥٥٪ من الناس يرون أن هذه البرامج الفضائية تؤدي إلى الشر والفساد والانحرافات المختلفة[١].

ومن بين ٤٥ مشهداً حصرتها صحيفة يو إس إي تودي usa today خلال أسبوع كانت هناك علاقات زواج بين أربعة، أما الباقون فقد كانوا زناة لا تربطهم ببعض علاقات شرعية.

وفي استطلاع أجرته مجلة usa news قال ٦٦٪ ممن شملهم الاستطلاع أن له آثاراً سلبية في البلاد، وأكدت الغالبية العظمى منهم أن التلفزيون يسهم في إيجاد المشكلات الاجتماعية، مثل: العنف، والطلاق، وحمل المراهقات سفاحاً، وانحرافات القيم العائلية.

---

(١) لا أريد أن أسهب الحديث في سرد الأمثلة وهي كثيرة في هذا المجال، نحيل القارىء العزيز إلى بعض المصادر التي أوردت شواهد على ذلك منها: كتاب كيف تؤثر وسائل الإعلام، د. محمد الحصيف، وبعض المصادر التي ذكرت في طيات هذا البحث.

ويلاحظ إيد جونيز، الذي أجرى هذا الاستطلاع بالاشتراك مع سيليندا ليك، أن أشد حالات القلق يعبر عنها النساء والمتدينون، ولكن حالات الغضب مما يبثه التلفزيون ينتشر بصورة عامة بين جميع الطبقات.

ويقول مايكل جوزيفون، رئيس معهد الأخلاقيات في كاليفورنيا، متذمراً: لم يعد يثير الاستهجان في التلفزيون أن يواعد الرجل المرأة أو يناما معاً.

وكشفت بعض التقارير عن شبكات التلفزيون، أنه من بين ٨٥ إثارة جنسية تضمنتها البرامج التي تم تحليلها، لم يتم التعرض إلى الأمراض الجنسية إلا مرة واحدة، ويعلق رئيس منظمة الجائزة الإنسانية، على ذلك بقوله: المخرجون والكتاب يخبرون المشاهدين جانباً واحداً من الحقيقة، وهو أن الجنس يبدو شيئاً لطيفاً، ولكن في العالم الحقيقي ينطوي الأمر على التزامات ومسؤوليات.. وأن الدراسات تؤكد أن ٦٠٪ من الأطفال قالوا: إن مشاهد الجنس التي يعرضها التلفزيون تحثهم على ممارسة الجنس في سن مبكرة جداً[١].

٦ - الأثر الاجتماعي:

الحقيقة التي يكتشفها الإنسان بعد مرور الزمان على وجوده كخليفة في الأرض، أنه كان منذ أن وجد يعيش جوعاً شديداً إلى القيم، يجعله يبادر إلى التمسك بها دون التفكير في نوعها جيدة كانت أو رديئة، تماماً كالمنهوم إذا وجد طعاماً لا يفكر في نوعه بقدر ما يفكر كيف يلتهمه، إن الشعور بالحاجة النفسية إلى الدين، وتعاليمه، ونظمه، ومبادئه هو

(١) مجلة الأسرة العدد ٤٠ مصدر سابق.

الذي دفع البشرية إلى عبادة الأصنام التي لا تضر ولا تنفع، وإلى عبادة الشمس والقمر والنجوم والشجر والدواب، وإن استعجال الإنسان في إيمانه بالقيم، هو الذي يدعوه إلى التمسك بالمبادىء الباطلة والأفكار الخرافية، ولو لم تكن هذه الحاجة شديدة، لوجد البشر متسعاً من الوقت يفكر خلاله فيما يؤمن به ويضحي من أجله.

من هنا سنّ الإسلام لنا النظم الدينية في حقول الاجتماع من أجل سعادتنا الدنيوية والأخروية، كنظم القضاء، والحدود والقصاص، ونظم الاقتصاد والسياسة، لأنها كفيلة بالقضاء على بواعث الجريمة في الأرض، واعتبر ديننا الحنيف خرق هذه القواعد وتلك النظم جريمة كبرى يحاسب عليها المجرم أشد الحساب، قال تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾(١).

﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾(٢).

ومما يؤسف له حقاً، أن الفضائيات الإعلامية بطرائقها المختلفة، تشجع الفرد المسلم على التمرد والتعدي على حدود الله، عبر نافذة الأفلام الإباحية، والماجنة، والمفسدة للعقول، والمحطمة لروافدنا الثقافية والعلمية والاجتماعية والاقتصادية.

لقد نشرت منظمة (الائتلاف الدولي ضد التلفزيون، والفضائيات) بحثاً استغرق إجراؤه (٢٢) عاماً أظهر الأثر التراكمي للتلفزيون الذي يمتد حتى عشرين سنة لتظهر نتائجه. قال البحث: هناك علاقة مباشرة بين الأفلام، والمسلسلات وبين تزايد عدد الجريمة والعنف في الوسط الاجتماعي، فارتفعت نسبة الجريمة الاجتماعية في السبعينات

(١) سورة البقرة، الآية: ١٨٧.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٢٩.

والثمانينات، وقالت المنظمة: إن ما يترواح بين ٢٥٪ و٥٠٪ من أعمال العنف الاجتماعي في سائر أنحاء العالم، سببها مشاهد العنف والغرام التلفزيوني، والسينما ساعدت على انتشار الجريمة.

ويقول الدكتور (رويل هيوزمان) أحد المشاركين في الدراسة: إن هذه النتائج هي أول سجل للآثار البعيدة المدى لمشاهد العنف والفساد التلفزيوني، ويقول أيضاً: إن ذلك يجعل الأطفال يكتسبون عادات عدوانية، بحيث يصبحون عندما تتقدم بهم السن، أكثر ميلاً إلى الأعمال الإجرامية[١].

لم يعد هناك من شك في أن للفضائيات والإنترنت وسائر وسائل الإعلام الأخرى، دوراً بارزاً في ظاهرة الفساد الاجتماعي المتنامية هنا أو هناك في كرتنا الأرضية، لكثرة إلحاح أفلامها وصورها وموضوعاتها السخيفة، ومسلسلاتها وبرامجها الميالة للميوعة والخلاعة والإباحية.. لقد أشار بعض الكتاب الصحفيين إلى أهمية إصلاح هذا الخطر الفادح، وإزاحته بطرق سلمية من أجواء الأسرة المسلمة والمجتمع، بقوله: إن ظاهرة العنف الاجتماعي هي من الآثار التي نشرتها وسائل الإعلام في المجتمع البشري، فالمسلسلات، والأفلام والبرامج لها أثر على سلوك المواطن، حتى صار أسهل الحلول، وأقلها تكلفة هو العنف، وقد عرض التلفزيون المصري في برنامج (اخترنا لك) فيلماً يدور حول هذه القصة، وهي أن مؤلفاً تلفزيونياً يقع في صراع بين رغبته في أن يكتب شيئاً له قيمة للتلفزيون، ورغبة المنتجين في أن تكون القصة مليئة بالعنف، والمطاردات، وانقلابات بالسيارات، وإشعال الحريق، والغرام الزائف، ويرينا الفيلم كيف أثر برنامج كتبه هذا المؤلف على شاب

---

(١) الأسرة والتلفزيون: ص ١٣٠ مصدر سابق.

فأشعل حريقاً وذهب ضحيته. . وهكذا طرح الفيلم السؤال عن مسؤولية الكاتب، ومسؤولية المنتج معاً، إن المنتج عادة يفكر في الربح، والربح ينبع من زيادة التوزيع، وزيادة التوزيع مضمونة إذا امتلأ المسلسل أو الفيلم بضرب النار والمطاردات المثيرة والعنف والغرام(١).

الفضائيات والإنترنت والعنف الاجتماعي:

إن ما يُقدم على شاشة الفضائيات، وصفحات الإنترنت، ليست عملية تربوية صحيحة، بل إنها عملية إفسادية محضة، لأنها بدون رقيب ومقنن، ولذلك من الصعوبة بمكان، أن يفصل الباحث بينها وبين التربية الأسرية والاجتماعية للإنسان المشاهد والمتصفح، فيما تقدمها من برامج ومسلسلات وأفلام وغيرها.

فقامت هنا وهناك في الوطن العربي والإسلامي والغربي معاً، دراسات متعددة وتحليلات ومؤتمرات، لتدارس الآثار الاجتماعية التي تخلفها وسائل الإعلام والاتصال على الفرد والأسرة والمجتمع.

فقد اهتم العديد من بلدان العالم المتقدم بدراسة أثر وسائل الإعلام في العنف والجريمة، ففي الولايات المتحدة الأمريكية، أكدت دراسة قام بها معهد (جالوب في عام ١٩٥٤م) أن ٧٠٪ من الآباء يلقون باللوم على قصص الجريمة، وبرامج العنف في الإذاعة والتلفزيون، ويرون أنها وراء ظاهرة جنوح الأحداث، وتؤكد الدراسة أنه اتضح لها من دراسات متعددة، وجود علاقة عملية بين العنف الاجتماعي كما يشاهده الطفل على الشاشة الصغيرة، وبين السلوك العدواني الموجه نحو المجتمع(٢).

---

(١) المصدر السابق: ص١٣١

(٢) ماذا يريد التربويون من الإعلاميين: ج ٢ ص ٢٠٧.

ويعد رجال القضاء، ورجال الصحة النفسية، ورجال التربية في الغرب من أكثر المهتمين بهذا الموضوع، وهم في الغالب، يرددون دائماً أن الأفلام والمسلسلات، والبرامج التلفزيونية، ووسائل الإعلام الأخرى كالإنترنت، كانت السبب في وجود الآثار الإفسادية الاجتماعية والأخلاقية في المجتمعات البشرية، حيث جعلتهم خلف القضبان الحديدية، أو نزلاء السجون أو المستشفيات للأمراض النفسية. قال القاضي (ملبورن ـ ١٩٧١م): لقد لا حظت أن انتشار العنف الاجتماعي والفساد الأخلاقي والتمرد السياسي يرجع عموماً إلى السينما والتلفزيون، لأنهما يعرضان دوماً البطولة مقترنة بحل المشكلات بالعنف(١).

الفضائيات ومعاكسة النساء:

وإذا وقفنا عند الآثار السلوكية الخاطئة التي تخلفها وسائل الإعلام والاتصالات من الفضائيات والإنترنت، نقف عند ما بليت به المجتمعات الإسلامية والعربية، من ظاهرة المعاكسات العدوانية التي تلقاها النساء في الطرقات، وأمام المدارس والجامعات، وفي الأسواق وعلى الرسائل الإلكترونية من خلال الإنترنت، وعبر وسائل الاتصالات من شبكة الاتصالات (الجوال) أو الهاتف المحمول وغيرها، وهذه كلها تصرفات لا تشبع نهماً ولا تروي ظمأً، بل تزيد من غلواء الجنس، وتضرم ناره، ومن ثم السقوط في حمى الرذائل والمنكرات، وما بعد ذلك إلا الخسران المبين. ويتحقق فيه قول الله سبحانه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ﴾(٢).

---

(١) ماذا يريد التربويون من الإعلاميين: ج ٢ ص ٢٠٧.
(٢) سورة الحج، الآية: ١١.

إن شباباً وشابات في هذا الصراع العسير، يعيشون بسبب هذه الوسائل صراعاً بين الفضيلة والرذيلة، وبين جنود العقل، وجنود الشيطان.

فهم في ساحة جهاد أكبر بين متطلبات السماء، وتعاليم الأنبياء والمرسلين عليهم السلام وبين متطلبات الدنيا والهوى والغرائز المحرمة.

وبطبيعة الحال فإن الخضوع والاستسلام للغرائز والهوى والشيطان، لا يعقبه إلا القلق والكبت والأرق، والألم والحسرة والاضطرابات النفسية والموت! لأنها تقود في أغلب الأحيان إلى الأمراض أقلها الجنون، وهذا ما أكدته الدراسات، وأيدته الحوادث، التي تبين المدى الذي تهيمن فيه الفضائيات، عبر مسلسلاتها وأفلامها، وبرامجها المفسدة، والاتصال عبر رسائلها وصفحاتها المخزية.

كتبت صحيفة عربية تحت هذا العنوان (شهر وراء القضبان، والسبب معاكسة في الطريق العام) تقول: في محاولة لوقف فوضى المعاكسات في الشارع العربي، وإحلال الآداب العامة، كثفت أجهزة حماية الآداب من نشاطها، مما أدى إلى ضبط خمسة الآف و١٨٣ قضية خلال عام واحد فقط!! وتنتشر المعاكسات في المناطق المزدحمة بالجمهور كوسط المدينة، والأماكن العامة من الأسواق، وأمام المدارس والجامعات.. ويتراوح أعمار المعاكسين هؤلاء بين ١٦ و٣٥ سنة من طلبة المدارس والجامعات والحرفيين والمجندين والموظفين، ومعظمهم من غير المتزوجين(١).

وفي الدراسة التي أجريت عن العوامل الاجتماعية المؤدية إلى

(١) الأسرة والتلفزيون: مصدر سابق.

الجرائم الجنسية في المجتمع السعودي عام ١٤١٤هـ، تبين أن (٤١.٢٪) من المحكوم عليهم بأفعال جنسية محرمة، كانت بداية انحرافهم وجنوحهم الجنسي هو ارتياد الأسواق التي تتردد عليها النساء بكثرة، بقصد النظر إليهن بشهوة، وأضافت نفس الدراسة أن (٣٦.٦٪) من مرتكبي الجرائم الجنسية يرتادون الأسواق التجارية، ويتجولون بالسيارات في الطرقات من أجل مراودة بعض النساء، كذلك تبين أن (٧٨،٨٪) من ممارسي معاكسة النساء يمارسون ذلك أثناء فراغهم، وأبرز ذلك البحث الميداني أن ظاهرة مضايقة النساء في الأسواق بقصد المعاكسة، ترتبط كثيراً بسلوك المرأة ولبسها وحركاتها، فقد ذكرت بعض الحالات المبحوثة أن الذكر غالباً لا يميل إلى مطاردة الفتاة ومعاكستها أو مراودتها إلا إذا ظهر منها قبول بذلك، بمعنى اجتماعي آخر: إن هذه الظاهرة تنشأ في المجتمع من تفاعل رمزي بين الرجال والنساء، هذا التفاعل من رضى الأنثى ومبادرة من الذكر، ويعبر رمز الرضى بالنسبة للأنثى بطريقة اللبس الخالية من الاحتشام، وتعطرها بالطيب والحركات الفاتنة والمغرية في الوجه واليدين والجسم، وأما بالنسبة لمبادرة الذكر، فيرمز لها بأخذ زمام المبادرة بالمراودة الجنسية، ويترتب على رمز الرضا التفاعل بين الاثنين عبر ممارسة الجنس.

وقد ثبت من الدراسات الاجتماعية على المجتمع السعودي، أن العوامل المرتبطة بالإجرام الجنسي، كان بينها علاقة أكيدة وقوية بين سلوك المرأة في طريقة لبسها وتعطرها وحركاتها، وبين ارتكاب الجرائم الأخلاقية[١].

وتطورت أساليب المعاكسة مع تطور الزمان والتقدم والتحضر،

---

(١) الظاهرة الإجرامية في المجتمع السعودي: ص١٠٤ مصدر سابق.

والقفزة العلمية والتكنولوجية التي يشهدها العالم البشري اليوم، فلم يقتصر على توجيه عبارات الغزل للفتاة، بل زاد إلى الوصف الفاضح لمفاتنها، واستخدام السيارات في الملاحقة والمطاردة، وعبر وسائل الاتصالات الحديثة (الجوال) و(البريد الإكتروني) (وتبادل أشرطة الفيديو للأفلام الإباحية). و(العلاقات الغرامية الفاسدة التي تطلق باسم الحب وهي من الخداع بمكان عظيم).

قصة واقعية:

ألقى إليها برقم هاتفه، فاتصلت به، وعرف منزلها، واسمها وخاطبها.

قالت: كيف عرفتني؟

قال: الحب من أول نظرة.

قالت: متى رأيتني؟

قال: عندما كشفت عن وجهك لتري البضاعة في المحل، وبدأت لا أنام من الشوق والغرام، صدقته البائسة، ولكنها لم تعلم بأن غيره إلى جواره، في السماعة على الجهة الأخرى زملاء الشر والفساد معه يشجعونه على هتك أعراض الناس، لتكون فريستهم التالية.

تمكن بكلماته المنمقة من إغرائها، واستطاع أن يأخذها بعد أن وثقت به إلى عرين افتراس الشرف والعفاف.. فكانت بعد أيام قليلة فريسة للجميع، وخوفاً من العار والفضيحة تمكنت أخيراً من أن تتخلص من عارها بقتل نفسها بخنجر، وكتبت على وصيتها: (أحذركن من الهاتف المسموم).

وهذه قصة من ملايين القصص التي دمرت مجتمعنا الإسلامي، وكان ضحية من ضحايا الإعلام المرئي، والمسموع، والمقروء.

الفضائيات والدعارة الاجتماعية:

تفيد الدراسات الاجتماعية التي قامت بها بعض الباحثات الاجتماعيات في الوطن العربي، أن غلاء المعيشة والتضخم الحاصل في كثير من المدن التي تعاني من الصعوبات الاقتصادية، جعل هذه الحرفة الرذيلة لم تعد حرفة تكسب القليل من المال، ولم تبق مهنة لم تجد لها سقفاً يأويها أو عائلة تحتضنها، وإنما أصبحت وسيلة رائجة لتحقيق الأماني في وجدان الكثير من الفتيات، وأصبحت هذه المهنة مرتبطة بالكثير من المهن التي تبدو بشكل أو بآخر أن ليس لها علاقة بها، وأصبحت بعض المدن والعواصم الإسلامية والعربية، تعرف نوعاً من الوسطاء لرجال الأعمال، لإنهاء مشاكلهم والتخلص من التعقيدات أو المشكلات الروتينية في العمل، أو من أجل التحايل على القانون، ويبدأ الرجل المفتاح يتحرك في سبيل ذلك، وأهم وسيلة يستخدمها هي النساء الجميلات يحاصرن المسؤولين الذين في يدهم القرار والعطاء والمنع.

لقد عرفت المجتمعات الإسلامية ظاهرة (الدعارة) منذ القدم، وكانت مهنة مقززة ومحاربة من كافة قطاعات وشرائح المجتمع، ووضع لها الشارع المقدس حداً شرعياً إذا ثبتت بالبينة الشرعية كما قرره علماء الفقه في ذلك، ولكن بعد أن انتشرت وسائل الإعلام المعاصرة من الفضائيات والاتصالات، التي جعلت من هذه المهنة المحرمة والتي كانت تمارس في الخفاء، أصبحت من المهن التي تصنف من ضمن قرارات بعض الدول، ولها حقوق قانونية، وتحرس بحراسة أمنية دولية عالمية.. فما إن راح الإعلام عبر نوافذ الفضائيات يروج الإباحية والعلاقات الشاذة جنسياً، ويشجع على ممارسة العرض الخليع، والعلاقات اللواطية والمساحقة بين النساء، حتى سقطت كثير منهن في شبكات الدعارة العالمية.

فوسائل الإعلام المعاصرة والقنوات الفضائية، والاتصالات الإلكترونية عبر الإنترنت، كلها تسببت في إسقاط الكثيرين في شبكات الدعارة من النساء والرجال.

فهذه فتاة في الثانوية العامة يعمل والدها مديراً لإحدى المدارس، وكذلك أمها مديرة لمدرسة بنات، وليس لها من الإخوة إلا أخوها الذي يكبرها، وكان الأخوان يطمحان إلى أكثر مما يمنح لهما الوالدان، وكان لكل من الأخ والأخت مشاكلهما التي يقف الدخل المحدود حاجزاً في سبيل حلها، وأخيراً استطاع الأخ أن يحل مشاكله بنفسه، فقد كان يجيد العزف على الغيتار، فعمل في أحد النوادي الليلية مع فرقة موسيقية، وأصبح الابن قادراً على شراء ما يريد من ثياب وغيرها، ولما رأته أخته ينفق على نفسه بإسراف، طلبت منه الذهاب معه إلى الملهى، فذهبت وغنت أمام مدير الملهى، فتعاقد معها على مبلغ مغرٍ شهرياً، واستطاعت أخيراً أن تشتري ما تشتهي من الثياب والعطورات وغيرهما، ثم طلب مدير الملهى منها أن تجالس الزبائن مقابل مبلغ آخر من المال، وهكذا شهد هذا الملهى ميلاد عاهرة جديدة.

وهذه القصة واحدة من مئات القصص الواقعية التي يشهدها عالمنا العربي والإسلامي.

الآثار المدمرة للفيديو:

عرف جهاز الفيديو لأول مرة كتجربة علمية عام ١٩٥٦م، ثم كجهاز أمريكي يقتصر على قاعات البحث والعلم في أوائل الستينيات، وفي عام ١٩٧٣م حوله اليابانيون إلى جهاز تجاري، وأصبح الناس في مجتمعاتنا يشعرون بالاعتزاز والافتخار والوجاهة الاجتماعية، لامتلاكهم المزيد من الأجهزة الإلكترونية والكهربائية، وعلى رأسها جهاز

الفيديو.. ولم تقتصر تجارة الفيديو على البيع والتأجير، وإنما تعدت إلى إنتاج تلك الأفلام الداعرة، حيث أغرى الكسب المادي الكثيرات إلى القيام بتمثيل الأفلام العارية، وتبين خلال التحقيقات أن معظم زبائن هذه التجارة هم من الشباب المراهقين.

وقد شاهدت مجموعة من الشباب أحد هذه الأفلام، وعندما بدأ عرض الفيلم قفز أحد الحاضرين بغضب إلى جهاز الفيديو، وأخرج الشريط وخرج من البيت حافي القدمين، وظل يجري، ولم يتوقف أو يهدأ إلا في مركز الشرطة، فقد كانت أخته هي بطلة الفيلم الفاضح، وتم القبض على الأخت التي تبين أنها عضوة في شبكة كبيرة، تخصصت بإنتاج مثل هذه الأفلام العارية، وتحاول بقدر استطاعتها أن تقنع الأخريات من بني جنسها بهذه الوظيفة المغرية!

الفيديو والفنادق:

تحت عنوان: احذر هذه الفنادق، نشرت بعض الصحف العالمية تحذيراً من بعض الفنادق العالمية، التي تلعب دوراً في تسجيل ممارسات الجنس بين الزوجين من خلال كاميرا صغيرة مثبة في زاوية من زوايا الغرفة، والخبر كالتالي:

هناك من الفنادق من تحوي غرفها على كاميرا سرية، تصور العروسين في ليلتهما الأولى من غير أن يعلما بذلك، ثم تقوم إدارة الفندق بتسويق تلك الأفلام، إلى خارج البلد، وقد حصل أحد الشباب من الذين يدرسون في إحدى الدول الأوروبية على أحد هذه الأفلام، ولشد ما دهش عندما رأى أن ما يعرضه الفيلم هو لأخته، فاتصل في الحال بأهله، وسأل عن أخبارهم، وخصوصاً أخبار أخته، فأخبروه أنها بخير، وأنها تزوجت قبل فترة وجيزة، فطلب منهم إرسال صورهم،

ومن ضمنها صورة أخته وزوجها، وعندما أرسلوا له الصور، وجد أن الفيلم لأخته وزوجها في ليلة زواجهما في ذلك الفندق الراقي والمشبوه، وبعض النساء تتطرف في نبذ الحياء فتصاحبها كاميرا الفيديو إلى صالة الولادة لتصور لحظات الولادة، وهو أمر في غاية السخافة.

ولو وقفنا عند بعض مساوئ هذا الجهاز الذي يلعب دوراً خطيراً في عملية الانحرافات السلوكية، لرأينا كم وكم سقطت في شباكه فتيات عفيفات.

فالفتاة التي تمارس الحب الزائف، يجبرها عشيقها على تصويرها بدافع الحب، بينما حبيبها كان يدير جسدها بين يديه في أوضاع مناسبة لعدسة الكاميرا الخفية عنها، حتى يتمكن منها تحت القسر والإجبار والتهديد عدة مرات، فتطيعه عندها طاعة عمياء، خوفاً من أن ينشر صورها على الآخرين، وهذا ما يحدث مع شديد الأسف في صالات الأفراح، والمناسبات، وعلى كاميرا الإنترنت في هذه الأيام(١).

عصابات نسائية للفيديو:

عبث الإعلام بوسائله بعقلية المرأة، ووسوس لها وأخرجها عن وقارها وعفتها، بتأثيراته على كافة حواسها عند المشاهدة، وليست المرأة في منأى عن التأثر بما تراه أو تشاهده أو تسمعه من وسائل الإعلام، فهي كالرجل إن لم تزد عليه، وعليه فإن الأخطار المحدقة بالرجال هي بعينها محدقة بالنساء، بل هي أكثر من الرجال أمام وسائل الإعلام المختلفة، فالمشاهد والقارىء لوسائل الإعلام المعاصرة يرى كأنها متخصصة في شؤون إفساد عقلية المرأة وتحطيم كيانها، كإنسان له كرامته واحترامه وتقديسه في شرائع الأنبياء والمرسلين عليهم السلام.

---

(١) الأسرة المسلمة: ص ٤١، أمل حسن.

فالفضائيات المتخصصة للغناء، والفضائيات المتخصصة للأفلام المكسيكية (المدبلجة)، والفضائيات المتخصصة للأزياء (الموضة). والفضائيات المتخصصة للجنس والإباحية والمشاهد الخليعة وغيرها. كلها جاءت من أجلها، من أجلها وحدها!.

لذلك تمكن الإعلام من فرض هيمنته وتهويده على عقليتها، فخذ على سبيل المثال لا الحصر: طالعتنا وكالات الأنباء بخبر مفاده: سطت عصابة مسلحة مؤلفة من ثماني نسوة، على عشرة منازل في قرية من مدينة (البنغال) الغربية في الهند وسلبت ما فيها، ونقلت وكالة الأنباء الهندية عن مصادر للشرطة قولها: إن هذه العصابة اصطدمت بأصحاب البيوت المنهوبة مما أدى إلى جرح خمسة رجال، وأضافت المصادر أن هؤلاء النساء كان للإعلام ووسائله المختلفة بما في ذلك الفيديو الأثر الكبير على مسلكهن العنيف.

وهذه القصة من آلاف مؤلفة من الحوادث التي ترتكبها النساء بسبب تأثير الإعلام عليهن.

الفيديو أشد فتكاً من المخدرات:

اعتبرت الدراسات العلمية الميدانية التي قام بها بعض الباحثين الإسلاميين في الوطن العربي، أن الفيديو أشد فتكاً بالأخلاق والأسرة والمجتمع من المخدرات، حيث توضع بذور الهدم في العقول على كل المستويات والأعمار، وتنمو داخل تلك النفوس التي تواظب على منهلها السام، فينشأ هؤلاء الأفراد نشأة غير سوية، ويتصرفون تصرفاً غير حضاري، ويكونون مجتمعاً مريضاً مستغرقاً في غيبوبة الغرائز، في مستوياتها البالغة الهبوط بكل مغرياتها المخدرة.

ويمكننا أن نتصور كيف يكون هذا النوع من المجتمع الذي

ينجذب إلى هذا الطراز من التسلية للروح وللفكر وللحضارة، والخطورة هنا هي كيف يمكن تصحيح هذا الاتجاه الرهيب في الإشارة إلى تلك الأنواع من الفيديو، وكيف يمكن التحكم فيها؟

إنها قضية خطيرة تحتاج إلى تضافر الجهود في مختلف الميادين، على أساس من الفهم والوعي الصحيح والسليم، ونحن بصدد بنائنا الحضاري الآن.

وإذا أردنا أن نتعرف على تلك الأخطار المدمرة، فإليك بعض الشواهد:

إن ناظر إحدى المدارس ذهب إلى صاحب مقهى يرجوه ألا يقدم أفلام الفيديو في الصباح، لأن المدرسة خلت تماماً من التلاميذ!! ولما لم يستجب له صاحب المقهى طلب معاونة البوليس.

إن أحد الآباء الذين يقتنون جهاز فيديو عاد متأخراً مساء يوم، فوجد أولاده جميعاً يشاهدون فيلماً من أفلام (البلو سكس) أفلام الجنس الكامل، فثار وحطم الجهاز[١].

الأثر الجسمي:

تؤكد الأبحاث العلمية التي أجرتها اللجان المتخصصة في هذا العلم تأثير التلفزيون السلبي على أعضاء الجسم الإنساني وحواسه، لما يبعثه من الإشعاعات الضارة وخاصة الأشعة السينية.

وقد أثبتت التجارب إصابة فئران التجارب بالسرطان لتعرضها لأشعة التلفزيون، ولم تنج حتى الغدد الصماء في داخل الجسم البشري

---

(١) الأسرة والتلفزيون: ص ٢٣٠ مصدر سابق.

والحيواني من آثار هذه الأشعة. . كما أنه يكون سبباً رئيسياً لموت المواليد بعد الولادة، كما لم يعد خافياً على أحد الأضرار التي تصيب العين نتيجة لأشعة التلفزيون أو لطريقة المشاهدة، إضافة إلى ما يسببه التلفزيون من الأرق، واضطرابات قلبية، ونفسية وأخلاقية أيضاً.

ماذا يقول العلم في آثاره الضارة؟

يشير الخبير العالمي (جيري ماندر) إلى الآثار الضارة لأشعة التلفزيون على الحواس الإنسانية، وعلى البصر خاصة لأنه الحاسة التي تتعامل مع التلفزيون مباشرة. . فيقول: عندما نشاهد التلفزيون تأخذ أجسادنا أوضاعاً ساكنة لمدة من الوقت أطول من أي تجربة حياتية باستثناء النوم، وهذا يصدق أيضاً على العينين، حيث يظن الجميع أنها أكثر ما تكون نشاطاً عند مشاهدة التلفزيون، والعكس هو الصحيح، وخاصة إذا كان بينك وبين الجهاز بعض المسافة، أو كان الجهاز صغيراً، حيث يتم حصر الصورة كلها داخل حقل النظر دون أي مسح يذكر. . مما يؤثر تأثيراً سلبياً على العين مباشرة، ومن ثم المخ فيسبب لهما العطب. . هذا إلى جانب ما يصيب البدن من الخمول والكسل نتيجة السكون شبه التام، الذي لا يقطعه سوى حركات بسيطة يريح فيها جنبه، كما أن الجلوس الطويل أمام شاشة التلفزيون يسبب الكسل الذي بدوره يعمل على إبطاء الدورة الدموية واضطرابات في القلب، ويقلل من عدد مرات الشهيق والزفير مما يتسبب في أمراض البدن الإنساني[١].

أضرار ضوء التلفزيون على الجسم:

توجه الشاشة التلفزيونية أشعتها إلى العين المشاهدة بقوة

(١) جيري ماندر: مصدر سابق.

(٢٥٠٠٠) فولت في الجهاز الملون، وبحدود (١٥٠٠٠) في الجهاز الأبيض والأسود، فيسقط هذا الضوء بهذه القوة على أبصارنا فيؤثر تأثيراً سلبياً على العين من ثم على كامل الجسم، بحيث تُسبب عطباً كبيراً في كافة الجسم البشري.

يقول الخبير الإلكتروني (جون أوت) وهو اختصاصي في التصوير البطيء، في سلسلة دراسية شهيرة له، إن إحدى النباتات نمت بشكل مشوه بالغ الضخامة بعد أن وضعها أمام شاشة تلفزيون ملون، وفي تجربة مماثلة على الفئران أصيبت هذه ببؤر سرطانية بسبب تعرضها للأشعة المنبعثة من التلفزيون تعتبر ذات ضرر بالغ بالإنسان.

وقد تبين له أن الضوء يمر عبر عيوننا ليصيب طبقة الشبكية التي تتمتع بوظيفة مزدوجة، أولها: تلك المعروفة المتعلقة بترجمة الضوء إلى صور عبر الأعصاب الواصلة إلى الدماغ.

أما ثانيها: التي لا تقل أهميتها عن سابقتها فتتعلق بشعاع الضوء نفسه الذي يمر عبر أقنية كيميائية داخل الغدة الصنوبرية والغدة النخامية وخلالها، أي داخل الغدد الصماء عند الإنسان والحيوان على حد سواء[١].

وأما أضراره على المرأة الحامل، فقد أكدت نتائج البحوث العلمية أن تعرض الأم الحامل لمصادر الإشعاع الشديد الموجودة حولنا في كل مكان، ينتج عنه تشوهات في الأجنة قد تسبب في موت الجنين قبل أو بعد الولادة.

يقول الدكتور (محمد منصور) رئيس وحدة بحوث المناعة

---

(١) المصدر السابق: ص١٤٣.

والطفيليات بالمركز القومي لتكنولوجيا الإشعاع: من المعروف أن التعرض للإشعاع قد يسبب تغيرات في جلد وأعضاء الجسم المختلفة لدى الإنسان والحيوان على حد سواء، كما يسبب الإصابة بالأورام السرطانية واحتمالات التقليل من الخصوبة في الذكور والإناث، إلى جانب تغيرات في الصفات الوراثية في الأجيال القادمة، وإحداث تشوهات خلقية في الأجنة أثناء فترات الحمل المختلفة... وبناء على ذلك ينصح الدكتور النساء الحوامل والأطفال بعدم الجلوس لفترات طويلة أمام أجهزة التلفزيون الملون الموجودة حالياً في معظم البيوت، إذ أنه مصدر للإشعاع القاتل للجنين، كما أنه يؤدي إلى ضعف الإبصار عند الأطفال، إضافة إلى تأثيره على عدسة العين[١].

العلاجات العملية لظاهرة الإعلام المُفسد:

لقد أصبحت ظاهرة محاربة الإعلام المضاد حركة اجتماعية لها مدارسها، ومراكزها البحثية. ففي كندا انتشرت على نطاق واسع مادة (المعرفة الإعلامية) التي يتم تدريسها في المدارس، لتعليم الطلاب أن الهدف من وجود البرامج هو تسليم المشاهد لأصحاب الإعلانات، الذين يتاجرون بالجنس، والعنف، وفساد الأخلاق، وأن أخبار التلفزيون ليست هي الأخبار التي تصلح للبث، وقد شرعت المدارس الأمريكية في اللحاق بها، بينما كان موقف الدول العربية والإسلامية تزايد الإقبال على الأطباق التي تبث الفضائيات في صمت إعلامي وموقف دولي بارد!

إن خطر الفضائيات كبير، ولو قام الآباء والأمهات، والناس بتسجيل ملاحظاتهم على ما يشاهدونه، ثم راجعوا تلك الملاحظات بعد

(١) المصدر السابق: ص ١٢٦.

أسبوع، لاكتشفوا حجم ما يمثله الإعلام المرئي من خطر على الأسرة والمجتمع.

لذا طالب الخبير التربوي (هارفي ديوتيل) بضرورة إغلاق التلفزيون من أجل القراءة، ومن أجل حياة الأسرة، ومن أجل الإبداع.

حلول عملية سريعة لظاهرة الإفساد الإعلامي:

لعل أفضل حلول طرحت على الساحة الإسلامية لمعالجة جادة لهذا الخطر المحدق بنا جميعاً، حلول الإمام الشيرازي (قدس)التي قدمها في بعض مصنفات مجموعة اقتراحات لمواجهة هذا الخطر بالذات، وأوضح سبل التصدي له، نلخصها للقارئ لتعم بذلك الفائدة المرجوة إن شاء الله تعالى.

١ ـ التعاون المشترك:

عاون الدول الإسلامية على إبرام اتفاقية يتم طرحها في الجمعية العامة للأمم المتحدة، ومن ثم يتم المصادقة عليها في هيئات الأمم المتحدة الأخرى.

وتقضي الاتفاقية بتحريم نشر وتوزيع وبث الأفلام الخليعة المضرة بالمجتمع، والتي تسبب نشوب حالات الشذوذ والانحراف الجنسي.

وكما صادقت الأمم المتحدة على اتفاقية حظر ونشر الأسلحة الكيماوية والأسلحة الميكروبية والمخدرات، فعليها أيضاً أن تقوم بإبرام اتفاقية من هذا القبيل، إذ هذه الأفلام بتوابعها التي يعد من ضحاياها المصابون بمرض الإيدز والذين يقدّرون بالملايين، ولا يقل خطر الإيدز عن خطر القنابل الميكروبية أو الكيمياوية، ويستفاد لتحقيق هذه الغاية من كل الوسائل المتاحة وهي:

١ ـ تنشيط الوسائل الإعلامية لإقناع أو الضغط على المجتمع الدولي وهيئات الأمم المتحدة بضرورة إبرام اتفاقية حظر وتوزيع وبث الأفلام الماجنة المخالفة للعفة البشرية.

٢ ـ مطالبة جمعيات حقوق الإنسان وتجمعات الأديان بتبني هذه الفكرة والدعوة إليها، والضغط على المجتمع الدولي لإبرام مثل هذه الاتفاقية، التي يتم بموجبها الحد من انتشار الخلاعة عبر الأقمار الصناعية، وهي جزء أصيل من حقوق الإنسان التي تنسجم مع الفطرة البشرية.

٢ ـ الضغط على الدول المصدرة:

الضغط على الحكومات الإسلامية لمنع انتشار صحون الأقمار الصناعية في بلادها، كما يجب منع إنتاج ونشر الأفلام الخلاعية، وسنّ العقوبات الكفيلة بالحيلولة دون انتشار وتوزيع هذه الأفلام. كما أن من الضروري مطالبة الحكومات الإسلامية بطرح الفكرة على الجمعية العامة للأمم المتحدة والإصرار على التوقيع على اتفاقية الحظر على الأفلام الخليعة واعتبارها ميثاق شرف، يجب الالتزام به.

٣ ـ إعلان الغضب على استيراد الفضائيات:

اشتراك الحركات والمنظمات السياسية والثقافية والإنسانية في هذه المهمة الإنسانية الرامية إلى الحد من انتشار هذه الأفلام الفاضحة، وأثر هذه الأفلام على الصحة العامة وعلى الإنتاجية الاقتصادية، حيث تستهلك كمية لا يستهان بها من أوقات الناس وثرواتهم.

٤ ـ فضح الجهات المسؤولة:

والتي تعمل في الخفاء على إنتاج وتوزيع الأفلام المخلة بالعفة.

حيث تتوسل هذه الجهات بمختلف الوسائل لتحقيق مآربها. وهي تعمل على هدم القيم الاجتماعية وتبديد الأواصر التي تشكل مانعاً حقيقياً أمام أهدافها.

ومن أبرز الوسائل التي تستخدمها هذه الشبكات في تمرير أهدافها هو إنتاج وتوزيع وبث الأفلام الخليعة إلى جانب المخدرات وإنشاء مراكز للدعارة.

وهذه هي الوسائل الثلاث الهامة التي تستخدمها هذه الأجهزة في تنفيذ مآربها المنحرفة.

٥ ـ التشجيع على إيجاد البديل:

تشجيع الأقلام الخيّرة ـ كتّاباً وصحفيين ـ والأصوات الإنسانية، في العمل على مواجهة موجة الأفلام الخلاعية وذلك:

١ ـ بفضح الجهات المسؤولة والتي تقوم بإنتاج وتوزيع هذه الأفلام.

٢ ـ إرشاد الناس إلى مضارّ هذه الأفلام ومطالبتهم بمقاطعتها مقاطعة كاملة.

٣ ـ تنظيم برامج تُدين إنتاج وتوزيع ونشر الأفلام الخليعة وذلك من خلال ما يلي:

أ ـ تنظيم مسيرات احتجاجية ضد هذه الأنشطة إذا لم يكن محذوراً وضد من يمارسها. قال الإمام علي عليه السلام: «أمرنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن نلقى أهل المعاصي بوجود مكفهرّة».

ب ـ تنظيم ندوات شعبية في المراكز والمساجد بقصد توجيه الناس إلى الآثار السلبية التي تتضمنها هذه الأفلام الفاضحة.

ج ـ تنظيم الإضرابات أمام دور السينما التي تقوم بعرض مثل هذه الأفلام، وإقامة عمليات الاعتصام السلمية داخل المراكز التي يتم فيها إنتاج أو توزيع أو عرض هذه الأفلام إذا لم يكن محذوراً.

د ـ دعوة الحكومات إلى فسح المجال أمام الشركات والمواطنين لقيامهم بتأسيس قنوات تلفزيونية.

فمن الخطأ أن تبقى أجهزة الإعلام حكراً بأيدي الحكومات. بل يجب تشجيع الراغبين في تأسيس مثل هذه الأجهزة ودعمهم مادياً ومعنوياً بإعطائهم الحرية الكافية ضمن الإطار الإسلامي.

وبهذه الطريقة تتنوع محطات التلفزيون الأمر الذي سيؤدي إلى صرف أنظار الناس ـ إلى حد كبير ـ عن المحطات الأجنبية التي تبث برامجها عبر الأقمار الصناعية، لتتجه إلى القنوات المحلية التي تبث برامج منوعة ومشوقة نتيجة تنامي حالة التنافس بين مختلف الشركات والأفراد.

إن أكثر الناس لا يرغبون النظر إلى القنوات الحكومية، لأنها باعتقادهم أسست لهدف محدد هو الدعاية للحكومة، الأمر الذي أدى إلى عزوف الناس عن مشاهدة هذه الأجهزة كبديل عن المحطات المحلية، إضافة إلى أنها ليس بمقدورها أن تملأ كل فراغ الناس بالأفضل والأحسن.

٦ ـ الاهتمام بالمراهقين:

الاهتمام بفئات الشباب خاصة من عمر (١٤ ـ ٣٠) وهم ربما يشكلون نصف المجتمع.

ويتجسد هذا الاهتمام بإيجاد مؤسسات أو هيئات أو وزارات ترعى

شؤون الشباب وتعمل على ملء الفراغ في حياتهم، بإيجاد مشاريع ثقافية تشغل أوقات الفراغ بأمور نافعة، ومن الأمور النافعة ما يلي:

١ ـ تشغيل الشباب في فترات العطل في مشاريع اقتصادية تدرّ عليهم بالأموال.

٢ ـ إيجاد فرص العمل العديدة في مختلف شؤون الإنتاج لاستيعاب الملايين من العاطلين عن العمل.

٣ ـ استثمار هوايات الشباب في مختلف الشؤون والحقول وذلك بإيجاد النوادي التي تحتوي على مختلف الأنشطة من خط ورسم وزخرفة وكومبيوتر وما أشبه ذلك.

٤ ـ الاهتمام بذوي الكفاءات العلمية بإيجاد معامل مصغرة ومختبرات تجريبية في مختلف الشؤون العلمية من كهرباء وميكانيك و. . .

٥ ـ إيجاد الفرق الرياضية المفيدة والعمل على تشجيع المسابقات الرياضية بين فرق الشباب كفن السباحة والسباقة والرماية و. . .

٦ ـ التوجه إلى حل المشكلات الاجتماعية للشباب، وتوفير الوسائل المادية للزواج، وتسهيل أمره من خلال إقامة لجان للتزويج والتبسيط في نفقات وبرامج الزواج، فالمشكلة الاجتماعية الكبرى التي تواجه المجتمع هي مشكلة العزوبية، وهي رأس الكثير من الكبائر في المجتمع، فلا بد من معالجة هذه المشكلة أولاً.

٧ ـ إشاعة الأخلاق الفاضلة:

إشاعة الأخلاق الإسلامية والفضيلة والتقوى في المجتمع، فإن الأخلاق السامية من أهم أسباب الوقاية، وفي المثل: «إن مثقالاً من الوقاية خير من قنطار من العلاج».

فعندما يكون مناخ المجتمع الذي يعيش فيه الشاب والشابة مناخاً سليماً، فإن الفرد الذي يتخرج من هذا المجتمع يكون سالماً وصالحاً، وبالعكس عندما يكون المناخ الاجتماعي فاسداً فإن الفرد سيتربى على الفساد والإفساد، وحتى الذين يريدون إصلاح أنفسهم لا يجدون إلا فرصاً ضئيلة لإصلاح أنفسهم في المجتمعات الفاسدة.

٨ ـ إصلاح المناخات الاجتماعية:

وهذا يتلخص في عدة نقاط أهمها:

١ ـ التزام الآباء والأُمهات بالأخلاق والفضيلة والتقوى ليكونوا نموذجاً عملياً صالحاً للأولاد.

٢ ـ تطبيق القواعد الأخلاقية والقوانين الإسلامية في المجتمع كالصدق، والمواساة، والإيثار، وحسن الخلق، والتعاون على البر، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر و...

٣ ـ إشاعة روح الشورى في المجتمع ومكافحة روح الاستبداد والطغيان والدكتاتورية، لأن الاستبداد هو (أساس الفساد في المجتمع).

فمناخ أيّ مجتمع يغدو سامّاً بوجود الاستبداد، لأن الاستبداد يقتل الطاقات والكفاءات، ويحطم التجمعات الكفوءة والمخلصة، التي بمقدورها أن تحتوي الشباب، كما أنه يدمر اقتصاد البلاد و«من لا معاش له لا معاد له» و«كاد الفقر أن يكون كفراً»[1].

٩ ـ التشويش على الأفلام اللاأخلاقية:

التشويش على الأفلام اللاأخلاقية في أوقات بثها ـ إن أمكن ذلك ـ

---

(١) الوسائل: ج ١٧ ص١٣٤.

كما تجعل الحكومات المتحاربة التشويش على إذاعات وتلفزيونات أطراف النزاع.

١٠ ـ الخطابة ومسؤولية التوجيه:

حث الخطباء ورجال التبليغ على الاهتمام بهذا الموضوع الخطير وإلفات الناس إلى مدى الخطر الذي قد يُوجه نحوهم، وكذلك حث أساتذة الجامعات والمعلمين في المدارس إلى التفكير بصورة جدية لتحصين الناس بمختلف أعمارهم وبمختلف مهنهم من عمال وطلبة، ضد هذه الهجمة الإعلامية الشرسة ضد الإسلام والمسلمين، وشرح أبعاد المخطط الرامي إلى إفساد شباب المسلمين عبر هذه الوسائل المستحدثة.

١١ ـ إيجاد البدائل:

التفكير بشكل جدي في إيجاد البدائل الإيجابية السليمة.

ويكمن هذا في الحلول العملية التالية:

١ ـ إيجاد قنوات تلفزيونية تبث برامجها عبر الأقمار الصناعية، تقوم بنشر الثقافة الإسلامية بأساليب فنية جذابة.

٢ ـ دعوة الشركات والمؤسسات الفنية إلى إنتاج برامج وأفلام سينمائية وتلفزيونية تستطيع أن تستوعب التاريخ والقيم الإسلامية والمفاهيم القرآنية والإنسانية، ورصد الأموال الكافية لهذا الغرض.

٣ ـ إغناء القنوات التلفزيونية في البلاد الإسلامية بالبرامج المفيدة وبالأفلام الجذّابة العلمية والاجتماعية وشبهها، وتطهيرها من الأفلام الرخيصة غير النافعة والمضرّة.

٤ ـ استيعاب مشاكل الشباب في البرامج التلفزيونية المحلية

والعالمية، وتبني قضاياهم والتعبير عن مشاعرهم السلميّة والابتعاد عن كل ما يثير فيهم النزوع إلى الانحراف.

٥ ـ إعداد مسابقات وترتيب الجوائز للفائزين من الشباب الذين يقدرون على كسب الأرقام القياسية في المسابقات أو الذين يقدّمون خدمات جليلة لمجتمعهم، ومن هذه المسابقات الممكنة مسابقة تأليف الكتب، مسابقات الاختراع، وما شابه.

وبهذه الأمور يمكن التخفيف من أثر الأقمار الصناعية أو إزالة آثارها كاملاً.

الكتب والصحف والمجلات والانحرافات

تتوقع دائرة الإحصاءات العالمية (لطبوغرافية السكن) أن يصل عدد سكان البلدان العربية في مطلع سنة ٢٠٠٣م إلى ٤٠٠ مليون نسمة، ـ بينهم نسبة من الأميين ستبلغ في متوسطها العام بين ٣٠و٤٠ في المئة، مما يعني أنه قد يكون لدينا زهاء ١٧٠ مليون عربي قادرون على قراءة الصحيفة والمجلة والكتاب، في حين أن متوسط التوزيع الأعظم لأكبر صحيفة عربية اليوم لا يتجاوز المئتي ألف نسخة، وتوزيع الكتاب الثقافي والمحرك للضمائر والتغيير لا يتجاوز ٣٥ بالمائة منه. وأغلب القراء يبحثون عن مواضيع معينة لا تتجاوز حدود الأدب الروائي، والروائي الفاضح، والكتاب السياسي، وقسم قليل يبحث عن الثقافة العامة، ونزر لا يذكر من يجمع بين هذه الأشياء.

وهذا بطبيعة الحال تسبب في إيجاد الجهل المقنع الذي تعيشه بعض المجتمعات العالمية والإسلامية معاً، وقبل أن نلم بالمشكلات من كافة جوانبها لا بد لنا من المرور على بعض المواضيع التي لها علاقة بهذا المبحث (الكتب، والصحف، والمجلات والانحرافات) فنقول:

القراءة منطلق التغيير:

(اقرأ) كانت البداية هي هذه الكلمة التي كانت كافية لتحديد مسار الإنسان المعذب في الأرض، ورسم خريطته المنتظرة، إذ كانت في هذه الكلمة عدة دلالات:

منها: أن تغيير الإنسان ومحيطه لا يكون إلا منه أولاً، فهو بذاته المسؤول الأول عن أوضاعه الشاذة وعن صنع مستقبله بنفسه. أي أيها الإنسان إنك تملك ذخيرة كبيرة من المواهب والإمكانات تقدر أن تحارب بها الشقاء المصطنع من حولك، وتصنع لنفسك الحياة المرفهة الكريمة.

ومنها: أن البداية بالتغيير الصحيح يجب أن يكون بآليات (الوعي) والوعي بما في الحياة من طاقات، وبما في الإنسان من قدرات، لتسخيرها من أجل حياته الفاضلة، والوعي يعتبر مسؤولية الإنسان فعليه أن (يقرأ) حتى يحصل على الوعي[١].

إذن: القراءة طريق لتحرك الإنسان نحو تحصيل الكرامة والحرية والفضيلة، متوقف على الوعي، والوعي من آلياته القراءة.

إديسون والقراءة:

كان توماس إديسون مخترع المصباح الكهربي والحاكي ومروض الكهرباء وأجهزتها، وعلى يديه تمّ تحسين البرق (التلغراف) وكل صغيرة وكبيرة في دنيا العلوم والرياضيات والكهرباء.

ولهذا قال كلمته المشهورة: بالقراءة تعلمت كل شيء.

وقال عن أهميتها: لم أتلق في حياتي علوماً رياضية على يد مدرس، ولم أدخل مدرسة ثانوية إطلاقاً، ولكن تعلمت ما تعلمته عن طريق المطالعة وحدها، وبرغم اختراعاتي لم أكن متخصصاً في علم الرياضيات، ولكنني كنت أستطيع حل معظم مسائل الرياضيات العالية بفضل القراءة ودراستي الخاصة.

(١) راجع كتابنا فقدان الوعي طريق الدمار: ص ٨.

وقد سُئلت زوجته عن حبه للقراءة فقالت: المطالعة عمله الدائم، وكان يقضي عدة ساعات كل يوم باحثاً في الكتب والتراجم، فإذا تعب من قراءة موضوع علمي عاد إلى إجراء تجاربه[١].

أهمية القراءة عند الفلاسفة والكتاب:

للكتب والقراءة مكانة خاصة عند الفلاسفة والشعراء والكتاب والعلماء، فهو بستانهم الذي يسرحون فيه ويمرحون ويقضون بينه معظم أوقاتهم، وهو معشوق الشعراء في التغزل والنظم، ونعم رفيق العلماء في الحضر والسفر، فتعلو العالم نشوة شبيهة بالانتصار الأبدي عندما ينهي صفحة من صفحات كتاب أو صحيفة أو مجلة أشبعته فكرة أو تحليلاً أو معلومة.

قال الجاحظ: لا أعلم جاراً أبر، ولا رفيقاً أطوع، ولا معلماً أخضع، ولا صاحباً أظهر كفاية ولا أقل إملالاً وإبراماً، ولا أقل غيبة، ولا أكثر أعجوبة وتصرفاً، ولا أعجب قرباً، ولا أحسن مواتاة[٢]، ولا شجرة أطول عمراً ولا أطيب ثمرة من كتاب.. ولا أعلم نتاجاً في قرب ميلاده، ورخص ثمنه، يجمع التدابير الحسنة وآثار العقول الناضجة والحكم الصافية، والمذاهب القديمة والتجارب الحكيمة وأخبار القرون الماضية والبلاد المترامية، والأمثال السائرة من كتاب[٣].

وقيل لبعض العلماء: ما مبلغ سرورك بكتبك؟

فأجاب: هي إن خلوت لذتي، وإن اهتممت سلوتي، وإن قلت إن

(١) هكذا كانوا عظماء: ص٨٧.
(٢) المواتاة: حسن المطاوعة والموافقة، وأصله بالهمزة، كما جاء في الحديث عن رسول الله ﷺ: خير النساء المواتية لزوجها (أي) الطائعة له. لسان العرب: ج ٢ ص ٣٥٤.
(٣) رسائل الجاحظ: ص ١٣٢.

زهر البستان، ونهر الجنان يجلوان الأبصار ويمتعان الألحاظ، فإن بستان الكتب يجلو العقل ويشحذ الذهن ويحيي القلب، ويقوي القريحة، ويعين الطبيعة، ويبعث نتائج العقول، ويستثير دفائن القلوب، ويمتع في الخلوة، ويؤنس في الوحشة، ويضحك بنوادره، ويسر بغرائبه، يفيد ولا يستفيد، ويعطي ولا يأخذ، وتصل لذته إلى القلب من غير سآمة، وتدركه ولا مشقة تعرض له.

وقيل لبعض العلماء في زمان المأمون العباسي: سنعطيك ثمن هذا الكتاب ما يساوي وزنه ذهباً.

فقال:

هذا كتاب لو يباع بوزنه ... ذهباً لكان البائع المغبونا
أما من الخسران أنك آخذٌ ... ذهباً وتترك جوهراً مكنونا

وسخف العلماء والأدباء جمع الكتب دون الاستمتاع بذخائرها وفنونها وعلومها، فقال أحدهم:

عليك بالحفظ دون الجمع في الكتب ... فإن للكتْبِ آفاتٌ تفرّقها
الماء يغرقها والنار تحرقها ... والفأر يخرقها واللص يسرقها

وقال آخر:

إذا لم تكن حافظاً واعياً ... فجمعك للكُتْبِ لا ينفع
وتحضر بالجهل في مجلسٍ ... وعلمك في البيت مستودع

العالم والخليفة والكتب:

ذات مرة أرسل أحد الخلفاء في طلب أحد العلماء ليسامره، فلما ذهب الخادم إليه وجده جالساً وحوله كتب يطالع فيها، فقال له: إن أمير المؤمنين يطلبك.

فأجاب العالم قائلاً: قل له عندي قوم من الحكماء أحادثهم، فإذا فرغت منهم حضرت.

فلما عاد الخادم إلى الخليفة وأخبره بذلك قال له: ويحك.. من هؤلاء الحكماء الذين كانوا عنده؟

والله يا أمير المؤمنين ما كان عنده أحد.

فقال الخليفة: أحضره الساعة.

ولما حضر ذلك العالم سأله الخليفة قائلاً: من هؤلاء الحكماء الذين كانوا عندك؟

فقال العالم:

لنا جلساء ما نمل حديثهم ... ألبّاء مأمونون غيباً ومشهدا

يفيدوننا من علمهم علم ما مضى ... ورأياً وتأديباً وجداً وسؤددا

فلا غِيبةً نخشى ولا سوءَ عشرةٍ ... ولا نتقي منهم لساناً ولا يدا

وقال شوقي:

أنا من بدل بالكتب الصحابا ... لم أجد لي وافياً إلا الكتابا

صاحبٌ إن عبته أو لم تعب ... ليس بالواحد للصاحب عابا

كلما أخلقته جددني ... وكساني من حُلَى الفضل ثيابا

تجد الكُتبَ على النقد كما ... تجد الإخوان صدقاً وكذابا

فتَخيَّرْها كما تختاره ... وادّخر في الصحف والكتب اللُّبابا

صالحُ الإخوان يبغيك التقى ... ورشيدُ الكتب يبغيك الصوابا

الكتاب والقراءة في منظار الغربيين:

يعتبر الكتاب في الثقافة الغربية الزاد الذي لا يقدم عليه شيء، فقد وصفوه بأنه انصهار أدمغة العلماء في بوتقة الجد والاجتهاد في قوالب فكانت مؤلفات.

ينقل عن شيشرون الخطيب الروماني الذي يعتبر المؤلفات كضرورة من ضرورات الحياة أنه قال:

بيت من غير كتب، كجسم من غير روح.. والكتب غذاء الشباب وبهجة الشيخوخة، هي زينة في أيام الإقبال، وملجأ في الساعات السود، ورفيق لا يمل في النهار، ولا في الليل، ولا في السفر ولا في الريف.

وقد رفع (مكولي) الكاتب الإنجليزي المعروف من قدر الكتب والقراءة بقوله:

أفضل أن أكون فقيراً ساكناً في كوخ مليء بالكتب على أن أكون ملكاً مجرداً من الكتب أو غير محب للقراءة.

وقال (أوليفر جودلد سميث) أحد أعلام الأدب الإنجليزي: إذا قرأت كتاباً جديداً للمرة الأولى شعرت أنني كسبت صديقاً جديداً، وإذا قرأته للمرة الثانية شعرت بأني أقابل صديقاً قديماً.

وقال (جون رسكن) أحد أعلام الفكر الإنجليزي في الكتب: الحياة قصيرة، وساعاتها الهادئة نادرة، فلا تضيعها سدى في قراءة كتاب سخيف، أما الكتب النفيسة فيجب أن تكون في متناول كل إنسان[١].

القراءة والروافد الفكرية العلمية:

لماذا يجب أن يقرأ الناس؟

الجواب ببساطة متناهية:

- لأننا بحاجة إلى متعة تضفي على النفس غذاءً للروح، ولأننا في

(١) رسائل الجاحظ: ص ٢٣.

القراءة نكون صداقة ذهنية وصداقة فكرية مع الكتاب، ولأننا في القراءة نوفر الحماية الذاتية لوقتنا، وحياتنا، ونتفادى بها الأزمات والأمراض النفسية والروحية والأخلاقية معاً.

ـ نقرأ لأن القراءة ينابيع صافية لخبرة كل مجرب فنعيش في أعماق الناس.

ـ نقرأ لأن القراءة سياحة الفكر البشري بين رياض الحاضر، وأطلال الماضي.

ـ نقرأ لأن القراءة تنظم البحث العلمي وتوجه الإنتاج النفسي.

ـ نقرأ لأن القراءة تعالج عيوبنا الذهنية، وتحل مشكلاتنا النفسية والأمراض الأخلاقية والسلوكيات الانحرافية.

ولعل هذا هو الذي دفع (وليم جيمس) الفيلسوف الأمريكي المعروف، أن يجيب على سؤال ولده القائل:

ماذا أقول للناس عندما يسألونني عن عملك يا أبتاه؟

فأجابه:

إنني يا بني دائم السفر والتجوال لألقى الفلاسفة والأدباء والمفكرين، من كل عصر وجنس ودين، غير عابئ بحدود جغرافية، ولا فترات زمنية، فأنا أصغي بواسطة الكتب للأموات القدامى، كما أصغي للأحياء الذين تفصلني عنهم مسافات شاسعة[1].

لذلك من الضروري وجود مكتبة، وصحف، ومجلات، ونشرات مختلفة في البيت، لأنها تساهم بشكل واضح في بناء المادة الفكرية

---

(١) فن القراءة: ص١٩ د. عز الدين فرج.

للأبناء وأفراد الأسرة، ولذلك فكثير من الأسر التي لا توفر أجواء المطالعة والمكتبة يعاني أبناؤها من الفقر الفكري، ولذلك فإن بيوت العلماء والمفكرين تخرج علماء ومفكرين، في حين بيوت الصناع تخرج الصناع، فالجو العام في البيت له تأثيره الكبير في بناء الفكر المطلوب للأبناء وأفراد الأسرة صغاراً وكباراً.

ينقل أن بيوت اليابانيين تتكون بالإضافة إلى لوازم المطبخ وغرفة النوم والأكل من مكتبة ثابتة وعدة رفوف من الكتب العلمية في أرجاء مختلفة من البيت، يصل في كثير من الأحيان إلى مكتبة ثابتة في كل حمام!.

ثم إن كثيرا من الآباء والأمهات يشكون من أبنائهم عدم حبهم للقراءة وتصفح الكتب، فأقول لهم جميعاً:

لا يكفي أن توفر مكتبة ضخمة في المنزل، بل لابد من أن تخلق الأجواء التي تدعو إلى استلهام الفكر وبنائه، بل لا بد أن يسود هذه الأسرة ذلك النوع من الحوار الهادئ الهادف في مناقشة كثير من الأمور الفكرية الحساسة، والتي تدعم وترسخ عن طريق الحوار الهادف بين الآباء والأمهات والأبناء، وهذا ما نلاحظه في كثير من الأسر التي تهتم بالحوار، لتجد أن الأبناء يتمتعون بنضوج فكري في كثير من الأحيان.. ولا سيما إذا تخلل هذا الحوار البحث في بطون الكتب، لتعود الأبناء على مراجعتها والالتصاق بها في وقت الفراغ والحاجة.

ماذا يقرأ الشباب والشابات:

نحتاج إلى عملية التقنين والمراقبة والتنظيم في ما يقرأُه الشباب المراهق.

فأغلب ما يميل الشباب المراهق إلى قراءته القصص العاطفية،

والقصص البوليسية، والكتب والصحف الإباحية، فالأولى تحلق به في سماء العاطفة وتطير به إلى دنيا الخيال، وتصور له الحياة بصورة حلوة براقة لا متاعب فيها ولا قسوة، وإن وجدت مثل هذه المتاعب خلال تتابع حوادث هذه القصص فسرعان ما يذللها الكاتب القصصي في سهولة ويسر. وهذا النوع من القصص والكتب لا تخلق في الجيل المراهق إلا التعب، وتزيدهم بعداً عن واقعية الحياة المعاصرة ومعتركاتها الكثيرة، لأنها تترك في ذهنه صوراً يصعب وجودها وتحقيقها في معترك الحياة فيصبح فريسة لأوهام وخيالات وصور غير واقعية.

يقول بعض الباحثين الاجتماعيين في هذا الصدد:

إن قراءة المراهقين لهذه الأنواع من الكتب، والقصص لا تزيد الشباب إلا اندفاعاً نحو الاستهتار بنظم الحياة وتقاليد المجتمعات، وتعين على تزايد الجرائم الاجتماعية في المجتمع.. وخير ما يقدم للشباب بجانب هذه الكتب وتلك القصص سير الأبطال والعظماء، لنطارد فيهم عوامل اليأس والتردد والقلق، ولنخلق فيهم الطمأنينة والثقة بالمستقبل، لأن سير هؤلاء العظماء بما فيها من جهاد ومثابرة وكفاح تترك في نفس الشباب أحسن الأثر وأفضل البواعث.. بل يجب أن ندفع إليهم كل إنتاج يدعو إلى إنارة السبل وإثارة النزعات الخيرة ومطاردة الأفكار الفاسدة المضللة[١].

ولو نظرنا نظرة سريعة على ما يقرأُه الناس لرأيناهم يحجمون عن قراءة الكتب العلمية والفلسفية والمقالات الثقافية والأدبية، إذ أن معلوماتهم قليلة إلى حد أنها لا تمكنهم من إدراك الأسرار العلمية والفلسفية وفهم الأهداف الأدبية والاجتماعية مما يغري بالمتابعة

(١) فن القراءة، مصدر سابق: ص٤٤.

والاستزادة، في حين أنها لا تحجمهم (أي ثقافتهم) عن القراءة المسلية والمشبعة للغرائز الفطرية الكامنة، فيقرأون المجلات الماجنة، والقصص المليئة بالغراميات المثيرة لدفين المشاعر، والأفكار الملهمة لأقوى العواطف، وكذلك فضائح العظماء وربات الخدور.

تقرأ (العامة) أخبار المصارعة والملاكمات، والألعاب الرياضية الأخرى تغذية لغريزة المنافسة.

تقرأ (العامة من الناس) كل ذلك باهتمام زائد، في حين أن أخبار الميزانيات، والضرائب، وكبت الحريات، والسلبيات الاجتماعية والثقافية، والعادات البطالة، والتقاليد الزائفة، والخرافات المشينة، والعلوم النافعة، والثقافات المغيره و. . و. .إلخ ليس لهم فيها نصيب!!.

ضحايا الحب أولى بالقراءة:

لقد صور لنا الوضع الثقافي المرير الذي تعيشه الأمة في جهلها المطبق هذا المشهد الواقعي الرائع يقول:

استوقف أحد بائعي الجرائد سيدة في الطريق العام ليعرض عليها شراء واحدة من جريدتين، أمسك باليد الأولى جريدة كتب في صفحتها الأولى (فتاة تقتل والدها وتهرب مع حبيبها).

والأخرى كتب في صفحتها (زلزال يدمر عدة قرى).

النتيجة كانت كما يلي: فما كان من السيدة إلا أن اختطفت الصحيفة الأولى. وقالت: ضحايا الحب أولى بالقراءة من ضحايا الزلزال![1]

---

(١) فن القراءة: مصدر سابق.

القراءة والانحرافات:

إن قراءة الصحف، والمجلات، والكتب من غير تأمل وروية ومتعة أشبه ما يكون بالذهاب إلى روض أو حقل دون أن تستمتع بما أودعه الله فيه من آيات الحسن والجمال والإبداع.

فالكتب والصحف والمجلات أدوات ذوات سلاحين، إما أن تكون نافعة وتحول قارئها إلى قارئ مثالي، وإما أن تكون فاسدة وتحوله إلى بؤرة فساد ومستنقع للرذيلة.

ومما يؤسف له حقاً، أن نرى كثيراً من الفقرات العلمية والثقافية لا تُكتب من أجل القيم والأخلاق، إنما تكتب من أجل الشهوات المستعرة والعلاقات المفتوحة، والإباحية المحرمة.. لقد استخدم بعض الأدب العلمي والثقافي والمعلوماتي في الصحف والمجلات والكتب في عالمنا العربي والإسلامي لهدم الأخلاق، ولا أريد هنا أن أسطر لك أسماء لامعة في سماء الأدب العربي والإسلامي نساء ورجالاً.. ولكن هكذا يشجعون على الرذيلة والانحرافات السلوكية، ويقودون الجيل الصاعد إلى مهاوي الغرائز الزائفة.

لقد انتشرت في الآونة الأخيرة الكتب الفكاهية ومطبوعات الأدب المكشوف والمقالات والمجلات الإباحية، بما تحويه من قصص ورسومات وصور فوتوغرافية تعنى بالأفكار الجنسية أو الهزلية والمعاني السطحية، ولقد أصبح نشرها وترويجها عملاً واسع المدى، يجد قبولاً لدى الأحداث الذين تجاوزوا مرحلة تعلم القراءة والكتابة، وبدأوا يقبلون على المواد الخفيفة التي تعرض لهم أي المواد التي لا تطلب مجهوداً ذهنياً كبيراً.

لقد ثبت من إحصائية أخيرة في الولايات المتحدة أن أربعة أطفال من بين كل خمسة فوق السابعة من عمرهم يقبلون على قراءة هذه الصحف والكتب والمجلات، ويتذوقونها بشغف ومتعة، مما دفع اتحاد دراسة الطفل إلى بحث أثر هذه الكتب وتلك الصحف والمجلات على الانحرافات الكثيرة فيهم[١].

وتبين من خلال بعض الدراسات الميدانية التي أجريت في المجتمع السعودي، أن هناك علاقة بين قراءة المجلات والكتب والصحف الجنسية والقصص الغرامية وارتكاب الجريمة، وأن القصص الغرامية والروايات الضارة عامل مؤثر نسبياً في تقديم نماذج سلوكية مثيرة في المجتمع، فقد أثبتت الدراسة التي أجريت على المجرمين الجنسيين في السعودية أن هناك فئات من مرتكبي الأفعال الجنسية مع الإناث سواء برضى كالزنى والعلاقات الغرامية الخاطئة ٢٧،٩٪ أو بقوة كالاغتصاب بنسبة ٢٧،٥٪ كانوا يميلون إلى قراءة المسائل الجنسية والقصص الغرامية والروايات الضارة، وأضافت الدراسة أن هناك من ممارسي الأفعال الجنسية الشاذة مع الذكور كاللواط ١٢،٩٪ وهتك عرض الذكور بقوة ٢٦،٩٪ من كان يعمد إلى قراءة بعض الكتب والقصص الجنسية المثيرة.

وأثبت علماء الاجتماع من خلال الدراسات العلمية والميدانية المتخصصة أن المنحرفين يقرأون غالباً الكتب الضارة والخليعة والمشكوك في أمرها أخلاقياً بشكل أكبر مما يفعله غير المنحرفين، والسبب أن تلك الكتب والصحف والمجلات الضارة تعرض في الغالب

---

(١) انحرافات الأحداث: ص ٢٢٧ مصدر سابق.

الأفكار الإجرامية والجنسية غير العادية، وتهيئ تمهيداً ـ واستعداداً للإغراءات، وتقدم صوراً للدوافع التي قد يتمثلها المنحرف، وقد تؤثر كعامل اندفاع نحو الجرائم والانحرافات أو الاضطرابات العاطفية والأمراض النفسية[١].

(١) الظاهرة الإجرامية: ص ٩٥ مصدر سابق.

الفصل الثامن

الفراغ والانحرافات

الفراغ والانحرافات

على الرغم من المفهوم الشائع لوقت الفراغ كوقتٍ خالٍ من التزامات العمل، فقد أطلق العلماء عدة تعريفات خاصة بهذا المفهوم، وهذه التعريفات تعكس اختلافات الأشخاص وخلفياتهم وأغراضهم من التعريف، فمنهم من رأى ذلك الوقت وكأنه نشاط، بينما وصفه آخرون بأنه شعور شخصي يختلف من فرد لآخر، بينما يُصر البعض بأنه حالة عقلية ترتبط بالظروف والبيئة كالعمل والطبقة الاجتماعية والاقتصادية معاً.

مفهوم أوقات الفراغ:

لعل الواقف على أدبيات هذا المفهوم يراها من الناحية اللغوية أنها تعني أن يكون الإنسان حراً بدون قيود. أو يكون عمله خارجاً عن نطاق القيود الخاصة والعامة.

بينما يرى بعض الباحثين: بأن الوقت يتكون من شقين هما:

١ ـ الوقت الحر الذي لا يرتبط بعملية تحصيل المعيشة عن طريق العمل.

٢ ـ الشعور بالاستقلال وحرية الاختيار والابتعاد عن الفرض والالتزام والتبعية. بينما يذهب المفكر (ويسكوبف) إلى أن وقت الفراغ

هو الوقت المتبقي بعد أن يقوم الأشخاص بإتمام حاجياتهم وأداء أعمالهم[١].

بينما يذهب العالم الاجتماعي المعروف (دومازدير) إلى تعريف وقت الفراغ على أنه ذلك الوقت الذي يتجه إليه الشخص برغبته من أجل الاسترخاء أو التسلية أو زيادة معلوماته، أو إقامة وتعزيز علاقات اجتماعية حسب قدراته وطاقاته، ويتم ذلك بمعزل عن الواجبات تجاه العمل والأسرة والمجتمع[٢].

قيمة الوقت في الحياة:

للوقت قيمة عليا مشتركة، إنه ظرف الحياة ووعاؤها، بل امتدادها الزمني، وقد جعله الله سبحانه وتعالى فرصة السعي لصلاح الدنيا والآخرة.

وللوقت كذلك خصائص عامة شاملة، تزيد من قيمته وترفع من قدره، من التفرد حيث لا عوض له ولا بديل، ومن القصر وسرعة التقصي والانتهاء وجودة الصلاحية، وعدم استغلاله بالطرق السليمة يكون مضيعة للعمر البشري في الأرض، فقد يوجد عدة سلبيات من الممكن أن تؤثر سلباً على الحياة الإنسانية سواء كانت فردية أو أسرية أو اجتماعية.

لذلك لا يقوّم ولا يعوّض لا بالمال ولا بالذهب ولا الفضة، لأنه ينتج ما هو أعظم من المال، ويعوض من ذلك ما فقد، على حين أن المال وغيره من أنواع المتاع والزينة لا يجلب الوقت، ولا يعوضه الإنسان مهما أوتي من قوة ومال وعلم.

---

(١) أساسيات الترويح: ص٢٧، د. وزرماس والحياري.
(٢) المصدر السابق.

لأنه أغلى من الذهب والفضة، ومن كل جوهر وعرض، ولأنه هو الحياة، وهل الحياة أيها الإنسان شيء سوى الساعات التي تقضيها من المهد إلى اللحد؟

فقد تفقد الذهب والفضة والمال، ولكنك قد تستطيع أن تعوض منها أضعاف ما فقدت، أما الوقت الذاهب والزمن الفائت فهيهات أن يعود[١].

عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ قال: نعمتان يغمطهما الناس: الصحة والفراغ[٢].

وعن علي عليه السلام قال: اعلم أن الدنيا دار بلية، لم يفرغ صاحبها منها قط ساعة إلا كانت فرغته حسرة يوم القيامة[٣].

ويقول الإمام الصادق عليه السلام: اتصال الإنسان بالفراغ مفسدة[٤].

وينقل عن ابن مسعود (رضي الله عنه) قوله: ما ندمت على شيء كندمي على يوم غربت شمسه، نقص فيه أجلي ولم يزد فيه عملي.

إذن: أوقات الفراغ وظيفة اجتماعية وأسرية هامة تتمثل في إمكانية استخدامها لتحقيق المشروعات والأهداف الجماعية المرجوة من الإنسان.

أوقات الفراغ والانحرافات:

الفراغ يولد الانحراف، كلمة مشهورة، وأصداؤها تناهت إلى كل أذن، وأثبتت صدقها وصحتها في الواقع الخارجي، فمن يعيش الفراغ

---

(١) الوقت هو الحياة: ص ١٨، د. نوير.
(٢) ميزان الحكمة: ج ٧ ص ٣٤٥.
(٣) المصدر السابق: ج ٧ ص ٤٥٨.
(٤) المصدر السابق.

يحاول أن يسد هذه الفجوة الواسعة بأي شيء، ولو كان بمعاقرة الفساد والإفساد في النفس والأهل والمجتمع.

جاء في الحديث عنه ﷺ: إن الله يُبغض الصحيح الفارغ لا في شغل الدنيا ولا في شغل الآخرة[(١)].

ولم يكن الفراغ دافعاً للخير أبداً، لأن فيه فرصة التفكير في الحرام، والتخطيط للوصول إليه، واستجماع الرأي والبحث عن الطريق لإيجاده في الواقع الخارجي.

يقول الإمام علي عليه السلام: إن يكن الشغل مجهدة فاتصال الفراغ مفسدة[(٢)].

وفي هذا يقول أبو العتاهية في أرجوزته:

إن الشباب والفراغ والجدة   مفسدة للمرء أي مفسدة

ويقول آخر:

لقد هاج الفراغ عليه شغلاً   وأسباب البلاء من الفراغ

يعني بالشغل الذي هاجه الفراغ عليه، شغل القلب وتعلقه بالشهوات وأحلام اليقظة، مما لا يثمر إلا سوء العواقب في الآخرة والأولى.

تزايد الجريمة والانحرافات بسبب الفراغ:

عندما نقف على نتائج الفراغ المفسد نجد أننا نصاب بالذهول، وتنتابنا حالات الاستغراب والتفكير، هل يصل الفراغ بالأسرة وأفرادها والمجتمعات إلى هذا المعدل من تزايد الجرائم والمنكرات والفساد؟!!

---

(١) ميزان الحكمة: ج ٧ ص٤٥٨.

(٢) المصدر السابق.

الجواب: نعم والسبب الوحيد هو الفراغ القاتل.

يقول جورج لوند بيرغ في كتابه (البطالة): إن أيام البطالة هي عبارة عن الأيام التي نكون فيها أحراراً من أوضح وأهم الوظائف التي نأخذ على أدائها أجراً أو الملتزمين بأدائها. وجاءت قضية البطالة بأثر تطور الاختراعات التي خفضت عمل الإنسان أكثر من السابق.

في عام ١٨٤٠م بلغت ساعات أسبوع العمل لكل عامل نحو ٨٤ ساعة، بينما جرى تقليلها عام ١٩٣٠م إلى خمسين ساعة وأقل، وانخفضت ساعات العمل الأسبوعي في كثير من البلدان إلى ٤٠ ساعة، ويحتمل أن تخفض إلى مستوى أقل أيضاً.

العمل والنشاط كان في سالف الزمان هو المحور الأساس، والهدف الرئيس للحياة الاجتماعية في رأي الناس، أما التسلية والترفيه فكان أمراً ثانوياً لا ضرورة فيه.

ذلك أن الأعمال آنذاك كانت تؤدى باليد وبقوة الإنسان المحدودة، وبالنتيجة لم يكن الإنتاج وفيراً، مما تفرض ضرورة الحياة المزيد من العمل من أجل إنتاج أكثر.

وكان الإنسان في الماضي يضطر للقيام بأعمال صعبة ومتواصلة لتأمين حاجياته الأساسية، وبالتالي كان ينظر إلى العمل نظرة احترام، وإلى البطالة نظرة اشمئزاز، إلاّ أن الأوضاع تغيرت كلياً في الوقت الحاضر. ولا يستطيع الإنسان أن ينظر اليوم بنفس نظرة الاحترام القديمة تلك إلى العمل، بسبب قدرة إنتاجه أكثر من معدل استهلاكه ببذل جهد ووقت أقل من السابق. وعلى إله العمل أن يهبط من عرش جلاله وجبروته العريق ويقدم مكانه إلى إله الترفيه.

علينا أن ندرك هذه النقطة، وهي أن أيام البطالة أي الأيام التي

يجب أن تقضى بالترفيه والراحة هي فقط تلك الفترة التي تجعل الحياة تستحق العيش فيها، وإننا نطيق الأيام الأخرى، فقط لأنها تؤثر في غناء أيام البطالة والفراغ وتعطيها القيمة والأهمية.

انتشار الجرائم بسرعة مذهلة

يقول رئيس وزراء الهند الأسبق نهرو في (أفكار نهرو): إن ساعات الفراغ والبطالة هي من أهم القضايا التي تواجهنا، والتي ستطرح في المستقبل خاصة في الولايات المتحدة الأمريكية وسائر البلدان المتقدمة اقتصادياً، والتي تسير صناعاتها وشؤونها الاقتصادية الآن نحو التطور وبشكل واسع.

وليست هذه القضية مطروحة على بساط بحث البلدان النامية كالهند مثلاً، مثلما هي مطروحة في الولايات المتحدة وفي أوروبا خاصة في الدول الاسكندنافية، وفي أمريكا هي الأشد من بين بقية البلدان وستتخذ على ما يبدو في المستقبل شكلاً أوسع.

نقرأ في الصحف الصادرة في مختلف أنحاء العالم موضوعات حول الفساد والجرائم عند الشباب، والانحطاط العام في المبادئ الأخلاقية والانضباط الروحي للبشرية التي تحصل في المجتمعات الثرية والأكثر ترفاً.

ما العمل إزاء هذه القضية الجديدة لاستغلال ساعات الفراغ؟

إن العثور على جواب لهذا السؤال ينطوي على أهمية كبيرة، ذلك أننا إن لم نعالج القضية بنحو صحيح، فسيحل نوع من الانحلال الروحي والأخلاقي في الحضارة نفسها.

عندما تحل قضية البطالة، تتقدم قضية تالية وأكبر من الأولى وهي

استغلال وقت الفراغ. وطالما كان الإنسان منهمكاً بالعمل ويسعى من أجل الحياة، سواء أكان السعي منهكاً عسيراً نظير أعمال بلدنا، أو كان أكثر سهولة كما هو الحال في البلدان المتطورة، فإنه يكون مشغولاً. ولكن حينما تحل قضاياه الاقتصادية والاجتماعية، ويرفع عن كاهله عبء العمل الثقيل بسبب تطور الماكنة، فإننا نواجه قضايا جديدة لا سابقة لها أبداً. كقضايا جرائم الشباب والاغتصاب الجنسي، وازدياد القتل، وشيوع استخدام المشروبات الكحولية، وتمرد القوى المدمرة والفوضى ومئات الميكروبات الأخرى التي تسبب المرض النفسي والانحطاط الأخلاقي.

يقول صاموئيل كونيغ: بسبب خفض ساعات العمل في السنوات الأخيرة، فقد تحولت التسلية أو نشاط ساعات الفراغ إلى قضية اجتماعية حياتية، واسترعت اهتمام الكثير من الباحثين. وتقول دراسات هؤلاء العلماء إن اختلالات ستحصل في حياتنا أو في شخصياتنا، طالما لم نستطع استغلال أوقات فراغنا المتزايدة بشكل عقلاني. فالإنسان بطبعه كان يميل إلى الحصول على وقت فراغ أكبر، لكنه واجه هذا الخطر وهو سعة أوقات فراغه أكثر مما يستوعبه، ويخشى أن يجلب أخطاراً كبيرة تهدده وتهدد المجتمع، بسبب عدم قدرته على استغلال هذا الوقت بشكل حكيم، ولهذا أصبحت قضية قضاء ساعات البطالة اليوم من أصعب القضايا التي واجهتها حتى الآن معظم المجتمعات والدول.

الفراغ وانهيار الأسرة أخلاقياً:

يقول ويل ديورانت: وكما كانت ثروة عصر النهضة سبيلاً إلى تحريره وحريته وفنونه، كذلك ثروة العصر الحاضر السائد في كل مكان، والتي فاقت كل ثروة أدبية، هي التي بدلت قانون الحجاج

القاسي بتساهل النفوس المتحررة. وإن في تغير أيام الآحاد عندنا من أيام راحة وعبادة إلى رحلات وأفراح وثنية لا حد لها، دليلاً واضحاً على تبدل أخلاقنا وحياتنا المتحررة. ومن الأسهل أن يكون الإنسان فاضلاً حين يكون فقيراً، وقد يقاوم الإغراء في بعض الأحيان إذا كان فادح الثمن. ولكن دع جيوبنا تتضخم بالمال، ودع عزلة الناس تحجبنا عن أعين الجيران، وسوف نلتمس نسيان الهموم في وجوه الحسان، ونتحرق لإظهار رجولتنا لقلوبنا ذاتها.

ومن العبث أن يرثي علماء الأخلاق لحال رفاهيتنا الحديثة في الزينة والمزاج، فهذا الأمر يقوم على دوافع كانت موجودة على الدوام، وتجد الآن أمامها فرصة نادرة للظهور. وستظل النتيجة على ما هي عليه حتى تغير الظروف الاقتصادية من هذه الحال. فما دام نظام الآلات يضاعف أوقات الفراغ. ويستبدل الأعمال اليدوية بالأعمال العقلية، فإن الطاقة التي كانت تصرف مع الأعمال الجسمانية سوف تصعد إلى الدم، وتجعلنا في غاية الحساسية للمؤثرات الجنسية.

إن نشاط أوقات الفراغ الذي كان في الماضي محدوداً بالبيت وذا بعد اختياري، تعرض لتغيرات مدهشة بأثر الهجرة الكثيفة للقرويين إلى المدن، والاختراعات الكبرى كالسيارة والسينما والمذياع والتلفزيون، وللأسف فإن القضايا الناجمة عن زيادة أوقات الفراغ لم تعط الأهمية الكبيرة من جانب علماء الاجتماع كما يقول (لوندبيرغ) في كتابه، لأن علماء الاجتماع لا زالوا تحت وقع ذات النظرية الاقتصادية القديمة التي تعتبر الإنتاج أهم من الاستهلاك، وتهتم بالعمل أكثر من البطالة، ويبدو أن البطالة تكتسب أهمية أعلى يوماً بعد آخر.

ويرى بعض علماء الاجتماع أن البطالة بمثابة موضوع عاطفي،

ويضعونه خارج إطار بحوثهم العلمية، بينما القضية معكوسة تماماً، حيث يجب أن تستحوذ هذه القضية على كامل اهتماماتهم، لأن البحوث العلمية هي وحدها القادرة على توضيح ما سيفعله الإنسان في أوقات البطالة، مما يؤمن له أقصى حد ممكن من النفع، ويمكن القول أيضاً إن كيفية قضاء أوقات الفراغ يعكس إلى حد ما حضارة أي شعب[١].

أوقات الفراغ والترويح في الحضارات القديمة:

يتفق علماء الآثار وعلماء الإنسان بأن الأنشطة الترويحية ووسائلها المختلفة، قديمة قدم الخليقة، وبأنها، أي الأنشطة الترويحية وأماكنها، قد واكبت ظهور الحضارات وتأثرت بمختلف الظروف الحضارية، والاقتصادية، والاجتماعية، والسياسية... إلخ. ولا نستطيع أن نفصل وسائل الترويح والترفيه عن مجتمع دون مجتمع، لأنها ترتبط ديناميكياً ببعضها البعض..

لقد لعب الناس وترفهوا قبل ظهور المدن والحضارات والحدود، وعلى الرغم من الصبغة النفعية التي كانت تتسم بها نشاطاتهم الترويحية، كالتدرب على الصيد، والتدرب على محاربة الأعداء، وتشير الدلائل التاريخية إلى استمتاع أولئك الأشخاص أثناء ممارستهم لتلك النشاطات، كوسيلة لصقل المهارات النافعة والضرورية والتي يتوقف عليها وجودهم.

وكان الناس في الأزمان التي يطلق عليها ما قبل التاريخ، يقضون أوقات فراغهم، في مجالس التسامر والغناء والرقص ورواية القصص والأساطير، ورجز الشعر والخطابة، أما بالنسبة للأطفال فقد تسلقوا الأشجار، ورموا أنفسهم في الجداول والأنهار، ولعبوا مع الحيوانات،

(١) للمزيد راجع كتابنا المراهقة مشكلات وحلول: ص١٥٣ ـ ١٦٢.

واشتركوا في صراع وهمي تخيلي مع الأشخاص أو الحيوانات، وتعلموا عن طريق هذه النشاطات وغيرها فن البقاء على الحياة.

تُشير الدلائل التاريخية إلى أن الخط الذي يفصل بين العمل والترفيه والترويح، قد بدأ يزداد وضوحاً في الوقت الذي بدأت فيه الملامح الحضارية بالظهور.

ففي منطقة ما بين النهرين، وفي حوالي عام ٤٠٠ق.م، ظهرت حضارات قوية خلفت لنا شواهد وآثاراً حول أصول تنظيم وإدارة المجتمعات، وتصريف شؤونها السياسية والعسكرية والاقتصادية، والاستمتاع الحضاري بالترويح وقضاء وقت الفراغ.

وقد تناولت المصادر التاريخية المتخصصة، إسهام كل حضارات السومريين، والبابليين، والآشوريين في مختلف المجالات، أما في ميدان الترويح والترفيه، فتشير الأدلة إلى عظمة الحضارة البابلية في تعزيز الفنون بمختلف أشكالها، من نحت وأشغال يدوية وحرف ومُجسمات، علاوة على الاهتمام بالأمور الثقافية كالكتابة ونظم الشعر والآداب.

ونتيجة لازدياد وقت الفراغ لدى أفراد الطبقات الغنية تطورت ممارسة الأنشطة الترفيهية والترويحية كصيد الأسماك والطيور وركوب الخيل والمصارعة والسباحة، علاوة على الدراية والتمرس باستخدام مختلف أنواع الأسلحة، أما بالنسبة للطبقات الفقيرة التي اعتادت على ممارسة بعض النشاطات الترويحية لوقت الفراغ، التي تتناسب مع مستوياتهم الطبقية كنشاطات الرقص والغناء والتسامر، فإن فصل الترويح عن العمل وإمكانية الاستفادة منه لم يكن بالشكل الذي وجد لدى الطبقات الغنية.

أما بالنسبة للحضارة الفرعونية القديمة، والتي تميزت بقدر وافر من الاستقرار الاقتصادي والاجتماعي والسياسي، فقد كان من نتيجة هذا الاستقرار وجود مناخ صالح، استغل في إغناء الحضارات التالية بتركة كبيرة من العلوم الهندسية والطبية والفلكية والزراعية و. . .إلخ.

وكانت تمارس الطبقات الغنية منها الترويح والترفيه في وقت الفراغ بمختلف الأنشطة، كالغناء والرياضة والثقافة ونظم الشعر والأدب، واستخدام القوارب وصناعة الأسلحة والنقش على الصخور.

وفي عهد الحضارات الصينية القديمة والتي شغلت الطبيعة الجبلية، لتعيش حياة هادئة بعيدة عن خطر الغزو العسكري، فقد كان طابع الحياة دينياً يهدف إلى المحافظة على الدولة، وإلى إعداد المواطنين لخدمتها، وكانت تمارس بعض الترويح اللهوي المتمثل في اللعب والرياضات المختلفة والفنون كالموسيقى والدراما، كما كانت تهتم بإقامة الحدائق الحيوانية والعناية بحدائق البيوت.

وقد تمكنت الحضارة الإغريقية من إشغال وقت الفراغ في تكوين الدولة والنفوذ العسكري، فقاموا بفرض السياسات التوسعية على المناطق المجاورة، حتى ظهر على مسرح الحياة العلمية أفلاطون، الذي دعا إلى ممارسة أنشطة الجمباز وتذوق الموسيقى في أوقات الفراغ، لما لها من خصائص تتصل بالحس والبدن.

وكذلك الحضارة الرومانية التي أسرفت في إنشاء مراكز الترفيه والترويح، فبدأت بالاهتمام بالرسم والباليه والموسيقى وممارسة التنس الأرضي، وفتح المجال أمام باقي الطبقات لممارسة الاستمتاع بكرة القدم والملاكمة وصراع الديوك ومصارعة الحيوانات، ولم يخلِ الأمر

من بعض الممارسات السلبية كانتشار شرب الخمر والقمار وصراع الحيوانات الدامي، مما حدا بالكنيسة إلى تحريمها.

أما عن عصر النهضة وبعد أن ظهرت على الساحة السياسية والاقتصادية الدول الصناعية المتقدمة، فقد أدركت قيمة الفراغ والأنشطة الممارسة خلاله، كعامل مهم ذي عوائد كثيرة على الأشخاص، فأنشأت مؤسسات خاصة كان جل اهتمامها وضع وتخطيط برامج ترويحية، ونُفذت المشاريع العديدة لاستقطاب طاقات الأشخاص في المدن والقرى على اختلاف أشكالها، وعلى الرغم من الجهود الكبيرة للمؤسسات الحكومية في مجال الترويح، فقد نشأت مؤسسات ومنظمات تطوعية تهدف إلى الاهتمام بالأشخاص على اختلاف مشاربهم ومواقفهم، وذلك بتوفير الخدمات الترفيهية والترويحية.. كما زادت المدارس من جهودها واهتمامها بالنشاطات الرياضية والفنية والثقافية أثناء وبعد الدوام المدرسي، كإحدى الوسائل التي يمكن أن تُسهم في التربية المتكاملة.. كما بدأت الجامعات باستحداث التخصصات العلمية المرتبطة بالترويح، لتأهيل متخصصين يمكنهم تشريع وتنفيذ الخبرات الترويحية في القطاعات المختلفة[١].

نقص وسائل الترويح والترفيه:

وتعد مشكلة المكان الذي يقضي فيه الإنسان وقت الفراغ، من المشكلات البارزة التي تصادف البحث في شؤون الانحرافات الاجتماعية لكل مجتمع.

وقد اتضح من بعض الدراسات التي أجراها الاتحاد العام لرعاية

---

(١) أساسيات الترويح: ص ٦٧ مصدر سابق.

الأحداث المنحرفين، أن حوالى ٤٦٪ منهم يقضون أوقات فراغهم في الشارع أو الحارة المجاورة أو في الأسواق العامة التي يردها النساء غالباً، مما يزيد معدلات الانحرافات الاجتماعية في الوسط الاجتماعي، وهذه النسبة ترتفع كلما زاد المجتمع استخدامه لوسائل الاتصالات بين الجنسين[١].

تؤكد بعض الدراسات الميدانية التي قامت بها بعض اللجان العلمية المتخصصة في علم الاجتماع، أن هناك مشكلة مستعصية تُسبب تزايد معدلات الانحرافات والجرائم في المجتمع، ألا وهي عدم ترويض الطاقة الحيوية التي يتمتع بها الشباب والشابات وتوجيهها وجهة سليمة، وأننا يجب أن نتوقع أن يكون هذا الشيء هو المعين على الانحرافات، ولقد سألنا كثيراً من الأحداث الذين عرضوا على محكمة الأحداث، والذين فشلوا في دراستهم ولم يلتحقوا بعد بأي عمل، عن كيفية قضاء وقت فراغهم فأجابوا بأنهم لا يعملون شيئاً، والتفسير العلمي لهذه الإجابة، أن هؤلاء الأحداث يجدون وقتاً متسعاً للتراخي والكسل، ولكن عقولهم لا تكف عن التفكير، وهذا التفكير من شأنه أن يقودهم إلى شغل أوقات فراغهم بأية كيفية، وسواء بطريق مشروع أو غير مشروع، مدفوعين في ذلك بما يحسونه من السآمة والضجر، وبعضهم يذرع الطرقات بحثاً عن عمل أي عمل، أو صديق، ولا يدققون في اختيارهم، ومن هنا تبدأ صلتهم بالانحرافات والجرائم[٢].

وما ينبغي أن نلتفت إليه هو أن مجرد نقص أماكن الترويح والترفيه لا يعد سبباً رئيسياً للانحرافات، نعم قد يكون من الأسباب المكملة

---

(١) انحرافات الأحداث، مصدر سابق: ص ٢٣٢.

(٢) المصدر السابق: ص٢٣٣.

لها، من حيث إذا اجتمعت عدة أسباب تسببت في انحراف الإنسان عن طريق الجادة المستقيمة، غاية الأمر أن الحدث الذي يهيم في الطرقات، ويرافق كل أولاد الشارع، فرصة وقوعه في قبضة رجال الشرطة أوسع مجالاً، وفرصة انحرافه أكبر رجحاناً.

يقول بعض الباحثين في هذا الصدد: يجب أن ندرك أن كثيراً من الأولاد قد شقوا طريقهم كمواطنين صالحين، رغم أنهم لم يعرفوا إلا الشارع أو الحارة مكاناً لقضاء وقت فراغهم، فلا ضير في أن يلهو الحدث في الطريق، إذا حدد له الوالدان ساعة معينة للعودة إلى المنزل، وكانا على بينة من الأشخاص الذين يخالطهم، والأعمال التي يمارسها في وقت الفراغ.

وتأكدت النتائج السابقة من الدراسات التي قام بها الأستاذ (فريدريك) على أعضاء أحد نوادي الأحداث في مدينة نيويورك، ورغم أن هذه الدراسات قد اقتصرت على أعضاء ناد واحد في منطقة انحرافية واحدة، إلا أنها قد تلقي الضوء على مدى الصلة بين مشكلة أوقات الفراغ، وبين الجريمة، وقد انتهى هذا الباحث إلى النتائج الآتية:

١ ـ لم يكن النادي عاملاً هاماً في منع انحراف الأحداث خلال الأربعة أعوام الأولى لإنشائه.

٢ ـ لم يستوعب النادي في أي وقت أقصى طاقته، إذ أنه يتسع لحوالى ١٦٠٠ حدث، ومع ذلك فقد وجد مصاعب عديدة في أن يقنع كثيراً من الأولاد بالالتحاق به، مما يدل على أن الخدمات التي كان يقدمها لم تكن مغرية للأحداث بدرجة كافية.

٣ ـ لم يقبل أكثر من ١٣٪ من أعضائه الذهاب إلى المعسكر الصيفي الذي أقامه على الشاطئ.

٤ ـ ومع هذه النتائج الواضحة فقد أصر الباحث على أن إنشاء مثل هذا النادي يعد من العوامل الرئيسية في منع الانحرافات الاجتماعية في منطقة معينة، وأنه يستطيع أن يؤدي خدمات لا تقدر للأحداث الملتحقين به، أقلها قضاء وقت الفراغ في عمل مثمر.

وقد أوصى المؤتمر القومي لانحراف الأحداث المعقود في واشنطن عام ١٩٤٦م، بضرورة العناية بالوسائل التي يقضي بها الحدث أوقات فراغه، والنظر إليها على أنها عملية حيوية تحتل مركزاً رئيسياً في قائمة الخدمات الاجتماعية، ويجب أن تقدم هذه الخدمة للشباب بطريقة إيجابية، أي وفقاً لاحتياجات الحدث ومحض اختياره، ولا يجب النظر إليها كواجب اضطراري يؤديه الحدث لوقايته أو علاجه من الانحرافات[(١)].

وتفيد الدراسات الميدانية التي قامت بها اللجان المتخصصة في المملكة العربية السعودية، أن الفراغ يشكل في حياة بعض الأفراد عاملاً سلبياً، لأنه كان يُملأ بنشاطات غير منظمة، خارج الأندية والمراكز الرياضية والثقافية التابعة للرئاسة العامة لرعاية الشباب، لذلك يجب إعادة النظر في وظائف وتراكيب الأندية الرياضية والعمل على تنوع خدماتها ونشاطاتها، وقد ساهم الفراغ لدى الشباب بتزايد الفساد الأخلاقي المتمثل فيما يلي:

١ ـ سماع ومشاهدة الفضائيات الغنائية:

جاء في القاموس المحيط: والغناء ككساء الصوت ما طرب به، قال حميد بن ثور:

---

(١) انحرافات الأحداث، مصدر سابق: ص ٢٣٣.

عجبت لها أنى يكون غناؤها فصيحاً ولم تفغر بمنطقها فما[(١)]

أما تعريفه في المتون الفقهية فنكتفي بتعريف الشيخ الأنصاري (قدس) إذ يعرفه في مكاسبه المحرمة بقوله: بالجملة، فكل صوت يُعد في نفسه مع قطع النظر عن الكلام المتصوت به، لهواً وباطلاً فهو محرم... وظاهر هذه الحرمة من الأخبار المروية عن رسول الله ﷺ وأهل البيت عليهم السلام التي قالت بحرمة الغناء من حيث اللهو الباطل، فالغناء من مقولة الكيفية للأصوات، إن كان مساوياً للصوت اللهوي والباطل، كما هو الأقوى[(٢)].

مدار الحكم في حرمة الغناء:

لعل المدارك الفقهية لبعض الفقهاء حصرت الغناء المحرم في ثلاثة موارد، وأعطت هذه الثلاثة موارد ملاك الحلية والحرمة، وهي:

١ ـ اللحن: وهو مايشمل آلات اللهو وهي التي يقوم بها الكلام والأداء لتنتج لمستمع غناءً.

٢ ـ الكلام: وهي الأشعار أو الأراجيز التي يرتكز عليها الغناء.

٣ ـ الأداء: وهو الطريقة التي يمتزج بها الشعر أو القول مع الآلات اللهوية من الموسيقى فينتج لنا غناءً متكاملاً، ومختار ملاك الحرمة هنا، فيما إذا توفرت هذه العناصر الثلاثة في أي غناء، فتكون النتيجة الحكم عليه بالحرمة.

وعليه فتكون هذه النتيجة هي الطريقة التشخيصية لموضوع الغناء المحرم.

---

(١) القاموس المحيط: ج٣ ص٢٥٤.

(٢) المكاسب: ج١ ص١٠٢.

أما لو فرقنا هذه العناصر الثلاثة فجعلنا اللحن خالياً من الكلام، وجعلنا الكلام بدون لحن، فمع هذا التفريق أصبح اللحن مجرداً وخالياً من أي إيحاء أو معنى، إذ هو بذلك شكل غير مفهوم، فلو أن إنساناً ما لم يسمع هذه الأغنية من قبل فلن يوحي له اللحن إلا بذاك الإيحاء الممزوج بالطابع الشخصي أو التوجيهات العقلية التي قد تكون مزروعة في داخله من عوامل عديدة.

هل للعرف مدخلية في التشخيص؟

لعل التشخيص العرفي له مدخلية من ناحية واحدة فقط، ألاوهي الأداء اللحني، وهي الطريقة التي يؤدى بها اللحن، وما يتعارف عليها بـ(ألحان أهل الفسوق)مع أننا نجزم جزماً قاطعاً أن تكون هناك اتفاقية حسية عقلية على طرب هذا اللحن أو ذلك، لأن اللحن يحكم عليه الذوق بأنه يناسب المجالس اللهوية، ولحن آخر قد لا يتناسب مع المجالس اللهوية.. وهذا ما أخرج المسألة أن يكون تشخيصها عرفياً، هذا من ناحية.

ومن ناحية أخرى: إن العرف في مثل هذه المجالات الفنية لا يعطي ضابطة حاسمة، ذلك أن الفن لا يحدد بطريقة عقلية ثابتة، فهو عنصر جمالي يعتمد كل الاعتماد على الذوق الشخصي، ويرتبط بالمشاعر والأحاسيس، ويستمد من إيحاءات لها ارتباط بعوامل نفسية واجتماعية، وهذا السبب هو ما يجعل تحديد الأغنية المحرمة من غيرها أمراً في غاية الصعوبة والتعقيد على غير المتخصصين من أهل الفن والعلم.

فالعرف بذلك يمتاز بالاختلاف والتشتت، وبالكاد نستطيع أن نتفق على موسيقى تعتبر متناسبة مع مجالس أهل اللهو واللعب، فالموسيقى

تعطي حالات انفعالية وخيالية خاصة لكل شخص على حدة مع عدم مشاركة أشخاص آخرين بنفس هذه الانفعالات والتخيلات.

كما ذهب العلماء إلى القول بتعدد مصاديق العرف، الأعراف لها عند العلماء مصاديق متعددة، فنجد أن هناك عرفاً لأهل الفن وآخر للمتذوقين، وعرفاً للمتدينين، وآخر لغيرهم، وعرفاً للبلدة الكبيرة، وعرفاً للبلدة الصغيرة، وللأرياف أعرافها التي تختلف عن المدن، وهكذا إلى ما لا نهاية.

لذلك فإن الفقهاء عندما حرموها وقفوا أمام الأدلة النقلية والعقلية، واستخدموا معها آليات الاجتهاد والاستنباط، فقالوا بحرمتها، فهم لم يقفوا في تشخيص هذا الحكم من ناحية الموضوع، بل كان من ناحية أنه حكم لا موضوع.

فبحوثهم الفقهية تؤكد حرمة الغناء بالجملة، لكنهم اختلفوا في نوعية هذه الحرمة، هل هي ذاتية بمعنى أن الغناء حرام لذاته مع غض النظر عن العوامل الأخرى التي تدخل فيحرم من أجلها، أم أن الحرمة عرضية، أي أنه حلال بالأصل، لكن بدخول عناصر أخرى حرم من أجلها.

ذهب إلى القول الأول مشهور فقهائنا بشهرة تكاد تكون إجماعاً، وذهب إلى القول الثاني ثلة قليلة، أبرزهم الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء (رضي الله عنه).

أدلة حرمة الغناء:

استدل الفقهاء على حرمة الغناء عبر آيات القرآن الكريم والأحاديث الشريفة عن رسول الله ﷺ وأهل بيته عليهم السلام.

١ ـ القرآن الكريم:

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾[١].

حيث فسر قول الزور في الروايات المروية التي فسرت هذه الآية الكريمة تفسيراً روائياً عن رسول الله ﷺ وأهل البيت عليهم السلام بالغناء.

كصحيحة هشام عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: الرجس هو (الشطرنج) وقول الزور، هو الغناء[٢].

كما فسر في رواية زيد الشحام، وأبي بصير، وعبد الأعلى وغيرهم بنفس التفسير السابق الذي ذكر عن الإمام الصادق عليه السلام.

إيرادات على الآية وتفسيرها:

إن الظاهر المتفاهم من عنوان (قول الزور) هو القول بالباطل، باعتبار مدلوله كالكذب وشهادة الباطل والافتراء، والغناء من حيث الكيفية الصوتية هو عنوان مغاير لعنوان الكلام والقول.

وأجاب الفقهاء عن هذا الإيراد:

أنه توجد عدة احتمالات منها: أنه أراد بـ(قول الزور) القول المشتمل على الباطل، إما نحو اشتمال الكلام على مدلوله كالكذب أو نحو اشتمال الموصوف على صفته وهو الصوت الخاص وبكيفية خاصة أي الغناء.

---

(١) سورة الحج، الآية: ٣٠.

(٢) الوسائل: ج ١٧ ح٢٦.

ولعل هذا الاحتمال أو ما يرجع إليه أقرب الاحتمالات إلى ظهور الأخبار المفسرة للآية.

وعليه، فوجوب الاجتناب في الآية يعم القسم الأول بجميع مصاديقه من الأقوال الباطلة، وبضميمة الأخبار يعم القسم الثاني أي الغناء بجميع مصاديقه أيضاً.

الاحتمال الآخر: وهو أن قول الزور إن أُريد به مطلق الباطل المقابل للحق ـ أي ما لا يكون فيه غرض عقلائي، ولا دخل له في المعاش والمعاد ـ فلا شبهة في عدم حرمته بهذا الإطلاق، وبهذا العرض العريض، فيدور الأمر بين حفظ ظهور هيئة الأمر في ـ واجتنبوا ـ في الوجوب وتقييد قول الزور، وبين حفظ إطلاق قول الزور وحمل الأمر على الرجحان المطلق لا خصوص الوجوب، ولا ترجيح للأول إن لم نقل أنه للثاني؛ لشيوع استعمال الأمر في غير الوجوب، وبُعد رفع اليد عن الإطلاق، وعليه فلا دلالة للآية ولا للأخبار المفسرة على حرمة الغناء.

الجواب على هذا الإيراد:

بعد التحقق في مدرك الحكم الفقهي فيها أجاب الفقهاء بما يلي:

١ ـ إن سياق الآية وذكر ﴿وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ﴾ تلو ﴿فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ﴾ يوجب قوة ظهور الأمر في الوجوب، سيما مع إشعار مادة الاجتناب بذلك، فيصير قرينة على أن المراد ليس مطلق القول الباطل.

٢ ـ مضافاً إلى إمكان أن يقال: إن قول الزور ليس مطلق القول الباطل بمعناه الوسيع الذي تقدم، بل باطل خاص عرفاً كالكذب والافتراء والسخرية.

فتحصل من جميع ما تقدم أن الآية بضم الروايات المفسرة تدل على حرمة الغناء بذاته، إذا كان مقروناً بقول، وبإلغاء الخصوصية عرفاً يستفاد منها حرمته مطلقاً، ولو في لفظ مهمل أو وجد في صوت بلا كلام[(١)].

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا﴾[(٢)].

حيث فسرت في الروايات كصحيحة ابن مسلم عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام عندما سأله عن تفسيرها قال: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾ أي الذين لا يستمعون الغناء[(٣)].

والزور كما تفيد المعاجم اللغوية: بأنه بضم الزاي، أي زور الشهادة أبطلها، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾ قال ثعلب هاهنا (يعنى الآية) مجالس اللهو. وقيل مجالس الغناء[(٤)].

وبهذا التعريف اللغوي الذي ذهب-إليه ابن منظور وغيره بأن (الزور) هو الباطل، وشهادة الباطل، والشيء الذي يتخذ رباً من دون الله، وبأنه الغناء، تعرضت له كثير من الروايات عن أهل البيت عليهم السلام ومنها: صحيحة زيد الشحام، قال: سألت الإمام الصادق عليه السلام عن تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱجْتَنِبُواْ قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾. قال: قول الزور هو: الغناء[(٥)].

---

(١) الإيراد مذكور في كتب شروحات المكاسب المحرمة لفقهاء الشيعة الإمامية فراجع لمزيد بيان.

(٢) سورة الفرقان، الآية: ٧٢.

(٣) الوسائل، مصدر سابق: ج١٧ ح٥ باب٩٩.

(٤) لسان العرب: ج ١ ص١٠١ ابن منظور.

(٥) الوسائل: ج ١٧ ص ٣٠٣ ح٢.

وفي موثقة أبي بصير قال: سألت أبا عبد الله الصادق عليه السلام عن قوله تعالى: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ قال: الغناء[١].

فهاتان الروايتان تدلان بصراحة على أن المقصود من لفظة (الزور) في الآية الكريمة هو الغناء.

وجاء في تفسير مجمع البيان ج ٥ ص ١٣٠ في تفسير هذه الآية الكريمة، والذين لا يشهدون الزور: أي لا يحضرون مجالس الباطل، ويدخل فيها مجالس الغناء والفحش والخناء والكذب وغيرها[٢].

وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾[٣].

حيث فسرت هذه الآية الكريمة (لهو الحديث) في الروايات بالغناء، كما في موثقة محمد بن مسلم عن الصادق عليه السلام قال: سمعته يقول: الغناء مما وعد الله عليه النار، ثم تلا هذه الآية، قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾[٤].

وتقريب الاستدلال بها كما تقدم في الآيتين السابقتين بضم الآيات والروايات المفسرة لها نخرج بنتيجة أن الغناء بهذا الدليل (القرآن الكريم) محرم.

---

(١) الوسائل: ج ١٧ ص ٣٠٣ ح٢.
(٢) مجمع البيان: ج ٥ ص ١٣٠.
(٣) سورة لقمان، الآية: ٦.
(٤) الوسائل: ج ١٧ باب٩٩ح٦.

الروايات المشعرة بحرمة الغناء:

وهي كثيرة، وقد يُدّعَى تواترها، منها ما يلي:

١ ـ صحيحة الريان بن الصلت قال: سألت الرضا عليه السلام يوماً بخراسان عن الغناء، وقلت له: إن العباسي ذكر عنك أنك ترخص في الغناء؟

فقال: كذب الزنديق، ما هكذا قلت له، سألني عن الغناء فقلت له: إن رجلاً أتى أبا جعفر عليه السلام فسأله عن الغناء فقال: يا فلان إذا ميّز الله بين الحق والباطل فأين يكون الغناء؟

قال الرجل: مع الباطل.

قال الإمام عليه السلام قد حكمت[١].

وقال الصادق عليه السلام: شر الأصوات الغناء[٢].

وفي رواية عبدالأعلى، التي يقول عنها رجال الحديث إنها موثقة على الأظهر، قال: سألت أبا عبد الله الصادق عليه السلام عن الغناء، وقلت له: إنهم يزعمون أن رسول الله رخص في أن يقال: جئناكم جئناكم، حيونا حيونا نحييكم.

فقال كذبوا، إن الله عزوجل يقول: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾[٣].

---

(١) الوسائل: ج ١٧ ص ٣٠٦.
(٢) المصدر السابق: ج ١٧ ص ٣٠٦.
(٣) سورة الأنبياء، الآية: ١٦.

مناقشة علمية في الروايات المروية في مقام الحرمة:

لعل من ذهب إلى القول بتضعيف الأقوال المروية في الحرمة، قال لأنها غير كافية وفيها قصور في الإثبات، بينما ضعفها بعض المعاصرين عندما حقق الروايات والمطالب التي قالت بقطعية الحرمة في المقام بأنها موكولة لتشخيص العرف![1]

وقلنا في الجواب على ذلك في الصفحات السابقة إن العرف غير كافٍ في مقام تشخيص الأحكام، وحرمة الغناء من الأحكام لا الموضوعات فتأمل.

أما دعوى حرمة الغناء ذاتاً، والتفصيل بين قسمين من الغناء، قسم محرم وهو المقارن للمحرمات، من دخول الرجال على النساء وتكلمهن بالأباطيل ولعبهن بالملاهي من العيدان والرقص وغيرها، وقسم محلل وهو ما يتغنى بالمواعظ ونحوها، فقد أجاب بعض المحققين عن هذا الإيراد بما يلي:

١ ـ دعوى قصور الأدلة عن إثبات حرمة مطلق الغناء، لعدم إطلاق ما دل على الحرمة، وما كان منها مطلقاً لا يدل على الحرمة كقوله ﷺ: «شر الأصوات الغناء»! وقوله: «الغناء عش النفاق» ونحوهما كما جاء في الأثر عنه ﷺ.

وفيه: إنه لا قصور في إطلاق كثير من الروايات كالمفسرة لقول الزور ولهو الحديث بالغناء.

٢ ـ التمسك بروايات عمدتها صحيحة أبي بصير قال: قال أبو عبد الله الصادق عليه السلام: أجر المغنية التي تزف العرائس ليس به بأس،

---

(١) الموسيقى والغناء: ص٧٦، النابلسي.

وليست بالتي يدخل عليها الرجال[١]، لكن في مرآة العقول (ليست) بسقوط الواو[٢].

وتقريب الاستدلال: إن قوله: ليست بالتي يدخل عليها الرجال، مشعر أو دال على العلية في الحكم بعدم البأس في أجر المغنية، فتدل على أن المحرم هو خصوص المقارن للمعاصي.

والإنصاف أن طرح الأدلة الظاهرة الدالة على الحرمة بمثل هذه الروايات غير جائز، لا سيما مع مخالفة مضمونها لجميع الأقوال.

الحرمة مع الاستثناء فيها:

صحيحة علي بن جعفر عن أخيه موسى الكاظم عليه السلام قال: سألته عن الغناء هل يصلح في الفطر والأضحى والفرح؟ قال الإمام عليه السلام له: لا بأس به ما لم يزمر به[٣].

وذهب بعض الفقهاء للقول بعدم العمل بها لتعارضها مع إحياء العيدين الشريفين بالدعاء، والصلاة، والمناجاة والزيارات لا بالغناء والرقص والموسيقى فتأمل.

استثناء المراثي والقرآن:

يستثنى من ذلك التحريم المراثي، وقراءة القرآن الكريم بصوت شجي حزين، لما في ذلك من عمومات الأدلة المشعرة بالجواز وهي:

---

(١) الفقيه: ج٣ ح ٢٤.

(٢) المجلسي، مرآة العقول: ج ١٩ ح ٣.

(٣) في هذه الرواية اختلاف وزيادة لعلها سقطت مع الراوي، وهي كما صرح الإمام الخميني في شرحه على المكاسب المحرمة، بهذا السند والمتن في كتاب علي بن جعفر المتداول، وأما في الوسائل: ج ١٧ كتاب التجارة أبواب ما يكتسب به، ب١٥ ح٥ نقلاً عن قرب الاسناد ١٢١ ففيها ما لم يعص به بدل ما لم يزمر به، وفي مسائل علي بن جعفر ما لم يؤزر به. واحتمل الإمام الخميني(قده) أن ما لم يزمر به تحريف عن ما لم يؤزر به فيكون نقلاً بالمعنى لما لم يعص به ولم يستبعده.

١ ـ موثقة حنان بن سدير لما سأل أبا عبد الله الصادق عليه السلام عن أجر الجارية النائحة فقال: قل لها: لا تشارط وتقبل ما أعطيت[١].

٢ ـ صحيحة أبي بصير قال قال: أبو عبد الله الصادق عليه السلام: لا بأس بأجر النائحة التي تنوح على الميت[٢].

الإيراد على الروايتين:

الاستدلال بالرواية الأولى، إما بعموم أدلة الإبكاء والرثاء وقراءة القرآن بدعوى أن التعارض بينها وبين أدلة حرمة الغناء من وجه، فيتساقطان ويرجع إلى ما يقتضيه الأصل وهو الجواز.

وفيه: أنه لو بني على معارضة أدلة الاستحباب وأدلة الحرمة وتساقطهما في المشترك بينهما استلزم ذلك تأسيس فقه جديد له خصوصية خاصة بهذه الأحكام، والصحيح لا معارضة بين أدلة الاستحباب وأدلة الحرمة، وذلك لأن الأحكام في المطلقات تتعلق بالطبائع، مع قطع النظر عن الطبائع الأخرى أو الأفراد التي تعلق بها حكم آخر، فلا تعارض في مرحلة تعلقها بالموضوعات.

نعم العقل في مقام الامتثال يحكم بلزوم حفظ الغرض الأهم للقواعد الحاكمة بذلك في قاعدة (تقديم الأهم على المهم).

وترجيح أدلة الحرمة للغناء على الحلية أولى في هذا المقام لتحقق الفساد منها على المنفعة.

وأما الاستدلال بالرواية الثانية ففيه: أما بدعوى أن النوح لا يكون إلا مع التغني أو أن مقتضى الإطلاق شمول الغناء.

---

(١) الوسائل، مصدر سابق: ح ٣.

(٢) الوسائل: المصدر السابق.

فالجواب عليها:

١ ـ ولو فرض التعارض رجحت أدلة الحرمة، لموافقتها المشهور ومخالفتها لعامة الروايات الضعيفة سنداً ومتناً.

٢ ـ الروايات المستفيضة الدالة على استحباب قراءة القرآن بصوت حسن وهي كثيرة، والمراد منها قراءة القرآن بالصوت الحسن وألحان العرب، مقابل قراءته بألحان أهل الفسوق والكبائر واتخاذه مزامير وغيره مما هو الغناء.

استثناء الحداء من الحرمة:

اختلفت تعاريفه: وهي كما يلي:

١ ـ إنه سوق الإبل مطلقاً بأية وسيلة كانت، كما هو ظاهر القاموس[١].

٢ ـ إنه سوق الإبل بالغناء كما هو محتمل عبارة الصحاح وغيره، وظاهر الوافي والمسالك والرياض وغيرها[٢].

٣ ـ إنه مشترك بين سوق الإبل مطلقاً والتغني لها، كما هو محتمل الصحاح والمنجد، ومجمع البحرين[٣].

٤ ـ إنه مباين للغناء، كما هو صريح مفتاح الكرامة، تمسكاً بالعرف، وكأنه مال إليه في الجواهر[٤].

---

(١) قاموس المحيط: ج٤ ص٣١٥.
(٢) الصحاح: ج ٦ ص ٢٣٠٦، والوافي: ج ٨ ص ٣٩٦، والرياض: ج ١ ص ٥٠٢.
(٣) الصحاح: ج ٦ ص ٢٣٠٩، والمنجد: ص١٢٢، ومجمع البحرين: ج ١ ص٩٢، ومسالك الأفهام: ج ٢ ص٤٠٣.
(٤) الجواهر، النجفي: ج٤١ ص٤٩.

جواب الإيراد، إنه إذا كان التغني بالحداء في سوق الإبل يطلق عليه تغني كما هو ظاهر كلام صاحب الجواهر في التشخيص العرفي له، فهو محرم لأدلة تحريم الغناء مطلقاً.

وإلا فالأدلة لا تشمله لأنه ليس بالغناء المحرم الذي تشمله الأدلة، فيخرج عن كونه محرماً، وعليه فيكون جائزاً.

استثناء الغناء في الأعراس:

استثنت الأحكام الشرعية الغناء في الأعراس شريطة أن لا يطلع عليهن (أي النساء) الرجال، وأن لاتختلط النساء بالرجال، كما هو حال الأعراس في المجتمعات الإسلامية اليوم!

واستدل القائلون بالجواز برواية أبي بصير عن الصادق عليه السلام قال: قال أبو عبد الله: أجر المغنية التي تزف العرائس ليس به بأس، وليست بالتي يدخل عليها الرجال[١].

وظاهره في الحلية واضح إذ ضرورة أن حلية الأجر ملازمة عرفاً لحلية العمل، نعم الظاهر فيها (أي الرواية) اختصاص الجواز بالمغنية لا المغني، وبمجلس العرس المختص بالنساء لا الرجال والنساء.

كما ذهب بعض الفقهاء إلى حلية أخذ الأجرة من العرس الذي فيه غناء واقترنت معه المحرمات الخارجية، كما لو كان مقترناً بآلات اللهو وإن كانت المغنية ضاربة لها مع تغنيها، ويجوز أخذه في مقابل تغنيها، لا العمل المحرم المقارن له[٢].

---

(١) من لا يحضره الفقيه: ج ٣ ح ٢٤.

(٢) المسألة محل خلاف عند فقهائنا العظام، الرجاء مراجعة الرسائل العملية لهم، وللمزيد حول هذا البحث مراجعة المقال الذي كتبة الشيخ خالد الغفوري في مجلة فقه أهل البيت العدد ٤ سنة ١٤١٦هـ.

قيادة السيارة بتهور (التفحيط):

تشير التقارير الإحصائية أن ظاهرة قيادة السيارة بتهور والاستعراض أمام الآخرين، تعد من الظواهر الشائعة عند الأحداث والشباب في المجتمعات العالمية، وخاصة في المجتمعات العربية والإسلامية، وهي ظاهرة اجتماعية خطيرة لا يكفي الحديث عنها في طيات الصحف والكتب، بل ظاهرة تفتقر للحلول العملية، ففي كل عام تقريباً يتم إدراجها ضمن المخالفات المرورية المنتشرة بجميع دول العالم، والدول العربية والإسلامية والخليجية على وجه الخصوص، ففي مناطق المملكة العربية السعودية ـ ولعدم وجود مساحات رياضية لمثل هذه الرياضة الخطرة، التي تُعد عند المراهقين من أفضل الرياضات بعد كرة القدم!! ـ تم ضبط (٢٠١٢) حالة تفحيط في المملكة في عام ١٤٠٩هـ.

وأما عن علاقة تلك الظاهرة بالفراغ والسلوك الإجرامي، فقد كشفت إحدى الدراسات الميدانية السعودية، أن معظم مرتكبي الجرائم الجنسية (٦٥٪) كانوا يقودون السيارات بتهور أثناء أوقات الفراغ، ويعدونه فناً من فنون القيادة، ويعرف هذا النشاط عند العامة بـ (التفحيط)، وهو استعراض بقيادة السيارة بسرعة جنونية وانتحارية أمام الجمهور. . . وكشفت نتائج الدراسة ومن خلال الاختبارات الإحصائية، أن التفحيط يمارس بشكل كبير من قبل مرتكبي الجرائم الجنسية الشاذة مع الذكور كاللواط وهتك الأعراض، وقد ساهم أسلوب دراسة الحالة المستخدم في تلك الدراسة في الوصول إلى تفسير اجتماعي لظاهرة التفحيط وارتباطها القوي بالأفعال الجنسية مع الذكور، فأسلوب المقابلة مع بعض المبحوثين ساعد على الوصول إلى تفسير مقنع لنشأة مثل هذا السلوك في المجتمع، ويرتكز التفسير الاجتماعي لهذه الظاهرة باكتشاف الوظائف الكامنة للتفحيط، كما يعبر عنها المبحوث نفسه.

فقد تبين أن التفحيط يحقق للمفحطين وظيفة اجتماعية تتعلق بالجنس، وهي جذب انتباه وكسب إعجاب جمهور من الأحداث والمراهقين، ومن ثم التعرف عليهم ومراودتهم جنسياً لفعل المحرمات أو الاعتداء عليهم بقوة وهتك أعراضهم.

مُفحط يؤكد قول الدراسة:

وإليك بعض اعترافات المفحطين، يقول: أنا ورفاقي نفحط قرب مدارس الأولاد الذين يدرسون في المتوسطة والثانوية، وأحياناً الحارات من أجل أن يجتمع بعض الشباب، ويشاهدون فن التفحيط، ويرون مهارتنا وقدراتنا الخارقة، فينبهر بعضهم بهذا العمل، ثم نطلب من أحدهم مرافقتنا بالاستعراض، ونبدي له استعدادنا بتعليمه التفحيط، ثم نتفق أن يكون التعليم في البر خارج المدينة من أجل السلامة، فيتكرر خروجه معنا، ثم نطلب منه الموافقة على فعل اللواط به، فبعضهم يوافق من البداية، وبعضهم يوافق إذا أعطيناه فرصة أن يفعل اللواط بآخرين من سنه يوافقون على الفعل، مما يجبره على الموافقه بسهولة أن يُفعل به!!

ويقول آخر: أنا لما أفحط أقوم بالتعرف على المشاهدين من المراهقين والصغار الوسيمين، ثم أطلب من أحدهم الركوب لعدة مرات، واستعرض به أمام الجمهور، ويتكرر هذا عدة مرات، إلى أن تشتد العلاقة بيننا، وأقوم بتعريفه على مفحطين آخرين، وأعرفه كذلك على مكان اجتماعاتنا، ثم نبدأ نخطط على فعل اللواط به، وندعوه لتناول العشاء في البر خارج المدينة، ونطلب منه المشاركة في الأغاني والرقص، ثم يبدأ الأصدقاء بالمزاح الجنسي معه، فإذا وجدوا منه رضى وتقبلاً، وصل الأمر بنا إلى مراودته جنسياً، وفعل اللواط به، أما إذا لم

نجد علامات رضى وقبول فأحياناً نلجأ إلى القسوة والتهديد بالضحية، وأحياناً التهديد بالسلاح[١].

وهذه الشواهد الميدانية والدراسات العلمية واحدة من مئات، لا بل آلاف!

بعض طرق استثمار الوقت:

وأخيراً: أريد أن أشير لبعض الوسائل النافعة للقضاء على عامل الفراغ وهي:

١ ـ إشغال الوقت بالأمور النافعة في العالمين (الدنيا والآخرة)، كأن يشتغل الفارغ بالصلاة والعبادة، والدعاء وحفظ القرآن، وممارسة بعض الأنشطة الدينية، كتعلم المسائل الشرعية التي يُبتلى بها غالباً في الحياة العملية.

٢ ـ ممارسة بعض المهن التي تنفع الفارغين، بالخصوص الأعمال اليدوية. يقول الإمام علي عليه السلام: «مهنة في اليد أمانٌ من الفقر».

٣ ـ مطالعة الكتب الثقافية والأدبية، والعلمية، والعقائدية.

٤ ـ دخول الدورات التعليمية التي تهتم بتعليم اللغات المختلفة، والعلوم الإلكترونية كالكمبيوتر، والإنترنت وغيرها.

(١) الظاهرة الإجرامية، مصدر سابق: ص ١٠٨.

الفصل التاسع

الرفقة والانحرافات

الرفقة والانحرافات

لا ينكر أحد ما للصديق من أثر..

إنه كتفاحة في صندوق، إن كانت خراباً، أفسدته كله، لأن الصديق يقضي الوقت مع صديقه، ويسبغ على شخصيته وعمله شخصية صديقه وعمله، ويكتسب منه هيكلية حياته، ويتحرك وفقاً لمعطيات شخصية صديقه.

فالذي يعاشر الأتقياء والعلماء الصالحين، يشرق صفاء نور العلم في ذهنه، ويلهج بالذكر لسانه، ويختط المعتمد على سلوكه وعمله أحلى طابع وأنصع صورة.

والذي يعاشر أهل الفسق والانحرافات والأغبياء يكتسي منهم حلة ثقيلة سوداء نتنة، ويعمل ما يعملون:

كالريح آخذةٌ مما تمر به ... نتناً من النتن أو طيباً من الطيب

الصديق، يزين العمل لصديقه، ويحثه على القيام به، كما قام به هو من قبل، وهذا الأثر البالغ يلفت أنظارنا إليه القرآن الكريم بقوله:

﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِيٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾[1].

(١) سورة فصلت، الآية: ٢٥.

وقال رسول الله ﷺ مشيراً لهذا المعنى ومحذراً من هذا الخطر القاتل: احذر مجالسة قرين السوء، فإنه يهلك مقارنه ويردي مصاحبه[١].

المرء على دين خليله:

ثمة فرق كبير بين رفيق يريد صلاحك، وهدايتك ورفع مستواك الأخلاقي والعلمي والتربوي والاجتماعي، ويحاول أن يسد عثراتك ويدفع بها إلى الكتمان، بعيداً عن الأنظار، وإذا أصبت بنكبة تراه ماثلاً بين يديك يبذل في الصعاب ماله، ويقي بنفسه عرضك ومالك ودمك، فهؤلاء كالمسك، مجالستهم بركة، ومصاحبتهم خير ونعمة، ورفقتهم مفخرة..

وصنف آخر مخالطتهم داءٌ عضال، ووباءٌ ودمار، فهم سم ناقع، وبلاءٌ واقع، القرب منهم أعدى من الجرب، تجدهم يشجعون على المعاصي والمنكرات، ويفتحون لمن جالسهم أبواب الشر والفساد، وهم الرفقة السيئة التي ما عرفت حق الصحبة ولا الرفقة، فيحاولون بقدر ما أوتوا من قوة أن يدمروا رفاقهم ويمتصوا دماءهم ويهتكوا أعراضهم ويسلبوا مالهم، فهؤلاء صحبتهم دمار، ورفقتهم خسارة في الدارين (الدنيا والآخرة).

ويصبح المرء على دين خليله، ويغور في المتاهات الحالكة السوداء، والأغوار المظلمة، والطرق الوعرة، ويمضي قطار الزمن، وهو هائم على وجهه، وسكر في غفلته، ولا يلتفت إلا والأجراس تدوي وتقرع: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ

---

(١) ميزان الحكمة: ج ٥ ص٢٩٩.

ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَـٰٓؤُاْ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾[١].

إنه يوم المحكمة الكبرى، والقيامة العظمى، والحساب الشديد، فيندم على غفلته واسترساله، ولكن، لاسبيل ولا مفر: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا * يَـٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا * لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لِلْإِنسَـٰنِ خَذُولًا﴾[٢].

والإنسان بطبعه مجبول على التقليد والاقتداء بصاحبه وجليسه، والطباع جنود مجندة يقود بعضها بعضاً إما إلى الخير أو إلى الشر، والإنسان موسوم بسمات من قارب، ومنسوب إلى أفاعيل من صاحب، لذا قال الشاعر:

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه   فكل قرين بالمقارن يقتدي
إذا كنت في قوم فصاحب خيارهم   ولا تصحب الأردى فتردى مع الردي

الرفقة والانحرافات:

تشكل جماعة الرفاق أحد الأوساط الاجتماعية التربوية الرئيسية، التي تؤثر في الفرد على مختلف المستويات الشخصية والاجتماعية والأكاديمية، وتمثل دراستها محوراً لاهتمام علم النفس وعلم التربية والتعليم، وعلم الجريمة الاجتماعية، حيث تلتقي أهدافهم حول فهم الكيفية التي تعمل بها جماعة الرفاق، كوسيط من وسطاء التربية والتنشئة الاجتماعية، أو كعامل من عوامل التأثير في شخصية الناشئ من جهة، وكناقل لثقافة المجتمع وعامل من عوامل التغيير فيها من جهة أخرى.

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٩٤.
(٢) سورة الفرقان، الآيات: ٢٧ ـ ٢٩.

وهذا ما دعا علم الجينات الاجتماعية الذي اعتبر الرفقة عاملاً من عوامل الجريمة الاجتماعية لأن يهتم بدراسة الرفقة دراسة موضعية وميدانية، بحيث تخوله أن يحكم عليها أنها من أهم العوامل المحفزة على الجريمة الاجتماعية، باعتبار أن ميل الإنسان إلى التقليد ظاهرة ملاحظة موثقة في البحث في التعليم الاجتماعي بمظاهره المختلفة، أي بسلوكيات مختلفة يظهرها الفرد في محيطه الخاص (الأسرة) والعام (المجتمع) بسبب تأثيرات الرفقة عليه.

يؤكد هذه الحقيقة الخبير الأكاديمي التربوي (باندورا) بقوله: المنظر الرئيسي في هذا المجال، أن الفرد الإنساني لا يكون متقبلاً سلبياً للمشاهدات يكررها آلياً، وإنما يختار نماذج بعينها من بين العديد من النماذج المتاح له الاتصال بها، ويختار سلوكياتها بعينها، من بين العديد من أنماط السلوك، أو الاستجابات التي يقوم بها النموذج المعين، وهو يكيف ما شاهده ليتناسب مع المواقف الجديدة التي يستجيب لها بالسلوكيات المقلدة أو الملاحظة، وتكمن اختيارات هذه العوامل في شخصيته[١].

وتصبح جماعة الرفقة مصدراً من مصادر التأثير شئنا أم أبينا، وهذا ما أثبتته الدراسات التجريبية في هذا المجال، فقد جاء في التقرير الذي قامت به اللجنة الخاصة لدراسات الجريمة في العالم، أن الفرد قد ينساق لحكم خاطئ يجمع عليه عدد من الأفراد، ويكون الخطأ فيه واضحاً كل الوضوح، ولكنه يصر على صحته لأن رفاقه أجمعوا على ذلك.. ويبدو أن ميل الفرد الإنساني إلى الانسياق مع الجماعة أو الامتثال لها، يبدأ مبكراً في الحياة، فقد لوحظ أن أطفالاً بعمر السادسة والسابعة يُظهرون

(١) المرجع في التربية: ج ١٢ ص ٣١٢.

ميلاً إلى تبني وجهات نظر أقرانهم أو أفكارهم الخاطئة، المتفق عليها مُسبقاً مع المجرب في ظروف مخبرية[١].

الدراسات العلمية تثبت التأثيرات:

وتشير الدراسات العلمية الميدانية إلى أن الأطفال في سن مبكرة في التعليم الأولي، يتأثرون لأول وهلة من ذهابهم إلى رياض الأطفال بعامل الرفاق، ففي الشهور الأولى بعد الملاحظة ترى أن الأطفال يحدقون في بعضهم بعضاً عندما يقع بصر الواحد منهم على الآخر، ويأخذون في تحريك أطرافهم حركات توحي بالاستثارة، كما لوحظ ظهور استجابات اجتماعية كالابتسام، وإصدار الأصوات ومحاولة الوصول إلى الآخرين، واللمس، وشد الشعر، فيما يزداد هذا العامل من المؤثرات كلما تقدم به العمر والتصق بالآخرين أكثر.. وقد أمكن تقديم أدلة علمية تُبين أن قدراً من التأثير الاجتماعي يأخذ مجراه في أواسط السنة الأولى، حيث يرد الأطفال على ابتسام أقرانهم بالابتسام، وعلى الهمس والتمتمة، والصراخ باستجابات مماثلة[٢].

ويُمثل دخول الطفل إلى المدرسة نقلة هامة في حياته الشخصية والاجتماعية، مما ينطوي على سلسلة من التحديات، تمثل العلاقات مع الأقران، على الصعيد الاجتماعي، ويخرج الأطفال من حالة التمركز حول الذات، نتيجة لنموهم المعرفي وتمييزهم الآخرين ككيان مستقل، مما يجعلهم متأثرين ببعضهم البعض أكثر من تأثرهم بالأسرة والمحيط العائلي.

---

(١) المصدر السابق: ص ٣١٦.

(٢) المصدر السابق: ص ٣٣٣.

ولكن تبقى الخطورة في هذه الأعمار في مرحلة المراهقة، التي تكون عادة في المراحل المتأخرة من المتوسطة والثانوية والجامعة، والتي يعتبرها علماء التربية مرحلة النمو الاجتماعي والبحث عن الهوية، فالمراهق شخصية في عداد التكوين، تشغله أسئلة كثيرة بحاجة إلى إجابات مقنعة، وفي جماعة الرفاق في هذه المرحلة (المراهقة) يُشبع المراهق حاجته الماسة إلى الانتماء والقبول والاعتبار كشخص مستقل مساوٍ في المكانة للآخرين، ويزيد من وثوق العلاقة بين المراهق وجماعة الرناق الذين هم في عمر مماثل كونهم يشاركونه المشاعر، والخبرات، والأهداف، والشكوك حول الذات والمحيط، وهو ما لا يتوافر له في علاقاته بوالديه وأفراد أسرته، وتكون النتيجة القطعية في هذه الممارسة التشابه بينهم في اللباس وطريقة الحديث والتفكير، ويقود التعارض المحتمل في القيم وأنماط السلوك غير المقبولة، كالتدخين مثلاً، إلى تهديد العلاقة بين الفرد المعارض والجماعة، وكثيراً ما يحل برضوخ المراهق للأغلبية.

المتابعة لهم حيطة وحذر:

وتبقى المشكلات عالقة بين الآباء والأمهات وبين الأبناء المراهقين، وهذه المشكلات تكمن بحياتهم الاجتماعية ومجموعة الرفقة التي يتصل بها المراهق في العائلة أو الحي، أو المدرسة، أو العمل أو المجالس المختلفة. .كثيراً ما نرى الآباء والأمهات يتحدثون بالشكوى من السلوك السيئ لأصدقاء أبنائهم، وكثيراً ما نرى أمهات الأحداث الذين يعانون من بوادر الانحرافات السلوكية في الأبناء. . وهذا الشعور منهم ليس من قبيل الوهم والخيال، والهوس، إنما هو شعور حقيقي واستنتاج صائب أكدته الدراسات ودعمته الاحصاءات، وقد لوحظ في

هذا الصدد أن تأثر الحدث بأصدقائه يبلغ ذروته بالنسبة للأحداث المماثلين له في السن والجنس ممن يعيشون خارج المنزل، ويزاملونه في المدرسة أو الشارع أو محل العمل أو الديوانية، فهؤلاء قد يزينون له السلوك المنحرف، أو يجعلونه يستسيغ أمره ولا يجد فيه غضاضة، وقد يدفعونه إلى الانحرافات ويشجعونه عليها.

وقد لاحظ الخبير التربوي (بيرت): أن ١٨٪ من الأحداث المنحرفين موضوع دراسته، قد نشأ سلوكهم المنحرف من مخالطتهم بالأصدقاء المنحرفين، ولكنه يرى مع ذلك أن هذا العامل هو من العوامل المساعدة وليس من العوامل الرئيسية، وأنه أكثر ظهوراً في الأولاد عنه في البنات. والواقع الذي لا نتمكن من تجاهله، أن حضور الحدث الصغير مع رفيق آخر سيئ الخلق ومحاكاته إياه في أفعاله الانحرافية، إنما هو ظاهرة نفسية فيها شيء من الغرابة تحتاج إلى علاج سريع[١].

ومما يجب الاهتمام به والالتفات إليه، أن مخالطة الحدث السوي لأصدقاء منحرفين من البالغين، يؤدي إلى نتائج أبعد غوراً وأشد أثراً، من تلك التي يمكن أن تتحقق إذا ما خالط أحداثاً في مثل سنه.

وقد تبين من بعض الدراسات أن تأثر الحدث بشخص شرير يتقدمه في العمر له أثر مدمر على شخصية الحدث، وسواء كان هذا الشخص البالغ صديقاً عرضياً أو دائماً، وسواء كانت معرفته به قد تمت في نطاق الأسرة أو خارج المنزل عن طريق الصدفة المحضة، فإن الحدث الصغير تبهره عناصر شخصية الصديق البالغ، ونجده هنا يفسر هذه العناصر

(١) انحرافات الأحداث: ص ١٨٤.

تفسيراً خاطئاً، فيعتقد أن انحرافات البالغ شجاعة، أو أن اعتداءه على الآخرين ضرب من الشعور بالكرامة، كما يرى الصغير في قوة البالغ الجسمية ما يدفعه إلى التمسك بصداقته ليحتمي بقوته حيال أترابه، إلى أن يجد الصغير نفسه تلميذاً في مدرسة للكبار، ويكون عندها ضحية للانحرافات السلوكية والأخلاقية، وعرضة للاعتداء الجنسي المثلي أو غيره[1].

كما أنه لا تُستثنى الأقارب والجيران، فمخالطة الحدث للأقارب والجيران تأخذ نفس الحكم والنتيجة، إلا ما خرج منها بالدليل الأخلاقي والتربية النزيهة الإيمانية، ذلك أن الأقارب والجيران يكونون دائماً معروفين لأفراد الأسرة، فيسهل مراقبة تطور العلاقة بين الحدث وبينهم، وليس معنى هذا أن مخالطة الأقارب والجيران تكون دائماً مجردة من الآثار السيئة، بل الواقع أنه إذا وجد بين الأقارب أو بين الجيران شخص منحرف، فإن عدوى الانحراف تكون قوية الأثر شديدة الوطأة، ويسهل على الحدث أن يستقي منه السلوك السيئ.

ولقد أشارت بعض الدراسات التطبيقية في المجتمع السعودي، والتي حاولت إبراز العلاقة بين ميل الفرد للجريمة أو الجنوح وإجرام الرفاق، إلى وجود عصابات أو شلل من المجرمين لها خصائصها التي تميزها عن غيرها من الجماعات الاجتماعية والثقافية، وتُظهر الخصائص صوراً عديدة من التكيف الاجتماعي للفرد، حيث تبين أن المجرم أو الجانح يميل إلى مرافقة مستويات عمرية وتعليمية واقتصادية معينة، وتمنح هذه المستويات والمميزات سمات أساسية للعصابات الإجرامية والجانحة في المجتمع السعودي، فقد تكاد تتفق الدراسات التي عنيت

---

(١) المصدر السابق: ص ١٨٣.

في هذا المجال، على أن العصابة الإجرامية أو الجانحة في المجتمع، تضم في الغالب أفراداً متجانسين في مستوى العمر، فكل فرد يرتاح لقرينه في العمر، ويشعر بألفة لعشرته، والتوافق والانسجام عند التعامل معه.. وأن مرتكبي الجرائم المختلفة من السرقة والمخدرات، والقتل، والتفحيط، والاغتصاب واللواط كانوا من نفس العمر(١).

رفيق السوء دمر حياتي:

هذه قصة شاب كان ضحية من ضحايا رفقاء السوء، وكانت له صولات وجولات في عالم الضياع والمخدرات والجريمة يقول:

نشأت في بيت متدين جداً، والدي كان شديد التدين فلم يكن يسمح بدخول شيء من آلات اللهو والفساد إلى البيت، مضت الأيام وبلغت الرابعة عشرة من العمر، حدث في حياتي حادث كان سبباً في تعاستي وشقائي فترة من الزمن، فقد تعرفت على (شلة) من رفقاء السوء، فكانوا ينتظرون الفرصة المناسبة لإيقاعي في شباكهم، وجاءت الفرصة المناسبة، فترة الامتحانات، فجاءني بحبوب منبهة واستعملتها، فكنت أسهر عدداً من الليالي المتواليات في المذاكرة دون أن يغلبني النعاس، وانتهت الامتحانات ونجحت، وبعد الامتحانات داومت، تعاطي هذه الحبوب، فأرهقني السهر، وتعبت تعباً شديداً، فجاءني أولئك الأصدقاء وقدموا لي في هذه المرة حبوباً مختلفة عن تلك الحبوب السابقة، فأخذت هذه الحبوب يومياً وبالعشرات، وبقيت على هذه الحالة ثلاث سنوات تقريباً أو أكثر، وفشلت في دراستي، ولم أتمكن من إتمام المرحلة المتوسطة من الدراسة ولا الحصول على

---

(١) الظاهرة الإجرامية: ص ٧٤.

الشهادة، فصرت أنتقل من مدرسة إلى مدرسة علي أحصل على الشهادة لكن دون جدوى، وها أنا أصبحت من الفاشلين الخاسرين في الحياة[١].

إذن: يجب أن نلتفت إلى الرفقة مع الأبناء والبنات، لأنها قنوات مفتوحة تحتاج إلى تقنين ومراعاة وضوابط واهتمام متزايد، والتوجيه من قبل الوالدين والأقارب، وهذا لا يتسنى لنا في يوم واحد أو شهر أو مرحلة عمرية من أعمار الأبناء، بل تحتاج إلى متابعة، وربما تكون إحدى الوسائل المناسبة والضرورية هي إتاحة الفرصة للآباء والأمهات للتعرف على رفقاء الأسرة عن كثب عبر الزيارات أو الدعوة إلى المنزل[٢].

---

(١) راجع كتاب العائدون إلى الله: ص ١٩.

(٢) وقد أشرنا إلى بعض العلاجات لهذه المرحلة (المراهقة) في كتابنا المراهقة فراجع.

الفصل العاشر

المدرسة والانحرافات (المعلم والتعليم أنموذجاً)

المدرسة والانحرافات (المعلم والتعليم أنموذجاً)

المدرسة والانحرافات:

الأرض البكر خلق الله فيها إمكانيات كثيرة، ولكنها لا تنبت شجراً ولا عنباً من دون الماء، وعقل الإنسان كالأرض البكر، لا ينتج فكرة ولا يدرك واقعاً ولا يتمكن من الرقي إلى سلم التطور العلمي والحضاري والتقدم المدني الذي يشهده عالمنا الغربي، والعربي والإسلامي، لو لم تسبقه الثقة والعزم والأخلاق في تأدية الأعمال مهما كانت ومع من تكون.

فكل إنسان في موقعه مسؤول عن تأدية أعماله بشكل يرضي الله أولاً، ويريح ضميره ثانياً، وإعانة من يتوقفون على أعماله ثالثاً، وتكون هذه المسؤولية ضخمة وكبرى إذا كان يعتمد عليها في تنمية العقول وإخراج الجيل الصالح، الذي تعتمد عليه الموارد التنموية في عالمنا ووطننا الحبيب.

فالعقول التي لا تغطيها طبقة كثيفة من الثقة بالآخرين، هي كالأرض التي تغطيها طبقة كثيفة من السبخة، لا تزول حتى لو سقيتها بالماء مراراً وتكراراً. فمسألة الثقة في الطالب وقدرته العقلية والعلمية وكفاءته الذاتية كفيلة بإخراجه منبعاً للعطاء الوطني، فكثير من أبنائنا

الطلاب والطالبات يمتلكون مهارة علمية، وثقافية، ومهنية لو استثمرت ومنحناهم الثقة الكاملة في قدراتهم لأمكننا أن نسير بوطننا وأمتنا نحو الاكتفاء الذاتي.

الروافد التعليمية العائلية:

ولقد شكلت العائلة الأسس الأولية لتعليم الأبناء، حيث كان تعليمهم ينصب في جوهره على استجلاب الرزق وتسيير شؤون الحياة اليومية، وكان معظم تعليم الأبناء إما بالتقليد أو اللعب، وقد تحمل الآباء والأمهات في القديم مسؤولية الرعاية والتربية، وبالتالي شكلت العائلة مدرسة للأطفال، ومنهاجها كان ينصب على التعليم لمواجهة الحياة صحياً ودفاعياً وترويحياً واقتصادياً، فمثلاً أمور النظام والصحة العامة والعلاج والتغذية وأمور الدفاع والحرب كان يتعلمها الطفل عن عائلته ويورثها فيما بعد لأبنائه، وكان التعليم يجري بصورة تلقائية عفوية دون تحديد أو وضع منهاج، وكانت المهمة الأولى هي تكييف الأجيال للتلاؤم مع البيئة وملاءمتها لهم، ومع تزايد الأسر وتكاثر الأطفال ظهرت القبيلة، فأخذت جانباً من دور الأسرة وخاصة فيما يتعلق بالجانب الروحي الذي تمثل بالعقائد والطقوس.. ولكن بعد هذه المرحلة برزت عوامل أدت إلى ظهور المدرسة التي اتخذت طابعاً مؤسسياً، حيث تمكنت من اتخاذ المعرفة والثقافة، واللغة المكتوبة، والتراكم المعرفي، وتشعبت متغيرات الثقافة التعليمية.

المدرسة البيت الثاني:

المدرسة عبارة عن مؤسسة اجتماعية، وهذا يعني أنه كالجامع أو الكنيسة أو الهيئات الأخرى، أي أن لها تاريخاً ومفردات خاصة بها، مع مجموعة من الأنظمة والقوانين والإجراءات الخاصة بها، إنها تقوم بتعيين

أدوار مختلفة للأفراد الذين ينخرطون تحت لوائها، إن المدرسة محاطة بشبكة من الأنظمة والقوانين التي تحافظ بدورها على بقائها، وعلى الرغم من أهمية هذه الأمور إلا أن ما يعرف المدرسة كمؤسسة هو مجموعة من الوظائف الأساسية التي تقوم بأدائها في المجتمع.

أما بالنسبة للأشياء الأخرى من مثل الإجراءات والقواعد والأنظمة فإنها عبارة عن عوامل مساعدة في إنجاز الوظيفة المناطة بالمدرسة.

ويمكن أن يعرف النظام المدرسي بأنه: عبارة عن مجموعة من المدارس التي هدفها المجتمع أو مجالها المجتمع ككل، وكما هو الحال في المدرسة، فإن مهمة النظام المدرسي تزويد خبرات تعليمية للطلاب؛ وغالباً يشمل النظام المدرسي المدارس الخاصة والمدارس العامة، ويشمل أيضاً ما قبل المدرسة والحضانة والجامعات والمدارس الفنية، جميع هذه المدارس تمتلك درجة من الوظائف المتداخلة والتي تهدف إلى إنجاز المسؤوليات التي يضعها على عاتقها المجتمع[1].

وحدوية التربية والمدرسة:

كلنا يعلم: أن الدين تربية قبل أن يكون تعليماً، باعتباره يصفي النفس الإنسانية من القاذورات والشهوات والطمع والحسد والحقد، وسائر الأمراض الأخلاقية الأخرى، ويجعل لها المناهج الصالحة والضامنة لسعادة الإنسان في الدنيا والآخرة.

ولذلك كان لا بد من التمييز بين ما يسمى بالتربية والتعليم المدرسي؛ إذ أن هذين المفهومين يستخدمان وكأنهما نفس الشيء. فالخبرات التي يمر بها الفرد من خلال تعليمه التربوي هي مراحل مماثلة

(١) المرجع في مبادئ التربية: ص٢٧٢.

يمر بها الفرد في تعليمه المدرسي، غاية ما هناك من فرق، أن التربية مفهوم أوسع من التعليم المدرسي، إذ تقوم العديد من المؤسسات بوظيفة التربية بالإضافة إلى المدرسة، هذه المؤسسات تتمثل في الأسرة، والمسجد والكنيسة، ووسائل الإعلام، والمكتبات العلمية والثقافية، والإعلانات، بالإضافة إلى الأفراد المهتمين بالعملية التربوية.

بينما تعد العملية التعليمية المدرسية جزءاً من العملية التربوية، ولكنها ليست المساهم الوحيد في عملية تربية الفرد تربية متكاملة، إذ تبقى التأثيرات الأخرى تلعب دوراً مهماً في العملية التربوية.

نعم في المجتمعات التقنية يلعب التعليم المدرسي دوراً مهماً في عملية التربية، لأن التقدم التكنولوجي جعل الهدف الكلي للتربية، فدخلت في التربية التعقيدات الكثيرة التي عانى منها القائمون على التربية، ولأن معرفة الوالدين ليست واسعة بشكل كافٍ لتزويد الأفراد بأنواع الأدوار التي يتطلبها المجتمع المتقدم تقنياً، لذلك يرسل الوالدان الأبناء إلى المدرسة في مراحل عمرية مبكرة.

المدرسة منطلقات التنشئة الاجتماعية:

المدرسة ليست في جوهرها بناية، تضم حجرات للدراسة ولوحات سبورية، وفناء في جانب، وصارياً للعلَم عند المدخل الأمامي.

فقد تكون هناك مدارس دون أن تكون فيها هذه المعدات المادية المألوفة، وليس من الضروري أن تكون المدرسة مكاناً لصفوف من التلاميذ يقرأون في الكتب، إذ يمكن أن توجد مدارس دون أن تكون هناك صفوف أو كتب، فالمدارس من حيث تكوينها وأنماط النشاط فيها على درجة عظيمة من التنوع، الذي يمتد من جماعات اللعب غير الشكلية في مدارس الحضانة، إلى ارتباط المشرف بطالب الدكتوراه

واشتراكهما في برامج الدراسات العليا، فما الذي تشترك فيه كل هذه التنوعات المختلفة حتى ينطبق عليها تعريف (المدرسة)؟

يذهب فيليب فينكس الخبير التربوي إلى القول: إن هناك مظهرين أساسيين للمدرسة هما:

أنها مؤسسة اجتماعية، معترف بها على أنها أنشئت بخاصة لتحقيق غرض معين، فالمؤسسة الاجتماعية هي تنظيم اجتماعي قصدي وشكلي، وليست مجرد مظهر عرضي لتنظيم اجتماعي عام، وتشترك الأسرة مع المدرسة في طبيعة المؤسسة، لأنها معترف بها ومخصصة لتحقيق واجبات داخل الإطار الاجتماعي العام.

إن التربية ليست الوظيفة الأولى للمدرسة فحسب، ولكنها وظيفتها الواضحة، فالمدرسة معترف بها على أنها وسيلة تربوية، وهي تعلن أنها مكان للتعلم، وأن أولئك الذين يوجهونها مسؤولون عن معرفة أفضل لوسائل التوجيه لنمو المتعلم، والوسائل الاجتماعية الأخرى كالأسرة والأعمال التجارية التي قد تؤدي خدمة عظمى من الناحية التربوية، لا تشعر في الغالب شعوراً ذاتياً بمقاصدها التربوية، وتنشأ المدرسة من ناحية أخرى على أساس أن النشاط التربوي هو تجاربها، وأن كل ما تقوم به لتقدم التعليم يكون مبنياً على أساس قصدي له مسؤوليته[(١)].

ولذلك تُعتبرالمدرسة المهد الثاني الذي يتلقى فيه الإنسان علومه وآدابه وأخلاقه وتعليمه، وهي من أهم الوسائل لنقل المعرفة والثقافة من جيل إلى جيل، وتطوير الشخصية الإنسانية وفق متطلبات الحاضر والمستقبل، وهي تساهم في عملية الإنتاج الاقتصادي والاجتماعي

---

(١) فلسفة التربية، فيليب فيكنس: ٥٣.

والمعرفي في المجتمعات البشرية، وحتى تلعب المدرسة دوراً رئيسياً يجب أن تكون شرعية، بمعنى أن تتولد لدى الناس قناعة بأنها تخدم أهدافهم واحتياجاتهم في حاضرهم ومستقبلهم أيضاً.

المدرسة والانحرافات:

قلنا في السطور السابقة إن المدرسة بيت الإنسان الثاني، ومهد تربيته وتعليمه، لذا لا يتمكن الباحث الاجتماعي في مشكلات الانحرافات السلوكية للأحداث في المجتمعات أن يغفل دراسة الدور الكبير الذي تلعبه المدرسة في حياة الحدث. ليس فقط كقوة وقائية يمكن أن تحول دون انحرافه، أو كقوة علاجية يمكن أن تلعب دوراً إيجابياً فعالاً في تقويمه إذا انحرف، بل كقوة سببية يمكن أن تخلق بذاتها دوراً فعالاً في هذه المجالات من الانحراف.

وتنبعث أهمية الدور الذي تلعبه المدرسة في هذه المجالات من كونها المجتمع الأول الذي يصادفه الحدث خارج منزله، وبعيداً عن والديه وأفراد أسرته، فهو أي الحدث يواجه علوماً مختلفة عن نطاق أسرته، ويلتقى بأفراد من التلامذة ونماذج متعددة من السلوكيات المختلفة، وفي هذا المجتمع الثاني يقضي الحدث الشطر الأكبر من طفولته وصباه وصدر شبابه، وفي هذه المراحل المختلفة يلتقي بالأشخاص الذين يلعبون الدور الأكبر في توجيه وبناء شخصيته بعد والديه، وهم أساتذته ومعلموه، وفيه يختلط بأترابه من التلاميذ الذين تنمو بينه وبينهم أواصر من الحب والصداقة والوفاق، أو الكراهية والبغض والشقاق، وتنعكس في هذا المجتمع (المدرسة) عواطف متباينة تتخذ مظهر اللعب أو الشجار أو المنافسة أو الطموح أو الرغبة في التفوق، وفي هذا المجتمع الصغير تتجلى الصفات التي اكتسبها الطفل

في بيئته المنزلية، فتتخذ مظهراً مادياً ينبئ عما إذا كانت صفات حسنة أو سيئة، وفي المدرسة تلعب المخالطة والمحاكاة دورهما البارز في تكوين شخصية الحدث، ويجد المجال فسيحاً لكى يرتبط وجدانياً بمن هم أكبر منه سناً، وذلك كله في مرحلة من العمر تكون فيها قوة بناء الشخصية في أوجها وعنفوانها.

وهذا الدور الهائل الذي تلعبه المدرسة في حياة الحدث، دفع الباحثين في علوم الجريمة والعقاب إلى مضاعفة الجهد، لكشف العلاقة بين انتماء الحدث إلى المدرسة، وبين السمات السلوكية التي يمكن أن تتميز بها شخصية هذا الحدث، سواء في فترات التحاقه بالمدرسة أو بعد تركه إياها ومواجهته للحياة، وأدت محاولاتهم لاكتشاف المزيد من الدوافع الإنسانية والقواعد الأصلية في علم السلوك وهي حقيقة لم تعد تقبل الجدل[١].

والواقع الذي لا يمكن إغفاله أو تجاهله، أن المدرسة تلعب دوراً خطيراً في بلورة سلوكيات الطفل، منذ أن يدخل إلى دور رعاية الطفولة في سن مبكرة، وإلى أن يتخرج من الثانوية العامة أو الجامعة بعد ذلك، فنرى الحدث تتغير سلوكياته ونبرات حديثه ودوافعه ومتطلبات عمره، ولعل الجانب السلوكي هو ما يلاحظ على تغير تصرفات الحدث، من أول وهلة من خروجه من دائرة أسرته وإخوانه وأخواته وأقاربه.

وقد أدرك القائمون على شؤون التعليم والتربية في المجتمع، أن رسالة المدرسة ليست رسالة تعليمية تثقيفية محضة، فرسموا سياستها التعليمية على أسس قويمة، مؤداها أن المدرسة يجب أن تستهدف العلم والمعرفة، وفي ذات الوقت ألا تغفل التقويم وبناء الشخصية، وأن التربية

---

(١) انحرافات الأحداث: ص ٢٤١.

قرين التعليم، فيجب أن تسير معه جنباً إلى جنب حتى يمكن أن تخرج أشخاصاً أسوياء، يستهجنون السلوك المنحرف وينفرون من الجريمة مهما كان حجمها.

المدرسة سلاح ذو حدين:

تعد المدرسة سلاحاً ذا حدين، فإما أن تتحول إلى معقل غني بالمعلومات والإصلاح والتوجيه والتثقيف والتربية والتعليم، فيتخرج منها عناصر بشرية يتمكن المجتمع عبرهم من تنمية قدرته ومسيرته الحياتية، وإما أن تتحول إلى بؤر فاسدة تزيد عملياتها التربوية الخاطئة وممارسات معلميها الوضع سوءاً، مما يزيد رقعة المشكلات التربوية والأخلاقية والتعليمية.

فالتسرب الدراسي مشكلة يعاني منها عدد كبير من النظم التعليمية سواء في الدول النامية أو الدول المتقدمة، غير أن هذه المشكلة أقل حدة بصفة عامة في الدول المتقدمة منها في الدول النامية، كما تختلف خطورتها من مرحلة إلى أخرى، فتظهر بصورة واضحة في المرحلة الأولى في الدول النامية، بينما تظهر بشكل خطير في المراحل التالية في بعض الدول المتقدمة مثل إنجلترا والولايات المتحدة الأمريكية[١]، ولعل فداحة مشكلة التسرب عندنا في الدول العربية والإسلامية عائد لضعف المناهج التعليمية، وعدم بناء الشخصية وفق ما يتطلبه المنهج التربوي والتعليمي معاً، وعدم صقل شخصية الطالب وفق معايير تربوية وتعليمية وتثقيفية مواكبة للعصرنة التي يعيشها الإنسان، فأغلب مناهجنا التعليمية لا تؤثر تأثيراً إيجابياً في بناء الشخصية الإسلامية المطلوبة.

(١) عوامل التسرب الدراسي، د. المهنا: ص١٣٦.

والشيء الآخر، أن سلوكيات القائمين على التربية والتعليم عندنا بحاجة إلى صياغة علمية وتربوية وثقافية من جديد! مما سبب التسرب الدراسي، وما بعد التسرب الدراسي إلا البطالة، والبطالة بدورها قاعدة الانحرافات الاجتماعية ودمار المجتمعات.

قامت بعض اللجان المتخصصة التربوية بدراسة قوامها عينة عشوائية من ٥٠٠ حدث من المنحرفين، ومثلهم من الأسوياء، وأسفر البحث في نطاق الصلة بين المدرسة والانحرافات عن النتائج الآتية:

تبين أن ٢٣٪ من أفراد المجموعة المنحرفة يتأخرون في الدراسة لمدة سنتين على الأقل عن المدى الطبيعي، وكان أكثر هؤلاء التلاميذ قد وضعوا في الفصول الخاصة بالمتخلفين في الدراسة، بينما بلغت هذه النسبة بين الأطفال الأسوياء ٨٪، وقد أجاب المعلمون الذين يقومون بالتدريس لتلاميذ المجموعة المنحرفة بأن أكثرهم قد فقدوا كل اهتمام بالتحصيل المدرسي، وأن نسبة كبيرة منهم كان وجودهم في الفصل وجوداً آلياً مجرداً من كل استيعاب أو انتباه.

تبين بالنسبة للمواد التي يفضل الأحداث دراستها أخذاً من إجابات التلاميذ أن غالب أفراد المجموعتين يفضلون الأشغال اليدوية.

تبين أيضاً أن أغلب المنحرفين قد فشلوا في حياتهم التعليمية بسبب سوء تصرفات القائمين على التعليم والتربية المدرسية.

وتشير الدراسة إلى حقيقة هامة ألا وهي: أن ٩٠٪ على الأقل من أفراد المجموعة المنحرفة قد ظهرت عليهم العلامات الأولى لسوء الخلق داخل جدران المدرسة، بينما بلغت هذه النسبة ٢٠٪ فقط في المجموعة السوية[١].

---

(١) انحرافات الأحداث، مصدر سابق: ص ٢٥٠.

ويمكن القول بعد ذلك ـ من خلال الدراسات العلمية والميدانية التي قامت بها كثير من اللجان المتخصصة في مجالي التربية والتعليم ـ أن المدرسة قد تلعب دوراً سببياً مباشراً، في خلق بعض حالات الانحرافات الاجتماعية التي تظهر في السلوكيات العملية التي يرتكبها الأحداث، في ضمن نطاق المدرسة أو في الخارج بعد العودة إلى منازلهم وأحيائهم السكنية، وهذه المشكلة حلها يكمن في السطور القادمة إن شاء الله تعالى.

حلول سريعة لمشكلات التعليم والمعلم:

إن المدرسة مؤسسة عليها مسؤولية إعداد الطالب لمناشط حياة الكبار، ففي المجتمعات الصناعية المتقدمة خاصة نجد أن الأعمال المفروضة على الأفراد عظيمة التنوع والتعقيد، وإطلاق الأفراد للمعيشة في المجتمع دون رابط ودون تدريب دقيق، يؤدي في هذه الظروف إلى دعوة للخطر، فعندما تصبح الحضارة أكثر تعقيداً، يحتاج إعداد أولئك الذين سيشاركون عن مسؤولية فيها، إلى أن يكون أطول مدة وأكثر اتساعاً. وبذلك نفهم المدرسة على أنها جزء ضروري ومتكامل مع النظام الاجتماعي، ومستمر مع المؤسسات الاجتماعية الأخرى في المجتمع.

وعندما تعتبر المدرسة مؤسسة للإعداد للحياة بعد ذلك، فإن تأكيد التربية المهنية يلقى عناية خاصة. . مع ذلك لا تعد المدرسة فقط للكفاية المهنية، فما يسمى بأنواع التربية (الحرة) يمكن أن يعتبر إعداداً أيضاً، لتنمية قدرات عقلية عامة، أو لاكتساب خبرة بالنشاط العقلي أو الجمالي الذي قد يصبح أساساً لمهارات دائمة ومصدر وقاية للاستمتاع.

من هنا: نؤكد تأكيداً كبيراً: أن المدرسة معقل مهم لصنع مستقبل

الإنسان المتعلم، فإذا كانت هناك مناشط مهمة ومثمرة سنجني جيلاً قادراً على صنع مستقبله نحو حياة أفضل.

مكونات المدرسة الهادفة:

إن مكان التدريس يرتكز على قاعدة ثلاثية الأبعاد وهي: (المدرسون، والتلاميذ، والمنهج) وهي المكونات الأساسية الثلاثة لأية مدرسة، فالمباني والكتب، والفصول، والدرجات العلمية وغيرها من ضروريات الحياة العلمية، ما هي إلا وسائل للمساعدة على القيام بالعملية التعليمية، إلا أن أساس المدرسة ليس في واحدة منها، ولكن في علاقة المدرسين بالتلاميذ الذين يشغلون بمتابعة التعلم متابعة مقصودة، لذلك سوف نتناول هذه الركائز الثلاثة كلاً على حدة.

المدرسون (المعلم):

كما هو معروف يقضي الطالب الشطر الأكبر من يومه داخل جدران المدارس والمعاهد، والجامعات، وإن الفترة الزمنية التي يخضع فيها لسلطان المعلم تزيد على تلك التي يقضيها في ظل سلطة الوالدين، ولذلك فإن المعلم يجب أن يضطلع بالدور الإيجابي في بناء شخصية التلميذ، فلا تقتصر جهوده على إلقاء المعلومات على التلاميذ، بل يجب أن تتعدى هذا النطاق إلى علاج مشكلاته السلوكية وقضاء حاجياته المعنوية وفي بعض الأحيان المادية، ومنعه من الولوج في طريق الانحرافات الأخلاقية، والجنوح نحو الجريمة، فهو عندما يقوم بهذه المهمة فإنه يقوم بعمل رباني عظيم، كما قام به رسول الإنسانية محمد ﷺ وكما قام به جميع الأنبياء والأوصياء عليهم السلام والعلماء (رضي الله عنهم).

لذلك على المعلم أن يلتفت إلى أن بإمكانه أن ينتج كثيراً، وليس

بإمكانه أن يزود المجتمع بأفراد صالحين فحسب، بل ويمكنه أيضاً إصلاح الطالحين وتعديل الاتجاهات التربوية الخاطئة، فلو كان هناك شاب أو شابة به لوثة أخلاقية أو سلوك منحرف بسبب الجو العائلي، فالمعلم الخبير الواعي الذكي بإمكانه إصلاحه وتوجيهه نحو الطريق المستقيم.

المعلمون مهندسو النفس البشرية:

ومرد هذا كله ما كان للعلم والعلماء من شأن ومكانة في العالم الإسلامي، فقد جاء في ديننا وتعاليمنا الإسلامية حضّ على العلم والتعليم، وهنالك نصوص كثيرة وردت في القرآن الكريم والأحاديث الشريفة تشير إلى فضل العلم والعلماء.

ففي القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾[1] وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾[2] إلى غير ذلك من الآيات.

وفي الحديث الشريف: من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين. ومن سلك طريقاً يطلب فيه علماً سلك الله به طريقاً إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم، وإن الله يستغفر له في السماوات، ومجلس فقه خير من عبادة ستين سنة، إن مداد العلماء أفضل من دماء الشهداء، وقال علي عليه السلام لتلميذه كميل بن زياد: يا كميل! العلم خير لك من المال، العلم يحرسك وأنت تحرس المال، والعلم حاكم والمال محكوم عليه.

---

(١) سورة فاطر، الآية: ٢٨.
(٢) سورة المجادلة، الآية: ١١.

وهذه النصوص الإسلامية تحثنا كمعلمين على زرع الثقة في الطلاب لاحترام العلم والعلماء، فالمدرس والمعلم والمربي مسؤول عن زرع هذا الجانب في عقلية المتعلم، فيشجعه على التحصيل عبر هذه النصوص، ويوضح له أهمية العلم وثوابه عند الله والملائكة والناس، وأهميته من الناحية الحياتية والاجتماعية، وكيف يمكن عبره أن يكون المتعلم نافذة لحياة أفضل، وكيف إذا اهتم الطالب به واحترم أستاذه له من الثواب ما يعادل حجة وعمرة وصدقة بل أكثر من ذلك..

هذا الأسلوب الشبه مفقود من حياة الكثيرين من القائمين على شؤون التعليم، جعل طبقة كبيرة من الطلاب يتذمرون من العلم والعلماء، ويتساهلون في تأدية مهامهم العلمية واحترامهم للقائمين عليها.. أنتم أيها المعلم والمربي والمعلمة والمربية مسؤولون عن زرع هذه الثقة العلمية بالعلم واحترام المعلم عبر توضيحه ولو في خمس دقائق من وقتكم للطلاب، فكم يحدث هذا انعطافة كبرى في حياة مستقبلنا العلمي لأبنائنا.

منزلة المعلم في الإسلام:

وتتجلى صورة (المعلم) في جلال التراث مصباحاً يستضاء به، ومثلاً يسمو البصر إليه، وتمثالاً كأنه ملك، عليه حجاب النور، وحوله النور، وتغطيه الهيبة ويغمره الوقار، ففي الحديث: إن الله تعالى يقول إذا كان يوم القيامة للعلماء: أنتم عندي كبعض ملائكتي.

وحسب المعلم قدراً وفخراً في كلام النبي ﷺ تلك الأوصاف، فهو في الرسالة المقدسة، ميسر لا معنف، ولا معنت، ولا متعنت. فقد

قال رسول الله ﷺ: إن الله عز وجل لم يبعثني معنفاً، ولكن بعثني معلماً وميسراً[١].

وينبع تكريم المعلم في تاريخ الأمة من مكانة العلم والعقل، في تراثها العظيم، والقرآن المجيد، والسنة الشريفة، والآداب الباهرة حافلة بالآيات والبينات والأحاديث المباركة، وأحسن الأشعار، وطرائف البيان، وبدائع الأخبار في فضل العلم.

وفي القرآن الكريم وحديث رسول الله ﷺ والمأثور عن الصحابة والأئمة، والعلماء من الآيات المحكمات، وجوامع الكلم، ونوادر الأثر، والحكم العالية ما يجسد مقام العقل. وهذه النظرة الفاحصة إلى العلم والعقل هي أساس تقديس المعلم، وتوقيره واحترامه، ودعامة تبجيل الأستاذ وتكريمه وإعظامه.

والمعلم في التراث الإسلامي كيان عظيم، والتعليم والتدريس رباط روحاني محكم وثيق يمثله حديث شريف يقول: تواضعوا لمن تتعلمون منه، وفصل حق المعلم من حديث للحقوق لعلي بن الحسين عليه السلام قوله: وإن من علم أحداً مسألة ملك رقه[٢].

مكانة الأستاذ (المعلم) في القرآن:

إن الله سبحانه وتعالى جلّ العلم والعلماء، وأكدت آيات الذكر الحكيم على علو مكانة العلماء العالية وأهميتهم في المجتمع البشري، فقد خصهم تعالى بأكثر من آية من آيات الله البينات.

(١) مُسند أحمد: ج ٣ ص٣٢٨.
(٢) رسالة الحقوق: ج١ ص٢٣٤.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ فَٱفۡسَحُواْ يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾(١).

إن الله سبحانه يرفع المعلم العامل، والأستاذ البارع المؤمن درجات، وهذه الدرجات سينالها في عالم الدنيا في الوسط الاجتماعي، وفي عالم الآخرة إذا وقف بين يديه سبحانه، وفضله على عالم الملائكة والشهادة، لأن مداد العلماء أفضل من دماء الشهداء كما جاء في الحديث.

ولذلك فإن العالم الذي نعيش فيه قائم بالعلم، والقائمون به العلماء، فقد وضعهم الله بمرتبة الملائكة في الآية الكريمة قال تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾(٢).

وقد فضل الله أهل العلم والمعرفة في الحكم وإن كانوا فقراء جاهٍ أو فقراء سعةٍ في العيش. يقول تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمۡ نَبِيُّهُمۡ إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ بَعَثَ لَكُمۡ طَالُوتَ مَلِكٗاۚ قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ عَلَيۡنَا وَنَحۡنُ أَحَقُّ بِٱلۡمُلۡكِ مِنۡهُ وَلَمۡ يُؤۡتَ سَعَةٗ مِّنَ ٱلۡمَالِۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰهُ عَلَيۡكُمۡ وَزَادَهُۥ بَسۡطَةٗ فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِۖ وَٱللَّهُ يُؤۡتِي مُلۡكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ﴾(٣).

إن المعلم العالم هو الذي يعتبر بهذه الصفة التي فضله الله تعالى وميّزه بها على غيره من الجهال العامة، اعتدّ بها النبي يوسف عليه السلام

(١) سورة المجادلة، الآية: ١١.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٨.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٤٧.

ليجعلها وسيلة للحكم وتسلم المسؤوليات لأنه صاحب علم، وأهلية تكوينية وتشريعية، وهذا ما عرضه على العزيز في مصر، ونطق به القرآن الكريم قال تعالى: ﴿قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾[١].

مكانة الأستاذ (المعلم) في الأحاديث الشريفة:

الواقف على تراثنا العلمي في النصوص الشريفة يرى مكانة عظيمة يحتلها المعلم، كيف لا وقد صرح رسول الإنسانية بأن الغاية من بعثه نشر العلم والوعظ والتوجيه والأحكام والإصلاح والعبادة، لقد قال رسول الله ﷺ: إنما بعثت معلماً[٢].

ويقول: بجّلوا المشائخ (أي العلماء والمتعلمين) فإن من إجلال الله تبجيلهم[٣].

إن مكانة المعلم عند رسول الله ﷺ أنه وريث الأنبياء عليهم السلام قال: العلماء ورثة الأنبياء[٤].

وقال الإمام علي عليه السلام وهو يخاطب أبا الأسود الدؤلي: الملوك حكام على الناس، والعلماء حكام على الملوك[٥].

وأشار الإمام زين العابدين عليه السلام لتوقير الأستاذ واحترامه وتجلته إذ قال: وحق أستاذك في العلم: التعظيم له والتوقير لمجلسه، وحسن الاستماع إليه[٦].

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٥٥.
(٢) الإحياء: ج١ص ١٠، الغزالي.
(٣) المصدر السابق.
(٤) الميزان: ج ٣ ص ٢٣٤.
(٥) الإحياء: ج ١ ص٦.
(٦) آداب المفيد والمستفيد، العاملي: ص ١٤٣.

مكانة الأستاذ في العصر العباسي:

لقد حفلت سجلات التاريخ العباسي بمكانة وتوقير الأستاذ، فقد كانت له مكانة متميزة سواء أكان في مجالس الخلفاء أو توليهم للمناصب أو في سعة العيش، ففي زمن الخليفة هارون الرشيد ورد ذكر أحد المعلمين والمدعو أبو معاوية وهو ضرير، وكان يأكل مع هارون الرشيد طعاماً على مائدة واحدة، فلما قام المعلم أبو معاوية لغسل يديه، نهض هارون الرشيد وأخذ الإبريق وصب الماء على يدي الضرير وهو لا يدري ثم قال له: أتدري من يصب الماء على يديك؟

قال المعلم: لا؟

قال الرشيد: أنا.

قال المعلم: أنت يا أمير المؤمنين.

قال الرشيد: نعم إجلالاً للعلم وللعلماء[١].

ولقد حفل تراث العباسيين بعامل التكريم للأستاذ، في حياته، وبعد وفاته، حيث تحتشد الآلاف من الناس حول المعلم في حال تكريمه، وتحتشد الآلاف في حال تشييعه، وتغلق الحوانيت وتعطل الأعمال، ويعم الحزن والحداد، وفي الإشارة البسيطة ما يغنينا عن كثير من الأمثلة والتي يزخر بها التراث العربي الإسلامي من مكانة الأستاذ، إلا أن المكانة تختلف من أستاذ إلى آخر وتبعاً لقيمة علم الأستاذ نفسه.

قيمة الأستاذ من قيمة علمه:

إن قيمة العالم أو المعلم، أو الشيخ، أو المؤدب، أو الأستاذ،

(١) دراسات في مكانة الأستاذ: ٩٧.

بقدر اكتسابهم من الخبرات والعلوم وتنوع مصادرها، وعدد ونوعية من أخذ عنهم ومستوياتهم العلمية وسمعتهم الدينية والأخلاقية.

إن مهمة التعليم كانت عند العرب والمسلمين لها مكانة محمودة وعالية، ولا توجد في سجلاتهم التراثية أو الروائية إشارات أو دلالات يستدل منها على احتقارهم للمعلم. يقول الزونوجي: إن من توقير المعلم ألا يمشى أمامه، ولا يجلس مكانه ولا يُبتدأ الكلام عنده إلا بإذنه، ولا يكثر الكلام عنده إلا بإذنه، ولا يسأل عند ملالته ولا يدق عليه الباب بل يصبر حتى يخرج.

أما عن النظرة الدونية التي قل ما تخلو منها العصور تجاه المعلم والعلم، فهي إما بسبب الحكام وجهلهم وغطرستهم، أو بسبب المعلمين وحسب مستوياتهم.

وقد قسم الجاحظ في كتابه البيان والتبيين المعلمين إلى:

- المعلمون.
- المؤدبون.

وأعطى الجاحظ مكانة وحظاً وافراً للمؤدبين، الذين كانوا يقومون بتأديب أبناء الخلفاء والأمراء والسلاطين، على عكس معلمي الصبية الذين كانوا يقومون بتعليم أبناء العامة، والتي لم تكن تتسم بالتقدير والإجلال.

وقد أكد وصف نفس الحالة التي جاء بها الجاحظ على لسان أبي العلاء المعري حيث قال:

أيا حرفةَ الزمنى ألمَّ بكِ الردى أما لي خلاص منكِ والشمل جامع

لئن قنعت نفسي بتعليم صبية بذا الدهر إني بالمذلة خاشع
وهل يرتضي حر بتعليم صبية وقد ظن أن الرزق في الأرض واسع[١]

والذي نأمله من إخواننا وأخواتنا في القطاعات التعليمية المختلفة أن لا يكون واقع حالهم مثل حال هذا النوع من المعلمين والمعلمات، وإلا فإننا لا نتمكن من تربية جيل قادر على إصلاح الأرض بمن عليها، ويكون نبراساً وقدوة في العالم البشري، ونأمل أيضاً أن يكون المعلم في المستوى الأخلاقي لتأدية عمله الوظيفي، لأنه رباني الهدف والنتيجة، وأن يرتقي بمستواه العلمي والأخلاقي حتى يكون أسوة لتلاميذه، وألا ينطبق عليه (فاقد الشيء لا يعطيه).

يقول مالك بن أنس: دخلت على هارون الرشيد، فقال لي يا أبا عبد الله ينبغي أن تختلف إلينا حتى يسمع صبياننا منك الموطأ.

قال: فقلت له: أعز الله مولانا، إن هذا العلم منكم خرج، فإن أنتم أعززتموه عزّ، وإن أنتم أذللتموه ذلّ، والعلم يؤتى ولا يأتي.

فقال الرشيد: صدقت، اخرجوا إلى المسجد حتى تسمعوا مع الناس[٢].

وذات مرة قام المعلم الكسائي ليلبس نعليه فابتدرها المأمون والأمين فوضعاها بين يديه.

فقال لهما: لماذا؟

قال له المأمون: هكذا يحترم المعلم!

---

(١) ابن خلدون، المقدمة: ص٣٠. رسالة الغفران، المعري: ص٣٤٥.
(٢) الغزالي، مصدر سابق: ج١ص٣٥.

آداب الأستاذ في نفسه:

لقد اهتم موروثنا الإسلامي ونظامنا المعرفي بتوطيد أسس علم التعليم، ووضعوا لها ضوابط ومبادئ وأخلاقيات وصفات خاصة ينبغي توفرها في الأستاذ (المعلم) سواء كان رجلاً أو امرأة، وعدوها من آدابه وقواعد أصوله، وقد ثبت العلماء في القرون الأربعة عشر من التاريخ الإسلامي للأمة الإسلامية كل ما يتعلق بالتعليم والتعلم، والتهذيب والتربية والتدريس وصفات القائمين على تأديتها، ومن قوانين ومعلومات وتجارب وآراء صنفوا فيها كتباً ومسائل كثيرة، منها على سبيل الإيجاز:

آداب البحث.

آداب المناظرة.

آداب التصحيح.

آداب الضبط.

آداب التخريج.

آداب الكشط والمحو والضرب.

آداب السماع.

آداب جمع الكتب.

آداب التعليم والتدريس.

آداب أخلاقيات المعلم والمتعلم.

كما صنفوا في بعض صفات المعلم وهي كما يلي:

ـ أن لا ينتصب للتدريس حتى تكمل أهليته، ويظهر استحقاقه، ويشهد له أساتذته.

ـ أن يصون العلم، وينزهه عن الطمع، وأن يعظمه في النفوس، وأن لا يذله ولا يبذله لغير أهله، وأن لا يدنس محياه بالأطماع والأغراض.

ـ أن يكون عاملاً بعلمه، وأن يصدق قوله فعله، فإن العلم مقرون إلى العمل، والعالم إذا لم يعمل بعمله زلت موعظته عن القلوب، والعالم المتهتك يقصم الظهر.

ـ زيادة حسن الخلق، والتواضع، وتمام الرفق، وبذل الوسع في تكميل النفس، والعلم والحلم والصمت من علامات العالم، فإن العالم لا ينازع من فوقه، ولا يظلم من دونه، ولا يظاهر الظلمة، والحكمة تعمر بالتواضع لا بالتكبر، والتقعر الذي يمارسه بعض المعلمين اليوم!.

ـ أن لا يمتنع من تعليم أحد لكونه غير صحيح النية، فإن الامتناع من تعليمه يؤدي إلى تفويت كثير من العلم، ثم إن العلم ما يزال بالمتعلم حتى يريد به الله ما عنده، وإلا فإن الحكمة لا يحدث بها الجهال فتظلم.

ـ بذل العلم عند وجود المستحق وعدم البخل به، فقد أخذ الله عهداً على العلماء ببذل العلم، وزكاة العلم تعلمه وأن لا يمنع أهله منه.

ـ أن يحترز من مخالفة أفعاله لأقواله، فلا يحرم شيئاً ويفعله ولا يوجب شيئا ويتركه، ولا يندب إلى فعل شيء ولا يفعله، ولا ينهى عن خلق ويأتي مثله.

ـ إظهار الحق بحسب الطاقة من غير مجاملة، فإذا رأى من أحد ميلاً عن الحق أو تقصيراً وعظه باللطف ثم بالعنف، فإن لم يقبل هجره، فإن لم ينجح ردّه إلى الحق بمراتب الأمر بالمعروف.

آداب المُعلم مع طلابه:

وهنا وظائف كثيرة ينبغي للمعلم أن يتعرف عليها، ويحاول بقدر الإمكان أن يجعلها دستوره ومنهاجه في عملية التدريس، لأنها تجارب السابقين الذين تمكنوا من إحداث ثورة علمية متميزة في الأمة الإسلامية وهي ما يلي:

- أن يؤدبهم على التدريج بالآداب السنية والشيم المرضية، ورياض النفس.

- أن يرغبهم في العلم، ويذكرهم بفضائله وفضائل العلماء، ويهز نفوسهم، ويدعوهم إلى الاقتصار على الميسور وقدر الكفاية من الدنيا، والقناعة عما يشغل القلب من التعلق بها وتفتق الهم بسببها.

- أن يحب لهم ما يحب لنفسه، ويكره لهم ما يكره لنفسه، وأن يكنفهم ويكرمهم ويكون لهم عضداً ويحفظهم في غيبتهم.

- أن يزجرهم عن سوء الأخلاق وارتكاب المحرمات والمكروهات، أو ما يؤدي إلى فساد الحال وترك الاشتغال، وإساءة الأدب، وكثرة الكلام، ومعاشرة من لا تليق عشرتهم، وذلك بالتعريض لا بالتصريح، وبالرحمة لا بالتوبيخ، وأن يتعهد معاملة الطلبة بعضهم بعضاً كذلك، ويدعوهم إلى حسن التخاطب والتعارف والتحابب.

- أن لا يتعاظم على المتعلمين بل يلين لهم ويتواضع ويخفض جناحه، فإن المعلم خير من المعنف، ومن صفاته تحسين الخلق، والتلطف والشفقة، والإحسان إلى الطلبة بعلمه وجاهه يدعوهم بأحب الأسماء، ويخاطبهم بأحسن الخطاب، فقد كان رسول الله ﷺ يستوصي بهم خيراً.

ـ أن يسأل عن الغائب وعن أحواله وموجب انقطاعه، وأن يرسل إليه أو يقصد منزله بنفسه، فإن كان مريضاً عاده، وإن كان في غمّ خفض عنه، وإن كان مسافراً تفقد أهله ومن يتعلق به، وتعرض لقضاء حوائجهم.

ـ أن يكون سمحاً ببذل العلم، سهلاً بإلقائه، متلطفاً في الإفادة مع الرفق والنصيحة والإرشاد والتنبيه على المهمات، وأن لا يدخر عن الطلبة شيئاً من العلم يحتاجون إليه ويسألون عنه.

ـ أن لا يشتغل بغير الواجب، وأن يبدأ بإصلاح القلب وتطهير الباطن.

ـ أن يكون حريصاً على تعلم الطلبة، باذلاً وسعه في تفهيمهم وتقريب الفائدة إلى أفهامهم وأذهانهم، وأن يهتم بذلك ويؤثره على حوائجه ومصالحه، وأن لا يدخر من نصحهم، وأن يفهم كل واحد منهم بحسب فهمه، ولا يعطيه ما لا يتحمله ذهنه، وأن يبسط الكلام بسطاً لا يضبطه حفظ، وأن لا يقصر به عما يتحمله ويستطيعه، وأن يخاطب كل واحد منهم على قدر درجته وبحسب فهمه، وأن لا يكرر عبارة لا يفهم، وأن يبدأ أولاً بتصوير الموضوع، ثم يوضحه بأمثلة، ويذكر الأدلة والمآخذ، ويبين الدليل المعتمد والدليل الضعيف ليعتمد المعتمد ولا يغتر بالضعيف، وأن يقصد مجرد بيان الحق، وأن يشرح العلل والأقوال والأوجه والجواب عنها وما يتعلق بها وما يبنى عليها، وينبه على غلط من غلط من المؤلفين في حكم أو تخريج أو نقل.

ـ أن يذكر في تضاعيف الكلام ما يناسبه من القواعد وما يحتاج إليه من المعلومات ونحو ذلك تدريجاً وشيئاً فشيئاً.

ـ أن يحرضهم على الاشتغال في كل وقت، ويطالبهم بإعادة

محفوظاتهم ويسألهم عما ذكره لهم من المهمات والمباحث، وأن يثني على الحافظ الواعي ويكرمه ما لم يخف إعجابه، وأن يعنف المقصر في الخلوة أو الملأ بحسب المصلحة.

ـ أن يطرح على الطلبة ما يراه من المسائل الدقيقة يختبر بذلك أفهامهم، ويظهر فضل الفاضل منهم، وأن يطرح ما يتعلق بالدرس من مسائل إذا فرغ من الشرح، وأن يعيد ذكر ما أشكل منه ليمتحن فهمهم وضبطهم، فمن فهمه شكره، ومن لم يفهمه تلطف في إعادته له، وأن يأمر الطلبة بالاجتماع في الدرس.

ـ أن يقوم بنظام أمر الطالب إذا تكمل وتأهل للاستقلال بالتعليم، ويمدحه في المحافل، ويأمر الناس بالاشتغال عليه، والأخذ عنه، والتعلم منه، وينبه على حاله ومقدار معلوماته ويبين تقواه وأخلاقه.

ـ أن لا يظهر للطلبة تفضيل بعضهم على بعض عنده في المودة والاعتناء مع تساويهم في الصفات من سن أو فضيلة أو غير ذلك، فإن ذلك يوحش النفس وينفر القلب، وإنما يفضل أكثرهم تحصيلاً وأشدهم اجتهاداً وأحسنهم أدباً.

ـ أن يوسع على الطالب طريق التعليم، وأن يفتح أمامه العلوم الأخرى التي لم يختص هو نفسه بها، وأن يرشده إلى من هو أعلم منه في علم ما فإن ذلك أتم دليل على كمال الأستاذ.

آداب الأستاذ في الدرس:

١ ـ أن يخرج إلى الدرس كامل الأهبة والوقار والهيبة في اللباس والهيئة، والنظافة في الثوب والبدن.

٢ ـ أن ينفع بما تعلم ويعلم ما ينفع، وأن يتعوذ بالله من أن يضل

أو يضل.

٣ ـ أن يسلم على من حضر في قاعة الدرس، وأن يسأل الله التسديد والتأييد والتوفيق والإعانة والعصمة من الخطأ.

٤ ـ أن يجلس بسكينة ووقار وتواضع وخشوع وإطراق.

٥ ـ أن ينوي تعلم العلم ونشره، وبث المواعظ والهداية والإصلاح وتبليغ الأحكام.

٦ ـ أن يترفع عن الرياء والسمعة ورفع الصيت.

٧ ـ أن يكون له من الخشية ما يحول بينه وبين العصمة.

٨ ـ أن يتحرى تفهيم الدرس بأيسر الطرق وأعذب الألفاظ[1].

التلامذة:

لا بد للمتعلم من آداب يتصف بها في نفسه ومع شخصية (أستاذه) ومع مجلس درسه، حتى يتمكن من تحصيل العلم ويرتقي مراتب الكمالات وهي كما يلي:

أولاً: آدابه في نفسه وهي أمور:

النية الخالصة:

أي أن يحسن النية الخالصة لله سبحانه في تأدية الأعمال مطلقاً وبالخصوص القائم على شؤون التربية والتعليم، لأن عليها قوام الأمة والمجتمع والحياة، وأن يطهّر قلبه من الأدناس ليصلح لقبول العلم وحفظه واستمراره.

---

(١) للمزيد راجع كتاب آداب المفيد والمستفيد، العاملي.

قال رسول الله ﷺ: إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب[١].

وقال علي بن حشرم: شكوت إلى وكيع قلة الحفظ، فقال: استعن على الحفظ بقلة الذنوب. وقد نظم بعضهم ذلك في بيتين فقال:

شكوت إلى وكيع سوء حفظي ... فأرشدني إلى ترك المعاصي

وقال اعلم بأن العلم فضل ... وفضل الله لا يؤتاه عاصي

الاهتمام بالتحصيل في كل وقت:

أن يغتنم التحصيل في الفراغ والنشاط، بالخصوص حالة الشباب التي يمر بها الإنسان، لأنها من المراحل الخصبة التي ينمي فيها الإنسان قدراته العقلية والذهنية والفكرية والعلمية، لما يتمتع به من قوة البدن ونباهة الخاطر وسلامة الحواس، وقلة الشواغل وعدم تراكم العوارض، سيما قبل ارتفاع المنزلة، والاتسام بالفضل والعلم، فإنه أعظم صاد عن درك الكمال، بل سبب تام في النقصان والاختلال.

عن ابن عباس قال: ما أوتي عالم علماً إلا وهو شاب، وقد نبّه الله على ذلك بقوله تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ وهذا باعتبار الغالب، وإلا فمن كبر لا ينبغي له أن يحجم عن الطلب، فإن الفضل واسع، والكرم وافر، وأبواب الرحمة والهبات مفتوحة[٢].

وجاء في الخبر: مثل الذي يتعلم العلم في صغره كالذي ينقش على الحجر، ومثل الذي يتعلم العلم في كبره كالذي يكتب على الماء.

لذلك على الطالب أن يغتنم عمره وأن يحرز شبابه عن التضييع،

---

(١) منية المريد: ص١٨٦.

(٢) المصدر السابق: ص١٧٨.

وقد اشتغل جماعة من السلف الصالح في فترة عمرهم فأصبحوا من المصنفين والعلماء الكبار وحازوا مراتب الفضل والكمال.

قال أبو العتاهية في أرجوزته:

إن الشباب حُجةُ التصابي روائحُ الجنة في الشباب

ترك الاهتمام بأمور الدنيا عن التحصيل:

لعل التجارب العملية لعلمائنا الأبرار تُعطينا درساً عملياً كيف وصلوا إلى سلم الكمالات في الفضل والعلم، عندما قدموا التحصيل على القواطع والعوائق الدنيوية من المال والنساء والجاه والزعامة والبهرجة وغيرها، لأن العلم لايعطينا كله حتى وإن بذلنا له كل وقتنا، فكيف بمن يبذل له بعض الوقت!.

قال بعض العلماء: لا يبلغ أحد من هذا العلم ما يريد حتى يضرَّ به الفقر، ويؤثره على كل شيء.

وقال بعضهم: لا ينال هذا العلم إلا من عطل دكانه، وخرب بستانه، وهجر إخوانه، ومات أقرب أهله فلم يشهد جنازته، وهذا كله وإن كان فيه مبالغة، فالمقصود به أنه لا بد فيه من جمع القلب واجتماع الفكر.

ترك التزويج حتى يقضي وطره من العلم:

المقصود هنا التزويج في مرحلة التعليم الابتدائي أو ما بعده بمراحل قليلة، فلا يتسنى للطالب التحصيل العلمي الكامل الذي يؤهله أن يكون عالماً أو موظفاً يدير أسرة أو يعتمد عليه في الموارد المالية، والتربية العلمية الاجتماعية.

ولذلك دأب طلبة العلم على عدم التزويج إلا بعد الانتهاء من

مراحل السطوح أو في منتصفها، لأنه تأهل أن يكون عالماً له قدرته العلمية والثقافية والاجتماعية، وأغلب الطلبة إذا ما قلنا الكل يحفظ تلك المقولة المشهورة: «ذبح العلم في فروج النساء» و«من تعود أفخاذ النساء لم يفلح» يعني اشتغل بهن عن الكمال، وهذا أمر وجداني مجرب واضح، لا يحتاج إلى الشواهد، كيف مع ما يترتب عليه تقدير السلامة فيه من تشويش الفكر بهن وبأولادهن. لذلك قال المثل المشهور: «لو كلف بصلة، ما فهم مسألة».

ولا يغتر الطالب بما ورد في النكاح من الترغيب، فإن ذلك حيث لا يعارضه واجب أولى منه، ولا شيء أولى ولا أفضل ولا أوجب من العلم فتأمل.

الاقتصار في الصداقة على أهل الصنف:

الكل يأنس بأهل صنفه، كما يقال في الأمثال: الطيور على أشكالها تقع، فكل شخص من الناس يأوي لمن يحبه ويريحه ويأنس لحديثه، بالخصوص إذا كانوا من أهل مهنة أو دراسة أو توجه علمي واحد، فالأطباء يحبون معاشرة بعضهم البعض، وتداول الخبرات والاستفادة من أهل الكفاءات العالية، كذلك طلبة العلم يحبون مجالسة بعضهم البعض لما تضفي عليهم من المؤانسة العلمية والمفاكهة الأدبية، والاستفادة من الخبرات والتجارب الحياتية والعلمية والإصلاحية.

من هنا لا ينبغي مجالسة من يشل الطالب عن درسه وعلمه وبحثه وأخلاقه وتقواه، ولا سيما من قلت فكرته الثقافية وكثرت أتعابه وتبعاته الاجتماعية والبِطانتية، وأعظم آفات العشرة ضياع العمر بغير فائدة، وذهاب الغرض والدين إن كانت لغير أهل.

لذلك جاءت التأكيدات الكثيرة: لا ينبغي لطالب العلم أن يخالط

من لا يستفيد منه علماً أو فهماً أو موعظة أو تجربة في الحياة، وإن اختار فليختر الصاحب الصالح الدين التقي الذكي، الذي إن نسي ذكره، وإن ذكر أعانه، وإن احتاج واساه، وإن ضجر صبره، فيستفيد من خلقه ملكة صالحة، فإن لم يتفق مثل هذا، فالوحدة ولا قرين السوء.

الحرص على تحصيل العلم:

إذا لم يكن الطالب حريصاً على التحصيل فلن يكون العلم حريصاً على الجريان إلى ذهنه أو قلبه! فقد رأينا جهابذة العلم وأعلام الإسلام، مع ما صرفوه من الوقت الكثير في التحصيل والتنقل والهجرة والغربة، حتى ضربوا له آباط الإبل في كل مكان، إلا أنهم يعترفون بأنهم لم يحصلوا إلا على شذراته القليلة!!

لذلك ينبغي عليه أن يكون حريصاً على العلم والتعلم، ومواظباً عليه في جميع أوقاته ليلاً ونهاراً، سفراً وحضراً، ولا يذهب شيئاً من أوقاته في غير العلم، إلا بقدر الضرورة لما لا بد منه، من أكل ونوم واستراحة يسيرة لإزالة الملل، ومؤانسة زائر أو عيادة مريض وتحصيل قوت مما يحتاج إليه، أو لألم يقعده عن التعلم، فإن بقية العمر لا ثمن له، ومن استوى يوماه فهو مغبون، وليس بعاقل من أمكنه الحصول على درجة ورثها الأنبياء ثم فوتها، ومن هنا قيل: لا يستطاع العلم براحة الجسد [(١)].

وقال شاعرنا:

لا تحسب المجد تمراً أنت آكله لن تبلغ المجد حتى تلعق الصبرا

(١) العاملي: مصدر سابق.

ملء الفراغ بالعلم والثقافة:

ينبغي أن يعلم الطالب، أن وقته لا يتسع لكل شيء، فينبغي عليه أن يفرغه للمهم، وليس يعني هذا أن يترك علو الهمة في التحصيل والسؤال والمثاقفة، لا، بل عليه أن يكون عالي الهمة، فلا يرضى باليسير مع إمكان الكثير، وألا يسوّف في اشتغاله ولا يؤخر تحصيل فائدة تمكن منها وإن قلت، لأن التأخير من آفات الوقت، حتى وإن عطل عن التحصيل فليشغل وقته بالمطالعة والثقافة والقراءة والتأليف والحفظ بجهده، وعليه أن يكون قوياً في قطع القواطع والعوائق الزمانية لتحصيل العلم والاجتهاد الثقافي، فيبدأ بقطعها قبل أن تقطعه، كما ورد في الخبر: الوقت سيف، فإن قطعته وإلا قطعك.

دخل رجل على ابن عباس فقال له: أسأل عن العلم؟

قال ابن عباس: العلمُ كثيرٌ، ولن تعيه قلوبكم، ولكن ابتغوا أحسنه، ألم تسمع قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[١].

ثانياً: آدابه مع أستاذه:

ذكرنا في الصفحات السابقة بأنه لا ينال طالب العلم علمه حتى يكون معظماً ومحترماً ومبجلاً أساتذته. قال الإمام علي عليه السلام: أنا عبد من علمني حرفاً واحداً، إن شاء باع وإن شاء استرق[٢].

وتميزت الحوزة العلمية في عالمنا الإسلامي بتقديس الأستاذ واحترامه، فمن اليوم الأول لدخول طالب العلم إلى الحوزة العلمية

---

(١) سورة الزمر، الآية: ١٨.
(٢) النهج: ص ٣٤٥.

يتعلم كيفية مخاطبة الأستاذ وتوقيره واحترامه على أنه الأب الحقيقي كما يقال.

ويكون هذا البيت قاعدة يبنى عليها احترام الأستاذ:

قم للمعلم وفه التبجيلا كاد المعلم أن يكون رسولا

وقال الصادق عليه السلام كان الإمام علي عليه السلام يقول: إن من حق العالم أن لا تكثر عليه السؤال، ولا تأخذ بثوبه، وإذا دخلت عليه وعنده قوم فسلم عليهم وخصّه بالتحية دونهم، واجلس بين يديه ولا تجلس خلفه، ولا تغمز بعينك ولا تكثر من القول: قال فلان، وقال فلان، خلافاً لقوله[١].

ويعلمنا القرآن الكريم في قصصه وعبره الكثيرة كيف يحترم الطالب أستاذه في قصة الخضر مع نبي الله موسى عليه السلام.

آداب الخضر (الأستاذ) مع موسى(ع) (التلميذ):

قال تعالى: ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾[٢]، فقال الأستاذ: ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾[٣]، فقال التلميذ موسى عليه السلام: ﴿قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا﴾[٤]، فقال الأستاذ ممتحناً تلميذه الوفي: ﴿قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾[٥].

ثم تحدث القرآن الكريم في سياق الآيات الكريمة عن الخطوات

---

(١) العاملي: المصدر السابق.
(٢) سورة الكهف، الآية: ٦٦.
(٣) سورة الكهف، الآية: ٦٧.
(٤) سورة الكهف، الآية: ٦٩.
(٥) سورة الكهف، الآية: ٧٠.

العملية التي اتخذها الأستاذ في تعليم تلميذه، ولعله كان درساً قاسياً وامتحاناً صعباً على نبي الله موسى عليه السلام.

إن هذه القصة الرائعة تعلمنا جملة كبيرة من الآداب الشرعية والأخلاقية من المتعلم مع معلمه، فمع جلالة قدر نبي الله موسى عليه السلام لم يمنعه ذلك من استعمال الآداب اللائقة بالمعلم، وإن كان المتعلم أكمل منه من جهات أخر.

يقول المحقق العاملي رحمه الله في كتابه المنية ص ١٩٢:

لقد دلت هذه الآيات على اثنتي عشرة فائدة من فوائد الأدب وهي:

ـ جعل نفسه تبعاً له لمقتضى انحطاط المنزلة في جانب التابع.

ـ الاستئذان بهل في قوله: ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ﴾ أي هل تأذن لي في اتباعك، وهو مبالغة عظيمة في التواضع.

ـ تجهيل نفسه، والاعتراف لمعلمه بالعلم بقوله على أن تعلمني.

ـ الاعتراف له بعظم النعمة بالتعليم، لأنه طلب منه أن يعامله بمثل ما عامله الله تعالى أي أن يكون إنعامك علي كإنعام الله عليك، ولهذا المعنى قيل: أنا عبد من تعلمت منه، ومن علم إنساناً مسألة ملك رقه.

ـ إن المتابعة عبارة عن الإتيان بمثل فعل الغير، لكونه فعل لا لوجه آخر، ودل ذلك على أن المتعلم يجب عليه من أول الأمر التسليم وترك المنازعة.

ـ الإتيان بالمتابعة من غير تقيد بشيء، بل اتباعه مطلوب لا يقيد، وهو غاية التواضع.

- الابتداء بالاتباع ثم بالتعليم ثم بالخدمة ثم بطلب العلم.

- إنه قال: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ﴾؟ أي لم أطلب على تلك المتابعة إلا التعليم. كأن قال: لا أطلب منك على تلك المتابعة مالاً ولا جاهاً.

- وقوله تعالى: ﴿مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ إشارة إلى بعض ما عُلم أي لا أطلب منك المساواة بل بعض ما عُلمت، فأنت أبداً مرتفع علي زائد القدر... واعتراف بأن الله علمه، وفيه تعظيم للمعلم والعلم وتفخيم لشأنهما.

- وفي قوله تعالى: ﴿رُشْدًا﴾ طلب الإرشاد، وهو ما لولا حصوله لغوي وضل، وفيه اعتراف بشدة الحاجة إلى التعليم، وهضم عظيم لنفسه، واحتياج بيّن لعلمه.

- وفي قوله تعالى على لسان الخضر عليه السلام: ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾[١]. إشارة إلى أمور كثيرة أهمها أنك يا موسى عليه السلام تخيل لك أنك صابر على حسب ما تجده من نفسك، فأنت لا تعلم حالك عند صحبتي، لأنك لم تصحبني بعد، والصبر الذي أنفيه عنك هو الصبر معي، وهذا أمر أنا أعلم به منك، لعلمي (أي الخضر) عليه السلام بمقدار ما تطلب تعلمه وجهلك به، هذا أولاً.

وثانياً: التنبيه في الآية على أنه لا ينبغي أن يبذل العلم إلا لمن كان ذا صبر قوي ورأي سوي، ونفس مستقيمة، فإنه نور من الله تعالى[٢].

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٦٧.

(٢) العاملي، مصدر سابق: ص ١٩٣.

وهذه الآيات الشريفة جاءت تعاضدها الأحاديث، فالحديث عن رسول الله ﷺ يقول: إنما مثل العالم مثل النخلة تنتظر متى يسقط عليك منها شيء[١].

اختيار الأستاذ:

ومن الأمور المهمة لطالب العلم حسن اختياره لأستاذه، فليس من العلم والأخلاق أن يفرض على الطالب نوعية خاصة من الأساتذة، فإن التعليم ينبغي أن يكون ديمقراطياً واختيارياً للأستاذ، لأن في الحقيقة العالم أو الأستاذ المتصدي للتعليم نائب عن الأنبياء عليهم السلام والرسول الكريم ﷺ وأهل بيته الصالحين عليهم السلام، الذين كانوا أفضل معلمين مروا على صفحات التاريخ البشري إلى هذا اليوم وغداً أيضاً، وليس كل عالم أو أستاذ يصلح للنيابة، فليختر من كملت أهليته وظهرت ديانته وتحققت معرفته وعرفت عفته، واشتهرت صيانته وسيادته، وظهرت مروءته، وحسن تعليمه وجاد تفهيمه، قال ابن جماعة في نصائحه لطالب العلم: إذا سبرت أحوال السلف والخلف لم تجد النفع يحصل غالباً والفلاح طالباً إلا إذا كان للشيخ (الأستاذ) من التقوى نصيب وافر، وعلى شفقته ونصحه للطلبة دليل ظاهر[٢].

الأستاذ الأب الحقيقي:

ومن السمات العالية التي ينبغي لطالب العلم أن يعيها ويتفهمها تماماً، أن يعتقد أن أستاذه هو الأب الحقيقي والوالد الروحاني، وهو أعظم من الوالد الجسماني، فعليه بالمبالغة في احترامه وتقديره وتوقيره والاهتمام بشؤونه.

---

(١) المحجة: ج ٣ ص ٣٤٥.
(٢) موسوعة الفكر التربوي: ج ٥، ابن جماعة: ص ١١٦ تحقيق د. شمس الدين.

وقد سئل الاسكندر: ما بالك توقر معلمك أكثر من والدك؟

فقال: لأن المعلم سبب لحياتي الباقية، ووالدي سبب لحياتي الفانية[١].

والمقصود من هذه الكلمة أن الأستاذ يكون سبباً في تكامل الإنسان واستمرار وجوده العلمي والمعنوي.

الشريف الرضي رحمه الله مع أستاذه:

كان عظيم النفس، عالي الهمة أبيّ الطبع، لا يقبل لأحد منة، وله في ذلك قصص غريبة مع الخليفة العباسي حين أراد صلته بسبب مولود ولد له، فدفع له أموالاً كثيرة فرفضها، وقد ذكرناها في كتابنا (فقدان الوعي طريق الدمار) فراجع.

ومنها أن بعض أساتذته قال له يوماً: بلغني أن دارك ضيقة لا تليق بحالك، ولي دار صالحة قد وهبتها لك فانتقل إليها.

فكان جواب الشريف الرضي رحمه الله: يا شيخ أنا لم أقبل بر أبي قط، فكيف أقبل من غيره؟

فقال الأستاذ: إن حقي عليك أعظم من حق أبيك، لأني أبوك الروحاني وهو أبوك الجسماني.

فقال السيد رحمه الله: قد قبلت الدار، وتمثل بالأبيات المعروفة:

من علم العلم كان خير أب ذاك أبو الروح لا أبو النطف

(١) العاملي، مصدر سابق: ص١٩٨.

المبالغة بالاحترام والتجلة للأستاذ:

إذا كان للأستاذ هذه المنزلة الرفيعة عند الله تعالى، وفي النصوص المروية الثابتة، إذ أنالته منزلة الأب الحقيقي، فلا بد أن يعي الطالب حقيقة ملازمة له وثيقة بهذا المطلب، ألا وهي: المبالغة باحترام الأستاذ والإجلال والإكرام لمقامه وشخصه، وأن يضرب صفحاً عن عيوبه، فإنه أقرب إلى انتفاعه به، ورسوخ ما يسمعه منه في ذهنه، ولقد كان الأوائل من السلف العلمائي (طاب رمسهم) آية جليلة في مثالية المبالغة للأستاذ.

ينقل عن الإمام الشافعي: كنت أصفح الورقة بين يدي مالك صفحاً رفيقاً هيبة له لئلاً يسمع وقعها[١].

ضياء الدين العراقي مع الشيرازي:

ونقل لي سماحة العلامة السيد محمد علي الشيرازي ابن المرحوم آية الله السيد عبد الله الشيرازي رحمه الله قال كان المرحوم الشيرازي رحمه الله يتتلمذ على يد الإمام المحقق ضياء الدين العراقي في النجف، وقد عرف عنه (العراقي) حدة المزاج في المثاقفات، إذ لا يرضى أن يشكل عليه أحد وهو يلقي درسه، وكان يسمح فقط بإشكالات وإيرادات المرحوم السيد عبدالله، وفي درس من الدروس في حلقات البحث الأصولي في مسجد الشيخ الطوسي، أشكل السيد عبد الله على أستاذه بإشكال مما سبب فوراً غضب المحقق العراقي عليه، فتناول شيئاً حاداً وضرب به رأس السيد عبد الله الشيرازي، وبعد إنهاء الدرس قرر الشيرازي عدم الحضور في درس العراقي.

وفي اليوم التالي وقبل حلول موعد الدرس بسويعات، أخذ يفكر

(١) ابن جماعة، الفكر التربوي: ص١١٦.

هل أذهب إلى الدرس ثانية أم لا؟ وبعد صلاة العشاءين قرر الشيرازي الذهاب إلى الدرس ولكن خفية ودون أن يعرفه أحد أو ينظر إليه أحد، وفعلاً تمكن من الحضور إلى الدرس واستمعه كاملاً.

وفي اليوم التالي تلاقيا صدفة عند باب المسجد.

فقال المحقق العراقي: لقد فاتك الشيء الكثير أيها السيد بالأمس.

فقال السيد: لا، لم يفتني شيء وأنا مستعد لطرح إيراداتي عليك! فتعجب المحقق العراقي فقال: تفضل.

فأورد عليه عدة إشكالات وناقشه فيها فقام الأستاذ العراقي وقبله معتذراً منه.

بهذه الروح العالية من الأستاذ والطالب تمكنا من إحداث ثورة علمية أخلاقية عالية مثالية في تاريخ طلب العلم.

وصدق الشاعر عندما قال:

أهين لهم نفسي لكي يكرمونها ... ولن تكرم النفس التي لا تهينها

تقصي أثره والدعاء له:

ومن الأمور المهمة لطالب العلم في تأدبه مع أستاذه، تعظيم حرمته في نفسه واقتداؤه به، ومراعاة هذه في غيبته وبعد موته، فلا يغفل عن الدعاء له مدة حياته، ويرد غيبته ويغضب لها، فإن عجز عن ذلك قام وفارق المجلس، ويرعى ذريته وأقاربه وأودّاءه ومحبيه في حياته وبعد موته، ويتعاهد زيارة قبره والاستغفار له والترحم عليه والصدقة عنه، ويسلك في السمت والهدي مسلكه، ويراعي في العلم والدين عادته، ويقتدي بحركاته وسكناته في عباداته وعاداته، ويتأدب بآدابه[1].

(١) المنية، بتصرف ملحوظ: ص ١٩٩.

ثالثاً: آداب الطالب في حلقة الدرس:

قاعة الدرس من مدرسة أو جامعة أو غرفة أو زاوية من زوايا مسجد كلها بيت من بيوت الله يرفع مكانها ويفضلها على سواها، لأنها أماكن للتعلم والهداية وذكر الله ومبادئه وتعاليمه، فهي إذاً بيت من بيوت الله، قال تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾[1].

وهي الأماكن التي نتمكن من خلالها وعبر نوافذها العلمية والثقافية والأخلاقية والعبادية أن نوجد التربية التكاملية في شخصية المتعلم، حيث توفر فرص النمو لجسمه وعقله ووجدانه وعلاقاته بشكل منسجم، بحيث لا يقوم صراع بداخل المتعلم، وبحيث تتآزر هذه الجوانب مع متطلبات سلوكياته التعليمية والاجتماعية، فيصبح فرداً مثالياً في الحياة البشرية.

من هذا المنطلق جاءت النصوص المروية، لتؤكد على احترام هذه الأماكن وتقديرها والاهتمام بها اهتماماً متزايداً. قال رسول الله ﷺ: إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا، قالوا: يا رسول الله ﷺ وما رياض الجنة؟ قال ﷺ: حلقة الذكر (أي مكان الدرس) فإن لله سيارات من الملائكة يطلبون حلق الذكر، فإذا أتوا عليهم حفوا بهم[2].

وخرج رسول الله ﷺ فإذا في المسجد مجلسان: مجلس فيه قوم يتفقهون، ومجلس يدعون الله تعالى ويسألونه.

فقال ﷺ: كلا المجلسين إلى خير، أما هؤلاء فيدعون الله، وأما

(١) سورة النور، الآية: ٣٦.
(٢) المنية، مصدر سابق: ص١٠٠.

هؤلاء فيتعلمون ويتفقهون ويعلمون الجاهل، هؤلاء أفضل بالتعليم، وبالتعليم أُرسلت، ثم قعد معهم[(١)].

وعن الإمام الصادق عليه السلام قال: لمجلس أجلسه إلى من أثق في نفسي خير من عمل سنة[(٢)].

لذلك هناك آداب شرعية وأخلاقية ينبغي لطالب العلم تفهمها وتفقهها ومعرفتها معرفة تامة حتى يتسنى له نيل العلم، وهي كما يلي:

١ ـ النية الخالصة:

لا بد لطالب العلم من النية الخالصة في تعلم العلم، ونشره، إذ النية هي الأصل في جميع الأحوال، لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾[(٣)].

وجاء في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله إنما الأعمال بالنيات [(٤)].

فينبغي أن ينوي المتعلم بطلب العلم ونشره في الآفاق رضى الله سبحانه وتعالى.

٢ ـ الطهارة:

أن لا يحضر مجلس الدرس أو المكان الذي يقام فيه الدرس كالمدارس، أو الجامعات، أو الحوزات، أو المساجد وغيرها إلا متطهراً من الحدث والخبث، متنظفاً متطيباً في بدنه وثوبه، لابساً أحسن ثيابه، قاصداً بذلك تعظيم العلم وترويح الحاضرين من الجلساء والملائكة أجمعين.

---

(١) المنية، مصدر سابق: ص١٠٠.
(٢) المصدر السابق: ص ١٠٣.
(٣) سورة البينة، الآية: ٥.
(٤) بحار الأنوار: ج ٧٠ ص ٢١١.

وهذا الندب الشرعي ليس فقط في التعلم، فالإنسان ينبغي عليه أن يكون دائماً وأبداً على طهارة، فإنها نور على نور كما جاء في الحديث عن رسول الله ﷺ.

قيل لوالدة الشيخ مرتضى الأنصاري رحمه الله: هنيئاً لك على ما رزقك اللّه من ولد وبارك لك فيه، فلقد بلغ في العلم والتقوى درجات رفيعة، ومقامات عالية، قلّ ما يبلغهما أحد مثله.

فقالت في جوابهم: إني كنت أتوقع منه أكثر مما ترونه فيه، وأرقى ممّا وصل إليه اليوم، وذلك لأنّي لم أرضعه حتى رضعة واحدة من غير وضوء، فقد تحملت البرد والحر، في الصيف والشتاء وفي السفر والحضر وفي كل حال حتى توضأت ثمّ أرضعته، فكيف لا يكون؟!

٣ ـ المواظبة والهمة في التحصيل:

ثم ينبغي لطالب العلم الجد والمواظبة والملازمة، قيل قديماً: بقدر ما يسعى ينال ما يتمنى.

وينبغي له أيضاً أن يتعب نفسه على الجد والتحصيل والمواظبة بالتأمل في فضائل العلم ودقائقها، فإن العلم يبقى، وغيره يفنى، ولذلك قيل: العالمون أحياء وإن ماتوا.

كما ينبغي له أيضاً أن يكون مواظباً على الدرس والتكرار في أول الليل وآخره وما بين العشاءين، ووقت السحر.

وينبغي له أيضاً كما أكده العلماء عبر تجاربهم السابقة، ترك الأكل الكثير والأطعمة الدسمة، ويقدم في الأكل الألطف والأشهى، وأن لا يسعى في الأكل والنوم إلا لغرض الطاعات، كالصلاة والصوم وتأدية الحقوق الأسرية وغيرها[١].

(١) آداب المتعلمين، الطوسي: ص ١٨.

٤ ـ التزام التقوى في كل شيء:

ومن أعظم سمات طالب العلم التقوى، فهي حصنه الحصين ومنهجه القويم في الحياة، ولأنها أربح المتاجر وأكبر الذخائر عند الله سبحانه وتعالى، لذلك أكثر من مدحها في كتابه قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾[2].

وقال تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[3].

وعلى نحو ذلك جاءت الأحاديث الشريفة، وعلى نحو ذلك أيضاً جاءت وصايا العلماء والأتقياء والصالحين لمن بعدهم.

وهي تكون بطاعة الله سبحانه في امتثال أوامره والكف عن زواجره، وهي عند الأولياء الخلص ألذ من كل ما يتعاطونه في دار الدنيا من أنواع المستلذات على اختلاف أنواعها، لما قد أشربت قلوبهم من حبها، فاستنارت وأشرقت وأبهجت بها، لاسيما وقد شابوها بالذكر والعبادة والأعمال الراجحة في ميزان الأعمال الأخروي، فحقرت نفوسهم الدنيا وما عليها.

---

(١) سورة الحجرات، الآية: ١٣.

(٢) سورة النساء، الآية: ١.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٩٧.

جاء عن علي ﷺ الذي عرف الدنيا معرفة حقيقية حتى زهد فيها وطلقها ثلاثاً لا رجعة فيها أبداً، أنه قال: ما عبدتك طمعاً في جنتك، ولا خوفاً من نارك، ولكن وجدتك أهلاً للعبادة فعبدتك[١].

٥ ـ ترك الرياء وحب الظهور:

للأسف الشديد إن هناك شريحة من طلبة العلم ورجاله الكبار، تمكن داء الرياء من مصاحبتهم والتسلط على ذهنهم وسلوكياتهم وأعمالهم!!

إن الرياء عزيزي الطالب من أكبر الآفات على طالب العلم، لأنه أسرع شيء تطرقاً، لا يسلم منه السلامة الكلية إلا من أُيّد بعناية ربانية، فملك عقله على نفسه وهواه، جاء في الأثر عن رسول الله ﷺ: أخوف ما أخاف على أمتي الرياء الظاهر، والشهوة الخفية[٢].

٦ ـ اللين وترك القسوة:

سمة من سمات الأنبياء والمرسلين ﷺ والأئمة الطاهرين ﷺ والعلماء الصالحين ﷺ اللين وترك القسوة في كافة السلوكيات وفي كل المناسبات، إلا في ما يغضب الله سبحانه وتعالى ومحاربة الدين والقيم الإسلامية الربانية.. وينبغي أن يفهم طلبة العلم في كافة مجالاتهم أن الشدة وفقدان اللين في كافة المجالات السلوكية، بالخصوص في مجالات التعليم والتربية لا تثمر أصلاً، بل تأتي بردود سلبية عكسية مما يزيد الفتق على الراقع.

---

(١) نور الحقيقة في علم الأخلاق، العاملي: ص ٥٤.

(٢) المصدر السابق: ص ٥٩.

قال أبو العتاهية في أرجوزته:

يـا أيـهـا الـرجـل الـمـعـلـم غـيـره ... هـلا لـنـفـسـك كـان ذا الـتـعـلـيـم

وأراك تـلـقـح بـالـرشـاد عـقـولـنـا ... نـصـحـاً وأنـت مـن الـرشـاد عـديـم

وقال أبو الأسود الدؤلي ويرويه عن ابن الحزرمي:

لا تـنـه عـن خـلـق وتـأتـي مـثـلـه ... عـار عـلـيـك إذا فـعـلـت عـظـيـم

وابـدأ بـنـفـسـك فـانـهـهـا عـن غـيـهـا ... فـإذا انـتـهـت عـنـه فـأنـت حـكـيـم

فـهـنـاك تـعـذر إن وعـظـت ويـقـتـدى ... بـالـقـول مـنـك ويـقـبـل الـتـعـلـيـم

وإليك صورة مشرقة من حياة عظماء الدين والأخلاق والعلم كيف جعلوا الرفق طريقهم في نشر العلم والموعظة والإصلاح، انطلاقاً من قاعدة رسول الله ﷺ: ما وضع اللين على شيء إلا وزانه، وما رفع من شيء إلا وشانه[١].

نماذجُ علمائية في اللين والرفق:

ومن جملة أولئك الشيخ حسن الأصفهاني رحمه الله المستوطن مدينة مشهد المقدّسة، وكان رجلاً عظيماً، له ختومات، وأدعية وأوراد يومية، وممّا ينقل عنه:

أنه كان ذات مرة وهو في طريقه من الكوفة إلى النجف الأشرف، وإذا باللصوص يجتمعون عليه ويأمرونه بأن يتجرّد من ثيابه ويسلمها مع ما فيها إليهم، وفعل الشيخ ذلك حيث تجرّد من ملابسه باستثناء الإزار، ثم سلمها إليهم قائلاً: قد وهبتها لكم حتّى لاتقعوا في معصية اللّه من أجل غصب ملابسي.

وإذا بهذا الكلام يفعل كالمعجزة في اللصوص، حيث يحصل فيهم

(١) المحجة: ج ٣ ص١٥٤.

ردّ فعل داخلي يقودهم إلى الانتباه والارتداع، وإذا بهم لا يأخذون الثياب، ويتوبون على يديه قائلين: إنه ليس من الحقّ عصيان اللّه تعالى بالسرقة، بعد أن نرى منك مثل هذه الشفقة علينا، وبالفعل فقد تابوا وصار أمرهم إلى خير، وهكذا يفعل الرفق بالنفوس.

اللين الأسري من العالم:

نقل لنا الإمام الشيرازي رحمه الله أنه ذكر له الخطيب الكبير والواعظ الشهير الحاج الشيخ مهدي المازندراني رحمه الله صاحب التصانيف القيّمة كمعالي السبطين وغيره من الكتب الثمينة، نقلاً عن والده الشيخ عبدالهادي رحمه الله وكان من تلاميذ الميرزا الكبير المجدّد الشيرازي رحمه الله قائلاً:

إنه لما ولد له الشيخ مهدي تمرض الطفل بعد أيام من ولادته، وكانت زوجة الميرزا لها إلمام بالطب وتعرف طريق العلاج، فأخذ الشيخ وزوجته الطفل إلى دار الميرزا لتعالجه زوجة الميرزا.

فاتّفق أن كانت زوجة الميرزا مشغولة بأمر، فطلبت منهما بأن يأتوا بالطفل بعد ساعة، فانزعج الشيخ، وعاد إلى داره مغضباً وعزم على عدم مراجعتها.

وبعد ساعة أرسلت زوجة الميرزا إليهم ليأتوا إليها بالطفل فتعالجه، لكن الشيخ أبى عليها ذلك، وتكرّر الطلب من ناحيتها مرّات، والشيخ مصرّ على عدم تلبية الطلب.

قال الشيخ: قال والدي: وبينا أنا كذلك وإذا بي أسمع طرقاً على الباب، ولما تقدمت إلى الباب وفتحته، رأيت الميرزا، وخلفه زوجته قد جاءا بنفسيهما.

قال: فخجلت كثيراً وأخذت أعتذر من الميرزا.

فأجابني الميرزا قائلاً: لا بأس عليك، ولكن ألم يكن من المقرّر بيننا أن نكون في سامرّاء كعائلة واحدة؟

ثم دخلت زوجة الميرزا إلى الدار وجلس الميرزا إليّ في الدهليز يحدّثني، حتّى إذا وصفت الدواء للطفل وعالجته، خرجت من الدار، فودّعني الميرزا وعاد بصحبتها إلى داره.

قال الشيخ مهدي(: وطبت ببركتها بعد أن كنت مشرفاً على الهلاك والموت.

لطائف صاحب التنباك:

قيل: إنّ الميرزا الشيرازي الكبير رحمه الله لما كان في سامراء كان يواظب على تربية نخبة من رجال الدين النزيهين ويشجعهم على البقاء هناك، وكان إذا رأى الاعوجاج من أحد الطلاب نصحه وحثّه على الاعتدال، فإذا لم يعتدل هيأ وسائل خروجه من سامراء ـ من غير مباشرة ـ وذات مرّة اتفق أن جاء أحد أبناء الأشراف من طهران إلى سامراء وتتلمذ على الميرزا، لكنّه كان ينتقص الميرزا في مجالسه، وكلّما قيل للميرزا بقطع مرتبه الشهري أو إخراجه من سامراء، لم يجبهم إلى ذلك.

وبعد مدّة جاء وفد من طهران إلى سامراء وطلبوا من الميرزا أن يرسل لهم وكيلاً.

فقال لهم الميرزا: وهل ترغبون أن يكون فلان وكيلي فيكم ـ وهو يقصد ذلك الذي كان ينتقصه ـ ؟

قالوا: نعم.

فهيأ الميرزا أسباب سفره بأحسن وجه وكتب له الوكالة عنه وأرسله

معهم إلى طهران بكل احترام، ممّا أثار اعتراض المطّلعين عن حاله على الميرزا، لكن الميرزا لم يلتفت إلى اعتراضهم وسكت عنهم حتى ثارت قصة التنباك.

وكان هذا الوكيل، قد ارتفع شأنه، وصار من علماء طهران المبرّزين ومن المقرّبين لناصر الدين شاه، ففكّر الشاه في نقض حكم الميرزا على أيدي رجال الدين أنفسهم، ولذا أمر هذا العالم أن يدعو العلماء إلى داره ويخبرهم بأنّ الشاه يريد الاجتماع بهم في داره، فلمّا اجتمعوا جاء الشاه، ولما استقر به المجلس أقبل عليهم وقال: «أليس حلال محمّد ﷺ حلالاً إلى يوم القيامة؟».

قالوا: بلى.

قال فمن هو الميرزا محمّد حسن الشيرازي الذي حرّم التنباك؟

فأحجم العلماء عن الجواب وعمّ المجلس السكوت لحظات، وإذا بهذا العالم نفسه يخترق السكوت ليقول للشاه: أيها الشاه لا تقل (محمّد حسن) إنّه زعيم الشيعة ورئيس الحوزة، ومقتدى الناس ونائب الإمام المهدي عليه السلام، إنّه آية اللّه العظمى الحاج ميرزا محمّد حسن الشيرازي أدام اللّه ظلّه على رؤوس الأنام.

فغضب الشاه وقال: ثمّ ماذا، وما أنتم صانعون؟

فأجابه هذا العالم: إنّنا بانتظار تنفيذ أمره، وإلاّ نفذناه نحن بالسيف.

وهنا غضب الشاه غضباً شديداً وقام وخرج من المجلس وهو يقول: أردناه لنا عوناً فانقلب علينا فرعوناً.

وهكذا فشل الشاه في تآمره على رجال الدين وتخطيطه لحفظ مصالحه الشخصيّة.

فكتب بعض الحاضرين تفصيلاً عن القصّة إلى الميرزا وأرسله إليه.

فلمّا وصل الميرزا ذلك طلب المنتقدين له والمعترضين عليه في قصة توكيله ذلك الذي كان ينتقصه في مجالسه، وعدم موافقتهم له في إرساله إلى طهران وكيلاً عنه، وأراهم الرسالة.

فلمّا عرفوا مضمونها، اعتذروا من الميرزا وأكبروه على حسن سلوكه وبُعد نظره، وعلموا أنّ الرفق بالناس والمداراة لهم من أهمّ الأمور في الحياة(١).

ملازمة العلم بالعمل:

من الواضح أن الهدف الأكبر للأنبياء والمرسلين عليهم السلام كان تحرير الناس من الشقاء الأبدي، وليس مجرد الشقاء المؤقت في الدنيا، بل كانوا يهدفون لتحريرهم أيضاً من الشقاء الأخروي، وكانت سلوكياتهم تحكي أقوالهم، وأقوالهم تحكي سلوكياتهم، ولم يكن علمهم وأقوالهم بعيدة عن تصرفاتهم اليومية مع الأسرة أو المجتمع، لذلك تمكنوا من إحداث ثورة تغييرية عالمية بشرية إنسانية على الأرض، لا سيما خاتمهم رسول الله صلى الله عليه وآله الذي قال: إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق..

والعالم الذي يقول ويأمر الآخرين بأقواله وهو بعيد عنها ليس بعالم، إنما هو بمثابة المصباح الذي يحرق نفسه ويضيء لغيره.

قال شاعرنا:

وبَخْتَ غيرك بالعمى فأقدته ... بصراً وأنت مُحَسِّنٌ لعماك

كفتيلة المصباح تحرق نفسها ... وتنير موقدها وأنت كذاك

---

(١) قصص العلماء للإمام الشيرازي (قدس): ص٥٤.

وقال آخر:

يا أيها الرجل المعلم غيره لا لنفسك كان ذا التعليم
وأراك تلفح بالرشاد عقولنا نصحاً وأنت من الرشاد عديم

لذلك ليس من الصحيح في السلك العلمائي أن ترتفع مستوياتهم العلمية والوجاهتية في المجتمع، وبدون أن ترتفع مستوياتهم الأخلاقية في التعامل مع بعضهم بدرجة أولى! وفي التعامل مع أفراد أسرهم ومجتمعاتهم بدرجة ثانية، ومما يلاحظ على بعضهم أن علمه لا ملزومية له بأخلاقه أصلاً، وهذا ما سبب فداحة المسألة الإصلاحية، إذ تعثرت الموعظة والتوجيه والعلم أن يأخذوا مجاريهم إلى نفوس الناس!!

والمعروف في الوسط الديني والأخلاقي والعلمي منذ أن وجدت الرسالات السماوية العلمية والأخلاقية والإصلاحية كهدية للبشر، أنه على العالم أن يعمل بعلمه، وحثّ النفس على أن تأتمر بما أمر به، وإلا فهو من الذين وبخهم الله سبحانه وتعالى بقوله: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[1]، وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: تعلموا ما شئتم أن تتعلموا فلن ينفعكم الله بالعلم حتى تعملوا به، فإن العلماء همتهم الرعاية، والسفهاء همتهم الرواية[2].

وقال عيسى عليه السلام: ليس بنافعك أن تعلم ما لم تعمل، إن كثرة العلم لا تزيدك إلا جهلاً إذا لم تعمل به[3].

وجاء عن سفيان الثوري قوله:

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٤٤.
(٢) نور الحقيقة: ص ٩٦.
(٣) المصدر السابق: ص ٩٦.

إذا العلم لم تعمل به كان حجة ... عليك ولم تعذر بما أنت جاهله
فإن كنت قد أوتيت علماً فإنما ... يصدق قول المرء ما هو فاعله

وقال عبدالملك بن إدريس الحزيري الوزير الكاتب:

والعلم ليس بنافع أربابه ... ما لم يفد عملاً وحسن تبصر
سيان عندي علم من لم يستفد ... عملاً به وصلاة من لم يطهر
فاعمل بعلمك توف نفسك وزنها ... لا ترض بالتضييع وزن المخسر

وقال الجرجاني في قصيدته التي ذكرها الحموي صاحب كتاب ثمرات الأوراق وهو يصف طلبة العلم الذين لم ينفعهم علمهم وكان وبالاً عليهم إذا لم يُحسنوا التصرف في الأمور:

ولو أن أهل العلم صانوهُ صانهم ... ولو عظموه في النفوس لُعظما
ولكن أهانوه فهان ودنسوا ... محياه بالأطماع حتى تجهما[(١)]

نصيحة في المقام:

قيل: إن الشيخ الأنصاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان يقول: ثلاثة أشياء ينبغي للإنسان وخاصّة رجال الدين الاهتمام بها، وذلك بأن يأخذ أولها ولو كان في ابتداء الأمر غير جامع للشرائط، وأن يترك ثانيها ولو كان في ابتداء الأمر جامعاً للشرائط، وأن يأخذ بثالثها إذا كان جامعاً للشرائط ويتركه إذا كان فاقداً للشرائط.

أمّا الأوّل: فهو العلم، فإنّه ينبغي للإنسان أن يطلب العلم ويتعلّمه ولو لم يكن في أول الأمر قصده اللّه تعالى والتقرّب إليه، وذلك لأنّ العلم بالآخرة يجرّه إلى اللّه تعالى.

(١) ثمرات الأوراق، ط الأولى: ص٤٣٠، الحموي.

وأمّا الثاني: فهو القضاء بين الناس، فإنّ القاضي مشكل أمره وإن كان عدلاً فقيهاً، لأنّه كثيراً ما يجر الإنسان إلى الحكم بخلاف الحقّ.

وأمّا الثالث: فهو إمامة صلاة الجماعة، فإن كان عادلاً أقدم عليها، وإلاّ تركها.

أقول: بهذا الكلام المتين قد أشار الشيخ رحمه الله إلى خطورة منصب القضاء، ولزوم أن يحتاط القاضي في الحكم أشدّ الاحتياط[1].

وأصدق كلمة تنطبق على العالم العامل بعلمه والذي ينبغي له أن يدعو بها في كل يوم، قوله تبارك وتعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾[2].

٧ ـ طالب العلم والتأليف (التصنيف):

مصادر الثقافة في هذا العالم كثيرة ومتنوّعة، سواء في السياسة أو في الاقتصاد أو في العلوم الأخرى، وكل هذه المصادر تحاول أن تحتوي المصدر الآخر للانفراد في الساحة، ونلاحظ أنه كلما جاء فكر جديد كثيراً ما يلعن من كان قبله، وهكذا الحال في القوانين الوضعية السائدة في هذا العالم المتلاطم بالأفكار، وفي الأغلب تكون أفكاراً تسلطية مبتنية على الخداع والغش؛ لذلك يأتي الفكر مرة باسم الشيوعية، ومرة باسم الرأسمالية، وأخرى باسم القومية... وفي ظل هذه العناوين والاتجاهات ينخدع بعض الناس وينجرف في دوامتها.

ومقابل هذه التيارات التضليلية يقف الفكر الإسلامي شامخاً، بما يحتويه من مبادئ رصينة وثابتة، تهدي الناس إلى الخير والصلاح،

---

(١) قصص العلماء، الشيرازي(قدس): ص ١٦٥.
(٢) سورة الفرقان، الآية: ٧٤.

فالقرآن الكريم وهو مصدر الهداية والرحمة، يهدي الناس إلى التكامل المادي والمعنوي، ويحررهم من العبودية التي قيدتهم نتيجة الأفكار والنظريات التضليلية، فالقرآن الكريم يحتوي على أعلى قيمة في الفكر، وأرقى أسلوب في الحركة والسير الذاتي نحو التطور والسعادة، ومن ثم اعتضد هذا الفكر بشخصية الرسول الأعظم ﷺ الذي أخرج هذا الفكر إلى النور، بأعماله وأفعاله الواقعية، في مجتمع صعب التغيير، متعصب لفكرته المترسخة لفترة طويلة، مع وجود شخصيات متمرسة في التضليل والخداع، ذات مصالح شخصية، ولها جذور عميقة في التأثير على المجتمع. ورغم هذا كله نجح هذا الفكر في الاجتياز لكل العقبات نتيجة لتكامله وصحة دعوته، وقوة منشئه وعظمته، وصدقه وأمانته..

والجهاد بالقلم من أسمى آيات الجهاد قوله ﷺ: مداد العلماء أفضل عند الله من دماء الشهداء[١].

وجاء في الحديث عن رسول الله ﷺ: يوزن يوم القيامة مداد العلماء ودم الشهداء فيرجح مداد العلماء على دم الشهداء[٢].

وقال ابن دريد:

لهم المهابة والجلالة والنهى ... وفضائل جلت عن الإحصاء

ومداد ما تجري به أقلامهم ... أزكى وأفضل من دم الشهداء

ا طالبي علم النبي محمد ... ما أنتمُ وسواكم بسواء

وقال الإمام علي عليه السلام: عقل الكاتب قلمه[٣].

(١) ميزان الحكمة: ج ٤ ص ٢٣٤.
(٢) جامع بيان العلم، ابن عبدالبر القرطبي: ج ١ ص ٣١.
(٣) نور الحقيقة، مصدر سابق: ص ١٠٨.

وقال بعض الحكماء: القلم والسيف حاكمان في جميع الأشياء، ولولاهما ما قامت الدنيا[١].

من طلب العُلى سهر الليالي:

الكثير من الناس يسهرون الليل، ولكن ليس كلهم يسهر على وتيرة واحدة، وإنّما هم في ذلك على قسمين:

قسم يسهر الليل فيكتسب من الليل بؤساً وعناءً، وظلاماً وضعة.

وقسم يسهر الليل فيكتسب من الليل غنى وراحة، ونوراً ورفعة، ومن هذا القسم العلماء، وتاريخهم يشهد لهم بذلك.

فهذا العلامة الشيخ محمّد باقر المجلسي رحمه الله صاحب كتاب بحار الأنوار، على ما ينقل عنه كان أكثر أيام حياته مريضاً، وقد أصيب مدة غير قصيرة برمد في عينيه مما منعه من التأليف والتصنيف، إضافة إلى ذلك كان اجتماعياً، كثير المعاشرة، مرجعاً وملاذاً للناس، يرجعون إليه في أمورهم وقضاياهم، ومسائلهم وأحكامهم، وكان إضافة إلى ذلك مدرساً قديراً، يلقي الدروس العلمية ويفسر المعارف الدينية على طلاب العلوم، إضافة إلى تعهد شؤونهم وشؤون الحوزات العلمية، إلى غيرها من المشاغل الاجتماعية التي كان مشتغلاً بها، ومع كل ذلك ألّف وكتب عدداً كبيراً من الكتب والتصانيف المهمة والمفيدة، منها بحار الأنوار، مما لو قسّم على أيّام عمره، كان حصة كل يوم ما لا يقل عن مائتي سطر - علماً بأنّه توفي عن عمر بلغ ثلاثة وستين عاماً - حتى أنه على ما قيل - كتب رسالة الاعتقادات، الحاوية لما يقرب من ألف سطر في ليلة واحدة، مما يظهر أنه لم يكن ذلك منه إلا لما كان يسهره من الليالي.

---

(١) المصدر السابق: ص ١٠٨.

ومن طلب العلى سهر الليالي وغاص البحر من طلب اللآلي

المحدث القمي أنموذجاً:

المرحوم الحاج الشيخ عباس القمّي (صاحب كتاب مفاتيح الجنان، والتأليفات الكثيرة المفيدة، سافر مع جماعة من التجار إلى سوريا.

قالوا: إنّه باستثناء الصلاة والزيارة كان يكبّ على التأليف والمطالعة، وحين كنّا نخرج للتنزه والاصطياف كنا نصرّ عليه لمرافقتنا، فكان يأبى.

وكذا كان يسهر الليل حين كنّا ننام، وهو يطالع ويؤلف.

نعم لو كان ينام كثيراً ويتنزّه طويلاً، لما استطاع أن يؤلف ما يؤلف من الكتب المفيدة والممتعة مثل سفينة البحار وغيرها.

وصاحب الجواهر أنموذجاً:

قالوا: إن صاحب الجواهر كان قد أخذ عهداً على نفسه أن يكتب كل ليلة مقداراً من الجواهر، وفي ذات ليلة مات ولد له، قالوا: فأخذ القلم والقرطاس، وهو باكي العين محترق القلب، فجاء وجلس عند جثمان ولده، وأخذ يكتب وفاءً بعهده.

وهكذا استطاع صاحب الجواهر بصبره وتجلده وثباته واستقامته أن يخلد كتاب الجواهر للحوزات الدينية والمجامع العلمية.

صاحب مستدرك البحار أنموذجاً ثالثاً:

اتّفق عدّة من رجال الدين على السفر إلى سامراء والتشرّف بزيارة الإمامين العسكريين عليهما السلام، وكان الوقت صيفاً والهواء حاراً، ولذلك كانوا يصطافون ليلاً على شواطئ دجلة وينامون هناك على مشارف سامراء.

وكان من بينهم المرحوم الشيخ ميرزا محمد الطهراني، صاحب مستدرك البحار، وكان يشتغل بكتابة مستدركه طيلة الليل، فكان هو الوحيد من بينهم الذي لا ينام، حتى أنه كلما انتبه أحد منهم رآه مشتغلاً بالكتابة والتأليف، مع أنه كان قد كبر سنّه وضعف جسمه وبصره، لكنه مع ذلك كان يجتهد ويتعب نفسه من أجل التأليف والتحقيق[١].

المجدد الشيرازي(قدس) أنموذجاً آخر:

فهو الإمام الأكبر والمجاهد الفذ آية الله في العالمين السيد محمد الشيرازي رحمه الله مرجع من مراجع الأمة الإسلامية ونادرة من نوادر العصر والزمان، خصاله الحميدة وشجاعته المتميزة وتصانيفه المعروفة تغني عن الحديث حول شخصيته العطرة. عرف بكثرة التصنيف والتأليف والبحث، يعد القلم سلاحاً قوياً لتبليغ صوت الإسلام الحنيف للعالم، ولإصلاح الإنسان وأوضاعه المأساوية، وكان دائماً يوصي طلابه ومحبيه وشباب الإسلام برسالة القلم والتأليف، لما لها من أهمية كبرى في حياتهم اليومية، ويحث على إيجاد المكتبات الإسلامية في كل بيت، فهو لا يركن للراحة قط فتراه بين درس وبحث وتحقيق وتأليف وإلقاء المحاضرات، وجل أوقاته الثمينة يصرفها في البحث والتأليف حتى شلت ثلاثة من أصابع يده اليمنى من كثرة مسكه للقلم، يقول عنه ابنه السيد مرتضى (حفظه الله): إن والدي ينام أربع ساعات فقط، وبقية الساعات مشغول فيها بين التأليف والقراءة وإلقاء الدروس والمحاضرات والرد على الاستفتاءات الإسلامية، وربما سهر الليل كله وصرفه في الكتابة. نعم فهو مؤلف كبير ودورته الفقهية تشهد له بذلك، فهي أكبر موسوعة فقهية في التاريخ الشيعي (١٢٥) مجلداً في الفقه الاستدلالي،

---

(١) للمزيد راجع العلماء أسوة السيرازي.

إلى غير ذلك من مؤلفات تربو على ٨٩٠ مؤلفاً بين مجلد وموسوعة وكراس، فعلى سبيل المثال كتب في التفسير، والحديث والعقائد والكلام والفلسفة والسياسة والاقتصاد والاجتماع والإدارة والحقوق والتاريخ والدعاء والزيارة وهو الآن يكتب في فقه النفس.

إن هذا الرجل العظيم حقاً قدوة عظيمة من قدوات علماء الإسلام الحنيف وهو قدوة لنا جميعاً، نسأل الله سبحانه أن يوفقه ويوفقنا للاقتداء به.

تجنب إفساد العامة:

من دقق النظر في حياة المسلمين ببصيص من التفكر والتأمل والتعمق في مسيرة المجتمع وعلاقته بعلمائه، يدرك حقيقة واضحة وهي أن علاقة الناس اليوم بالعلماء وطلبة العلم لم تعد على الصورة المطلوبة الواقعية، وليست في تلك الصورة التي كانت عليها حياة العلماء في القرون الماضية، ولعلنا لو نكتشف أهمية هذه الحقيقة لرأينا كيف محيت صورة التأثير الإيجابي في حياة المجتمع الإسلامي من مواعظ وإصلاح وتوجيه وخطب العلماء!.

وليس ذلك من باب المبالغة ولا المجازفة، ولكنه الواقع المأساوي الذي لا يخفى على ذي لب وذي بصيرة ثاقبة، فلم يعد الحب والصفاء والمودة والاحترام والتقدير واعتبار أقوال العلماء هو الطابع الغالب على هذه العلاقة كما كان عليه الحال أيام العصور السابقة، بل ساد في حياة الناس إعراض عن العلماء، وسوء ظن بهم وبتصرفاتهم، ومناوأةٌ لهم، بل وتحقيرهم والطعن في شرفهم وأعراضهم وتنفير الناس منهم، مما هيأ الفرصة لظهور أنماط من السلوك في حياة المسلمين غير مرغوب بها[1].

(١) للتعرف على هذه الصورة بجلاء راجع كتاب قواعد التعامل مع العلماء: ص ٩ د. الشنقيطي.

أين الخلل؟

وصور اختلال هذه العلاقة عديدة ومتنوعة، ولكن أخطرها تكمن في هذه النقاط:

أخطاء بعض طلبة العلم:

قاعدة لا يلتفت إليها أغلب الناس من العامة ولا يعملون بها ألا وهي: العلماء ليسوا معصومين وليسوا ملائكة، بل بشر تجاه الجاه والمنصب والضعف والمال والنساء وسائر الأمور الدنيوية التي يسعي إليها كافة البشر على وجه الأرض.

وفيهم المتقي الورع الذي يجري الله على يديه الخير والكرامات.

وفيهم المتخلق الذي تنطبق عليه صفات القدوة الحسنة في أخلاقه.

وفيهم متردي الأخلاق الذي ينفر الطباع ويصيب النفوس بالاشمئزاز والتقزز.

وفيهم من لو وزنته بالذهب فهو أغلى وأثمن منه.

وفيهم من هو أمة في رجل.

وفيهم من ليس له في العلم ولا في الأخلاق نصيب.

إلا أن هذه النماذج لا يجوز أن تكون مُبرراً للآثام والأوهام والافتراءات وبث الشائعات المكذوبة على الجميع، فهذا خطر فادح ينبغي تركه لأن لحوم العلماء مسمومة.

فساد العامة من الخاصة:

وهذه حقيقة أخرى وهي أن فساد أبناء العامة اليوم سببه فساد الخاصة من طبقات العلماء وطلبة العلم. ففي النص المروي عن

رسول الله ﷺ قوله: صنفان من أمتي إذا صلحا صلحت الأمة، وإذا فسدا فسدت الأمة السلطان والعلماء[١].

وجاء عن علي عليه السلام وهو يصف علماء السوء الذين يُفسدون المجتمعات: وآخر قد تسمى عالماً وليس به، فاقتبس جهائل من جُهّال، وأضاليل من ضُلاّل، ونصب للناس أشراكاً من حبائل غُرور وقول زور، قد حمل الكتاب على آرائه، وعطف الحق على أهوائه، يُؤمن الناس من العظائم ويُهون كبير الجرائم، يقول أقفُ عند الشبهات وفيها وقع، ويقول: أعتزلُ البدع وبينها اضطجع، فالصورةُ صورة إنسان والقلبُ قلبُ حيوان.

من الناس من هو بهذه الآداب السيئة التي اكتسبها عملياً ونظرياً من هذا العالم أو ذلك الطالب!

وحينما يحرض بعض طلبة العلم العامة من الناس الذين يتوسدون بِطانته، على نشر الأكاذيب والشائعات على المخالفين له في الرأي أو الفكرة أو التوجه العلمي أو الفكري، فهذا درس سيئ يُعلمه طالب العلم العامة من الناس..

ولو سردت عليك هذه المواقف المخزية التي يرتكبها بعض طلبة العلم لاحتجنا لمجلدات!!

ومع كل ما قلناه فإن هذه الأخطاء، المفروض في المجتمع الإسلامي المؤمن أن لا تؤثر على المخلصين العاملين الواعين، الذين نذروا أنفسهم لإصلاح مجتمعاتهم بكافة الوسائل الممكنة، وما يعمله رجال العلم الكبار من التشنيع عليهم أو نبزهم بالألقاب أو تتبع

(١) جامع بيان العلم: ج ١ ص ١٨٤.

عثراتهم، فهم أبصر منا بأن هذا العمل من المحرمات، وهم أنفسهم لا يقبلون لأنفسهم هذا التصرف، فكيف يقبلونه لغيرهم؟!!

إذاً كان الأجدى بهم (أي العلماء والخطباء الكبار) أن يحتضنوهم ويرعوهم ويصونوهم ويعالجوا مشكلاتهم المتفاقمة.

أما أن يقال إن هناك مستويات دراسية، وإن البعض لم يحصل تعليماً فيه كفاية تؤهله لإرشاد المجتمع وتوجيهه، فهذا أمر حصل في كل حقبات التاريخ البشري، وسوف يحصل دوماً، ولا ينبغي أن يكون، بل يحرم أن يكون سبباً للتستر وراءه لتوهين العلماء وإسقاطهم عن الأعين، كما يحدث اليوم في المجالس العامة، والديوانيات الاجتماعية، وعلى صفحات الإنترنت في الحوارات السوقية.

والمفروض تقوية العلماء وإعزازهم، وإثبات وجودهم ومساندتهم بكل الوسائل الممكنة والمتاحة لدى العامة من الناس، لأنهم حصن المجتمع ومرآته العلمية والأخلاقية والثقافية.

إن من ينظر إلى جميع المهن التي يمارسها الناس في كافة مجالاتهم العلمية والعملية يجد أنهم ليسوا على طبقة ومستوى واحد من العلم، فمن يقول إن الأطباء سواسية في مستوياتهم وكفاءاتهم؟

ومن يقول إن المهندسين كذلك...

ومن يقول إن المحامين كذلك..

ومن يقول إن المعلمين والمعلمات كذلك..

وليس كل من يحمل شهادة (دكتوراه) في المجتمع إنما يحملها عن جدارة واستحقاق.

إذن: فكل قطاع من هذه القطاعات العلمية والمهنية ليسوا على مستوى واحد، كذلك طلبة العلم والعلماء أيضاً..

من الذي يتحدث عن الطلبة ويبث الشائعات ضدهم؟

إن أكثر من يتكلم عن (المعممين) هم في العادة ممن لم يُحسنوا تصرفاتهم الفقهية، ولديهم كثير من الأخطاء العلمية والأخلاقية والتربوية والاجتماعية والسياسية، وهم بحاجة إلى توجيه وإرشاد بالخصوص في القضايا الشرعية التي يكثر في المجتمع الجهل بها من هذه الشرائح المذكورة، فيحاول أن يعوض عن نقصه وجهله، ببث سموم جهله على طلبة العلم ورجال العلم والفضيلة.

دخلت إلى إحدى المجالس وفور وصولي إليه خرج أحد الجالسين هناك، فقلت لبعض الحاضرين: لماذا خرج فلان (. . .)؟

فقالوا: لقد اختلف البارحة مع فلان (. . . .) وكان من طلبة العلم في مسألة، وبعد المجادلة العقيمة من طرفه، غضب وخرج من مجلسه يشتمه ويلعنه، وهنا الآن لم يترك عليه شيئاً من السباب إلا وتفوه به!!

لنا في قصص علمائنا (طاب رمسهم) كثير من صور هذه المعاناة فتأمل أيها القارئ [1].

---

(١) راجع قصص العلماء الحكيمي، والشيخ المهتدي، والإمام الشيرازي (قدس) وكتاب هل انتهى دور العلماء، الشيخ خضر. وقد درسنا الأسباب التي أدت إلى تزلزل العلاقات بين العلماء والعامة من الناس في كتابنا (العامة وطالب العلم) فراجع.

المناهج التعليمية

هبط النبي ﷺ من غار حراء ومعه للناس ذخيرة فكرية تتلخص في كلمة (اقرأ) التي تحمل بين جنباتها إنسانيتهم، وتحريرهم من قيود أنفسهم وشهواتهم وخرافاتهم ومناهجهم الخاطئة، ونظمهم الرجعية، واستبدالها بمنهج قويم تمثل في كلمة جامعة تحت (مقومات الأمة الفتية) والتي كانت ترتكز على مناهج تعليمية، وفكرية، وعقيدية، وأخلاقية، وجهادية، وسياسية عالية جداً.

فالعلاقات المبدئية، كانت الركيزة التي ينبع منها المنهج الإسلامي في تربية حملته، حيث نادى بتحطيم كافة القيم الفاسدة الجامدة التي اتخذها الأوائل ذريعة لبقائهم على عبادة أصنامهم وخرافاتهم الكثيرة، فكان المسلم المؤمن يرى نفسه منتمياً إلى أخيه المؤمن، قبل أن يكون منتمياً إلى أسرته أو أرضه أو عنصره، أي أحدث ذلك المنهج القويم ذوبان الروابط المادية الجامدة، وجاءت مكانها رابطة مبدئية متحركة..

أما الركيزة الثانية التي ارتكز عليها المنهج النبوي فهي العمل الصالح، إذ كان منطلقاً قيمياً لتحطيم المميزات الزائفة التي تمسك بها العرب قبل الإسلام، وكانت متمثلة في عنصر القبيلة والقومية والأسرة، والتفاخر بأعمالهم الخاصة المؤطرة تحت شعار (عملي من قومي، وقومي عملي) واستبدلها بمنهج العمل الصالح وهي قيمة العمل الصالح.

كما ارتكز المنهج النبوي على الثقافة العقلية، التي نادت بتحرير العقل من الخرافات الباطلة، والتي تمثلت في عبادة الأصنام، والخضوع المطلق للطواغيت، حيث استبدلت بثقافة العقل الذي نادى بالتأمل، والتفكر، وعبادة الله سبحانه الواحد الأحد.

كما أنه أي المنهج النبوي يؤمن بالقيادة الرشيدة، التي كانت تطلعاتها تنسجم مع الكيان الرسالي الإسلامي، والذي يؤول إليها التصرف في الأمور الشرعية وفق متطلبات السماء وشرائع الأنبياء والمرسلين السابقين عليهم السلام.

كما أنه يؤمن بالجماهيرية، التي تتمثل في العمل من أجل الكل لا الجزء، أي من أجل الدين، والإسلام، والحق والحرية والكرامة والفضيلة، إيماناً منه بالأمة الواحدة وتحطيم كافة الحواجز والقيود المصطنعة.

كما أن المنهج النبوي يؤمن بالشمولية الفكرية والثقافية، أي مناهجه تشمل جميع الموارد الثقافية والاجتماعية والتربوية والسياسية والجهادية و. . و. . إلخ.

بهذا المنهج تمكنت الأمة الإسلامية من الصمود في وجه الأعداء، ومحاربة كافة القيم الزائفة التي تقف حجر عثرة في طريق نشر العلم وإصلاح الذات وبناء الشخصيات المثالية في الحياة البشرية، وكان الهدف من هذا المنهج الرباني القويم، إصلاح الأرض بمن عليها، وتحقيق السعادة للناس في الدنيا والآخرة، ومن هنا فقد كانت مناهج الأنبياء عليهم السلام تهدف إلى إخراج الناس من الظلمات إلى النور مرة واحدة. كما أشارت الآيات الكريمة لذلك بقوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ

أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾[١].

وقال تعالى: ﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾[٢].

تعريف المناهج التعليمية:

إن الدول المتقدمة في العالم والمجتمعات الواعية، تعد المناهج المدرسية بمثابة المصنع التربوي الذي تعد فيه أجيال المستقبل من أبناء الأمة، وفعالياتها، وعمليات تقويمه بمنهجية علمية، وتطويره نحو حياة أفضل، من الأولويات الوطنية التي تستحوذ على اهتمامها، وجهودها والإنفاق السخي عليها، لذلك اختلفت وتباينت الآراء والأقوال في تحديد مفهوم المنهج عند المعلمين، والمربين، والقائمين على قطاعات التعليم بمختلف مستوياته.

يرى البعض أن المنهج من أهم مقومات العمليتين التعليمية والتربوية، ويعده البعض أهم المقومات قاطبة، ويرى آخر أنه يأتي في المرتبة الثانية بعد المعلم[٣].

والواقع الذي يرد الشك، أن المنهج أهم من إعداد المعلم، فالمعلم يرتكز على المنهج الذي يؤهله لأن يكون معلماً ومربياً ومتخلقاً، وعنصراً فعالاً في الحياة العلمية والثقافية والوطنية والاجتماعية، لذلك كان واضع المنهج الأول هو الله الذي يتميز بصفات

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٩٢.

(٢) سورة إبراهيم، الآية: ١.

(٣) المناهج التعليمية: ج ١ ص ٦٩٤.

الكمال المطلق، ومن ثم أنبياؤه العظام عليهم السلام الذين تمكنوا من إتقان منهجه الإلهي خير إتقان، ثم تمكنوا من تربية أتباعهم عليه.

قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾[(١)].

وقال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾[(٢)].

وإذا وقفنا عند تعريف المنهج في اللغة العربية نرَ أنه: الطريق الواضح، وجمعه: مناهج[(٣)].

وتختلف مناهج التعليم وموضوعاتها تبعاً لاختلاف أمكنة التعليم، فما يدرس من منهج في الكتاب غير ما يعلم في المساجد أو المعاهد أو الحوزات أو المدارس على اختلاف مراحلها التعليمية، وما يعطيه المؤدب غير ما يقدم في الصالونات الأدبية أو في بيوت الحكمة أو في دكاكين الوراقين.

ولا شك أن أول المقررات الدراسية عند المسلمين هو القرآن الكريم، فكان المسلمون يبدأون في إقرائه الطفل بجملته قراءة درج، ثم

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٤٨.

(٢) سورة الشورى، الآية: ١٣.

(٣) لسان العرب، بن منظور، ج ٢ ص ٣٨٣.

يعمدون إلى تحفيظه إياه كله، أو ما تيسر منه، وقد يبدأ المعلم بإعراب بعض آياته وتفسير غريبه تفسيراً وجيزاً، وتعليم طريقة ترتيله وتجويده، كما يعلمهم مبادئ العلوم والأدب التي تعينهم على تفهم معاني كتاب الله.

كما أن التعليم ومناهجه ومقاصده في مراحل التعليم الأولى لم تقتصر على هذا، ولم تقف عند حد الأخذ ببعض العلوم القرآنية أو الأدبية، بل تدخل فيها اكتساب المهارات الجسمية، والتربية الخلقية، فقد تنبه المسلمون إلى أهمية السنوات الأولى من حياة الطفل في تقويم نشأته واكتسابه العادات والصفات الحميدة، ويظهر هذا خاصة في كتب ابن الجوزي وابن مسكويه وابن سينا والغزالي، ومنهج ابن جماعة، ومنهج العاملي صاحب المنُية وغيرهم الكثير.

أما في المرحلة الثانوية والعالية فقد تعددت المناهج التعليمية كما تعددت في المرحلة الأولية ولم يكن الطالب مقيداً بدراسة مواد معينة، كما لا يفرض عليه الأستاذ منهجاً خاصاً، على أن ذلك لم يحل دون وجود مواد مشتركة بين جميع المناهج، هي المواد الدينية الأدبية، والمناهج اللغوية، ويمكن تقسيم المناهج إلى قسمين رئيسيين:

- المناهج الدينية الأدبية.

- والمناهج العلمية الأدبية.

أما المناهج الدينية، فيلخصها الخوارزمي في كتابه مفاتيح العلوم فيما يلي:

- علم الفقه الذي يبحث في الصلاة والصوم والزكاة والزواج والبيع، والشراء و. . و. . إلخ.

- علم النحو.

- علم الكلام والفلسفة.

- الكتابة.

- العروض.

- علم الأخبار وخصوصاً تاريخ الفرس، والتاريخ الإسلامي، وتاريخ ما قبل الإسلام وتاريخ الإغريق والرومان.

- علم الحساب والفلك.

أما النوع الثاني من المناهج نعني المناهج العلمية الأدبية، فيساير ظهورها المرحلة الثانية من نمو الفكر الإسلامي، يوم تقدمت آفاق البحث وتطورت العلوم والصناعات عند العرب، بدءاً من النصف الأخير من القرن الثاني للهجرة حتى القرن الرابع، حيث بلغ التقدم ذروته، ففي تلك الفترة الحضارية الزاهرة قام كما نعلم نشاط علمي وفلسفي كبير، وأسست دور العلم، وترجمت الكتب، وقامت البحوث، ودرست علوم اليونان، والهند، وفارس إلى جانب العلوم العربية في اللغة العربية البحتة.. إضافة إلى علوم الطب، والفلك، والرياضيات، والمنطق والفلسفة، والهندسة والميكانيكا[١].

ماذا نريد بالمنهج؟

قلنا سابقاً إن المنهج النبوي كان يرتكز على مبادئ خاصة هدفها الأساسي تخريج الجيل الصالح للعالم البشري.. ومن الواضح أن المدرسة ينبغي أن يكون لها منهج، إذ بدون برنامج للتعليم لا تصبح

---

(١) التربية عبر العصور: ج ١ ص ٢٠٩.

المدرسة مؤسسة تربوية، ومن الواضح أيضاً أن يلتفت إلى ما ينبغي أن يكون عليه المنهج، وما هي أساسياته وبنوده ومقاصده؟

ويمر التعليم في الوطن العربي بمراحل خطيرة، والأمر يحتاج إلى تغيير في المناهج التي تتعامل مع عقلية التلاميذ على أنها عقلية بلهاء!! مع أنهم أبناء عصر الكمبيوتر والإنترنت، فلا يمكن تصديق أن الأقسام العلمية في كليات التربية لم تتطور، فكيف يمكن إعداد جيل يستطيع التعامل مع الثورة العلمية الهائلة التي تحدث الآن طالما أن المعلم لم يحصل على الإعداد الجيد؟

والمشكلة الأخرى، أن المادة العلمية التي بالمنهج أو اللغة المستخدمة فيه لم تتغير منذ سنوات، بل إن بعضها منذ أن تأسست وزارات التعليم في الوطن العربي!! في حين أنها ما عادت تصلح للغة العصر، وتواكب الطفرة التكنولوجية.

والمشكلة الثالثة، أن نظامنا التعليمي يقوم على المركزية الشديدة، والسياسة تقررها الوزارة، وهناك مجلس أعلى للتعليم، والامتحانات، وناظر أو مدير للمدرسة، ذلك النظام المركزي لا يتيح درجة من الحرية للمدرس أو الطالب، مما يساعد على الاعتماد على نفسه وقدرته على الاستقلال بفكره في التعامل مع الآخرين..

لذلك ينبغي مراعاة عدة أسس لاكتمال المنهج الصحيح الذي تبتنى عليه الشخصية الإسلامية الناجحة ألا وهي:

قيمة المادة من الوجهة الدينية:

فهل ينطبق عليه وظيفة العلوم الإلهية التي عليها المناهج الجامعية الحوزوية لأنها العلوم ذات الرتبة الأولى. ذهب ابن عبد البر في كتابه

(جامع بيان العلم) إلى أن العلوم عند أهل الديانات تنقسم إلى ثلاثة أقسام وهي:

- علم أعلى وهو: علم الدين.

- علم أوسط وهو: معرفة الدنيا، وينحصر في علم الطب، والهندسة، والميكانيكيات وغيرها.

- وعلم أدنى وهو: أحكام الصناعات وضروب الأعمال مثل السباحة والفروسية والخط، والقتال، وهي التي تحصل بتدريب الجوارح[١].

ويذهب الغزالي إلى أن العلوم تنقسم إلى ثلاثة أقسام وهي: قسم مذموم قليله وكثيره كالسحر، وقسم محمود قليله وكثيره، وقسم يحمد منه مقدار ويذم كثيره كالنجوم، أما القسم المحمود إلى أقصى غايات الاستقصاء فهو العلم بالله وسنته في خلقه.. فهذا علم مطلوب لذاته وللتوصل إلى سعادة الآخرة[٢].

قيمة المادة من حيث أثرها العملي:

كل عاقل يدرك أهمية المادة العلمية التي يحويها المنهج المقرر تدريسه، فبعض المناهج له قيمة تثقيفية تدريبية عالية، وتؤدي إلى اكتساب عادات عقلية تنتقل إلى ميادين أخرى ومواد أخرى. لذلك عرفه علماء المنطق: بأنه آلة قانونية تعصم مراعاتها الذهن عن الخطأ في الفكر، أو أنه أصل كل علم وتقويم كل ذهن[٣].

---

(١) جامع بيان العلم، ابن عبدالبر: ج١ ص٢٣.
(٢) موسوعة علماء الفكر التربوي، شمس الدين: ج ٤ ص ١٢٣.
(٣) مذكرة المنطق، د. الفضلي: ص ٢٣.

وإلى مثل هذا يذهب ابن خلدون بقوله: من أحسن تعاليم المنهج عند المسلمين الابتداء بها (أي بالعلوم العقلية)، لأنها معارف متضحة وبراهين منتظمة، فينشأ عنها في الغالب عقل مضيء درب على الصواب، وقد يقال من أخذ بتعلم الحساب أول أمره يغلب عليه الصدق ويلازمه مذهباً[(١)].

وما نلاحظه على مناهجنا المعاصرة أنها بعيدة عن هذه العلوم، مما يجعل الجيل المعاصر ضعيفاً في الأمور العقلية والاستقراءات المنطقية، والمثاقفات العلمية، لذلك لا ينبغي أن تكتفي المدرسة بتنمية الخبرات العلمية من الكتابة والإملاء والقراءة وأمور الدين فقط، بل عليها أن تعلم الطالب العلوم العقلية كالمنطق الذي يجعل الطالب قديراً على مسايرة الواقع الذي يفرض عليه مثاقفات ومجادلات وغيرهما.

أما عملية نقل التراث بدون بحث وتنقيب وإمعان عقل، فلا يمكن أن نطلق عليها عملية تربوية خالصة، تصنع طالباً قادراً على مسايرة الحضارة والعلم والتقدم.

المنهج والقيمة الثقافية:

الثقافة بمعناها العام هي: الفكرة التي تهدف إلى تغيير السلوك أو تؤثر تأثيراً مباشراً عليه، وتتضمن بين جنباتها الرؤية الدينية الشاملة لجميع أمور الحياة، وأحداثها وسننها، وتطوراتها، وبالتالي هي: الرؤية الفلسفية التحليلية للحياة الإنسانية، ويدخل ضمن نطاق هذه الرؤية الدينية الشاملة، رؤية الإسلام إلى الهدف الذي من أجله خُلق الإنسان في هذه الحياة، ورؤيته إلى مشكلات الحياة، وإلى علاقة الإنسان بأخيه الإنسان وإلى مصير الإنسان بعد هذا العالم، وإلى دراسة نفسية مستفيضة

---

(١) مقدمة ابن خلدون: ص ٤٨٣.

عن الدين، والأخلاق، والسلوكيات وممارستها على الصعيد الفردي، والأسري، والاجتماعي.

لذلك تمر العلوم الدينية والعقيدية والأخلاقية، والثقافية على عقول الأجيال المتتابعة من الناس والمجتمعات، فلا تبقى على حالها، بل تحمل كثيراً من الشوائب والعواطف الكاذبة والمبالغات الخاطئة، والاعتبارات الشخصية أو الاجتماعية في ظروف معينة، يكون الناس فيها أميل إلى الإشاعات وسرعة التصديق، وتنحرف العقيدة عند البعض، فيصبحون أقرب إلى الشرك أو الرياء، أو الكذب على تعاليم الدين الإسلامي

المنهج وعلوم التبسيط:

نحتاج في مناهجنا إلى علم التبسيط، وإلى المعلمين للغة التبسيط بالموعظة والكلمة الطيبة، والمثال الواضح والقصة والعبرة، والآية والحديث، والأسوة والقدوة، لأنها القنوات التي ترتكز عليها المناهج النبوية التي أُرسلت إلى الأرض، ومنهج الأنبياء والمرسلين عليهم السلام والعلماء الصالحين عليهم السلام.

ولغة التعقيد المعاصرة لغة منفرة للطبع ومجلبة للكسل والتسرب المدرسي.

لذلك جاء عنه صلى الله عليه وآله: نحن معاشر الأنبياء بعثنا نخاطب الناس على قدر عقولهم[1].

ويقول المفكر التربوي الغربي (فيليب) في كتابه فلسفة التربية: يعد المنهج المعقد مشكلة كبيرة يواجهها المعلمون والمتعلمون، بالخصوص في المجتمعات الحرة، حيث تتاح فرص كثيرة للتعليم، وهو مشكلة لأنه

---

(١) ميزان الحكمة: ج ٣ ص ١٢٣.

يعتمد على الاختيار من بين مجموعة كبيرة جداً من الإمكانات المختلفة، فالتراث الثقافي في الحضارة الحديثة لم يعد محتوى ثابتاً مستقراً لا يتغير، بل أصبح عظيماً في الحجم، ومعقداً كل التعقيد، ويخضع باستمرار للمراجعة، ويستقبل باستمرار زيادات بسرعة فائقة. . . والمنهج في أساسه هو مشكلة اقتصادية، إذ أن قدرة الإنسان على التعلم لسوء الحظ، قدرة محدودة، فلا يستطيع فرد واحد أن يتعلم كل شيء يمكن تعليمه ومعرفته، ولو أنه أمضى حياته كلها في الدراسة فلن تكون كافية للوصول إلى قدرة عامة.

لذلك علينا بقدر الإمكان تلخيصه وتبسيطه للمتعلمين[١].

القراءة خارج المنهج الدراسي:

نريد من المعلمين أولاً، ومن المتعلمين ثانياً، أن يهتموا بالقراءة خارج المنهج، بمعنى أن يقرأ المعلم كتباً ويطالع مصادر أخرى تعينه على فهم المنهج وتبسيطه للمتعلم، والمثالي في علمه متفانٍ في عمله، والذي لا رصيد ثقافي لديه فهذا طامة كبرى، فكيف بمن لا تكون لديه أدنى معرفة بالمنهج؟ فتلك من أكبر الطامات التعليمية، وللأسف الشديد، إن هناك شريحة من المعلمين حتى في تخصصهم لا يفهمون!

لذلك يحتاج المعلم أن تكون له ساعات مخصصة للقراءة الثقافية في مجال مهنته، حتى يتعرف عليها أكثر ويمسك زمامها أكثر، لأنه لا يمكن لأي أمة من الأمم أن تنهض إلا إذا وضعت التعليم على رأس اهتماماتها، والتركيز على المعلم تربوياً وعلمياً ومادياً، لذلك نجد في بلادنا الآن، أن كثيراً من المعلمين لجهلهم بمهنتهم تارة، ولعدم ثقافتهم

(١) فلسفة التربية: ص ١٠٤، د. فيليب.

تارة أخرى، قد تخلوا عن رسالتهم السامية، فلا يهتمون بالشرح في المدرسة؛ حتى يجعلوا التلاميذ يلجأون إلى الدروس الخصوصية التي ترهق أولياء الأمور، وترهق الآباء والأمهات، وتجبرهم أن يجلسوا ساعات طويلة معهم لتفهيمهم بطرق مختلفة موادهم العلمية والدراسية، هؤلاء المعلمون لا يدرون كم جنوا على المجتمع، وكم أساءوا إلى الحاضر والمستقبل، وهذه الإساءة البالغة ما كانت إلا بسبب نظرتهم المادية ومحاولتهم أن يجعلوا التعليم مشروعاً تجارياً، وليس رسالة إنسانية مقدسة وواجباً وطنياً، يجب أن يؤديه هؤلاء المعلمون نحو تلاميذهم، فهم غير مهتمين بإفهام تلاميذهم ما يجب أن يفهموه دون مشقة ودون نقص، ليجبروهم على أخذ الدروس الخصوصية بمبالغ مرهقة..

لقد كان التعليم في السابق بدون راتب، إنما كان التعليم لوجه الله، وكانت له ثمرات عجيبة، أما وبعد أن أصبح التعليم بالراتب فقد فقد الإخلاص في تأديته والتفاني في تعليمه. ومن الطريف أن علماء ما وراء النهرين عندما سمعوا عن هذه المدارس النظامية التي أنشأها الحاكم في سنة ٤٥٩هـ وإعطاء رواتب للمدرسين، أقاموا مأتماً وبكوا فيه وقالوا: كان العلم يدرس لوجه الله فلا يقبل عليه إلا الصلحاء من الناس، أما إذ أصبح التعليم عليه راتب فسوف يقبل عليه الصالحون والطالحون منهم.

ونحن نقارن ما كان بما هو كائن، فإذا كان كما علمنا والمعلمون لا يأخذون أجراً لأنه رسالة، فما بالنا والمعلمون الآن يأخذون أجراً من الدول، فكان عليهم أن يقوموا بتعليم التلاميذ أفضل قيام، وليس العكس من أجل الدروس الخصوصية[١].

---

(١) مفاهيم جديدة لتطوير التعليم: ص٧٤ ـ ٧٦، د. شحاتة.

الفصل الحادي عشر

العلاجات الوقائية من الانحرافات

العلاجات الوقائية من الانحرافات

يعيش المجتمع الإسلامي اليوم غريباً وفي حالة مزرية من الغربة التي عزلته عن العالم، بسبب بعد حملته وممارسي مبادئه؛ عن الواقع الذي خطّه الدين وتعاليم سيد المرسلين عن الحياة العملية والعلمية، وأخذ انحطاطه خطاً واضحاً في مسيرة الحضارات المعاصرة اليوم، مما أبرز على الساحة البشرية والعلمية والتكنولوجية والثقافية الواقع المرير الذي تعيشه الأوساط الإسلامية من تخلف، وانحطاط في السلوك. . والفكر. . والعلم. . والتكنولوجيا وغيرها.

وهذا الواقع الذي تعيشه الأمة الإسلامية في العصر الحاضر، ليس إلا بعد أن انسلخت الأمة عن معالم دينها، وأنظمته الواقعية، وراحت تبتلع الطبخات الأجنبية التي أعدها الاستعمار استغلالاً لحالة ابتعاد الأمة عن الدين، والقيم والأخلاق والحنكة السياسية في أيديولوجية الصراع القائم بين الحضارتين الغربية والإسلامية، حتى أُصيبت بألف مرض، ومرض خطير، واجتاحتها الأوبئة الاجتماعية الخلقية، والفكرية، وانحدرت إلى هاوية الفساد والانحلال والتفكك، وانتشرت فيها الجرائم المختلفة، وأصبحنا نبحث عن حلول لهذه المشكلات المتفاقمة في عالمنا الإسلامي. فنقول:

الحلول العملية السريعة:

١ ـ التربية النفسية والأسرية:

تعد التربية النفسية في الإسلام من المقومات التي ترتكز عليها موروثاتنا العلمية والتربوية والنفسية الأسرية.

جاء في المعاجم العربية: «الراء والباء والحرف المعتل وكذلك المهموز منه، يدل على أصل واحد وهو الزيادة والنماء والعلو. والربوة والرُبْوة: المكان المرتفع. ويقال رَبيته تربية، إذا غذَوتَه»(١).

وفي حديث الصداقة أنها «تَربو في كف الرحمن حتى تكون أعظم من الجبل» والربْو: النفس العالي. وقد ربوتُ في حجره رُبُواً ورَبْواً، ورَبيت رباءً: نشأت. قال السموأل بن عادياء:

نُطْفَةً ما خُلِقْتُ يوم بُرِيتُ ... أَمِرتُ أَمْرها وفيها ركت ربَيتُ
كَنَّها اللهُ تَحْتَ سِتْرٍ خَفيٍ ... فتجافيتُ تحتها فخفِيتُ(٢)

وجاء في المهموز، قولهم، (ربأتِ الأرضُ): رَبَتْ وارتفعت. وفي محكم التنزيل: ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾(٣).

وربأَ المالَ: حفظَه وأصلحَهُ. قال الشاعر:

ولا وربأ المالَ من حُبِّهِ ... ولا للفخارِ ولا للبخلْ
ولكنْ لِحَقٍّ إذا نابني ... وإكرام ضَيْفٍ إذا ما نَزَلْ(٤)

نخلص من ذلك إلى جملة معانٍ تضمنتها (التربية)ولا زالت،

(١) مقاييس اللغة. دار الكتب العلمية. إسماعيليان نجفي. إيران. قم: ج٢/ ٤٨٣.
(٢) لسان العرب. مجلد١٤/ ٣٠٥ ـ ٣٠٦. دار صادر بيروت. لات. مادة (ربا).
(٣) سورة الحج، الآية: ٥.
(٤) تاج العروس. الكويت. تحقيق عبد الستار أحمد فراج ١٩٦٥. ج١/ ٢٣٧. مادة (ربا).

وهي: النمو المطَّرد، والسمو المكاني أو النفسي، والغذاء في مختلف وجوهه، وكذلك النشأة. وهي كلها جوانب أساسية قامت عليها التربية منذ القدم حتى اليوم، متخذة من التقاليد والعادات والأخلاق مسرحاً تطبيقياً وسلوكاً إنسانياً على صعيدي الفرد والمجتمع، على شيء غير يسير من الاختلاف والتطور، أو ما عرف بالنشوء والارتقاء. وتلك هي سنة الحياة لا تأخذ شكلاً واحداً بل تتكيف مع البيئة والزمان والأحداث وسائر الصروف والأهواء.. وهذا ما سنتبينه في محطات البحث الذي قام به أحد الباحثين النشطين في ميادين علم النفس وهو: ياسين الأيوبي، وهذا البحث عبارة عن محاضرة ألقاها في مؤتمر علم النفس الذي أقيم في بيروت عام ١٩٩٢م، بحيث تمكن أن يلقي الضوء على أهم ما تميز به الفكر الإسلامي، وهو يعرض العلاجات الشافية من أمراض الآلام والتأزمات النفسية التي تعصف بالإنسانية في هذا القرن، ونحن هنا نلخصها في نقاط أهمها ما يلي:

التربية النفسية منذ العصر الجاهلي ومروراً بالإسلام:

تلخصت نظريات الفكر الإسلامي في التربية النفسية لرفع الآلام عن المصابين بعقد نفسية أو مشكلات عاطفية أو أزمات نفسية أو اجتماعية أو اقتصادية أو سياسية في العصر الجاهلي (تحديداً الشعْر) والتربية الإسلامية في مصادر مهمة كبرى أهمها: القرآن والسنة والفلاسفة والفقهاء.

التربية النفسية في العصر الجاهلي:

لا جرم أن ما شهده العصر الجاهلي في تاريخ أمتنا، يرجع بمعظمه، إلى النشأة العامة التي درج عليها الإنسان الجاهلي، والمبادئ الخلقية والاجتماعية التي اعتنقها، وإلى مسار الأحداث التي رافقت حله وترحاله، سلمه وحربه، سكينته واضطرابه، حياته أو موته. . . .

وكان الشعر الجاهلي إحدى المرايا الكبرى التي ارتسمت فيها معالم هذه الحياة ومقومات نشأته وتربيته.. وسنكتفي بالوقوف عند منبرين من منابر هذا الشعر، أو قل: مجريين: شعر الصعاليك، وشعر المعلقات، وهما خلاصة ما تركه الأوائل من ثمرات اللسان والوجدان.

شعراء الصعاليك:

الصعاليك جماعة من البدو الفقراء الذين حرموا المال والجاه وربما الحسب، فعمدوا إلى انتزاع ما يحتاجون إليه بالسلب والنهب عبر غزوات كانوا يقومون بها على قرى الأغنياء ومواشيهم وحقولهم. ولم يكن ذلك عن فاحشة أو هوى تخريبي، بل عن فلسفة للعيش ترفض أن ينعم بعضهم بالغنى والرفاهية ويحرم بعضهم الآخر، مهما كانت الحجج والمسوغات التي ترى التمايز الطبقي والاجتماعي واقعاً لا يمكن الحؤول دون حدوثه.. ولئن توافق الدارسون ـ ولا أقول: اتفقوا على أن الصعاليك فئة من شذاذ المجتمع الخارجين على التقاليد القبلية وقيمها وشعاراتها الخلقية المعروفة، فإنهم قد ارتضوا لأنفسهم نمطاً تربوياً صارماً لا يقل عن النمط القبلي العام نظاماً والتزاماً. ولنر مع كبيرهم (تأبط شراً) أهم المعاني التربوية التي درج عليها الصعاليك ومارسوها في أقوالهم وأفعالهم، مستهلين بمقولة واحد من كبار شعراء الجاهلية، الذي اتخذ من الصعلكة حرفةً لبعض الوقت وهو (حاتم الطائي).

غَنينا زماناً بالتصعلك والغنى ... فكُلاً سقاناه بكأسيهما، الدهرُ
فما زادنا بغياً على ذي قرابةٍ ... غنانا، ولا أزرى بأحسابنا الفقرُ[1]

فهذا دليل على الروح الملتزمة التي نشأ عليها الصعلوك، وجعلها

---

(١) لسان العرب. (صعلك).

سبيلاً لتحقيق مستوى اجتماعي يقي أصحابه غصة الموت الجائع وذلة العيش الرخيص.

من جميل خصال الصعاليك التي نشأت عن روح الالتزام، تجنبهم للفقراء وعدم التعرض لهم بسوء، لأن غايتهم سد الرمق وإرواء الظمأ وتأمين القوت، ولا يكون ذلك إلا من الأغنياء، إذ لا يصح التعرض للفقراء وهم الإطار الاجتماعي للصعاليك، وهم الأساس الذي قامت عليه ثورتهم في الغزو والتمرد والتحلل من قيم المجتمع[١].

فما كان عدلاً أن يكون لبعض الناس العدد الضخم من الإبل، في حين لا يملك بعضهم الآخر إلا حبلاً يجره ولا بعير فيه، على حد قول أحد الصعاليك:

وإني لأستحيي من الله أن أرى ... أطوف بحبل ليس فيه بعيرُ
وأن أسأل المرء اللئيم بعيرهُ ... وبُعرانُ ربي في البلاد كثيرُ[٢]

ولو أردنا حصر السلوك التربوي لدى هؤلاء الصعاليك لرأيناه يتمحور في نقطتين رئيسيتين، هما: القوة والحيلة وقد لخصهما (تأبط شراً) في بيتيه التاليين:

إذا المرء لم يحتل وقد جد جده ... أضاع وقاسى أمره وهو مدبر
ولكن أخو الحزم الذي ليس نازلاً ... به الأمر، إلا وهو للحزم مبصر[٣]

فإما الحيلة والتدبير في الظروف المتشابكة، وإما الحزم البصير الذي لا يخلو من المرونة إذا ما سدت منافذ الأمر وانعدمت وسائل الحيلة والتدبير.

---

(١) مقدمة ديوان تأبط شراً. دراسة وتحقيق سلمان القرغولي وجبار جاسم. بغداد ١٩٧٣ . ص٦٢ .
(٢) نفس المصدر: ص٦١.
(٣) نفسه: ٨٩ ـ ٩٠.

وإذا أعيت المرء حيلُهُ وعزائمه، فلا بد من الصبر، وبخاصة إذا نزلت بالإنسان مصيبة قدرية كالموت أو ما هو في فلكه وحظيرته:

وأجمل موتِ المرءِ ـ إن كان ميتاً   ولابد يوماً ـ موتهُ وهو صابرُ[١]

ومن جميل خصال الشاعر الصعلوك، امتناعه عن الوقوف في باب الحكام والأعيان، فلا مديح ولا توسل ولا تكسب ولا ارتزاق بالشعر..

وإذا كان مدح فلأبناء جبلته، حرفته ومصيره المحفوف بالمخاطر والموت المحتوم. لذلك لا غرابة إذا رافق المدح الصعلوكي فخر بالخصال المأثورة، كعفة النفس وسلامة العرض وإباء الخلق، كما نرى في قصيدة (تأبط شراً) في رثاء (الشنفرى):

قضى نحبه مستكثراً من جميله   مُقلاً من الفحشاء، والعرض وافرُ

وإنك لو لاقيتني بعدما تُرى   وهل يلقين من غيّبته المقابرُ؟

لألفيتني في غارةٍ أدعى لها   إليك، وإما راجعاً أنا ثائرُ[٢]

ولا ينسى أن يعلن له عن عمق أخوته في السلاح والمعاناة، واستعداده لنصرته في حومة الوغى قائلاً، والقول شعار الصعاليك وسلاحهم النضالي النقابي:

لو نبأتني الطير أو كنت شاهداً   مساءك في البلوى أخ لك ناصرُ[٣]

هذا هو سلوك الشاعر، وتلك هي حال من وجدوا في بيئة اختل فيها التوازن الاجتماعي والاقتصادي. فمن البديهي التمسك ببعض أساليب العيش والتفكير، والتخلق بما يؤدي إلى ديمومة العيش والسؤدد النفسي، ولو في أدنى مراتبه من إباء وتعفف وصبر على المكاره ونشدان

---

(١) مقدمة ديوان تأبط شراً: ٨٦.

(٢) الديوان: ص٨٣.

(٣) الديوان: ص٨٥.

الحرية وما شابه. وما ذلك إلا لإحداث توازن آخر وإقامة البديل، في مجتمع طغت عليه مكاسب التمايز الطبقي والاستئثار بالمال والسلطة إما بالوراثة أو بالإنفاق الكبير. ولكن هل كان الأمر كذلك مع شعراء الجاهلية الآخرين. ولاسيما شعراء المعلقات؟

شعراء المعلقات:

المتأمل لشعرالمعلقات، يرى الخطوط الكبرى لمعالم الحياة العربية القديمة، بدوها وحضرها، صورها أصحابها بصدق وواقعية، لا أثر فيها للتكلف أو الادعاء، على العكس من كثير مما قاله شعراء متأخرون في العصور اللاحقة، ولا سيما شعراء المدح السلطاني والتفاخر والتحدي بين هذا الشاعر وذاك.

هذا (طرفة بن العبد) الذي وصل عنده التعبير الشعري حداً بعيداً من دقة التصوير وصدق المشاعر والصراحة المتناهية في وصف الحال والواقع، لا يتوانى، ولكنه في الوقت نفسه، يقف شامخاً وهو يجد نفسه الرجل الوحيد الذي انتدب للملمات وجليل الأعمال:

إذا القوم قالوا من فتى خلت أنني عُنيت فلم أكسل ولم أتبلدِ
وإن يلتق الحيان يوماً تلاقني إلى ذروة البيت الشريف المصمَّدِ
وإن أُدعَ للجُلّى أكن من حماتها وإن يأتك الأعداء بالجهد أجهدِ
وإن يقذفوا بالقذع عرضك أسقهم بكأس حياض الموت قبل التهدُّدِ[١]

يريد ـ في البيت الأخير ـ أنه يبيدهم قبل أن يهددهم، أي هو صاحب فعل وتفنيد لا قولٍ وادعاء، وأراد بالعرض: النفس، كما هو موضع المدح والذم من الرجل، والقذع: الشتم.

---

(١) انظر شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات (لابن الأنباري. تحقيق عبد السلام محمد هارون) دار المعارف بمصر ١٩٨. ص: ١٨٧ و٢٠٥ ـ ٢٠٦.

وهذا (زهير بن أبي سلمى) الحكيم المجرب دقائق الأمور وعواقبها، لا يعنيه من أمر الدنيا ـ في معلقته ـ سوى حسن التدبير وجمال الخلق وأمانة النفس واليد:

فلا تكتمنَّ الله ما في صدوركم ليخفى، ومهما يكتم، الله يعلم

أي (لا تظهروا الصلح، وفي أنفسكم أن تغدروا)[1] فتلك نقيصة سرعان ما تنقلب عليكم وينقلب عليكم الأمر. بل صححوا الصلح وسيروا في ركابه.

وإذا ادلهم الأمر ووقعت الحرب، انبرى لها (زهير) يصف مخاطرها وأهوالها وما تؤول إليه من خراب ودمار حيث لا ينفع الندم ولا التذكار. وهل ينسى قوله المأثور؟

وما الحربُ إلا ما علمتم وذقتم وما هو عنها بالحديث المرجم

أما الخصال الحميدة فقد حث عليها (زهير) وشرع لها نظاماً حكيماً سارت الركبان به، وتغنت الألسن، حتى لقب الشاعرُ بصاحب (من . . ومن).

كقوله في من لا يقدم شيئاً من ماله إلى المحتاجين من بني قومه، فيُذم ويحتقر:

ومَنْ يَكُ ذا فضلٍ فيبخلْ بفضلِهِ على قومه، يُستغن عنه ويذممِ

أو قوله في الرجل خرج من أرضه واغترب، ضاعت عنده المقاييس، فظن العدو صديقاً لأنه لم يجربه. وهذا هو الانخراط بالهم الاجتماعي:

ومن يغترب يحسب عدواً صديقهُ ومن لا يُكرم نفسه لا يكرمِ

---

(١) شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات، ابن الأنباري.

ومثله:

ومن لا يذد عن حوضه بسلاحه　　　يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم[١]

يتبين لنا أن الشاعر ينطلق من مبدأ تربوي شبه مكرس في الحياة العربية، هو تفعيل الإنسان في بيئته ومحيطه والقيام بالدور المناط به، وعدم جواز الاعتزال في هذا الشأن، لأنه بذلك يحرم جماعته من طاقاته وخدماته، فلا بد له من الوقوع بحرمان أشد وأقصى. فالقوم مدار التربية النفسية، والخلالُ الحميدة لا تكون خارجها..

وهذا قريب من قول (لبيد بن ربيعة العامري) الذي أحسن في شعره فوصف مآثر قومه وذكر أيامهم، وصنع في ذلك ما لم يصنع أحد غيره من الشعراء[٢].

وإذا الأمانة قسمت في معشر　　　أوفى بأعظم حقنا قسامها

أي فازوا بالمرتبة الأولى في الحفاظ على الأمانات. ويمدح قومه في التعاضد ودفع المخاطر العظيمة:

وهم السعاة إذا العشيرة أفظعت　　　وهم فوارسها وهم حكامها

ويُشيد بمآثرهم في الذود عن جيرانهم، ولا سيما الأرامل اللواتي يطول بهن الفقر والحرمان.

وهُمُ ربيعٌ للمجاور فيهُم　　　والمُرملاتِ إذا تطاوَلَ عامُها
وهمُ العشيرةُ أن يُبطئ حاسدٌ　　　و أن يلُوم مع العدو ليامُها[٣]

ومعنى البيت الأخير: هم العشيرة التي لا يقدرُ حاسدٌ أن يبطئ الناس عنهم بسوء قول فيهم.

---

(١) شرح ابن الأنباري: ٢ ـ ٢٨٥.
(٢) نفسه: ٥١٦.
(٣) السابق: ٥٩٥ ـ ٥٩٦.

وهذا تقريباً عين ما قاله شاعر الفخر الأكبر في الشعر العربي القديم (عمرو بن كلثوم) التغلبي وهو يرى مآثر قومه وعشيرته إزاء المحن التي تقع لهم لمن معهم ولجيرانهم:

ونحن إذا عمادُ الحي خرت[١] على الأحفاضِ نمنع مَن يلينا[٢]

نَعُمُّ أناسَنا ونَعِفُّ عنهم ونحمل عنهمُ ما حمّلونا

أي نعمهم بالخير ونعف لا نسألهم شيئاً، ونحمل عنهم ما حملونا من أثقال حقوقهم ومؤونتهم.

ويمضي التغلبي في المباهاة القومية العالية. ولاسيما في سدة الحسب والنسب:

إذا ما عيَّ بالأصناف حِسٌّ من الهول المشبه أن يكونا

نصبنا مثل رهوة ذات حَدٍّ محافظةً وكنا السابقينا

معناه: إذا عي (أنهكوا من الإعياء) أهل الحرب بالحرب واشتبهت عليهم أمورهم فلم يتوجهوا لها، نصبنا مثل رهوة. أي جبلاً (ذات حد) وقصد بذلك: كتيبه ذات شوكة محتفظة لأحسابنا.. أي: إذا فزع غيرنا من التقدم، أقدمنا مع كتيبه ذات شوكة وغلبنا، وإنما نفعل ذلك محافظة على أحسابنا[٣].

حتى يصل إلى أبعد ما يصل إليه الفخر المغالي والادعاء شبه المريض، فيقول:

---

(١) عماد الحي: الخشب التي تقوم عليها الأخبية. انظر شرح ابن الأنباري ص: ٣٩٤ وشرح الزوزني (صادر، بيروت) ص: ١٢٤ ـ ١٢٥.

(٢) الأحفاض: الإبل التي تحمل المتاع. واحدها حفض. انظر شرح ابن الأنباري ص: ٣٩٤ وشرح الزوزني (صادر، بيروت) ص: ١٢٤ ـ ١٢٥.

(٣) شرح ابن الأنباري: ٣٩٨. وشرح الزوزني: ١٢٦.

ألا لا يـجـهـلـن أحـد عـلـيـنـا فـنـجـهـل فوق جـهـل الـجـاهـلـيـنـا

أي لا يتسابقن أحد علينا ويعتدي هوى وطيشاً فنجهل فوق جهله، أي نهلكه ونعاقبه بما هو أعظم من ذلك. ولا يعقل أن يكون قصد بالجهل العماية والسفه الخلقي. وهذا كقول القرآن الكريم: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾[1].

فالجهل هاهنا، التجاهل والتعالي والتعسف. وكل ذلك من باب الظلم، ولا بد من مواجهته بما هو أقسى وأردع.

وخلاصة القول في المحصلة التربوية لشعراء المعلقات، أنهم فطروا على الأنفة وحماية الجار والمظلوم والمحروم، وهم في ذلك يلتقون مع شعراء الصعاليك، لكنهم يختلفون عنهم بفخار النسب والحسب والشعور القومي، الذي جعل الإسلام يتبنى أحد قواعد السلوك الجاهلي مع تصحيح مساره ألا وهو: «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً» ولكننا مع ذلك لا نزعم أن هذا كل ما عرفه عرب الجاهلية من ثروة تربوية ونفسية.. وقد لا نوفي الموضوع حقه إن تبسطنا وتوسعنا، فاكتفينا بالانتقاء والإشارات الكبرى.

التربية الإسلامية القرآنية:

شهد العصر الإسلامي ثورة فكرية لا مثيل لها في حياة العرب وتاريخهم الحافل بالمتغيرات والثورات والفتوحات؛ ولُب هذه الثورة وركيزتها: الإيمان بإله واحد؛ وبمحمد عبداً لله ونبياً مرسلاً، وبدستور جامع شامل للقيم والنظم والشرائع وسير الأولين.. ألا وهو القرآن الكريم، الذي مثّل فتحاً مبيناً في مآثر العرب من نثرهم وشعرهم، وآية

(١) سورة البقرة، الآية: ١٩٤.

معجزة أذهلت الأعراب وقلبت مفاهيمهم ومبادئهم ومسيرتهم الاجتماعية رأساً على عقب، لما تضمنته من معان وبيناتٍ وإعجاز توقفت عنده الأقلام، وزاغ البصر من التأمل والتفكير، فأصبح شغل الكل، وتأسست عليه معظم العلوم فيما بعد.

فما هي معالم هذه التربية والمحطات الرئيسية التي مرت بها؟

تقوم التربية النفسية في القرآن الكريم على ثنائية لا تكاد تنفصل عراها ألا وهي الثواب والعقاب، والأمل والخوف، والرغبة، والرهبة.. وفي مزيج من الأخبار والوعظ والتشريع وإثارة النظر والعمل في كل آية من آياته القدسية أو كل كلمة من كلماته.. ولقد وازنت الآيات القرآنية بين قانون الثواب (الرجاء ـ الأمل ـ السكينة) والعقاب (الخوف ـ اليأس ـ القلق) في نسق تربوي توجيهي لا إكراه فيه ولا تحكُّم، بل جعل كل شيء قائماً على عنصر الحرية والاختيار يقوم به الإنسان ليكون أهلاً للحساب والمسؤولية.

وسبيل ذلك كله هو العمل، وفقاً لإيمان راسخ مبني على قواعد صلبة من الوعي والقناعة والتبصر.

ولا نعتقد أن الغاية التي تسعى التربية لبلوغها تخرج عن واحد من اثنين.. الثواب والعقاب؛ والغرض الرئيس في النهاية هو الحصول على المزيد من المكاسب، وتعاملها مع عناصر الوجود والحياة؛ وهذا ما حرص عليه القرآن الكريم؛ تأكيد المكاسب المادية والمعنوية والروحية لكل من يحسن أداءه وسلوكه في إيمانه وممارساته الدينية والدنيوية.

ولعل سورة (الليل) ذات الإحدى والعشرين آية أكثر السور تبياناً لذلك، بحيث نجد أن الآيات السبع (من ٤ إلى ١٠) حددت طبيعة

المسيرة التربوية لدى الإنسان المكلف، فحضت على العمل: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ ثم انبرت إلى ربط كل سعي أو سلوك بمحصلاته اللازمة، فقالت: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ﴾ ﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ﴾ ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ﴾.

جاء في تفسير الآية الرابعة ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ السعي: العمل، يدل عليه قول الرسول ﷺ: «الناس غاديان فمبتاعٌ نفسه فمُعتقها، وبائعٌ نفسه فمُوبقُها» و(شتى) معناها مختلف، بعضه ضلالةٌ وبعضه هدى، ومنكم مُثاب بالجنة ومنكم معاقب بالنار[١].

﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ﴾، أي بذل وجاد في موضع البذل والعطاء ﴿وَاتَّقَىٰ﴾ أي محارم الله التي نهى عنها ﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ﴾ أي بالخلف من الله تعالى على عطائه.. وقيل (بالجنة)، ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ﴾ أي نرشده لأسباب الخير والصلاح حتى يسهل عليه فعلها.. وقيل: للجنة. ﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ﴾ أي ضن بما عنده فلم يبذل خيراً، وبخل بماله واستغنى عن ربه ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾ أي نسهل طريقه للشر، وقيل (للنار)[٢].

وشرح الزمخشري ذلك فقال: (الحسنى) هي المثوبة الحسنى أي الجنة و(التيسير لليسرى) اللطف والتوفيق حتى تكون الطاعة أيسر الأمور عليه، تحقيقاً لقوله عليه السلام: كل ميسر لما خلق له. (أما التيسير للعسرى) فهو الخذلان والحرمان من الألطاف حتى تكون أعسر شيء عليه وأشده[٣].

---

(١) تفسير القرطبي: دار الكتاب العربي ـ بيروت. لا ت. ج ٢٠/ ٨٢.

(٢) نفسه.

(٣) تفسير الكشاف. طهران. لات. مج ٤/ ٢٦١.

على هذا النهج التربوي القويم شرع القرآن الكريم للناس طرقهم ومذاهبهم وعالج النفس الإنسانية بأسلوب يجمع بين (الرهبة والتخويف تأديباً، وفقاً لما جبلت عليه الفطرة الإنسانية نفسها من الرجاء المشوب بالخشية، ليحفظ عليها معدنها الأصيل، ويدرأ عنها غوائل التدمير العارضة، ويعدها لمواجهة الصعاب ومقارعة الأهوال، وتحمل مشاق التكاليف، وخوض غمار الحروب دفاعاً عن الأوطان والأعراض، في كافة المواقف الحيوية إيجاباً وسلباً[١].

وإذا انتقلنا إلى سير المسلمين الأوائل لتبين مدى تطبيق المنهج التربوي القرآني ذهلنا من أخبار البطولات وحسن السيرة وجمال السلوك، سواء أكان مع الصحابة وبخاصة الخلفاء الراشدين، أم التابعين أم القادة والرجالات البررة الذين ملأت أخبارهم الحميدة بطون الكتب، وحدث بها الرواة في أقاصي الأرض وأدانيها.

نقف هنيهة مع امرأة مسلمة مجاهدة، صحابية، وأم قدوة، ومثال حي وهي: (أسماء بنت أبي بكر الصديق وأم عبد الله ومصعب ابني الزبير)... وقد لقبت.. (ذات النطاقين)، لأنها كانت تشق نطاقها نصفين، تضع في الأول طعاماً وفي الثاني قربة ماء لتقدمهما إلى رسول الله ﷺ في الغار.

ومن المعالم في هذه السيرة العطرة حسن تربيتها لأولادها الذين جاهدوا وقاتلوا في سبيل الله وتعاليمه السماوية.

كانت أسماء ذات جُودٍ وكرم لا تدخر شيئاً لغد، على قلة ذات يدها وانعدام ما تتصرف به، لعل عظمتها تكمن في حضها ابنها عبد الله

---

(١) د. محمد فتحي الدريني. مقالة (أسلوب القرآن) ع٢١. ت ١٩٨٥. ص٣٣.

على مواصلة القتال ضد جند الحجاج رغم خذلان الناس له وتركهم إياه، فكان يحارب وحده مع نفر يسير، فقالت: يا بني، مت كريماً ولا ترض الدنية فإن الموت لا بد منه. . والله إني لأرجو أن يكون عزائي فيك حسناً.

ولما قتل عبد الله وعلقت جثته على خشبة، جاءت أمه إليه وقالت قولتها المأثورة: «أما آن لهذا الفارس أن يترجل»؟[١]

٢ ـ الوازع الإيماني:

هذا الضمير والوجدان متى ما خبا نوره، وعلته الستور والحجب المظلمة التي تكدسها المعاصي، والذنوب والآثام الكثيرة التي يرتكبها الإنسان، هان عليه أن يقع في الحرام ويتهود بالجرائم والمنكرات، ويتساهل في ارتكابها غاية التساهل، وأن يتجرأ على الله، وأن يعبئ نفسه طاقات وشحنات غرائزية محرمة. .

وإذا ضعف الدافع الديني، قوي في الطرف الآخر جانب الشهوة، لأن الإيمان وحلاوته لا تجتمع مع الشهوات ومرارتها، كما لا يجتمع السكر والملح في شراب واحد، ومذاق واحد، أو ليسا ضدين لا يجتمعان؟!.

يقول الرسول ﷺ: من كان همه نيل الشهوات، نزع من قلبه حلاوة الإيمان[٢].

ويخبو وهج الإيمان النوراني، ويخبو ويخبو، حتى يزول ويتلاشى ويعربد في النفس الهوى المجنون، ويضحي الحاكم المستأسد يصول ويجول ولا منازع، من ثم تكون الجرائم طريقه والذنوب ديدنه.

---

(١) عمر رضا كحالة. أعلام النساء. مؤسسة الرسالة. ج٥: / ٤٧ ـ ٥٢.
(٢) ميزان الحكمة، مصدر سابق: ج١ ص٣٢٣.

إن الرقابة النفسية الداخلية التي يصدر عنها الإنسان في أعماله ومعاملته للناس، قد تكون وليدة التربية السليمة والتوجيه الحسن، كما قد تكون ثمرة الخشية من الله سبحانه وتعالى، لكنها إذا كانت ثمرة الخشية من الله تعالى ونتيجة لتقوى الله فإنها تكون أفعل في النفس وأبقى على الأحوال كلها، لأن صاحب التربية السليمة والتوجه الحسن قد تتغلب على عاداته طبيعته الإنسانية الأولى، أو يسيطر على هذه العادات في بعض أحواله شعوره القوى، بتحقيق مصالحه ومنافعه الخاصة على حساب ما اعتاد من عمل متقن أو أمانة في أداء وظيفته أو إخلاص في النصح في تجارته أو نحو الخير في رسالته بين أهله ومواطنيه، فلا يؤدي عمله حينئذ كما كان يؤديه.

أما ذلك الذي يراقب الله ويخشاه سراً وعلانية فمن العسير أن يتخلف عما درج عليه في معاملته لنفسه وغيره..

والضمير الديني والوازع الإيماني والخشية من الله سبحانه، لا تؤثر في تكوين الإنسان من خلال المواعظ والإرشادات فقط، ولا ما يلقى من المعارف الأخلاقية ويشرح من القصص لتهذيب الناشئة في مراحل الدراسة المختلفة، وإنما المنزل، والأسرة وسلوك أفرادها هو صاحب التأثير الأول في ذلك، والوالدة قبل الوالد هي إما صاحبة الفضل على ولدها وعلى وطنها بالتالي، أو مصدر الجناية عليهما معاً[١].

والقرآن الكريم يزخر بنماذج عديدة تعرض صوراً لالتزام الفرد بالدين، وكيف يؤدي ذلك إلى تغيّر سلوكه وتعامله مع من حوله بإيمان وثبات وصبر على ما يلقاه في سبيل دينه وكبح جماح شهواته وغرائزه وانتقاماته للآنا؟

---

(١) الإسلام في حياة المسلم: ج١ ص٢٠٤، د. البهي.

إن المتصفح في تاريخنا الإسلامي تبرز له صورة واضحة عن كيفية تأثير عامل الوازع الإيماني في سلوك المسلمين حتى أن أحدهم ليقدم نفسه للقتل جزاء ذنب ارتكبه ولم يعلم به أحد، وهذا على غير عادة الناس، الذين يرتكبون مختلف الذنوب والخطايا ثم يهربون من العدالة بشتى الحيل والأساليب، وإن وقعوا في يد السلطات لجأوا للإنكار عما قاموا به.

فهذا رجل قام بارتكاب جريمة الزنى دون علم أحد ومع ذلك يدفعه تدينه إلى الذهاب إلى رسول الله ﷺ ليعترف أمامه بالزنى، فيردد النبي ﷺ الأمر عليه مراراً، ويعرض عليه الأفعال السابقة للمباشرة لعله فعلها فلا يقع عليه حد الزنى، ولكن الرجل يكرر الاعتراف المباشر أربع مرات، فيقام عليه الحد.

وهذه امرأة زنت، ثم جاءت تعترف لرسول الله ﷺ بما قامت به فيردها رسول الله ﷺ مرات متعددة، ولولادة الطفل، ثم لإرضاعه حتى يفطم، لعلها لا تعدو، ولكن تدينها ورغبتها الصادقة في التخلص من هذا الذنب في الدنيا يدفعها إلى العودة إلى رسول الله ﷺ ومعها الطفل بعد الفطام وبيده كسرة خبز، فأقام رسول الله ﷺعليها الحد.

وهذه امرأة أخرى منعها تدينها وخشيتها من الله من أن تغش الناس في البضاعة التي تبيعها، مع أن أمها تؤكد لها أن الخليفة لا يراها، ولكن إسلام البنت يثبتها على سلوكها[١].

كل ما سبق نماذج مضيئة تبين بجلاء كيف يؤثر تدين الإنسان المسلم وتحكيمه الوازع الديني في سلوكياته وحياته اليومية فيدفعه نحو التأثير بالإيجاب في كل شيء، لا التأثر بكل شيء.

---

(١) ذكرنا تلك الشواهد بصورة مسهبة في كتابنا فقدان الإيمان طريق الدمار ص: ٢٦ فراجع.

وركيزة هذا العامل، ذكر الله حتى يصبح ملكةً راسخة فينا جميعاً، تصدر من دون تكلف، لذلك ذكر الآيات القرآنية وتعود اللسان على تكرارها، وتكرار الأحاديث والأدعية المأثورة عن رسول الله ﷺ وأهل بيته عليهم السلام هؤلاء الناس سيجدون أن هالة إيمانية تحصنهم من ضربات الشيطان والهوى، ويكفي شرفاً وكرامة لأهل الإسلام أن ذاكر الله تعالى منهم يذكره عز وجل أيضاً. قال تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ (١).

وفي النص الشريف: إن موسى عليه السلام لما ناجى ربه عز وجل قال: يا رب، أبعيد أنت مني فأناديك، أم قريبٌ فأناجيك؟

فأوحى الله له: أنا جليس من ذكرني.

٣ ـ استغلال أوقات الفراغ:

لعلي لا أكون مبالغاً إذا أرجعت أغلب الانحرافات الاجتماعية المعاصرة إلى وجود ساعات طويلة من الفراغ لدى الناس، لأن كل إنسان في الحياة له نوعان من العمل: نوع يؤديه كواجب تفرضه عليه الحياة العامة، أو تحتمه عليه ضرورة السعي لحفظ بقائه ورعاية أسرته الخاصة.

ونوع آخر يملأ به الوقت الباقي، بعد إنجاز النوع الأول من العمل، ويشغل به ما يسمى بـ(الفراغ)، هو الوقت الزائد إذن عن العمل اليومي لضرورة العيش أو حاجة التعليم في سن التنشئة.

والعاقل من الناس هو الذي يملأ الفراغ من وقته بما يعود عليه بالنفع، أو يبعد عنه الضرر على الأقل، ويتخذ من الأنبياء

(١) سورة البقرة، الآية: ١٥٢.

والمرسلين عليهم السلام والأئمة الصالحين عليهم السلام والعلماء العاملين عليهم السلام أسوة حسنة في ذلك، فإن الذي يشغل فراغه على وجه يحقق مصلحة خاصة به، هو ذلك الإنسان الذي يتحكم في هوى نفسه، ويدرك أن الحياة كفاح من أجل الخير لنفسه ولغيره، هو ذلك الإنسان صاحب الشخصية أو صاحب الإرادة، وصاحب الإيمان بنفسه ومجتمعه وبخالق الكل، يتمكن من خلاله أن يحطم الأرقام القياسية في إزاحة كابوس الفساد والانحراف عن نفسه وأسرته ومجتمعه.

جاء عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قوله: إن الله يبغض كثرة النوم، وكثرة الفراغ[١].

وجاء عن علي عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إن الله أوحى إلى موسى عليه السلام: يا رب أي عبادك أبغض إليك؟

قال: جيفة بالليل، وبطال بالنهار[٢].

فليس من استغلال الفراغ أن يقضي الإنسان الوقت في الجلوس على المقاهي، والتدخل في الحديث عن أعراض الناس.

وليس من استغلال الوقت التسكع في الطرقات ومتابعة أعراض الناس.

وليس من استغلال الوقت الجلوس في الديوانيات والتلذذ بالحديث عن الناس بالغيبة والنميمة والبهتان وإشاعة الفحشاء.

مثل هذه الأعمال في أوقات الفراغ تدل على عدم جدية صاحبها في الحياة، وانه على استعدد تام لتقبل الفساد والانحراف بكافة أشكاله المختلفة، لأن تلك الأمور أرض خصبة لتنمية النوازع نحو الانحراف.

---

(١) البحار، مصدر سابق: ج ٧٣ ص١٨٠
(٢) المصدر السابق: ج ٧٣ ص١٨٠

طرق استغلال الوقت:

هناك طرق كثيرة يمكن من خلالها القضاء على أوقات الفراغ من هذه الأمور ما يلي:

- الاهتمام بالقراءة، وممارسة الهوايات الكتابية.
- الذهاب إلى النوادي الرياضية المفيدة.
- المشاركة في الأعمال الخيرية والاجتماعية كالمؤسسات الخيرية، والمساجد، والتجمعات الدينية المثمرة.
- الالتحاق بالدورات التعليمية، الثقافية، التربوية، المهنية، الدينية.
- الزيارات للأماكن الدينية، والمعالم الحضارية، ومجالس العلماء

إلى غيرها من الطرق الكثيرة التي يمكننا من خلالها القضاء على عامل الفراغ.

٤ ـ التعاون على البر والتقوى:

فما دام العمل الصالح هو القيمة الاجتماعية الوحيدة، وهو المحور الذي يجمع الناس، فلا يمكن أن يتحقق العمل الصالح في المجتمع كله، إلا بالتعاون عليه، وصب الجهود البناءة في بوتقته، والأمة الإسلامية بمشكلاتها المختلفة مارست التعاون على الخير بشكل جيد يثير الدهشة، إذ لم يكن يفصل بين المؤمن وأخيه أي حاجز من حقد أو مصلحة أو عصبية، وقد بلغ بهم التعاون على البر والتقوى حد الإيثار الذي أشاد به القرآن الكريم حيث قال عنهم: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا

وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[١].

ومما لا شك فيه أن ظواهر الانحرافات في المجتمع تحتاج إلى عامل التعاون لحلها والقضاء عليها من جذورها، وإلا تفاقمت ولم نتمكن عندها من إيجاد حل لها، وبدون عامل التعاون لكافة شرائح المجتمع، كل من مواقعه وحسب قدراته وإمكاناته، فلن نتمكن من إحداث تغيير نحو حياة أفضل.

ومما لاشك فيه أن وراء كل ظاهرة في الطبيعة ألف عامل وعامل تتفاعل وتتعاون من الذرة الصغيرة إلى المجرة وهكذا.. وأراد الله للبشر أن يكونوا كذلك، فكل إنسان عاجز عن العيش وحده، وقد فطرت نفسه على الحنين للآخرين، وكلما ازداد البشر تعاوناً ازدادوا إبداعاً وإنتاجاً.

من هنا تعرف سر التوجيهات المتلاحقة في نصوص الدين الإسلامي على ضرورة التعاون. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُواْ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾[٢].

وقال تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ

(١) سورة الحشر، الآية: ٩.
(٢) سورة المائدة، الآية: ٢.

عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾(١).

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾(٢).

واعتبر رسول الله ﷺ تلاحم الشعوب المؤمنة والمسلمة مع بعضها البعض على مقارعة الفساد والإفساد في الأرض كجسد واحد ووحدة واحدة لا تتجزأ. جاء عنه ﷺ: مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعت له سائر الأعضاء بالسهر والحمى(٣).

وجاء عنه ﷺ: لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه(٤).

إن الإسلام اليوم في أمس الحاجة لتلاحم المسلمين مع بعضهم البعض للقضاء على الفساد المنتشر في الجسد الإسلامي، فلنجعل التعاون بين كافة المسلمين على اختلاف مذاهبهم ومشاربهم واجتهاداتهم وبلادهم وقومياتهم وجنسياتهم.. و لنجعل توحيد الكلمة والتعاون الأصل العام الذي يرجع إليه الكل حتى نتمكن من مواجهة أعداء الأمة الإسلامية، فكل له الحق في إبداء الرأي والمناقشة وتحري الحقيقة، لكن هذا شيء والتنازع وتبادل الاتهامات والتفرقة والتشتت، وابتعاد البعض عن البعض وعدم التعاون شيء آخر، يُسبب سعة انتشار الفساد والانحرافات في جيلنا المعاصر.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٠٣.
(٢) سورة الحجرات، الآية: ١٠.
(٣) ميزان الحكمة: ج٣ ص٣٤٥.
(٤) المصدر السابق.

٥ ـ سيطرة الأمن على مرافق الحياة:

أي سيطرة الأمن على كل مرافق المجتمع، وحاكمية العدل المطلق في كل القضايا والمجالات، فليست توجد في المجتمع الإسلامي: سرقة، أو قتل، أو تعدٍّ على الأعراض، أو نهب، أو اغتيال، أو اختطاف الفتيات، أو الصبيان، أو الخيانات المتعددة التي تعيشها الأسرة المعاصرة اليوم، أو مؤامرات تخريبية أو فسادية أخلاقية، أو أي مرض آخر من الأمراض المعصرنة في هذا اليوم. هذه الأمراض، يكنسها الإسلام من المجتمع الذي يخلقه عن طريق مناهجه السلوكية التي يرسمها للإنسان، والتعاليم التربوية التي يضعها لتربية الإنسان المسلم، فمصنع الإسلام ينتج أفراداً يعيشون في قمة النزاهة، والطهارة الذاتية، والأخلاق العالية. .

فالمجتمع الذي لا يحكمه نظام عادل يعطي لكل جوانب الحياة حقها من التنظيم، والتقنين، إن هذا المجتمع سيفقد الأمن.

أما المجتمع الذي يعيش تحت ظل نظام واقعي حياتي عادل، يأخذ بعين الاعتبار كل جانب من جوانب الحياة الإنسانية، إن هذا المجتمع هو الذي ينعم بالأمن والعدل والحرية والكرامة. . ولن تجد فيه بادرة انحراف أصلاً.

ويكفينا دليلاً على ذلك أن نلقي نظرة خاطفة على تاريخ الإسلام، لنعلم أن (حد السرقة) لم ينفذ إلا ست مرات في الأراضي التي امتدت على أكثر نقاط العالم، رغم ما كانت حكوماتها متلوثة شيئاً ما بالجاهلية، ورغم أن الناس كانوا جديدي عهد بالإسلام، بينما نرى، الآن، أمريكا لا تبلغ نفوسها عدد المسلمين آنذاك تستنجد العالم لإنقاذها من ست ملايين

(٦،٠٠٠،٠٠٠) لص في ربع قرن[١]، هذا بالإضافة لتزايد عدد الاغتصابات والاختطافات، والقتل، وانتشار الدعارة، وغيرها من الانحرافات الكثيرة التي تعج بها دول العالم البشري اليوم..

٦ ـ سيادة القانون على الأفراد:

سيادة القانون الشرعي من الحدود والتعزيرات والخصومات على كل فردٍ منتمٍ إلى بوتقة الدين الإسلامي، على اعتبارهم عباد الله سبحانه لا فضل لأحد على سواه، فكلهم سواسية كأسنان المشط أمامه، لا فرق بينهم ولا تفاضل، والقانون الشرعي هو صاحب الكلمة وإليه يرجع القول والفصل، بلا امتيازات لطبقة على غيرها، ولا استثناء لقطاع على سواه، ولا حصانة دبلوماسية لشخص دون آخر، فالأحكام الإسلامية نازلة للجميع ولا بد أن تشمل الجميع من دون تفريق..

فالصلة الأسرية أو القرابتية لا محل لها في تطبيق النظام الإسلامي الشرعي، بل لها مكانة في الزاوية الروحية بين الناس، فقد أشار القرآن الكريم لهذه الحقيقة بقوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[٢].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[٣].

---

(١) الإسلام مجتمع أفضل: ص ٤٢.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٥٢.
(٣) سورة المائدة، الآية: ٨.

حدث في زمن رسول الله ﷺ أن امرأة من بني مخزوم سرقت في غزوة الفتح فهمَّ النبي ﷺ أن يقيم عليها الحد، فهمّ الأصحاب بالتوسط لها عند رسول الله ﷺ ولكن الرسول رفض الوساطة وأقام الحد، والحديث كالتالي:

إن قريشاً أهمهم شأن المرأة المخزومية التي سرقت في عهد رسول الله ﷺ.

فقالوا: من يكلم فيها رسول الله ﷺ؟

فقالوا: ومن يجرؤ عليه إلا أسامة بن زيد حب رسول الله ﷺ فأتي بها إلى رسول الله ﷺ فكلمه أسامة بن زيد فتغير وجه رسول الله ﷺ.

فقال: أتشفع في حد من حدود الله؟

فقال له أسامة: استغفر لي يا رسول الله ﷺ.

فلما كان العشي قام رسول الله ﷺ وخطب فأثنى على الله بما هو أهله ثم قال:

أما بعد فقد أهلك الله الذين من قبلكم بأنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وإني والذي نفسي بيده لو أن ابنتي سرقت لقطعت يدها.

ثم أمر بتلك المرأة التي سرقت فقطع يدها[١].

---

(١) ومن أجمل ما طالعت عن هذه الحادثة وتشبيه الزهراء عليها السلام في كلمة رسول الله، أن الإمام الشافعي رحمه الله قال: إنني لا أروي هذه الحادثة، وإذا رويتها أو كتبتها لا أذكر اسم الزهراء عليها السلام مبالغة في الأدب معها، مع أن إسناد السرقة إليها في الحديث مفروض فرضاً لا واقعاً، وهو يذكره في سياق استنباط من السنة الذي يجوز فيه ما هو أعظم من ذلك (راجع تفسير المنار ج٧ ص ٥٥١) رشيد رضا.

إن عدم تطبيق القانون الشرعي على كل الناس في المجتمع الإسلامي، وتعامل أفراده بالشفاعات الباطلة أو الوساطات الجاهلة، إنما هو تعطيل لحدود الله في الأرض، وسبب من الأسباب الرئيسية التي سببت تزايد عدد الانحرافات الأخلاقية والجريمة السلوكية، إن فقد القانون صلاحياته وتعطله عند الشفاعات والوساطات تشجيع على ممارسة المجتمع للانتهاكات الحقوقية والشرعية والقانونية، وهذا ما حدث ويحدث لكثير من الأمم والشعوب، وكما نراه اليوم من ظلم اجتماعي وإجحاف في الحقوق الشعبية، وتدهور في الأحوال الاقتصادية، وانهيار في القيم الأخلاقية، بالإضافة إلى فشل الأنظمة التي تحكم البلاد الإسلامية في القضاء على عوامل الجريمة فيها.

٧ ـ حاكمية العقوبة الإسلامية

لعل القارئ يدرك فلسفة الشرائع والنظم التي سنتها مبادئ السماء لمصلحة الإنسان، والتي تبين تفصيل الأحكام الشرعية التي تتعلق بكافة شؤون حياته، فهي صورة تشريعية عن السنن الكونية.. وقد عرف البشر خلال خمسة عشر قرناً مغزى الكثير من السنن الكونية التي عبر عنها الدين (بشرائع الأحكام)، وكلما تقدم عمر البشر توسع علمهم بها أكثر، ولقد أجمع الفقهاء بوحي من مصادر الشريعة، أنه ليس هناك حكم شرعي إلا وينبثق عن مصلحة واقعية، وسنة طبيعية، في الأرض، والكون.

قال تعالى: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾[1].

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٦٢.

وقال تعالى: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾[١].

تلك هي حكمة (العقوبة) التي فرضها الشارع المقدس، وفلسفة تطبيقها على الحياة الأرضية، للردع عن ارتكاب ما نهى عنه وترك ما أمر الله به، فهي قانون مادي مفروض سلفاً يجعل المكلف يحجم عن ارتكاب الجريمة، فإذا ارتكبها زجر بالعقوبة حتى لا يعاود الجريمة مرة أخرى كما يكون عبرة لغيره. وإذا علم المكلف بشرعيتها يمنع الإقدام على الفعل، وإيقاعها بعده يمنع من العودة إليه[٢].

الغاية من العقوبة:

من الضروريات الملحة للتشريع الإسلامي، مهما كان نوعه، أن يهيئ له المشرع القوة الكافية لحماية مواده وتشريعاته، لتكون لها قوة التنفيذ والتطبيق في مختلف المجالات، ومن أبرز مظاهر تلك القوة، العقوبات التي وضعتها الشرائع والقوانين الوضعية على الجرائم والمخالفات، سواء في ذلك المحدد منها كالعقوبات المقررة لحماية الأديان والأنفس والأموال والأعراض، وغيره مما هو متروك للسلطة الحاكمة، كالعقوبات التي تقررها على بقية المخالفات حسبما تفرضه المصلحة، لحماية التشريع من العبث والاستهتار بنصوصه ومبادئه.

ومن الطبيعي أن تختلف العقوبة باختلاف نوع الجريمة، وأثرها على سلامة المجتمع والنظام العام، وعلى أساس ذلك لا نجد بداً من القول: بأن العقوبات المقدر منها وغيره، حتى العقوبات الأخروية التي

(١) سورة الفتح، الآية: ٢٣.
(٢) العقوبة، ص: ١٣، البهنسي.

توعد الله المخالفين بها، كان الغرض منها حماية المجتمع من التدهور والانحطاط لتأخذ الفضيلة مكانتها فيه، وتتسع نفس الإنسان للخير والرحمة والعمل النافع المثمر بدلاً من الشرور والعدوان والفجور[١].

ومع كل ما يقال من أن نظرية العقوبة نابعة من بحث الفلاسفة عن تبرير أخلاقي لتلك العملية الإكراهية، فعرضوا السؤال التالي: هل يجوز أخلاقياً إنزال الأذى والحرمان بفردٍ ارتكب جرماً معيناً؟

فانبثقت عن هذه النظرية في العالم الغربي عدة مدارس، أهمها:

١ ـ المدرسة الجزائية، والتي تنادي بفكرة أن الجاني يجب أن يعاقب على جنايته مهما كانت الظروف.

٢ ـ والمدرسة النفعية، وهي التي تنادي بالقول: إنه من الخطأ أخلاقياً إنزال المعاناة أو العقوبة على الجاني.

وقد كان من أعمدة المدرسة الجزائية الغربية الفلاسفة الثلاثة: (عمانوئيل كانت) و(أي. سي. أوينك) و(جي.دبليو. هيغل) الذين زعموا بأن العقوبة لا يتعدى كونها عملية أخلاقية بذاتها، فـ(كانت) يصر على أن العقوبة يجب أن تكون متطابقة مع الجناية المرتكبة، فالمذنب يجب أن يعاني من ذنبه، والنظام الأخلاقي والعدالة الجنائية تتطلبان لوناً من ألوان العقوبة.

إلا أن هذا الرأي لا يبرر العقوبة، بقدر ما ينكر أن العقوبة تحتاج إلى تبرير، فقولنا إن شيئاً ما صحيح أو خيرٌ بذاته يُلحظ من خلال البادر العقلي أو الحدس أو البديهة، كما في قاعدة (القبح والحسن العقليين)، لأنه لا يمكن لأحد أن يتنعم بسلوك جيد على حساب الآخرين أو الضحايا في المجتمع!!

---

(١) للتوسع انظر كتاب المسؤولية الجزائية في الفقه، هاشم معروف.

إلا أن (أي.سي. أوينك) آمن بأنه لا يوجد سبب جوهري لإدانة الجناية عن طريق الجاني (الأذى بالجناة)، ما لم تكن المنفعة المتحققة من إنزال العقاب بالجناة على مستويي الجاني والضحية إلى درجة تعلن لهم بأن خرق القانون على الصعيد الأخلاقي يجب أن يواجهه المجتمع بطريقة تمنع من حصوله مستقبلاً.

أما (جي. دبليو. هيغل) فقد آمن بأن العقوبة ضرورية لمحق وإبطال العمل الجنائي الذي ارتكبه الجاني، وبتعبير آخر، فإن العقوبة لا تتحدد بإرجاع الملكية المسروقة أو تعويض الضحية، بل تتعدى إلى إنزال العقوبة بالجاني بحيث يعاني من الألم جزاء عمله الإجرامي الذي ارتكبه[١].

بعد ذلك العرض يثبت لدينا، أن الغاية من تشريع العقوبة في المبادئ السماوية وشرائعها الإلهية، منذ آدم عليه السلام ختاماً برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أمران:

أحدهما: حماية الفضيلة وحماية المجتمع من أن تتحكم الرذيلة فيه.

وثانيها: المنفعة العامة أو المصلحة، وما من حكم في شرائع الأنبياء والمرسلين عليهم السلام إلا كان فيه مصلحة للناس.

فكرة العقوبة في الفقه الإسلامي:

أساس فكرة العقوبة في الفقه الإسلامي نابعة من مصالح الناس العامة والخاصة، التي لا تحفظ إلا بدفع المفاسد الأخلاقية، والتجاوزات القانونية، ولكن النهي عن الفعل أو الأمر بإتيانه لا يكفي

---

(١) يمكن الرجوع إلى كتاب فلسفة هيغل في الحقوق، تعريب د. حمدي ثامر، ص:١٥٤.

وحده لحمل الناس على إتيان الفعل أو الانتهاء عنه، ولولا العقاب لكانت الأوامر والنواهي أموراً ضائعة وضرباً من العبث، فالعقاب هو الذي يجعل للأمر والنهي معنى مفهوماً، ولا شك أن بعض الناس يفعلون الفعل لأنه مأمور به، وينتهون عنه لأنه منهي عنه شرعاً وعقلاً، نصاً وإجماعاً، لا حذراً من العقوبة، ولا خوفاً من النكال، ولكن حياء وخجلاً أن يكونوا عاصين، ومبادرة للطاعة لله سبحانه وتعالى، وتطبيقاً لأوامره والانتهاء عن نواهيه، وتحقيقاً لمصلحة الجماعة، ولكن أمثال هؤلاء قليلون جداً، والأحكام تشرع للكثرة الغالبة، لا لمثل هذه القلة النادرة.

إن الشريعة الإسلامية اعتبرت بعض الأفعال جرائم وعاقبت عليها، لحفظ مصالح الناس، ولصيانة النظام الذي تقوم عليه الجماعة، ولضمان بقاء الجماعة قوية متضامنة متخلقة بالأخلاق الفاضلة، والله الذي شرع هذه الأحكام وأمر بها، لا تضره معصية عاص ولو عصاه أهل الأرض جميعاً، ولا تنفعه طاعة من أطاعه ولو أطاعه أهل الأرض جميعاً، ولكنه كتب على نفسه الرحمة لعباده، ولم يرسل الرسل إلا رحمة للعالمين، لاستنفاذهم من الجهالة، وإرشادهم من الضلالة، ولكفهم عن المعاصي، وبعثهم على الطاعة[١].

ثمة ملاحظة بين العقوبة والعقاب، فالفقهاء في متونهم الفقهية فرقوا بين: تعريف العقوبة، والعقاب في الفقه الإسلامي.

فالعقوبة هي الشيء الذي يقع على الإنسان في حال الحياة الدنيوية، بسبب مخالفة شرعية، أو قانونية، مثل الذي يرتكب جريمة

(١) التشريع الجنائي في الإسلام، عبد القادر عودة: ج ١ ص ٦٩.

الزنى، واللواط، والمساحقة، والقذف، والسحر، والسب (أي سب المعصومين كالأنبياء والمرسلين عليهم السلام) والقتل، فيرتكب بحقه إذا تحققت بالأدلة الشرعية (القصاص، والحدود، والتعزيرات).

أما العقاب، فهو: ما يلحق الإنسان في الآخرة، نتيجة لارتكابه بعض الجرائم الشرعية، إذا لم يُحد في الدنيا بطرق شرعية على يد الحاكم الشرعي، أو بعض الأخلاقيات المنهي عنها شرعاً وعقلاً وثبتت بنص صحيح، وحكي عليه الإجماع عند الفقهاء.

تطبيق العقوبة وفق الأحكام الشرعية:

والحقيقة التي ينبغي معرفتها، أن شدة العقوبة الشرعية التي تلحق الجاني بسبب ارتكابه للجناية تتطابق تماماً مع فظاعة الجريمة، ففي الجنايات المتعمدة المتعلقة بالنفس الإنسانية يتعين القصاص، وفي جرائم الملكية ـ باستثناء الغصب ـ يتعين القطع، وفي الجرائم الخلقية يتعين الجلد أو الرجم أو الحرق كما في اللواط، وفي المحاربة يتعين القتل، فنحن لا نستطيع أن ننظر إلى العقوبة بشكل مجرد، ما لم نأخذ حجم الجناية وتأثيرها الاجتماعي بنظر الاعتبار، ولا شك أن القاعدة القرآنية في العقوبات تقول: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[١].

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِي ٱلْقَتْلَى ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[٢].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٧٩.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٧٨.

وهي الأصل في تحقيق العدالة الجنائية في الجرائم الخطيرة التي تطال الأفراد في النظام الاجتماعي.

كما أن الفقه الإسلامي ينظر إلى العقوبة نظرة تأمل قبل مباشرتها، إذ يدرس الجريمة من كافة أبعادها ومسبباتها، فالمسؤولية الجنائية مرتبطة بشكل مباشر بالحالة العقلية للفرد، فإحساس الفرد بالمسؤولية الشخصية وارتباطها بالعقوبة يطابق أفكار النظرية الأخلاقية الإسلامية الشرعية، التي تجعل من النفس اللوامة المحطة الرئيسية لفحص الأعمال التي يقوم بها الإنسان، فالفرد الذي يمتلك القدرة العقلية على اختيار الأفعال يتحمل المسؤولية بصورة كاملة عندما يرتكب الجريمة، أو أي مخالفة يستحق عليها العقوبة الشرعية، ولم تستثن من ذلك إلا المجنون أو المضطرب عقلياً، والمكره، والفرد الذي ارتكب الجرم بطريق الخطأ، لأن هؤلاء الأفراد يفقدون القدرة على الاختيار، ولذلك فإن الشريعة لا تعاقبهم بالمقدار الذي تعاقب به الأفراد الذين يملكون قدرة عقلية كاملة وقت ارتكاب الجناية.. وللأسف الشديد، إن ما يعمل به اليوم في نظام الجنايات ومعاقبة الجاني في العالم الغربي، والعربي، والإسلامي، يُسبب فداحة المشكلات الإجرامية في الوسط الاجتماعي، لعدم تطبيق الفقهيات الشرعية على نظام الجنايات وفق النظرية الفقهية الشرعية القرآنية، فأغلب تلك الأحكام لا تتفق مع نظرية الفقه الإسلامي، مما يسبب عدم ردع المجرمين عن ارتكاب الجريمة، ولذلك يخرج المحكوم عليه بحد شرعي أو بقصاص أو جناية معينة، فيقضي بحكم قانوني وضعي، أو حكم شرعي لا يتفق مع بنود الجريمة المقررة في الفقه، فيشجع الجاني على معاودة ارتكاب الجريمة مرة أخرى!

وتزايد عدد الجرائم الاجتماعية في العالم، دليل على عجز النظام القائم عن الحد من انتشار الجريمة الاجتماعية والأخلاقية.

إن الناس تحت الحكم الإسلامي وتحت مظلته الفقهية تقل جرائمهم، لأنهم يعتقدون بالإسلام، ولأنهم يرون الله رقيباً عليهم، ولأنهم يعتقدون بأن القانون الإلهي في صالحهم، وكم فرق بين أن يرى الإنسان الدواء في صالحه فيشربه، وإذا لم يشربه كان ذلك شاذاً ونادراً، وبين أن يرى أن الشيء الذي يقدم إليه باسم الدواء سم، حيث أنه لا يهتم بالمنع، إلا إذا خاف عقاب الدولة، وكذلك مثل القوانين الوضعية والأحكام الإسلامية، ولذا ترى المتدين تقل جرائمه بما لا نسبة لها مع جرائم غير المتدين، فهل وجدت متديناً يسرق، أو يزني، أو يقتل، أو يشرب الخمر، أو يغتصب، أو يظلم، أو يسفك الدم، أو يقطع طرف إنسان، أو يلوط أو ما أشبه؟! ويدل على ذلك دلالة بسيطة ما إذا دخل الإنسان السجون، أو مستشفيات الأمراض الزهرية، أو مستشفيات الأعصاب والأمراض النفسية، أو مستشفيات معالجة الإدمان على المخدرات والخمر، فإنه لا يجد من الذين فيها واحداً بالمائة من المتدينين، وإذا وجد متديناً في السجن لا بد وأنه عمل مخالفة قانونية وضعية لا مخالفة شرعية دينية أخلاقية.

كما أن على الدول الإسلامية التي تنشد محاربة الجريمة واستئصالها من الواقع الاجتماعي، تنظيف الأجواء من المخالفات الشرعية كحوانيت الخمور، والدعارة، والفجور، ووضع نظام المساواة، والعدل، والتشجيع على نشر الفضيلة ومحاربة المنكرات الكثيرة التي تعج بها الدول العربية وبعض الدول الإسلامية اليوم[1].

(١) الموسوعة الفقهية، الإمام الراحل الشيرازي رحمه الله: ج ٩٩ ص ١١٠.

لمحة سريعة لنظام العقوبة الشرعية:

لعل القارئ للفقه الإسلامي يقف على حقيقة تطبيق الفقه لنظام العقوبة الشرعية، وكيف أنه تشدد في تطبيقها، وراعى في نفس الوقت توفر الأدلة الشرعية للجريمة، وحالة المُجرم، وتأمل في الدوافع والمسببات، ودرء الحدود بالشبهات.

والمسؤولية الجزائية بكافة أبعادها المقررة، وتحقيق عملية القصاص، والحدود والتعزيرات على المذنب الجاني يقيه من عقاب الآخرة. وعلى ذلك النصوص النقلية، والعقلية.

وتكمن الفلسفة العظمى من تشريع العقوبة الدنيوية على الجاني في أنها تقي المجتمع من المعاصي الجالبة للنقمة الإلهية، لأن المخالفة الشرعية لا يمكن أن تمر دون عقوبة دنيوية، وعقاب أخروي.. وقد أشارت النصوص القرآنية لتلك الحقيقة منها:

قوله تعالى: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾[١].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[٢].

وجاءت إشارة أيضاً في النصوص المروية عن رسول الله ﷺ وأهل بيته عليهم السلام منها:

قال الإمام علي عليه السلام: إن الله سبحانه وضع الثواب على طاعته،

---

(١) سورة فصلت، الآية: ٤٣.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٦٧.

والعقاب على معصيته، ذيادة (أي منعاً) لعباده عن نقمته، وحياشةً (أي سوقاً إلى جنته) لهم إلى جنته[١].

وعنه عليه السلام أيضاً: فرض الله الإيمان تطهيراً من الشرك... والقصاص حقناً للدماء[٢].

أما وجوب إقامة الحدود الشرعية على الجاني إذا توفرت الشروط المقررة شرعاً عند الحاكم الشرعي. فقد جاء في قوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ ۚ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾[٣].

وجاء في مرسلة أحمد بن عيسى عن الصادق عليه السلام: ما خلق الله حلالاً ولا حراماً إلا حُدٌّ كحدود الدار، فما كان من حدود الدار فهو من الدار، حتى أرش الخدش، فما سواه، والجلدة ونصف الجلدة[٤].

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: لا يمر السيف بذنب إلا محاه[٥].

كما أن الحكم الشرعي المنفذ بحق الجاني على جنايته، يكون كفارة له عن ذنبه، فقد جاءت النصوص السابقة مشعرة بهذه النظرية، إذا

(١) نهج البلاغة، الحكم: ص ٣٦٨.
(٢) المصدر السابق.
(٣) سورة البقرة، الآية: ١٨٧.
(٤) بحارالأنوار: ج٢ ص١٧٠.
(٥) كنز العمال، الهندي: ح١٢٩٦٩.

تمت معالجة الجريمة، وأقام الحاكم الشرعي على الجاني الحكم وفق الأحكام الشرعية وتوفر الأدلة بتهمته، أو أقام الحاكم العفو عنه بعد تحقق الأمارات الشرعية، كأن يعفو من بيده الحق، رجعت نظرتنا الشرعية والأخلاقية تجاه المجني عليه كفرد اعتيادي من أفراد المجتمع.

جاء عن رسول الله ﷺ: من أذنب ذنباً فأقيم عليه حد ذلك الذنب فهو كفارته[١].

وجاء عن زرارة عن حمران قال سألت أبا جعفر عليه السلام عن رجل أقيم عليه الحد في الدنيا، أيعاقب في الآخرة؟

فقال الإمام عليه السلام: الله أكرم من ذلك[٢].

كما أن هناك مهمة تقع على عاتق الدولة الإسلامية ألا وهي:

توفير الحريات الإسلامية التي يحتاجها المجتمع في كافة قطاعاته وفق الموازين الشرعية التي قررها الشارع الحكيم، كحرية الزراعة، والصناعة، والتجارة، والاكتساب، والثقافة، وحيازة المباحات من الأرض وغيرها، حتى يتمكن كل إنسان من تحصيل لقمة العيش والسكن في مسكن يقيه الحر والبرد، واللباس والتزويج وما يعالج به نفسه حال مرضه وينفق منه على عياله، ومشاركة المجتمع بكافة شرائحه في القطاعات التنموية التي تخدم الناس حتى نتمكن من القضاء على عوامل انتشار الجريمة في المجتمع الإسلامي.

وبهذه الروح الإيجابية إذا سرق الإنسان بعدها أو ارتكب الزنى أو

---

(١) كنز العمال: ح ١٢٩٦٤.

(٢) الوسائل: ج ٢٨ ص ١٥. للمزيد من المعرفة عن نظرية المسؤولية الجنائية في الإسلام راجع كتاب (النظرية الاجتماعية في الإسلام) د. الأعرجي.

اللواط أو المساحقة، أو شرب الخمر أو تعاطي المخدرات، أو قتل أو قامر، أو تبرجت النساء، أو اغتصب أو مارس العلاقات الغرامية الخاطئة. .و. .إلخ. فهو عندها يكون مجرماً يجب إقامة الحدود والتعزيرات عليه.

ثمة أمر آخر ألا وهو: ينبغي أن تكون الدول الإسلامية إسلامية بما في الكلمة من معنى، وتطبق الأحكام الشرعية وفق الموازين المقررة في كتاب الله وسنته المطهرة، وإلا فإن الدولة الفاسدة تغري الناس بارتكاب الجرائم، ولذا قالوا: الناس على دين ملوكهم.

كما أن على كافة المؤسسات العاملة في الدولة مؤازرة الفقه الإسلامي لوضع العلاجات الشافية للقضاء على بواعث الجريمة الاجتماعية، فيتعاون القاضي مع الطبيب النفسي، والعالم الاجتماعي والمؤسسات الخيرية لأجل قلع الجريمة، فإن اللازم رفع الجريمة لا معاداة المجرم، فإذا زنى ولم يكن له زوجة لعدم قدرته، تعاون القاضي مع مؤسسة الزواج على تزويجه، وإذا كان سارقاً ولم يكن له شغل يليق به مما اضطره إلى السرقة، يكون التعاون مع المؤسسات الإصلاحية والمجامع الفقهية والمؤسسات الخيرية لتشغيله وإعطائه شغلاً يليق به. . كما على إدارة السجون مراعاة حقوق السجين، والعمل على تربيته تربية روحية، وثقافية، وعلمية وأخلاقية، حتى يتمكن أن يكون بعد خروجه منه عنصراً فاعلاً في المجتمع الإسلامي، ويعطى في السجن كافة الحقوق الإنسانية والشرعية والأخلاقية معاً كما قررها الفقه الإسلامي في متونه[(١)].

---

(١) للمزيد من المعرفة راجع كتاب فقه الحقوق للإمام الشيرازي رحمه الله: ج١٠٠ ص٤٦٧ من الموسوعة الفقهية.

٨ ـ مكافحة المنكرات:

يوحي الواقع الذي نعيشه اليوم وحياً ملحاً ومبيناً، بضرورة القيام بعملية المكافحة الأخلاقية للمنكرات الاجتماعية، وضرورة تضافر الجهود من زاوية الفرد والأسرة والدولة والأمة على إماطة عوامل الفساد ومكافحته بالطرق الشرعية والعقلية المناسبة لواقعهم أو لمسؤولياتهم تجاهه، وكل هذه الحلقات تتسلسل باتجاه معاكس أيضاً، فالسياسة الإسلامية مسؤولة عن عدم توفير الأجواء المناسبة لنمو المجتمع الإسلامي المتوازن، والمجتمع الإسلامي مسؤول هو الآخر عن إشاعة روح الميوعة والتسيب بين أفراده، لعدم اعتنائه بالطليعة الإيمانية المتخلفة في المجتمع الإسلامي، من ناحية، وعدم إنمائه لأفراد واعين متخلقين رساليين من ناحية ثانية، وبهذه المسؤولية المتقابلة نلقي اللوم على كل إنسان وكل جهاز في العالم الإسلامي، يرضى بالواقع الفاسد أو يمده بالحيوية والنشاط، انطلاقاً من مبدأ الرسول الأعظم ﷺ عندما قال: كلكم راع، وكلكم مسؤول عن رعيته[١].

وما هذه الدعوة لمكافحة المنكرات في المجتمع الإسلامي، إلا لأن المنكرات معاول قوية تهدم بناء المجتمعات وكيانها، وتعرضه للأخطار الجسيمة التي لا تكون نتيجتها إلا فناء المجتمعات من على الخريطة البشرية.

والمنكرات أشبه شيء في سرعة التنقل والشيوع بجراثيم الأمراض، التي لا تلبث إذا وجدت في مكان ما أن تنتقل وتنتشر وتعم وتعمل عملها في المجتمع كله؛ وبذلك تنقلب حياة المجتمع رأساً على عقب، فتتعرض فيه الأعراض للانتهاك، والأموال للاستلاب، والحقوق

(١) مستدرك الوسائل، الميرزا النوري: ج ١٤ ص ٢٤٨.

للضياع، وليس من شك في أن أمة يكون مصيرها هذا المصير لا تعرف شيئاً من نسمات الأمن والطمأنينة، ولا من بواعث الاستقرار والسكينة، وبذلك ينحل ما بين أفرادها من روابط، وتنساق في سبيل الانفرادية الخاصة، ولا يهمها سوى شهوات تقضى، وانفعالات تحتدم[١].

(١) من توجيهات الإسلام، الشيخ شلتوت: ص ١٩٤.

الفصل الثاني عشر

أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

من هنا: اعتنى التشريع الإسلامي بهذه الفريضة عناية فائقة، وأولاها من الأهمية ما لم يول كثيراً من الفرائض الأخرى، لما لها من مساس مباشر بحياة الأمة الإسلامية وصياغة الفرد المسلم، ولما لها من تأثير في مسيرة المجتمع الإسلامي ومنعه من الانحرافات، ويتضح ذلك من خلال النصوص الواردة في هذا الباب، ففي القرآن الكريم آيات كثيرة تطرقت إليه، وكذلك النصوص المروية عن رسول الله ﷺ وأهل بيته الأطهار عليهم السلام.

١ ـ القرآن الكريم:

من هذه الآيات:

قوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[1]، في هذه الآية الكريمة، يُلحظ تقديم هذه الوظيفة الشرعية على سائر العبادات الأخرى كالصلاة، والزكاة، والخمس وغيرها، اهتماماً بشأنها وإظهاراً لمكانتها، وإن كانت هي في ذاتها قسماً من طاعة الله سبحانه، ولكنه قدم الخاص على العام اهتماماً بشأنها.

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٧١.

بينما نرى الآية الأخرى في قوله تعالى: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾[١]، تقرر أبرز صفات الإنسان المنافق الذي انسلخ من الفضيلة والمجتمع الإيماني، وانخرط في زمرة الفساد والانحرافات، وبالتالي أصبح عنصراً يحارب الفضيلة أينما وجدت، ويسعى لنشر المنكرات بكافة طرائقها وأنواعها في المجتمع.

٢ ـ الروايات الشريفة:

أما الروايات التي نادت بأهميته فهي كثيرة منها:

ـ قول الرسول ﷺ: من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان[٢].

وكأنه أراد أن يلفت نظرنا إلى أن الأهمية تنبع من اهتمام كافة الناس بهذه الوظيفة الشرعية بحسب مراتبها المذكورة في طيات الحديث، إذ لا معذورية عندها للإنسان الذي يقول لا أتمكن من محاربة المنكر!!

ـ وروي عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خلقان من خلق الله فمن نصرهما أعزه الله ومن خذلهما أذله الله[٣].

ـ وجاء عن علي عليه السلام عن رسول الله ﷺ قوله: إن الله يبغض المؤمن الضعيف الذي لا دين له.

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٦٧.

(٢) كنز العمال، الهندي: ج ٥ ص ٢٣٤.

(٣) الوسائل، مصدر سابق: ج ١١ ص ٣٩٤.

قيل: ومن هو المؤمن الضعيف الذي لا دين له؟

قال ﷺ: الذي لا ينهى عن المنكر(١).

ـ وجاء عن رسول الله ﷺ قوله: كيف بكم إذا فسدت نساؤكم وفسق شبابكم ولم تأمروا بالمعروف ولم تنهوا عن المنكر؟

فقيل له: ويكون ذلك يا رسول الله؟

فقال: نعم، وشر من ذلك. كيف بكم إذا أمرتم بالمنكر ونهيتم عن المعروف؟

فقيل له: يكون ذلك يا رسول الله ﷺ؟

فقال: نعم وشر من ذلك. كيف بكم إذا رأيتم المعروف منكراً والمنكر معروفاً(٢).

أي من باب أن الإنسان إذا زاول المنكر وعاش في مستنقعاته، أو تربى في مجتمع المنكرات، لا يلبث أن يرى ما يفعلونه حسناً تقليداً، واعتماداً على الكبار.

مفهوم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

المعروف: كل أمر حسن، أي كل أمر يحسنه العقل ولا يقبحه.

والأمر بالمعروف: هو حمل الناس على الطاعة قولاً أو فعلاً.

والمنكر هو: كل قبيح، أي كل أمر يقبحه العقل ولا يحسنه.

---

(١) الوسائل، مصدر سابق: ج١١ص ٣٩٤.
(٢) الوسائل: ج ١١ ص ٣٩٦.

وذهب صاحب اللمعة الدمشقية إلى القول: إن النهي عن المنكر هو: المنع من فعل المعاصي قولاً أو فعلاً[(١)].

وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر شرعاً:

لعل الآراء الفقهية في وجوبهما أمر متسالم عليه عند فقهاء الإسلام، ولكن من حيث الواجب العيني أو الكفائي ثمة فرق بينهم، فمنهم من يرى وجوبهما عينياً، كالشيخ الطوسي في كتابه التبيان عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[(٢)].

موقع الاستدلال من الآية:

ذهب الفقهاء إلى القول بوجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لوضوح الآيات الشريفة المشعرة بالوجوب وتحمل هذه الوظيفة الربانية، ففي قوله تعالى: ﴿مِّنكُمْ﴾ إما أن تكون تبعيضية أي أن هذا واجب كفائي على بعض المسلمين لا على كلهم، وعلى هذا فقوله: ﴿هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ معناه أن لأولئك كامل الفلاح، لوضوح أن الآتي بالواجب الكفائي أفضل من غيره.. لذلك فإن القول الذي ذهب إلى أن (منكم) تبعيضية أقرب إلى المتفاهم العرفي وأكثر انطباقاً لما ذكره الفقهاء من وجوبهما كفاية.

كما أنه أولى بالنظر إلى الدليل العقلي الذي يقول: بأن تشريع

---

(١) اللمعة الدمشقية: ج ٢ ص ٤٠٩، وهناك نقاش بين الفقهاء، حول ما يتصل بالمنكر وتشخيص المعروف، ألا وهو هل ما يعتبره العقل معروفاً يعتبره الشارع كذلك أم لا؟ وهل ما يعتبره العقل منكراً يعتبره الشارع منكراً أم لا؟ وهذا البحث موكول إلى حينه في البحوث القادمة إن شاء الله.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٠٤.

هذين الواجبين لأجل إقامة الدين، وإقامة الدين تحصل بمجرد قيام جماعة بهذين الواجبين.

ثم إن كلمة ﴿أُمَّةٌ﴾ في الآية الشريفة إنما هي بالنظر إلى مجموع المسلمين، وإلا فليس اللازم ـ على الكفائية ـ القيام بالأمر والنهي، بل يكفي قيام إنسان واحد إذا تمّ المطلوب، وكذلك لا إشكال في عدم كفاية الأمة فقط فيما إذا لم يتمّ المطلوب بالأمة، بأن كان المعروف والمنكر بحيث لا يحصل الأول ولا يترك الثاني إلا بقيام جميع الأمة، فإنه يستفاد من الآية بالمناط، والحاصل إن ذكر الأمة من باب الغالب، وإلا قد يكفي الواحد إذا تحققت فيه الشروط.

والمعنى الثاني المستفاد من الآية الكريمة التي جاءت بلفظ ﴿مِّنكُمْ﴾، أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبان على كل الأمة، وإنما يسقطان عن بعض الأمة، إذا فقد موضوعهما، ويكون الإيجاب على الجميع بلحاظ قيام البعض، إنما هو مصلحة أن يرى كل إنسان نفسه مكلفاً، فلا يقول: إن الواجب ليس موجهاً إليه بالذات، حتى يكون زعمه عدم توجه الواجب إليه بالذات سبباً لترك الناس الأمر بالمعروف، كما هو المشاهد الآن، فإن غالب الناس حيث يرون كفائية الواجب لا يقومون به ونتيجة ذلك انتفاء الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهذا المعنى الثاني لـ(منكم) اقرب إلى الاعتبار وإن كان أبعد من ظاهر لفظ (منكم)[1].

وهذا ما ذهب إليه بعض الفقهاء كآية الله البهشتي رحمه الله في محاضراته عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إذ يقول: إن المراد

(١) الموسوعة الفقهية: ج ٤٨ ص ١٥٨.

من ذلك في قوله تعالى: ﴿مِّنكُمْ﴾ هو البيان والتبيين والابتداء، بمعنى أن الأمة يجب أن تضع مثل هذه الجماعة، ويستخدم هذا التعبير في العديد من اللغات بهذا المعنى الذي يتضح أكثر فأكثر مما لا يبقي مجالاً للغموض، وحينما نعود إلى القرآن الكريم نفسه ونلاحظ مثلاً أنه وبعد خمس آيات يقول: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[1].

دون أن نجد أي أثر لـ(مِن) في الآية، ولم تقل على سبيل المثال: (كان منكم أمة).

ثمة آية أخرى تعاضد القول بالوجوب العيني على كل الناس، وهي قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[2].

ليس فيها تخصيص لجماعة على أخرى، ولا شك في أن الآيات الثلاث في قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[3].

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١١٠.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٤٣.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١١٠.

يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[١]، كلها تدلُ على معنى واحد لا غير وهو: دعوة الأمة كُلها لكي تأمر بالمعروف كل في موقعه وحسب مستواه وقدرته، وتنهى عن المنكر كذلك[٢].

وحكى صاحب الشرائع القول بالوجوب العيني، على هذا الشيخ الطوسي في كتابه التبيان في تفسير القرآن في تفسير هذه الآية الكريمة ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ﴾.

وقد ذهب إلى هذا القول أيضاً بعض علماء المذاهب الأربعة، كما نقل عن الرازي صاحب التفسير الكبير عند تفسيره لهذه الآية الكريمة ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ﴾.

أما علماؤنا المتأخرون وقسم من المتقدمين كالسيد المرتضى فقد ذهبوا إلى القول: بوجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كفاية، أي إذا قام به بعض المسلمين سقط عن الباقي. قال صاحب المستمسك: يجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وجوباً كفائياً إن قام به واحد سقط عن غيره، وإن لم يقم به واحد أثم الجميع واستحقوا العقاب[٣].

دعوى الإجماع على وجوبها:

أما الإجماع على وجوبها فلا إشكال فيه، فذهب إلى وجوبها في

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٠٤.

(٢) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، البهشتي: ص ١٨.

(٣) منهاج الصالحين: ج ١ ص ٢٢٩.

الجملة كافة الفقهاء، من غير خلاف ينقل عن أحد، بل دعوى الإجماع على ذلك متواترة وإن كان ربما يخدش في كبرى الإجماع بأنه محتمل الاستناد بل مقطوعه، ومثل هذا الإجماع ليس بحجة..

وسواء كانت دعوى الإجماع على وجوبها العيني أو الكفائي، فإن المسلمين مكلفون بالقيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى يتحقق المعروف، وينمحي المنكر من دنيا الإسلام، لأن المهم منه تحقيق غرض الشارع الذي يجب على المسلمين المبادرة إلى تنفيذه[١].

كما أن العقل يذهب إلى القول بالوجوب باعتباره يقبح القبيح، ويحسن الحسن، فترك المعروف وفعل المنكر يوجب وجود الفساد واختلال النظام، والعقل بطبيعته يقبح تلك الأفعال الصادرة من الإنسان على سبيل إفساد الأرض والناس والنظام.

مراتب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

تطرقت الكتب الفقهية لدى الفقهاء إلى مراتب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فحصروها في ثلاثة طرق، وهي تبين لنا ملاك الحكم الوجوبي العيني أم الكفائي وهي:

١ - مرتبة القلب:

إن هذه المرتبة القلبية التي تكشف لنا بعمق كيف أن القلب يقبح القبيح مهما كان حجمه ورتبته وجهة صدوره، إذ ليس في الأرض إنسان إلا ويكره ويقبح القبيح، بل حتى مرتكب القبيح نفسه داخلياً يكرهه من حيث صدوره على نفسه أو أهله، لذلك دعوى القول بوجوبه العيني غير بعيدة، إذ يجب على كل أحد أن يكون محباً للمعروف ومنكراً للمنكر

---

(١) من الفقه السياسي في الإسلام: ص١١٤، الظالمي.

بقلبه، بل لعل ذلك من شرائط الإيمان، للأدلة المشعرة بذلك كقوله تعالى:

﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾(١)، وقوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا۟ كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾(٢)، كما جاء في الحديث قول رسول الله ﷺ: المنكر للمنكر بقلبه(٣).

كما أن الفهم الذي ذهب إليه البعض من أن محاربة المنكر بالقلب فيه كفاية عن الالتزام بالعمل رأي سقيم وضعيف، لأنه بعيد عن ظاهر الأدلة حسب الفهم العرفي، إذ العرف مضافاً إلى الشرع يقبح من ينكر المنكر بقلبه وهو يخالفه عملياً، أو يأمر بالمعروف وهو لا يأتي بشيء منه مع أنه قادر على الإتيان، لأنه قد يكون هناك آمر بالمعروف ومحفز للناس عليه كأن يأمرهم بالتبرعات والصدقات وهو غير متمكن مادياً، فهذا الجانب من الإنسان الآمر لا غضاضة في قوله وعمله، ولا يكون مأثوماً أيضاً كما ذهب لذلك صاحب الموسوعة الفقهية ج ٤٨ ص ١٦٨ ومثاله: من لا يشرب الخمر لكنه ملتزم قلباً بحليتها، ومن يصلي بكل شرائطها لكنه ملتزم قلباً بعدم وجوبها، وهكذا بالنسبة إلى سائر الأحكام لم يكن آثماً(٤).

---

(١) سورة التحريم، الآية: ٤.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٨٣.
(٣) الوسائل: ج ١١ ص ٤٠٦.
(٤) ولعل التشخيص في مسألة الرؤية بالعين للمنكر لا تأتي إلا بالقلب، فقد جاء في القرآن هذا المعنى=

ما هو المراد من الإنكار القلبي:

هناك ستة احتمالات وأقوال متعددة:

أولاً: أن يكون المراد به هو الإنكار بنفسه، فإن الكلام اللفظي دليل على الكلام النفسي، فكما يقول اللسان لا تفعل، كذلك يقول القلب لا تفعل، ثم تارة يقال بأن أثر هذا الإيحاء النفسي بالنسبة إلى المنكر نفيه وإن لم يكن مؤثراً بالنسبة إلى الطرق الأخرى، وقد يقال بأنه بالنسبة إلى فاعل المنكر أيضاً لما ثبت في علم النفس من أن الأمواج التي تحدثها النفس حالها حال الأمواج المائية والصوتية والنورية تؤثر في الخارج أيضاً.

ثانياً: أن يكون المراد به الاعتقاد، بأن يعقد قلبه على أن هذا منكر، فإن العلم غير الاعتقاد، إذ ربما يعلم الإنسان شيئاً لكنه يعقد قلبه على خلاف ما علم، والعلم انعكاس والاعتقاد عمل قلبي، فاللازم أن يعتقد الإنسان بأن الأمر الذي ارتكبه فلان منكر، والقائل بهذا القول صرف ظاهر الإنكار إلى هذا المعنى، قال لأنه لا معنى للإنكار القلبي، فاللازم أن تقول بأقرب المجازات وليس إلا الاعتقاد.

ثالثاً: أن يكون المراد به بغض الإنسان للمنكر ولمرتكبه، كما في أحاديث الحب في الله والبغض في الله.

=في سورة الرعد آية ٤١ في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ والرؤية المقصودة هنا هي: الإدراك بالعقل، لا الإدراك بالعين، أي بمعنى أن حصول العلم كافٍ في مسألة الرؤية في هذا المورد، أي يكفي في إطلاق عنوان المنكر تشخيصه بالعقل عن طريق العلم.. وعلى هذا جاء في الحديث الشريف عن رسول الله |: (من رأى منكم منكراً..) فواضح أن الرؤية المقصودة هي الرؤية العقلية لا الرؤية البصرية، وإلا سقط وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عن الأعمى، أو الغائب الذي سمع بالمنكر، أو من قرأ أمراً منكراً، دون أن يشاهده بالعين.. ومن ذلك نرى أن المعنى اللغوي للرؤية، واستعماله في نصوص اللغة العربية يدلنا على معنيين وهما: الإدراك بالعين، والإدراك بالعقل، واقتصر تشخيص المنكر بالإدراك بالعقل لا البصر فتأمل.

رابعاً: عدم الرضا لما ورد أن الله سبحانه إنما قال: عقروا الناقة لأن بعضهم عقر وبعضهم رضي، ولما ورد: لعن الله أمة رضيت بذلك، والفرق بين الثالث والرابع، أن عدم الرضى سلبي، والبغض إيجابي، ولا يكون البغض إلا بعد عدم الرضى، أما عدم الرضى فيمكن أن يتحقق بدون البغض.

خامساً: الابتهال إلى الله سبحانه وتعالى، في عدم الرضى بالمنكر والبراءة من فعله وفاعله.

سادساً: أن المراد به إظهار الكراهية في وجوه فاعلي المنكرات لقول الإمام علي عليه السلام: أمرنا رسول الله صلى الله عليه وآله أن نلاقي أهل المعاصي بوجوه مكفهرة[1].

الحاصل مما تقدم:

إن رد المنكر بالقلب هو: العلم أولاً، تشخيص المنكر ثانياً، عدم الرضى بذلك المنكر بعد معرفته وتشخيصه ثالثاً، والبغض للمنكر وفاعله رابعاً، رد المنكر ومحاربته بالقلب.

٢ ـ مرتبة اللسان:

اختلف الفقهاء في وجوبه العيني، فمنهم من ذهب إلى الوجوب العيني بدليل قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[2].

(١) الموسوعة الفقهية، مصدر سابق: ج ٤٨ ص ١٩٢.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١١٠.

وقوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾(١).

وبناءً على أن (من) في الآيات بيانية لا تبعيضية ـ كما تقدم في بحث المرتبة الأولى من القلب ـ ولقوله عليه السلام: ومنهم المنكر للمنكر بقلبه ولسانه ويده(٢)، إذ أن الظاهر منه كون اللسان في عداد القلب، وحيث تحققت العينية في التكليف على المكلف بالنسبة لمرتبة القلب، فذلك بالنسبة إلى اللسان، فقد جاء في الحديث المروي عن رسول الله صلى الله عليه وآله: لتأمرن بالمعروف ولتنهَوُنَّ عن المنكر وإلا لتحكم عذاب الله فيكم(٣).

ولا يخفى ما في الأدلة المتقدمة من وضوح في القول بالوجوب العيني، إذ أن الذي يقول للناس اعمل كذلك وهو لا يعمل مذمة في حقه عند العقلاء. جاء في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله: لعن الله الآمرين بالمعروف التاركين له، والناهين عن المنكر العاملين به(٤).

أما الذين ذهبوا إلى القول بالوجوب الكفائي فكان استدلالهم مبنياً على أن الأدلة السابقة التي استدل بها القائلون بالعيني، غير تامة، إذ الظاهر منها أنها جاءت تحثّ على الوجوب الكفائي، كما في حالة البذل أو العطاء المادي، نحو لو قال المولى لعبيده أنقذوا هذا الغريق فهم منه مطلوبية الإنقاذ في الجملة لا أن المطلوب قيام جميعهم به، وكذلك إن قال اهدوا هذا الضال أو مروا هذا التارك للآداب أو نحو ذلك.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٠٤.
(٢) الوسائل: ج ١١ ص٤٠٦.
(٣) الوسائل: ج ١١ ص٤٠٧.
(٤) الوسائل: ج ١١ ص٤٢٠.

بالإضافة إلى ظاهر بعض الأدلة الدالة على عدم العموم، منها:

ـ رواية مسعدة بن صدقة سئل أبو عبد الله الصادق عليه السلام عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أواجب هو على الأمة جميعاً؟

فقال عليه السلام: لا.

فقيل له: ولم؟

قال عليه السلام: إنما هو على القوي المطاع العالم بالمعروف والمنكر، لا على الضعفة الذين لا يهتدون سبيلاً.. واستدل الإمام الصادق بقوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[1] فهذا خاص لا عام، كما قال تعالى أيضاً: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾[2] ولم يقل على أمة موسى عليه السلام ولا على كل القوم وهم يومئذ أمم مختلفة[3].

حاصل القول:

لعل الواقف على ما تقدم يفهم جيداً أن الشرع المقدس جعل مسؤولية محاربة المنكر مسؤولية عامة، لأن الإنسان مهما كان مستواه، ومهما كانت مواقفه مسؤول عن إنكار المنكر بكافة وسائله ومختلف أنواعه.

نعم يبقى أن هناك بعض الموارد لا تتطلب الاشتراك في النهي عن المنكر، كأن يكون هناك خمسة أشخاص وواحد منهم لا يصلي، يكفي

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٠٤.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٥٩.
(٣) الوسائل: ج ١١ ص٤٠٠.

في هذا المورد أن يأمره واحد منهم، أو كأن تكون هناك أسرة من أسر الجيران تعمل المنكر، يكفي أن تأمرها أسرة أخرى بالكف عن ذلك، نعم إذا احتاجت محاربة المنكر في جهة من الجهات إلى كل الأفراد أو كل الأسر، أي عمل جماعي في محاربة المنكر لأنه لا يزال إلا بالاتحاد، نقول عندها برجحان الوجوب العيني، ولعل الواقف على حوادث الزمان المعاصر، ويرى فداحة المشكلات الأخلاقية وتزايد الانحرافات الاجتماعية في كل مكان! لا يقول بالوجوب الكفائي لفداحة المشكلة واحتياجها لعلاجات جماعية ومواقف موحدة. وإلا تحققت فينا مقولة رسول الله ﷺ: لا تزال أمتي بخير ما أمروا بالمعروف، ونهوا عن المنكر، وتعاونوا على البر، فإذا لم يفعلوا ذلك نُزعت منهم البركات، وسلط بعضهم على بعض، ولم يكن لهم ناصر في الأرض ولا في السماء[١].

إن الأمة التي لا تتحرك، ولا تنهض بمسؤوليتها، وتترك تكليف الدفاع عن الحق والقانون، يجب أن تتوقع أن الله يُسلط عليها شرار الخلق ممن لا يبالون بأي قانون إلهي أو وضعي، ولا يخافون من الله أصلاً.

٣ ـ مرتبة اليد:

والمقصود به السعي للإصلاح ومحاربة المنكر عن طريق اليد، أي القيام ببعض الأعمال الخيرية وكنس الأعمال السلبية التي تسبب المنكرات في المجتمع، كما لو كان بائع الخمر لا يقلع عن بيعه إلا بكسر أواني خمرته، أو إغلاق محلاته وحوانيته، أو إحراق دكانه، أو لا

(١) الوسائل: ج١٦ ص١٢٣ طبعة أهل البيت عليهم السلام.

يترك فاعل المنكر إلا بضربه تأديباً وردعاً، أو لا ينتهي فاعل المنكر إلا بشيء من القوة، هنا يكون النهي عن المنكر عنواناً لليد. ولا يقال عندها كما فهم بعض الفقهاء إن أدلة حرمة الإيذاء مقدمة على أدلة محاربة المنكر والبغي والفساد في الأرض، لأن الأدلة الآمرة بالمعروف والناهية عن المنكر حاكمة على أدلة عدم الإيذاء، لتقريرات أفعال رسول الله ﷺ في قصة سمرة بن جندب، والرواية كالتالي:

في موثقة زرارة عن أبي جعفر عليه السلام قال: إن سمرة بن جندب كان له عذق في حائط لرجل من الأنصار، وكان منزل الأنصاري بباب البستان، فكان يمر به إلى نخلته ولا يستأذن، فطالبه الأنصاري أن يستأذن إذا جاء فأبى سمرة، فلما أبى جاء الأنصاري إلى رسول الله ﷺ فشكا إليه وأخبره الخبر، فأرسل إليه رسول الله ﷺ وأخبره بقول الأنصاري وما شكا. قال: إذا أردت الدخول فاستأذن فأبى، فلما أبى ساومه حتى بلغ به من الثمن ما شاء الله، فأبى أن يبيع. فقال ﷺ: لك بذلك عذق في الجنة، فأبى أن يقبل.

فقال رسول الله ﷺ للأنصاري: اذهب فاقلعها وارم بها إليه فإنه لاضرر ولا ضرار[١].

كما أن هناك حوادث على زمن الإمام علي عليه السلام والأصحاب (رضوان الله عليهم)، المتشرعة فعلوا ذلك بدون تحرز أن تكون هناك أضرار بالآخرين، وبدون الضمان في حال الإتلاف لأنها أضرار بالآخرين.

كما أنه لو استلزم النهي عن المنكر الضرب غير الجارح فلا

(١) الوسائل: ج٢٧ ص١٩٠.

إشكال في جوازه كما صرح بذلك صاحب الموسوعة، للإطلاقات والأدلة الخاصة الدالة على النهي عن المنكر يداً كما تقدم، بالإضافة إلى أسوة ولا ضمان في الاسوداد والاحمرار وما أشبه، ومن هذا الباب تأديب الطلاب، ولذا جرت السيرة بذلك من غير نكير.

نعم لو توقف النهي عن المنكر على قتل فاعل المنكر، فهل يجوز النهي مع احتمال القتل؟

ذهب بعض الفقهاء إلى الجواز كما هو مشهور عن السيد الرضي، والحلبي والعلامة، والشهيد في القواعد.

وذهب آخرون، إلى عدم الجواز إلا بإذن الإمام الجامع لشرائط الفتوى، كما حكي ذلك عن الديلمي، والشهيد الأول، وفخر المحققين، والكركي، وصاحب المسالك وصاحب الموسوعة وغيرهم من المعاصرين، إذ أن الإنصاف عدم فهم القتل من أدلة الإطلاقات، التي يستدل بها على الجرح البسيط أو الاحمرار أو السواد وغيرها.

حصيلة القول:

إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر باليد، هو: النهي بالضرب غير المبرح الذي لا يعمل احمراراً ولا اسوداداً ولا يوصل فاعل المنكر إلى القتل، وهذا العمل وفق دليل قاعدة: «لا ضرر ولا ضرار» فتأمل.

هل هناك تدرج في الأمر والنهي؟

لعل من نافلة القول أن نلفت نظر القارئ العزيز إلى أهمية تقديم كل مرتبة على الأخرى، كما سبق ذكره في السطور السابقة، وهل هناك تدرج في كل مرتبة شروعاً بالقلب، ثم اللسان، ثم اليد، أم لا؟

القول الأول: يفهم من كلام بعض الفقهاء، القول بمراعاة التدرج، والذي تحده وتشخصه قاعدة (الضرورات تقدر بقدرها) أي مراعاة نوعية الضرر الذي ينتجه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومثاله: لو أنني إذا قلت لذلك الشخص الذي يرتكب المنكر لا تفعل يقتلني مثلاً، أكتفي حينها بإنكار المنكر بالقلب، كما يفعل المستضعفون في الأرض في محاربة الحكام الظلمة.

القول الثاني: ذهب بعض الفقهاء إلى القول بعدم الترتيب مطلقاً، لأهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إذ أن الأدلة التي ذكرها الفقهاء، من القرآن، والسنة، والعقل، والإجماع، كاشفة عن محاربة المنكر بكافة أشكاله واشتراك المراتب الثلاثة في أمر واحد. جاء عن الصادق عليه السلام قوله: ما جعل الله بسط اللسان وكف اليد، ولكن جعلهما يبسطان معاً، ويكفان معاً[1].

ولعل بعض المواقف الفاسدة لا تنفع معها المواعظ ولا الإرشادات، بل ينفع معها أن تستخدم كافة أسلحة الإصلاح لعل وعسى أن تنتج نتيجة حسنة، فبعض المفسدين لا ينتهي عن المنكر بالمواعظ، ولا الإرشادات، بل لا يردعه إلا القوة والقوة وحدها كافية، وهذا متروك للتشخيص العرفي كل على حسب مكانته وزمانه.

القول الثالث: القول بالترتيب أولى، لأن الأحاديث التي استدل بها في المقام والتي تبين الإطلاقات، تشعرنا بالترتيب، كالحديث القائل: بالقلب، ثم اللسان، ثم اليد، والحديث الذي يشعر منه التشريك بين القلب واللسان، أو بين اللسان واليد، يراد به أنه كلما كان موضع

(١) الوسائل: ج ١١ ص ٤٠٦.

اللسان كان موضع اليد في الجملة، في مقابل أنه إذا لم ينفع اللسان لم يكن مجال إلا اليد، إذ اللازم على الإنسان الذي يريد أن يأمر بالمعروف أن يتدرج في مسلكه وخطواته الشرعية وهي:

١ ـ إرشاد كافة الناس، وأمرهم ونهيهم إذا كان متمكناً من ذلك، لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1].

٢ ـ إرشاد من يتمكن من إرشاده، وأمره ونهيه، لقوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[2].

٣ ـ إرشاد القبيلة أو المجتمع الذي تعيشه، لقوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾[3].

٤ ـ إرشاد الأسرة ومن يكونون في دائرتها. لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[4][5].

شروط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

اشترط الفقهاء في وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عدة شروط إذا توفرت وجب على المكلف القيام به وهي كالتالي:

---

(١) سورة سبأ، الآية: ٢٨.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٠٤.
(٣) سورة الشعراء، الآية: ٢١٤.
(٤) سورة التحريم، الآية: ٦.
(٥) الموسوعة: ج ٤٨ ص ١٩٤.

١ ـ العلم بالمعروف والمنكر:

فإذا أراد أن يأمر أحداً بشيء ويدفعه نحو الإتيان به، لزم أن يكون عالماً بوجوبه أولاً، بأن يكون من ضروريات الدين، أو من المتفق عليه عند جميع العلماء والمجتهدين، فلا يجب الأمر به إذا كانت المسألة خلافية، إذ يحتمل أن يكون الشخص التارك له مقلداً لمن لا يقول بوجوبه، وهكذا إذا احتمل أن التارك للواجب الشرعي إنما تركه لعذر شرعي أو عقلي فلا يجب عليه حينئذ الأمر به.

كما أن وجوب النهي عن المنكر يشترط فيه أن يكون الناهي عالماً بحرمة ذلك المنكر الذي يريد النهي عنه، فإذا رأى من يستغيب مسلماً واحتمل أن غيبته من الموارد المأذون بها شرعاً بالنسبة لذلك الشخص، فلا يجب عليه النهي، بل لا يجوز له إذا كان موجباً لهتكه، وفي الجملة فإن ما يريد الأمر به يجب أن يكون عالماً بأنه من المعروف حكماً وموضوعاً، وما يريد النهي عنه يجب أن يكون عالماً بأنه من المنكر حكماً وموضوعاً، ويكون ذلك أمراً مسلماً وقطعياً[١].

ولعل ما يقوم به العامة من الناس الذين يتوقعون من أنفسهم أنهم ينهون عن المنكر ويأمرون بالمعروف وهم على غير بصيرة ولا معرفة بموارد المنكر والمعروف، لأنهم يفتقرون لأهم المعرفة الفقهية في الموارد البسيطة فضلاً عن الموارد الكبيرة، يقبح العقل أفعالهم وتصرفاتهم التي أدخلت الاستهتار بهذه الوظيفة الربانية.

قال تعالى منددا بهم: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾[٢].

---

(١) الذنوب الكبيرة: ج١ ص٢٣٤.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٣٦.

٢ ـ احتمال التأثير والفائدة:

إذا احتمل الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر عدم التأثير في أمره أو نهيه لم يجب عليه، لقوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾[١]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾[٢].

ولعل استدلال القائلين بعدم الوجوب إلا في حال العلم بالتأثير محل إشكال، إذ ضعف بعض الفقهاء ما استدل به غيره على ترك الأمر في حال احتمال عدم التأثير، ووجه التضعيف على الآيات هو:

أن حرف (إن) في الآية الأولى مخففة لا شرطية فيسقط التمسك بوجوب الترك في حال احتمال عدم التأثير.

أما الآية الثانية فهي مذيلة بقوله تعالى: ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾، والظاهر من العطف أن كلا الأمرين سبب لا أن كل واحد سبب مستقل، وربما استدل لهذا القول بخبر مسعدة حيث سئل الصادق عليه السلام عن ما جاء عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن أفضل الجهاد كلمة حق عند إمام جائر.

فقال الصادق عليه السلام هذا على أن يأمره بعد معرفته أنه يقبل منه وإلا فلا[٣].

وفي هذا الحديث تأمل ألا وهو: أنه لا دلالة فيه، إذ كلما احتمل التأثير كان محلاً لـ(يقبل منه) إذ الأمر معلق على واقع القبول لا معرفة القبول بالإضافة إلى ما قيل من ضعف السند وعدم الدلالة إذ إنما هو

(١) سورة الأعلى، الآية: ٩.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٦٤.
(٣) الوسائل: ج١١ ص٤٠٠.

بالنسبة إلى السلطان الجائر إذ من الممكن التفريق بينه وبين غيره، حيث احتمال عدم التأثير يعرض الإنسان للضرر البالغ.

ويرجح بعض الفقهاء وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى لو احتمل عدم التأثير، وذلك لإطلاقات الأدلة ولعمل الأنبياء والأئمة عليهم السلام كانوا يقولون ويأمرون في موارد عدم التأثير قطعياً، وتقييد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالعلم والتأثير بعيد جداً[1].

٣ ـ الإصرار على المنكر وترك الواجبات:

أن يكون عامل المنكر مصراً على عمله، تاركاً للواجبات، وذهب بعض الفقهاء إلى القول: أما إذا كان نادماً ومتراجعاً عن المعصية، فمعه يسقط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أي إذا ظهرت عليه علامات الندم والعزم على ترك تلك المعصية سقط الأمر والنهي، إذا كان معلوماً منه ترك الحرام والإتيان بالفعل الواجب[2].

وهذا يقودنا إلى القول بعدم القيام بالنهي عن المنكر إذا قطعنا ـ أي في حال القطع لا الظن أو الاحتمال ـ أن عامل المنكر نادم على عمله وسائر نحو التوبة النصوح، ونادم على أعماله التي ارتكبها.

ولعل قولنا بسقوط الأمر والنهي في هذا المورد بلزوم السعي الحثيث إلى التوبة، أي العزم على التوبة والرجوع إلى الطاعة، وفي حال احتمال عدم الرجوع والندم والتوبة من عامل المنكر، لم يسقط وجوب الأمر والنهي، لأن السقوط إنما هو بالتوبة بالإضافة إلى الإقلاع عن المنكر نهائياً، فلو ترك المنكر لأنه أدخل عليه ضرراً جسمياً كأن

---

(١) الموسوعة الفقهية: ج ٤٨ ص ١٨٢.

(٢) الذنوب الكبيرة، مصدر سابق: ص٢٣٥.

نصحه الطبيب بعدم شرب الخمر وإلا مات، فإذا أقلع عنها بهذا السبب لا يتحقق فيه الإقلاع فيجب حينها نهيه وأمره.

٤ ـ أن لا يترتب على الأمر والنهي مفسدة وضرر:

يراد في هذه المسألة احتمالات فقهية وهي:

١ ـ يجب الأمر والنهي في صورة عدم الضرر مطلقاً.

٢ ـ يجب الأمر والنهي وإن ترتب الضرر.

٣ ـ التفصيل بين الضرر اليسير والكثير.

٤ ـ التفصيل بين المهم والأهم ومراعاة الضرر.

لكل رأي مما تقدم دليل يرجحه، ولكوننا لسنا في صدد نقاشها وترجيحها أو طرحها، نقول:

يميل بعض الفقهاء للقول بالأمر والنهي حتى مع وجود الضرر لترجيح الأدلة القائلة بذلك، إذ أن الكيان الإسلامي والقيم الأخلاقية، والحفاظ على الجيل لا تكون إلا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى وإن تطلب ذلك وجود ضرر على الأمر، ولعل لنا بتاريخ وسيرة وأعمال الأنبياء والأئمة عليهم السلام قدوة وأسوة حسنة ودليل على ذلك.

وإن قلت ماذا نصنع بالآية القائلة: ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[١].

نقول: ورد في تفسيرها أن عدم الجهاد تهلكة، والأمر والنهي نوع من الجهاد، وكمطلقات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بعد عدم تسليم تقييدها بما ذكر من المقيدات[٢].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٩٥.

(٢) الموسوعة الفقهية: ج ٤٨ ص١٨٦.

أما الحديث الذي استدل به القائلون بالوجوب حتى مع احتمال الضرر فهو: عن أمير المؤمنين عليه السلام: إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يقربان أجلاً ولا يقطعان رزقاً[١].

إن الحديث لا يدلل على عدم الضرر فيهما (أي الأجل + الرزق)، فيخرج الحديث عن مورد الاستدلال، وإلا لا بد من تأويله إلى عدم سقوط التشريع، وتوضيحُه، أنا نعلم أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يسببان قطع الرزق في بعض الأحيان، فاللازم إما رفع اليد عن أصل هذا الحديث، وإما تأويله بأنهما ليسا محكومين بحكم المقرب للأجل، والقاطع للرزق حتى لا يجبان، فهو من قبيل «لا شك لكثير الشك» أي لا حكم لشك كثير الشك، وهنا «لاحكم بالسقوط للمقرب والقاطع» فهما إذا كانا محكومين بحكم المقرب والقاطع، لم يجبا، لكن الشارع لا يحكم عليهما بهذا الحكم، ولذا فهما على وجوبهما، وهذا التأويل أولى من تأويل الحديث بأن المقرب والقاطع، الأمور الخارجية كالحسد والوشاية والكبرياء في المأمور والمنهي لا مجرد الأمر والنهي... ويؤيد الوجوب حتى مع احتمال الضرر لأعمال الأنبياء والأئمة عليهم السلام وأصحابهم(رضي الله عنهم) الذين كانوا يلاقون في سبيل الأمر والنهي أنواع القتل والسجن والأذى[٢].

محصلة القول:

إن النصوص الخاصة والعامة في هذا المقام تشعرنا بعدم القيام بوظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إلا إذا أمن القائم بهذه الوظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الضرر على نفسه وماله

---

(١) الوسائل: ج١١ ص٣٩٥.

(٢) الموسوعة: مصدر سابق.

وعرضه، وحفظ كرامته للتمسك بقوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾[1].

والتهلكة هنا، تأخذ معانٍ متعددة أهمها معنيان هما:

١ ـ إن عدم القيام بالواجبات، والانتهاء عن النواهي يوجبان هلاك الإنسان في الدنيا والآخرة، ويدخل تحت هذا العنوان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي يحفظ لنا كيان الإسلام والمبادئ والقيم والأخلاق.

٢ ـ إن القيام ببعض الواجبات الشرعية كالصلاة أو الصيام أو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع وجود الضرر على المكلف يوجب سقوطه في التهلكة الدنيوية والأخروية بمخالفته الشرعيات التي أسقطت عنه ذلك الحكم، وهذا أقرب للقول بعدم القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع احتمال الضرر على الإنسان من حاكم ظالم أو شخص يعمل المنكر إذا نهيته ضربك وعرضك للقتل أو السلب.

ويؤيد هذا القول سيرة رسول الله ﷺ والأئمة عليهم السلام فقد صالح النبي ﷺ الكفار والبغاة بالخصوص صلح الحديبية، وفعله الإمام علي عليه السلام في صفين وبعض المواقف مع معاوية، وفعله الإمام الحسن عليه السلام مع معاوية في الصلح الذي أطر بشروط لم يفِ بها معاوية.

وإن عورضنا بأن الحسين عليه السلام قام بثورة ولم يقف تلك المواقف؟

فنقول: إن الحسين عليه السلام فعله يحتمل وجهين:

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٩٥. راجع مجمع البيان الطبرسي: ج٢ ص٣٦.

أحدهما: أنه ظن أنهم لا يقتلونه لمكانته من رسول الله ﷺ.

ثانياً: أنه غلب على ظنه أنه لو ترك قتالهم قتلوه، كما فعل ابن زياد في الكوفة بمسلم بن عقيل، فكان القتل، والشهادة مع عز النفس والحفاظ على بيضة الإسلام أهون عليه.

ولأجل أن يتضح لنا المطلب نورد جواب الإمام الحكيم (قدس) كتأييد وشاهد على ما ذهبنا إليه:

يقول: إن شروط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر التي ذكرناها وذكرها الفقهاء رضوان الله عليهم، إنما هي شرائط للنهي عن المنكرات المتعارفة كترك الصلاة وشرب الخمر، وأكل الأموال، وغير ذلك، مما لا يمس أساس الدين وبيضة الإسلام، أما المنكرات التي يخشى من وقوعها على أساس الدين، فيجب مكافحتها والتضحية في سبيل المحافظة على أصل الدين، وأساسه بكل غال ونفيس بالنفس والنفيس، كما وجب الجهاد في كثير من الأعصار والأمصار حفظاً لبيضة الإسلام وكيان الدين[١].

نعم يجب عدم مراعاة الضرر المشكوك أو الوهمي، أو الضرر القليل الذي لا يعتني به العقلاء ولا يعتبره العرف ضرراً. فعندها يتحقق فينا قول رسول الله ﷺ:

لا يوجبون أمراً بمعروف ولا نهياً عن منكر إلا إذا أمنوا الضرر، يطلبون لأنفسهم الرخص والمعاذير... إلى أن قال: هناك يتم غضب الله عليهم فيعمهم بعقابه[٢].

---

(١) مجلة الأضواء، العدد ٢ السنة الثالثة.

(٢) الوسائل: ج ١١ ص ٤٠٢.

ومع كل ما تقدم لا ينبغي للأمة بمختلف شرائحها، أن تترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بالخصوص في هذا الزمان المشؤوم الذي تكالب فيه الأعداء على الأمة الإسلامية، فأصبحت الحياة تنادي (وا إسلاماه)، يجب على الطبقات المثقفة والواعية في الأمة تشجيع المعروف في المجتمع بكل الوسائل، ومحاربة المنكر بكل الوسائل.

صور خاطئة لتطبيق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

لا يحق لأحد من الناس أن يتعرض للنهي عن المنكر إلا للمنكرات التي ترتكب علانية وجهراً في الوسط الاجتماعي أو الأسري، وليس كل من اقتنى لنفسه عمامة أو تاجاً للوجاهة، أو بِطانة للعالم أو مؤسسة دينية، ثم ينطلق يرتكب الجرائم والجنايات، ويعتدي على الأعراض ويسلب الأموال بحجة الحقوق الشرعية، ويقتحم ويتجسس على الآخرين في أقوالهم وأفعالهم، ويمنع إقامة الواجبات الدينية والأخلاقية بحجة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وسجل تصرفات بعض المتشدقين بالدين سواء كانوا طلبة علم أو عامة من الناس، حافلة بمثل هذه الأخطاء!!

شاهد في المقام:

يقال إنه في عهد رئاسة المرحوم النجفي الأصفهاني(، جاءه يوماً جمعٌ يطلقون على أنفسهم اسم الطلبة (طلبة العلوم الدينية) ولكنهم لم يكونوا طلبة حقيقيين، لأن الطلبة الحقيقيين لا يتورطون في أمور كهذه ولا غيرها مما يشينهم أو ينقص من مهابتهم العلمية أو الدينية أو الاجتماعية ـ وهم يلهثون ويحملون طبلاً ممزقاً ودفاً محطماً. فتلقاهم المرحوم يسألهم ما الخبر؟ من أين أنتم قادمون؟ ما هذه بأيديكم؟

فقالوا: كنا في المدرسة، فقيل لنا إن في أحد البيوت التي تبعد

قليلاً عن المدرسة حفلة عرس يضربون فيها بالطبول والدفوف، فسعينا للوصول إلى ذلك البيت بالقفز من سطوح البيوت المجاورة، وهاجمنا الحفل، وضربنا الحاضرين، وحطمنا أدوات اللهو. وتقدم واحد منهم متباهياً بأنه قد صفع العروس صفعة شديدة فرد عليه المرحوم: حقاً هذا هو النهي عن المنكر الذي قمتم به؟

لقد ارتكبتم عدداً من المنكرات بنهيكم هذا عن المنكر..

فأولاً: كان الحفل حفلة عرس. ويجوز في الأعراس ما لا يجوز في غيرها.

وثانياً: لم يكن لكم أن تتجسسوا على أحد، لأنه لا يجوز التجسس إلا بمسوغ شرعي أي بإذن الحاكم الشرعي لمصلحة الإسلام، وإلا على المؤمنين والمسلمين لا يجوز مطلقاً.

وثالثاً: بأي حق تسلقتم فوق أسطح الناس؟

رابعاً: من الذي أذن لكم بالذهاب إلى هناك ومهاجمة الناس بالعنف؟

المصادر

- القرآن الكريم.
- آداب المتعلمين، الطوسي.
- آداب المفيد والمستفيد، العاملي.
- أثر التفكك العائلي، آل ياسين.
- الاجتمع العائلي، الخريجي.
- إحياء العلوم، الإمام الغزالي.
- أربع مناقشات لإلغاء التلفزيون، جيري ماندر.
- أساسيات الترويح، وزرماس والحياري.
- الأسرة المسلمة، أمل حسن.
- الأسرة والتلفزيون، كجك.
- الأسرة والحياة العائلية، الخولي.
- الأسرة والمجرم، لبورت.
- الإسلام في حياة المسلم، د. البهي.
- الإسلام مجتمع أفضل، صادق العبادي.
- الإسلام وطرق التغلب على الآلام، المؤلف.
- أصول التربية، النحلاوي.
- الأصول المنتزعة، الفارابي.
- أعداء الأمة الإسلامية ودعاتها، المؤلف.

- الإعلام العربي، جان كرم.
- أعلام النساء، كحالة.
- الأمر بالمعروف، الشيخ البهشتي.
- الأمن الاجتماعي، العوجي.
- الانسان حيوان التلفزيون، محسن محمد.
- البث المباشر، ناصر العمر.
- بحار الأنوار، المجلسي.
- تاج العروس، الزبيدي.
- التربية الإسلامية، نادر الملاحي.
- التربية عبر العصور، عبد الله عبد الدايم.
- التشريع الجنائي، عودة.
- تفسير الزمخشري، الزمخشري.
- تفسير القرطبي، القرطبي.
- تفسير الميزان، العلامة الطباطبائي.
- ثمرات الأوراق، الحموي.
- جامع بيان العلم، القرطبي.
- جريدة البلاد في عددها ١٠٧٠٠ بتاريخ ٨/٥/١٤١٤هـ.
- جريدة الرياض، عدد ٩١٦٣ بتاريخ ٧/٢/١٤١٤هـ.
- جريدة المدينة في عددها ١١٣٠٨ بتاريخ ٥/١٠/١٤١٤هـ.
- جريدة المسلمون، العدد ١٨٧.
- الجريمة، أبو زهرة.
- الجريمة والمجتمع، سامية الساعاتي.
- الجنس والزواج، مكسين ديفين.
- حقوق المرأة، مطهري.

ـ حكايتي مع شغالتي، بثينة العراقي.
ـ الحياة، الشيخ الحكيمي.
ـ الحياة الزوجية، بعض الباحثين.
ـ الخدم ضرورة أم ترف، بعض الباحثين.
ـ الخمر حرمتها ومضارها على الإنسان، المؤلف.
ـ دراسات في مكانة الأستاذ، نخبة من العلماء.
ـ دروس في علم الإجرام، عمر سعيد.
ـ الدعاية السياسية، دورندان.
ـ رباعيات القرن العشرين، الشيخ سعيد أبو المكارم.
ـ رسائل الجاحظ، الجاحظ.
ـ رسالة الحقوق، الكبنجي.
ـ السرائر، ابن إدريس.
ـ صحيفة الأهرام، عام ١٩٨٤، العدد ١٧.
ـ الطفل بين الوراثة والتربية، الشيخ الفلسفي.
ـ الظاهرة الإجرامية في المجتمع السعودي، محمد السيف.
ـ العقوبة، البهنسي.
ـ علم الاجتماع، الجنائي.
ـ علم الاجتماع العائلي.
ـ علم الإجرام، رمسيس.
ـ علم النفس الاجتماعي، ستيفان وليفاسير.
ـ علم النفس الجنائي، محمد فتحي.
ـ عوامل التسرب الدراسي، المهنا.
ـ عيون أخبار الرضا.
ـ غرر الحكم، الآمدي.

- الغناء في الأعراس، الشيخ صراع الدهيم.
- فقدان الوعي طريق الدمار، المؤلف.
- الفضائيات، الإمام الشيرازي.
- فلسفة التربية، فيليب فيكنس.
- فن القراءة، عز الدين فرح.
- القاموس المحيط، الفيروزآبادي.
- قصص العلماء، الحكيمي.
- قصص العلماء، الشيرازي.
- كنز العمال، الهندي.
- كيف تؤثر وسائل الإعلام، الحصيف.
- لسان العرب، ابن منظور.
- اللمعة الدمشقية، الشهيد الأول.
- المجرمون، سعد المغربي وأحمد الليثي.
- مجلة الأسرة، العدد ٤٠ لعام ١٤١٧هـ.
- مجلة الحضارة السورية، العدد الثامن.
- مجلة عالم المعرفة، العدد ٢٤٣.
- مذكرة المنطق، الشيخ الفضيلي.
- المرأة مشكلات وحلول، المؤلف.
- المرجع في التربية، نخبة من العلماء.
- مسند الإمام أحمد.
- المسؤولية الجزائية في الإسلام، السيد هاشم معروف.
- مفاهيم جديدة لتطوير التعليم، الشيخ شحاته.
- المقدمة، ابن خلدون.
- مكارم الأخلاق.

- المكاسب المحرمة، الشيخ الأنصاري.
- من توجيهات الإسلام، الشيخ شلتوت.
- من الفقه السياسي في الإسلام، الشيخ الظالمي.
- من لا يحضره الفقيه، الطوسي.
- الموسوعة الفقهية، الإمام الشيرازي.
- موسوعة الفكر التربوي، ابن جماعة نموذجاً، شمس الدين.
- الموسيقى والغناء، النابلسي.
- ميزان الحكمة، الري شهري.
- نزهة الجليس، عباس نور الدين.
- نظام الأسرة في الإسلام، عقلة.
- النظام التربوي في الإسلام، الشيخ القرشي.
- النظام الغذائي والجريمة، ميتشوبيشي، تعريب د.البدري.
- النظرية الاجتماعية، الأعرجي.
- النظرية العامة للجريمة، العوجي.
- نهج البلاغة.
- الوسائل، الحر العاملي.
- الوقت الحياة، نوير.

صدر للمؤلف

مطبوع:

١ ـ الخمر حرمتها ومضارها على الإنسان.

٢ ـ الدين في منظار الغرب.

٣ ـ فقدان الإيمان طريق الدمار.

٤ ـ أعداء الأُمة ودعاتها بين النظرية والتطبيق.

٥ ـ المراهقة مشكلات وحلول.

٦ ـ العوامية مجد وأعلام ج١.

٧ ـ الجزء الأول من موسوعة مشاهير بلادي (الشيخ النمر جهاد وعطاء).

٨ ـ ليلة القدر انعطافة تغييرية.

٩ ـ المرأة: مشكلات وحلول.

١٠ ـ القطيف ومحلقاتها: أبعاد وتطلعات.

١١ ـ الإسلام وطرق التغلب على الآلام.

١٢ ـ فقدان الوعي طريق الدمار.

تحت الطبع:

١ ـ المرأة والوعي الإنمائي.

٢ ـ المرأة وتغيير الهوية (الموضة، والزينة نموذجاً).

٣ ـ مقالات إسلامية.

٤ ـ جدلية الأفضلية عند الشيعة الإمامية.

٥ ـ الفكر الإسلامي عقائد ومفاهيم.

كتب مخطوطة:

١ ـ الحجاج في سطور.

٢ ـ النواهي الشرعية بين الحقيقة والخيال.

٣ ـ ابن سينا حياته وعصره.

٤ ـ الجزء الثاني من مشاهير بلادي (الشيخ جعفر أبو المكارم خلاصة الفقهاء والمجتهدين)

٥ ـ العامة وطالب العلم.

٦ ـ هكذا رأيت الغرب.

٧ ـ رواسب الماضي.

٨ ـ الفكر الإسلامي عقائد ومفاهيم.

٩ ـ الشائعات طريق الدمار.

١٠ ـ من هم عباد الرحمن؟

١١ ـ مستشفيات أم مجازر.

١٢ ـ دراسات في علم الكلام، دراسة مبسطة في المدارس الكلامية.

١٣ ـ الخطابة في القطيف، تحت البحث والدراسة والتنقيب، وصدر منه الحلقة الأولى (الخطابة في العوامية).

١٤ ـ الحداثة من أين وإلى أين؟

١٥ ـ الشيخ حسين صالح الداعية المثالي.

١٦ ـ قصتي مع الأفعى (قصة قصيرة).

١٧ ـ خلوة عاشق (مجموعة قصصية).

١٨ ـ رجال القضاء في القطيف.

١٩ ـ الحركة العلمية في القطيف.

٢٠ ـ رسالة في التجري.

٢١ ـ تبسيط قواعد اللغة العربية للمبتدئين.

٢٢ ـ الأراجيز الفقهية، والأصولية، والبلاغية، والأدبية لعلماء القطيف.

٢٤ ـ المساجد: منطلقات تغييرية.

الفهرس

الفصل الأول: تعريف الجريمة ٥

مدخل للتعريف ٧

فقدان الأمن ما هو؟ ١٠

تعريف الجريمة ١١

مفهوم الجريمة عند الجنائيين ١٢

نظرية النسبية في الجريمة ١٣

أسباب الانحرافات الاجتماعية ١٧

مفهوم السببية في الانحراف ١٩

ملخص نظرية المدرسة التقليدية ٢١

ملخص نظرية المدرسة الجغرافية ٢١

ملخص نظرية المدرسة الاجتماعية ٢٢

ملخص نظرية المدرسة النفسية ٢٣

ملخص نظرية الطاقة الغريزية الزائدة ٢٥

ملخص نظرية النظام الغذائي والجريمة ٢٧

النظرية الإسلامية لمسببات الجريمة ٣٥

مجاميع الفقه ونظرتها للمسببات ٣٩

الفصل الثاني: الجريمة والعوامل الاجتماعية ٤١
الجريمة والعوامل الاجتماعية ٤٣
الجريمة عند علماء الإجرام ٤٤
الجريمة أسباب وتقسيمات ٤٥
العوامل الداخلية للجريمة ٤٥
١ ـ التكوين العقلي والطبيعي للمجرم ٤٥
٢ ـ عامل الوراثة ٤٨
نظرة الإسلام إلى عامل الوراثة ٤٩
نظريات القرآن في المعالجة الانحرافية ٥٣
الفصل الثالث: الأسرة وبواعث الجريمة ٥٥
الأسرة وبواعث الجريمة ٥٧
مجتمع الأسرة ٥٧
الأسرة من منظور قرآني ٥٩
السنة المطهرة مصدر ثانٍ للتربية الإسلامية ٦٠
الأعرابي نموذجاً للتربية القرآنية ٦١
الأسرة وبواعث الجريمة ٦٤
الظروف العائلية تسبب ظاهرة الإجرام ٦٦
نماذج من التفكك الأسري ٧٣
الفصل الرابع: الطلاق وبواعث الانحراف الاجتماعي ٨٥
الطلاق من بواعث الجريمة الاجتماعية ٨٧
الطلاق معناه ومشروعيته ٨٧
تعريف الطلاق ٨٧
مشروعيته ٨٩
مسوغات الطلاق الشرعي ٩٠

ظاهرة الطلاق: المشكلات والعلاج ٩١
ماهية التفكك الأسري ٩٢
ارتفاع معدلات الطلاق ٩٤
بواعث التفكك الأسري (الطلاق) ٩٧
الأسباب والنتائج ٩٨
أولاً: الأسباب التي تعود للزوجين أنفسهما ٩٨
١ ـ ضعف الوازع الديني ٩٨
٢ ـ ضعف الشخصية في الزوج أو الزوجة ٩٩
٣ ـ الخيانة الزوجية ١٠٠
٤ ـ انعدام الكفاءة بين الزوجين ١٠٣
ثانياً: الأسباب (الفردية) التي ترجع إلى الزوجة ١٠٣
١ ـ ميل بعض الزوجات إلى التبذير ١٠٣
٢ ـ إهمال الزوجة لأمر بيتها الأسري ١٠٣
٣ ـ الأمراض المزمنة والخطيرة ١٠٤
٤ ـ الخلافات من جانب أهل الزوجة ١٠٤
٥ ـ عمل المرأة خارج المنزل ١٠٥
ثالثاً: الأسباب الخاصة بالزوج ١٠٦
رابعاً: التوترات الجنسية بين الزوجين ١٠٩
النتائج السلبية للطلاق ١١٠
١ ـ الآثار النفسية ١١١
٢ ـ الآثار الاجتماعية ١١٢
الحلول العملية للطلاق ١١٣
أولاً: في العوامل التي تخص الزوجين ١١٤
ثانياً: مسؤولية الإنسان تجاه أسرته ١١٥

النشوز والعنف الأسري ١١٩
النشوز والصدمة ١٢١
العنف الأسري والاعتداء الجنسي ١٢٣
الفِقه ونظرته للنشوز ١٢٦
النشوز في اصطلاح الفقهاء ١٢٧
النشوز والخدمة المنزلية من منظور فقهي ١٣٢
الزوجة والخدمة المنزلية طمعاً في الثواب ١٣٥
تقسيم العمل بين الزهراء وعلي ١٣٦
آداب النشوز الشرعية ١٣٧
١ ـ الوعظ ﴿فَعِظُوهُنَّ﴾ ١٣٧
٢ ـ الهجران ﴿وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ﴾ ١٣٩
٣ ـ الضرب ﴿وَاضْرِبُوهُنَّ﴾ ١٤٠
نشوز الزوجين خلاف بينهما ١٤١
أسباب الخلافات الزوجية (النشوز) ١٤٥
الأسباب الباعثة على الخلاف ١٤٦
١ ـ العوامل الايديولوجية ١٤٦
٢ ـ العوامل الأخلاقية السلوكية ١٤٨
نظرة الإسلام للزوجين ١٥٠
٣ ـ اللامبالاة في العلاقات ١٥٣
سوء الظن معول التفكك الأسري ١٥٦
شاهد واقعي على ذلك ١٥٦
نموذج آخر ١٥٧
٤ ـ العوامل الاقتصادية ١٥٩

الفصل الخامس: الانحراف والعوامل الاقتصادية (البطالة) ١٦٣
الانحراف والعوامل الاقتصادية (البطالة) ١٦٥
معنى الفقر ١٦٨
الفقر في الفقه ١٦٨
الفقر في الدراسات الاجتماعية ١٦٩
الآثار المدمرة للفقر ١٧٠
الفقر وعلاقته بالانحرافات ١٧٢
دراسات تؤكد تلك الحقيقة ١٧٣
الفقر والجريمة، الأسباب والدوافع ١٧٤
المسكن والانحراف الاجتماعي ١٧٥
ميزانية الأسرة ١٧٦
الأزمات الاقتصادية والأسرة ١٧٨
الحلول العملية للقضاء على ظاهرة الفقر ١٧٨
١ ـ التملك ذو الطابع الخاص ١٧٩
٢ ـ التملك ذو الطابع العام ١٨٠
١ ـ العامل الموضوعي ١٨٠
٢ ـ العامل الذاتي ١٨١
طرق الوقاية من الفقر ١٨١
١ ـ الحث على العمل ١٨٢
٢ ـ تحريم إتلاف المال بأي طريق كان ١٨٢
٣ ـ الكفالة الاجتماعية ١٨٣
٤ ـ الصدقات والزكوات ١٨٤
٥ ـ كفالة الدولة للفقراء ١٨٦
العمل والبطالة والانحراف ١٨٩

تعريف البطالة ١٨٩
نظرة المدارس الاقتصادية والاجتماعية للبطالة ١٨٩
الفصل السادس: العمالة الوافدة من أفدح المشكلات الاجتماعية ١٩٧
العمالة الوافدة من أفدح المشكلات الاجتماعية ١٩٩
العمالة الوافدة ١٩٩
الخادمات نموذج سيئ ٢٠٢
الزهراء (عليها السلام) تطلب خادمة ٢٠٢
ظاهرة الخدم بين السلب والإيجاب ٢٠٥
فداحة المشكلة أين؟ ٢٠٧
مشكلات الخدم قصص واقعية ٢٠٩
الفصل السابع: وسائل الإعلام والانحرافات ٢١٣
وسائل الإعلام والانحرافات ٢١٥
ما هو الإعلام؟ ٢١٥
الإعلام والانحرافات ٢١٧
جولة في الإعلام العربي والإسلامي ٢٢١
الصحافة والانحرافات ٢٢٥
أثر التلفاز والسينما في الانحرافات ٢٢٧
دراسات معمقة تثبت ذلك ٢٣٠
التليفزيون والانحرافات ٢٣٢
أمريكا تحاكم التلفزيون ٢٣٦
التأثيرات السلبية على المشاهدين ٢٣٨
١ ـ التأثير العقيدي ٢٤٠
٢ ـ التأثير الثقافي ٢٤١
٣ ـ التأثير السياسي ٢٤٥

٤ ـ الأثر الأمني ٢٤٧

٥ ـ الأثر الأخلاقي ٢٥٠

بعض الأضرار الاجتماعية ٢٥١

أ ـ شيوع الرذيلة ٢٥١

ب ـ تفجير الغرائز ٢٥٣

ج ـ الإثارة الجنسية ٢٥٦

٦ ـ الأثر الاجتماعي ٢٥٨

الفضائيات والإنترنت والعنف الاجتماعي ٢٦١

الفضائيات ومعاكسة النساء ٢٦٢

قصة واقعية ٢٦٥

الفضائيات والدعارة الاجتماعية ٢٦٦

الآثار المدمرة للفيديو ٢٦٧

الفيديو والفنادق ٢٦٨

عصابات نسائية للفيديو ٢٦٩

الفيديو أشد فتكاً من المخدرات ٢٧٠

الأثر الجسمي ٢٧١

ماذا يقول العلم في آثاره الضارة؟ ٢٧٢

أضرار ضوء التلفزيون على الجسم ٢٧٢

العلاجات العملية لظاهرة الإعلام المُفسد ٢٧٤

حلول عملية سريعة لظاهرة الإفساد الإعلامي ٢٧٥

١ ـ التعاون المشترك ٢٧٥

٢ ـ الضغط على الدول المصدرة ٢٧٦

٣ ـ إعلان الغضب على استيراد الفضائيات ٢٧٦

٤ ـ فضح الجهات المسؤولة ٢٧٦

٥ ـ التشجيع على إيجاد البديل ٢٧٧
٦ ـ الاهتمام بالمراهقين ٢٧٨
٧ ـ إشاعة الأخلاق الفاضلة ٢٧٩
٨ ـ إصلاح المناخات الاجتماعية ٢٨٠
٩ ـ التشويش على الأفلام اللاأخلاقية ٢٨٠
١٠ ـ الخطابة ومسؤولية التوجيه ٢٨١
١١ ـ إيجاد البدائل ٢٨١
الكتب والصحف والمجلات والانحرافات ٢٨٣
القراءة منطلق التغيير ٢٨٣
إديسون والقراءة ٢٨٤
أهمية القراءة عند الفلاسفة والكتاب ٢٨٥
العالم والخليفة والكتب ٢٨٦
الكتاب والقراءة في منظار الغربيين ٢٨٧
القراءة والروافد الفكرية العلمية ٢٨٨
ماذا يقرأ الشباب والشابات ٢٩٠
ضحايا الحب أولى بالقراءة ٢٩٢
القراءة والانحرافات ٢٩٣
الفصل الثامن: الفراغ والانحرافات ٢٩٧
الفراغ والانحرافات ٢٩٩
مفهوم أوقات الفراغ ٢٩٩
قيمة الوقت في الحياة ٣٠٠
أوقات الفراغ والانحرافات ٣٠١
تزايد الجريمة والانحرافات بسبب الفراغ ٣٠٢
انتشار الجرائم بسرعة مذهلة ٣٠٤

الفراغ وانهيار الأسرة أخلاقياً ٣٠٥
أوقات الفراغ والترويح في الحضارات القديمة ٣٠٧
نقص وسائل الترويح والترفيه ٣١٠
١ ـ سماع ومشاهدة الفضائيات الغنائية ٣١٣
مدار الحكم في حرمة الغناء ٣١٤
هل للعرف مدخلية في التشخيص؟ ٣١٥
أدلة حرمة الغناء ٣١٦
١ ـ القرآن الكريم ٣١٧
إيرادات على الآية وتفسيرها ٣١٧
الروايات المشعرة بحرمة الغناء ٣٢١
مناقشة علمية في الروايات المروية في مقام الحرمة ٣٢٢
الحرمة مع الاستثناء فيها ٣٢٣
استثناء المراثي والقرآن ٣٢٣
الإيراد على الروايتين ٣٢٤
استثناء الحداء من الحرمة ٣٢٥
استثناء الغناء في الأعراس ٣٢٦
قيادة السيارة بتهور (التفحيط) ٣٢٧
مُفحط يؤكد قول الدراسة ٣٢٨
بعض طرق استثمار الوقت ٣٢٩
الفصل التاسع: الرفقة والانحرافات ٣٣١
الرفقة والانحرافات ٣٣٣
المرء على دين خليله ٣٣٤
الرفقة والانحرافات ٣٣٥
الدراسات العلمية تثبت التأثيرات ٣٣٧

المتابعة لهم حيطة وحذر ٣٣٨
رفيق السوء دمر حياتي ٣٤١
الفصل العاشر: المدرسة والانحرافات (المعلم والتعليم أنموذجاً) ٣٤٣
المدرسة والانحرافات (المعلم والتعليم أنموذجاً) ٣٤٥
المدرسة والانحرافات ٣٤٥
الروافد التعليمية العائلية ٣٤٦
المدرسة البيت الثاني ٣٤٦
وحدوية التربية والمدرسة ٣٤٧
المدرسة منطلقات التنشئة الاجتماعية ٣٤٨
المدرسة والانحرافات ٣٥٠
المدرسة سلاح ذو حدين ٣٥٢
حلول سريعة لمشكلات التعليم والمعلم ٣٥٤
مكونات المدرسة الهادفة ٣٥٥
المدرسون (المعلم) ٣٥٥
المعلمون مهندسو النفس البشرية ٣٥٦
منزلة المعلم في الإسلام ٣٥٧
مكانة الأستاذ (المعلم) في القرآن ٣٥٨
مكانة الأستاذ (المعلم) في الأحاديث الشريفة ٣٦٠
مكانة الأستاذ في العصر العباسي ٣٦١
قيمة الأستاذ من قيمة علمه ٣٦١
آداب الأستاذ في نفسه ٣٦٤
آداب المُعلم مع طلابه ٣٦٦
آداب الأستاذ في الدرس ٣٦٨
التلامذة ٣٦٩

أولاً: آدابه في نفسه وهي أمور ٣٦٩
النية الخالصة ٣٦٩
الاهتمام بالتحصيل في كل وقت ٣٧٠
ترك الاهتمام بأمور الدنيا عن التحصيل ٣٧١
ترك التزويج حتى يقضي وطره من العلم ٣٧١
الاقتصار في الصداقة على أهل الصنف ٣٧٢
الحرص على تحصيل العلم ٣٧٣
ملء الفراغ بالعلم والثقافة ٣٧٤
ثانياً: آدابه مع أستاذه ٣٧٤
آداب الخضر (الأستاذ) مع موسى(ع) (التلميذ) ٣٧٥
اختيار الأستاذ ٣٧٨
الأستاذ الأب الحقيقي ٣٧٨
الشريف الرضي (رحمه الله) مع أستاذه ٣٧٩
المبالغة بالاحترام والتجلة للأستاذ ٣٨٠
ضياء الدين العراقي مع الشيرازي ٣٨٠
تقصي أثره والدعاء له ٣٨١
ثالثاً: آداب الطالب في حلقة الدرس ٣٨٢
١ ـ النية الخالصة ٣٨٣
٢ ـ الطهارة ٣٨٣
٣ ـ المواظبة والهمة في التحصيل ٣٨٤
٤ ـ التزام التقوى في كل شيء ٣٨٥
٥ ـ ترك الرياء وحب الظهور ٣٨٦
٦ ـ اللين وترك القسوة ٣٨٦
نماذجُ علمائية في اللين والرفق ٣٨٧

اللين الأسري من العالم ٣٨٨
لطائف صاحب التنباك ٣٨٩
ملازمة العلم بالعمل ٣٩١
نصيحة في المقام ٣٩٣
٧ ـ طالب العلم والتأليف (التصنيف) ٣٩٤
من طلب العُلى سهر الليالي ٣٩٦
المحدث القمي أنموذجاً ٣٩٧
وصاحب الجواهر أنموذجاً ٣٩٧
صاحب مستدرك البحار أنموذجاً ثالثاً ٣٩٧
المجدد الشيرازي(قدس) أنموذجاً آخر ٣٩٨
تجنب إفساد العامة ٣٩٩
أين الخلل؟ ٤٠٠
أخطاء بعض طلبة العلم ٤٠٠
فساد العامة من الخاصة ٤٠٠
من الذي يتحدث عن الطلبة ويبث الشائعات ضدهم؟ ٤٠٣
المناهج التعليمية ٤٠٥
تعريف المناهج التعليمية ٤٠٧
ماذا نريد بالمنهج؟ ٤١٠
قيمة المادة من الوجهة الدينية ٤١١
قيمة المادة من حيث أثرها العملي ٤١٢
المنهج والقيمة الثقافية ٤١٣
المنهج وعلوم التبسيط ٤١٤
القراءة خارج المنهج الدراسي ٤١٥
الفصل الحادي عشر: العلاجات الوقائية من الانحرافات ٤١٧

العلاجات الوقائية من الانحرافات ٤١٩
الحلول العملية السريعة ٤٢٠
١ ـ التربية النفسية والأسرية ٤٢٠
التربية النفسية منذ العصر الجاهلي ومروراً بالإسلام ٤٢١
التربية النفسية في العصر الجاهلي ٤٢١
شعراء الصعاليك ٤٢٢
شعراء المعلقات ٤٢٥
التربية الإسلامية القرآنية ٤٢٩
٢ ـ الوازع الإيماني ٤٣٣
٣ ـ استغلال أوقات الفراغ ٤٣٦
طرق استغلال الوقت ٤٣٨
٤ ـ التعاون على البر والتقوى ٤٣٨
٥ ـ سيطرة الأمن على مرافق الحياة ٤٤١
٦ ـ سيادة القانون على الأفراد ٤٤٢
٧ ـ حاكمية العقوبة الإسلامية ٤٤٤
الغاية من العقوبة ٤٤٥
فكرة العقوبة في الفقه الإسلامي ٤٤٧
تطبيق العقوبة وفق الأحكام الشرعية ٤٤٩
لمحة سريعة لنظام العقوبة الشرعية ٤٥٢
٨ ـ مكافحة المنكرات ٤٥٦
الفصل الثاني عشر: أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ٤٥٩
أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ٤٦١
١ ـ القرآن الكريم ٤٦١
٢ ـ الروايات الشريفة ٤٦٢

مفهوم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ٤٦٣
وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر شرعاً ٤٦٤
موقع الاستدلال من الآية ٤٦٤
دعوى الإجماع على وجوبها ٤٦٧
مراتب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ٤٦٨
١ ـ مرتبة القلب ٤٦٨
ما هو المراد من الإنكار القلبي ٤٧٠
٢ ـ مرتبة اللسان ٤٧١
٣ ـ مرتبة اليد ٤٧٤
هل هناك تدرج في الأمر والنهي؟ ٤٧٦
شروط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ٤٧٨
١ ـ العلم بالمعروف والمنكر ٤٧٩
٢ ـ احتمال التأثير والفائدة ٤٨٠
٣ ـ الإصرار على المنكر وترك الواجبات ٤٨١
٤ ـ أن لا يترتب على الأمر والنهي مفسدة وضرر ٤٨٢
صور خاطئة لتطبيق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ٤٨٦
شاهد في المقام ٤٨٦
المصادر ٤٨٩
صدر للمؤلف ٤٩٥
الفهرس ٤٩٩